تفسير مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير علي الحائري الطهراني

تحقيق

السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتدقيق

محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

المجلد التاسع

والكاظمين الغيظ

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

تفسير
مقتنيات الدرر

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير علي الحائري الطهراني

المجلد السابع

تحقيق

السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتصحيح

محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

الحائري الطهراني، السيد ميرعلي (١٢٧٠ ـ ١٣٥٣ هـ)
تفسير مقتنيات الدرر و ملتقطات الثمر
العنوان والمؤلف: تفسير مقتنيات الدرر / تأليف السيد ميرعلي الحائري الطهراني
تحقيق: محمدوحيد الطبسي الحائري / مراجعة وتدقيق: محمدتقي الهاشمي /
تصحيح: حسين طه نيا
الناشر: قم، دارالكتاب الإسلامي، ٢٠١٢م ـ ١٣٩١ هـ. ش
المجموعة: (١ ـ ١٢ مجلد) لغة الكتابة: اللغة العربية
الموضوع: تفاسير شيعية ـ القرن ١٤ هـ
تسلسل: ١٣٨٨ ٧م ٢٣ح BP ٩٨
تسلسل ديويي: ٢٩٧/١٧٩
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية: ١٨٢٧٥٨٦

با مشاركت و حمايت معاونت امور فرهنگى
وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامى چاپ و منتشر گرديد

الكتاب .... تفسير مقتنيات الدرر (ج ٧)
المؤلف............ السيد مير علي الحائري الطهراني
الناشر............ مؤسسة دارالكتاب الإسلامي
الطبعة............ الأولى ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م
المطبعة............ ستاره
عدد المطبوع............ (٢٠٠٠) دوره
الترقيم الدولي للمجموعة .... ٩ ـ ٢٧٦ ـ ٤٦٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
الترقيم الدولي (ج ٧) .... ٧ ـ ٢٨٣ ـ ٤٦٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
السعر............ ٩٠٠/٠٠٠ ريال

قم ـ ميدان المعلم ـ شارع سمية ـ رقم ٢٢ ـ رقم المبنى ٢٦
تليفون: ٧٧٤٤٩٧٠ ـ ٧٧٣٠٩٩٤ فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

سورة مريم

هي مكية. فضلها: أبيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها أعطي من الأجر بعدد من صدّق بزكريّا وكذّب به ويحيى ومريم وعيسى وموسى وهارون وإسحاق ويعقوب وإسماعيل عشر حسنات وبعدد من دعا لله ولداً ومن لم يدع له ولداً».[1]

وقال الصادق عليه السلام: «من أدمن قراءة سورة مريم لم يمت في الدنيا حتّى يصيب منها ما يغنيه في نفسه وماله وولده وكان في الآخرة من أصحاب عيسى بن مريم وأعطي من الأجر في الآخرة بمقدار ملك سليمان بن داود في الدنيا».[2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾

في «الإكمال» عن الحجّة القائم عجّل الله فرجه في حديث أنّه عليه السلام سئل عن تأويلها فقال: «هذه الحروف من أنباء الغيب اطّلع الله عبده زكريّا عليها ثمّ قصّها على محمّد صلى الله عليه وآله.

وذلك أنّ زكريّا سأل ربّه أن يعلّمه الأسماء الخمسة الطيّبة فأهبط الله جبرئيل فعلّمه إيّاها فكان زكريّا إذا ذكر محمّداً وعليّاً وفاطمة والحسن صلوات الله عليهم

١ـ مجمع البيان. ج ٦، ص ٣٩٧؛ وجامع أحاديث الشيعة. ج ١٥، ص ١٠١، وتفسير نورالثقلين، ج ٣، ص٣١٩.

٢ـ ثواب الأعمال، ص ١٠٨؛ ومجمع البيان، ج ٦، ص ٣٩٧.

أجمعين سري عنه همّه وانجلى كربه وإذا ذكر الحسين عليه السلام خنقته العبرة ووقعت عليه البهرة والحيرة فقال ذات يوم: إلهي ما بالي إذا ذكرت أربعا منهم تسلّيت بأسمائهم من الهموم وإذا ذكرت الحسين تدمع عيني وتثور زفرتي؟ فأنبأه تعالى عن قصّته فقال: ﴿كهيعص﴾ فالكاف اسم كربلا والهاء هلاك العترة والياء يزيد لعنه الله وهو ظالم الحسين والعين عطشه والصاد صبره فلمّا سمع بذلك زكريّا لم يفارق مسجده ثلاثة أيام ومنع فيها من الدخول عليه الناس وأقبل على البكاء والنحيب وكانت ندبته: إلهي أتفجع خير خلقك بولده؟ أتنزل بلوى هذه الرزيّة بفنائه؟ إلهي أتلبس عليّاً وفاطمة ثياب هذه المصيبة؟ إلهي أتحلّ كرب هذه الفجيعة بساحتهم؟ ثمّ كان يقول: إلهي ارزقني ولداً تقرّ به عيني عند الكبر واجعله وارثي ووصيّي واجعل محلّه منّي محلّ الحسين فإذا رزقتنيه فافتنّي بحبّه ثمّ فجّعني به كما تفجع محمّداً حبيبك صلى الله عليه وآله بولده، فرزقه يحيى وفجّعه به وكان حمل يحيى ستّة أشهر وحمل الحسين عليه السلام كذلك».[1]

وفي «المناقب» عنه عليه السلام مثله.[2]

وفي «معاني الأخبار» عن الصادق معنى ﴿كهيعص﴾: «أنا الكافي الهادي الوليّ العالم الصادق الوعد».[3] وعنه عليه السلام: «كاف لشيعتنا هاد لهم وليّ لهم عالم بأهل طاعتهم صادق لهم وعده حتّى يبلغ بهم المنزلة الّتي وعدهم إيّاها في بطن القرآن».[4]

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال في دعائه: «يا كهيعص».[5]

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ أي: هذا ذكر رحمة ربّك وبيان

١ـ كمال الدين، ج ٢، ص ٤٦١؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٣٢٠؛ والاحتجاج، ج ٢، ص ٢٧٣.

٢ـ المناقب، ج ٤، ص ٨٤.

٣ـ معاني الأخبار، ص ٢٢؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٢٧٣.

٤ـ معاني الأخبار، ص ٢٨؛ وبحار الأنوار، ج ٨٩، ص ٣٧٧؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٢٧٣.

٥ـ مستدرك الوسائل، ج ١١، ص ١٠٥، ح ١٢٥٤٢؛ وبحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٤٦١؛ ومجمع البيان، ج ٦، ص ٤٠١.

رحمته لزكريّا ويعني: بالرحمة إجابته إيّاه حين سأله الولد.

وقد اختلف العلماء في حروف المعجم الّتي في القرآن من فواتح السور وقد شرح مفصّلاً في سورة البقرة لكنّ الّذي يختصّ بهذا الموضع ما ذكر في حديثين قبيل هذا عن الحجّة عليه السلام.

وقد روى ابن عبّاس: (أنّ هذه الكلمات ثناء من الله على نفسه وكلّ حرف ينبئ عن معنى مثلاً «الكاف» كفاية الله عبده مثلاً وهكذا). وبعض أنكروا هذا القول ويقولون: لا يجوز أن يودع في معاني الألفاظ ما لا تدلّ عليه اللغة لا بالحقيقة ولا بالمجاز ويقولون: ليست دلالة الكاف على الكافي أولى من دلالته على الكريم أو على الكبر فيكون حمله بعضاً دون البعض تحكّما إلّا أن يكون ورد هذا المعنى والتأويل عن النبيّ صلى الله عليه وآله أو المعصوم فذلك دليل صحيح قاهر.

وبالجملة ففي كلمة «ذكر» أربعة أوجه وبالوجوه يختلف الإعراب والمعنى في الجملة «ذكر» بصيغة المصدر وبصيغة الماضي مخفّفة أو مشدّدة وبصيغة الأمر، أمّا صيغة المصدر فلابدّ من ذكر رحمة ربّك على الإضافة وأمّا صيغة الماضي مشدّدة فلابدّ من نصب رحمة على المفعوليّة ورفع زكريّا على الفاعليّة، وأمّا بصيغة الماضي المخفّف رفع الباء في ربّك على الفاعليّة ونصب زكريّا على المفعوليّة وأمّا صيغة الأمر فلابدّ من نصب رحمة.

والحاصل بناء على أنّ «كهيعص» اسم للسورة فالمعنى هذا المعلوم مسمّى بـ«كهيعص» فهذه الحروف مرفوعة على الخبريّة تقديره: هذا كهيعص وإنّما صحّت الإشارة إليه مع عدم جريان ذكره لأنّه على جناح الذكر فصار في حكم الحاضر كقولك: هذا ما اشترى فلان والحال أنّه بعد ما اشترى أو على أنّه مبتدأ وخبره ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: المسمّى به ذكر رحمة ربّك

ولكنّ الأوّل أولى وعليك بتعبير المعنى على الوجوه الأربعة المذكورة فرحمته سبحانه لعبده زكريّا حين دعا ربّه دعاء خافيا سرّاً غير جهر في نفسه لا يريد به رياء، وفي هذا دلالة على أنّ المستحبّ في الدعاء الإخفاء وأنّ ذلك أقرب للإجابة كما في الحديث: «**خير الدعاء الخفيّ وخير الرزق ما يكفي**».[1]

وقيل: إنّما أخفى دعاءه لئلّا يهزأ به الناس فيقول: انظروا إلى هذا الشيخ الكبير يسأل الولد. وقيل: أسرّه خوفاً من مواليه. وقيل: خفي صوته قهراً لضعفه وهرمه كما جاء في صفة الشيخ: صوته خفات وسمعه تارات.

وإن قيل: من شرط النداء الجهر فكيف الجمع بين كونه نداء وخفيّاً؟

فالجواب أنّه أتى بندائه أقصى ما قدر عليه من رفع الصوت إلّا أنّ الصوت كان ضعيفاً بسبب الكبر فكان نداء بحسب قصده وخفيّاً بحسب الواقع.

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

وقد ذكرنا في الحديث السبب في دعوته الولد وسؤاله من الله قال زكريّا في دعائه حال الصلاة: ربّ إنّ عظمي ضعيف. وإنّما أضاف الوهن إلى العظم لأنّ العظم مع صلابته إذا ضعف فكيف باللحم والعصب، والبطش إنّما يكون بالعظم دون غيره ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي: عمّ الرأس البياض من الشعر وهو نذير الموت، وتلألأ الشيب لكثرة بياضه وغرضه إظهار عجزه وتذلّله لا تعريفا.

١ـ مجمع البيان، ج ٤، ص ٧٧؛ وج ٦، ص ٤٠١.

﴿وَلَمْ أَكُنْ﴾ بدعائي إيّاك فيما مضى من الأيّام مخيبا محروماً وإنّك عوّدتني بحسن الإجابة وما خيّبتني فيما سألتك بل استجبت لي ولم أكن محروماً يقال: شقي فلان بحاجته إذا تعب ولم يحصل مطلوبه.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ الموالي هم الكلالة وقيل: العصبة وقيل: العمومة وبنو العمّ عن أبي جعفرعليه السلام[1] وقيل: بنو العمّ وكانوا أشرار بني إسرائيل وقيل: الورثة وهم الّذين يلونه في النسب. والموالي يراد به الّذين يخلفون بعده إمّا في السياسة والدّين أو في المال الّذي كان له. قيل: إنّه خاف منهم بعده على إفساد الدين. وقيل: خاف أن ينتهي أمره إليهم بعد موته في ماله لأنّهم ما كانوا صالحين.

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى﴾ أي: امرأتي في الحال ذا عقر لا تحول ولودا ففي الأخبار عنها بلفظ الماضي لتقادم العهد وإشعارا بهذا المعنى.

﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ أي: ولداً يلي أمري ويكون أولى بميراثي ﴿يَرِثُنِى﴾ قرئ مجزوما أي: إن تهبه لي يرثني وإن قرأته مرفوعاً جعلته صفة «لولي» والمعنى اجعل لي وليّاً وارثاً لي غير هؤلاء الموجودين وقيل: طلب من يقوم مقامه ولداً كان أو غيره، والأقرب هو الأول يرثني من مالي ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ النبوّة ويرث منّي النبوّة. «يعقوب» هو يعقوب بن ماثان وأخوه عمران بن ماثان أبو مريم أمّ عيسىعليه السلام. وقيل: هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم لأنّ زكريّا كان متزوّجاً باخت مريم ونسبها يرجع إلى يعقوب لأنّ نسبها من ولد سليمان بن داود وهو من ولد يهودا بن يعقوب. وزكريّا من ولد هارون وهو من لاوي بن يعقوب.

واستدلّ أصحابنا بالآية على أنّ الأنبياء يورّثون المال وأنّ المراد بالإرث

١ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٠١؛ وبحار الأنوار، ج ١٤، ص ١٧٥.

المذكور في الآية المال دون العلم والنبوة لأنّ لفظ الميراث في اللغة والشريعة لا يطلق إلّا على ما ينتقل من الوراث إلى الوارث كالأموال ولا يستعمل في غير المال إلّا على سبيل التوسّع والمجاز، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز بغير دلالة.

وأيضاً فإنّ زكريّاعليه السلام قال في دعائه: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي: اجعل يا ربّ ذلك الوليّ الّذي يرثني مرضيّاً عندك ممتثلاً لأمرك ومتى حملنا الإرث على النبوّة لم يكن لذلك معنى وكان هذا الكلام لغواً ألا ترى أنّه لا يحسن أن يقول أحد: اللّهمّ ابعث لنا نبيّاً واجعله صالحاً عاقلا مرضيّاً في أخلاقه وإنّ زكريّا كان يخاف الموالي بسبب عدم استحقاقهم بوراثة المال وإلّا فهو أعلم باللّه أنّه سبحانه لا يبعث من ليس بأهل النبوّة.

فإن قيل: إنّ هذا الخوف إضافة الظنّة والبخل إليه. قلنا: معاذ اللّه لا يمتنع أن يأسي على بني عمّه وأقاربه إذا كانوا من أهل الفساد أن يظفروا بماله فيصرفوه فيما لا ينبغي بل في ذلك غاية الحكمة.

فإذا كان وثبت أنّ الأنبياء يتوارثون ويتورّثون فمن أين ثبت هذا الخبر المطعون فيه حيث حرموا من حرموا؟ وعلى أن يكون خوف زكريّا من وراثة النبوّة والعلم والمال فالآية صريحة أيضاً بوراثة الأنبياء.

والعجب أنّ الرازيّ استدلّ بأنّ لفظ الإرث يستعمل في وجوه: المال والمنصب والنبوّة والسيرة الحسنة كلّها أمّا في المال لقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾[1] وأمّا في العلم فلقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[3]

١ـ سورة الأحزاب: ٢٧.

٢ـ سورة الغافر: ٥٣.

٣ـ سورة النمل: ١٦.

وهذا وراثة الملك والنبوة[1] والعجب من الفاضل أنّه كيف خالط البعض في البعض والحالة أنّ العلم والسيرة والنبوة لا تورّث بل يجعلها اللّه حيث يشاء ويكمل بالاكتساب فوجب حمل الإرث على المال وإذا استعمل في غير المال فذلك توسّع والّذي حمله على هذا المعنى الركيك المخلّ لإيراد ذلك المجعول في مورد الحديث فتأمّل. وفي «الصافي» في قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي: ترضاه قولاً وفعلاً.[2]

القمي: لم يكن يومئذ لزكريّا ولد يقوم مقامه ويرثه وكانت هدا يا بني إسرائيل ونذورهم للأحبار وكان زكريّا رئيس الأحبار وخوف زكريّا كان من أخلاقهم وفعالهم وإنفاقهم ماله في معصية اللّه.[3]

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾

المعنى هاهنا حذف وتقديره: فاستجاب اللّه دعاء زكريّا وأوحى إليه يا زكريّا إنّا نخبرك على ألسنة الملائكة بخبر يرى السرور بذلك الخبر في وجهك وهو أن يولد لك ابن اسمه يحيى، ولم يسمّ أحد قبله باسمه.

وفي هذا الكلام تشريف له من وجهين:

١ـ تفسير الرازي، ج ٢١، ص ١٨٤.

٢ـ الصافي، ج ٣، ص ٢٧٤؛ وبحار الأنوار، ج ٦٤، ص ٣٧٨.

٣ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ٤٨.

أحدهما: أنّ الله سبحانه تولّى تسميته ولم يكلها إلى الأبوين.

والثاني: باسم لم يسبق إلى ذلك الاسم أحد قبله، قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**وكذلك الحسين عليه السلام لم يكن له من سميّ ولم تبك السماء إلّا عليهما أربعين صباحاً قيل له: وما بكاؤها؟ قال: كانت تطلع حمراء وتغيب حمراء وكان قاتل يحيى ولد زنا وقاتل الحسين ولد زنا**».[1]

وروى سفيان بن عيينة عن عليّ بن زيد عن عليّ بن الحسين قال: «**خرجنا مع الحسين عليه السلام فما نزل منزلاً ولا ارتحل منه إلّا ذكر يحيى بن زكريّا وقال يوماً: ومن هوان الدنيا على الله عزّ وجلّ أنّ رأس يحيى أهدي إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل**»![2] وقيل: إنّ معنى قوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ لم تلد العواقر مثله ولداً وهو كقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[3] أي: مثلاً.

واختلفوا في المنادى فقيل: هو الله وذلك لأنّ ما قبل الآية يدلّ على أنّ زكريّا إنّما كان يخاطب الله ويسأله بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ﴾ وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ وقوله: ﴿فَهَبْ لِى﴾ فما بعد الآية وما قبلها يدلّ على أنّه كان يخاطب الله فيلزم أن يكون النداء من الله للترتيب والنظم.

وقيل: هذا نداء الملك والدليل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾[4] وكذلك أنّ زكريّا قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۞ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ وهذا لا يجوز أن يكون كلام الله فوجب أن يكون كلام الملك.

١ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٥؛ وبحار الأنوار، ج ١٤، ص ١٧٥.

٢ـ الإرشاد، ج ٢، ص ١٣٢؛ والمناقب، ج ٣، ص ٢٣٧؛ بحار الأنوار، ج ١٤، ص ١٧٥.

٣ـ سورة مريم: ٦٥.

٤ـ سورة آل عمران: ٣٩.

لكن يمكن الجمع بان يقال: حصل النداء أنّ نداء اللّه نداء الملائكة.

وفي وجه تسميته عليه السلام بيحيى ذكر الثعلبيّ وجوهاً[1]: أحدها عن ابن عبّاس لأنّه أحيا عقر أمّه وقيل: أحيا قلبه بالطاعة والإيمان واللّه سبحانه سمّى المطيع حيّاً والعاصي ميّتاً بقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾[2] وقال: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[3] وإحياؤه بالطاعة حتّى لم يعص ولم يهمّ بمعصية وقيل: استشهد والشهداء أحياء عند ربّهم وقيل: إنّ يحيى أوّل من آمن بعيسى فصار قلبه حيّاً بذلك الأمر وذلك أنّ أمّ يحيى كانت حاملاً به فاستقبلتها مريم وقد حملت بعيسى فقالت لها أمّ يحيى: يا مريم أحامل أنت؟ فقالت: لما ذا تقولين؟ فقالت: إنّي أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك. ولكن هذه الوجوه استحسانات ضعيفة لأنّ أسماء الألقاب لا يطلب فيها وجه الاشتقاق ولهذا قالوا: أسماء الألقاب قائمة مقام الإشارات وهي لا تفيد في المسمّى صفة البتّة.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ قال زكريّا: من أين لي غلام؟

فلو قيل: كيف تعجّب مع أنّه هو الّذي طلب الغلام وبشّر به فكيف يتعجّب؟

فالجواب أنّه قال ذلك لا على وجه الاستعجاب بل مقصوده الاستخبار عن كيفيّة وقوع الأمر لا أنّه تعجّب من قدرة اللّه أو كان شاكّاً في وقوع الأمر بل مقصوده أن يستعلم هل يعادان شابّان أم يرزقان الولد شيخين؟

﴿عَاقِرٌ﴾ لأنّ ما كان على فاعل من صفة خاصّة بالتأنيث ممّا لم يكن

١ـ تفسير الثعلبي، ج ٣، ص ٦٢؛ وتفسير الرازي، ج ٢١، ص ١٨٦.

٢ـ سورة الأنعام: ١٢٢.

٣ـ سورة الأنفال: ٢٣.

للمذكّر أبداً فإنّه لا تدخل فيه الهاء نحو حائض قال الخليل: هذه صفات مذكّرة وصفت بها المؤنّث كما وصفوا المذكّر بالمؤنّث حين قالوا: رجل ملحة وربعة وغلام بقعة. ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ والعاقر هو الّذي غيّره طول الزمان إلى اليؤس وليل عاقر أي: طويل وقد بلغت الكبر حال اليبوس والجفاف. قيل: كان لهﷺ تسع وتسعون سنة.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي: قال اللّه سبحانه: الأمر على ما أخبرتك من هبة الولد على الكبر وردّ قوّتك ﴿عَلَيَّ﴾ أمر ﴿هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ أي: أوجدتك ولم تك شيئاً موجوداً فإزالة عقر زوجتك وإرجاع قوّتك أيسر في الاعتبار من ابتداء الإنشاء.

﴿قَالَ﴾ زكريّا: ﴿رَبِّ اجْعَل لِّي﴾ علامة استدلّ بها على وقت كونه قال اللّه: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾ وأنت سويّ صحيح سالم من غير علّة قال ابن عبّاس: (اعتقل لسانه من غير مرض ثلاثة أيام). قالوا: اعتقل لسانه ثلاثة أيام من غير بأس ولا خرس فإنّه كان يقرء الزبور ويدعو إلى اللّه ويسبّحه ولكنّه لا يمكنه أن يكلّم الناس.[1] واختلفوا في معنى ﴿سَوِيًّا﴾ فقال بعضهم: هو صفة لليالي الثلاث ولكنّ الأكثر قالوا: صفة لزكريّا.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فخرج زكريّا على قومه قيل: كان له موضع ينفرد فيه بالصلاة والعبادة ولمّا يفرغ من عبادته ينتقل إلى قومه فعند ذلك أوحى وأشار إليهم. وقيل: كان موضعاً يصلّي فيه هو وغيره إلّا أنّهم كانوا لا يدخلونه للصلاة إلّا بإذنه وأنّهم اجتمعوا ينتظرون خروجه للإذن فخرج إليهم وهو لا يتكلّم فأوحى إليهم. والمراد بالوحي هاهنا لا يمكن أن يحمل على الكلام بل المراد الرمز والإشارة لأنّ

١ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٠٦.

الكلام كان عليه ممتنعاً فعلم يومه أن قد كان ما بشّر به فكما حصل السرور له حصل لهم وظهر لهم إكرام اللّه تعالى لزكريّا بالإجابة فأشار إليهم وأومأ بيده وقيل: كتب لهم على الأرض أن صلّوا صلاة الفجر وصلاة العصر ويحتمل أن يكون أنّهم كانوا يأتمّون به محرابه في هاتين الصلاتين فلما اعتقل لسانه خرج على عادته وأذن لهم من غير كلام فعرفوا ذلك وإنّما سمّي المحراب محراباً لأنّ المتوجّه إليه في صلاته كالمحارب للشيطان على صلاته والأصل فيه مجلس الأشراف الّذي يحارب دونه ذبّا عن أهله.

وبالجملة فسكت ثلاثة أيام والسبحة استعملت في الصلاة. وعن عائشة في صلاة الضحى: إنّي لأسبّحها.

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾

وصف سبحانه يحيى في هذه الآية وشرّفه بتشريفات أوّلها كونه مخاطباً من اللّه بقوله: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ وهذا تشريف عظيم والكتاب المذكور يحتمل أن يكون هو التوراة الّتي أنعم اللّه بني إسرائيل بها ويحتمل أن يكون كاباً خصّ اللّه يحيى به كما خصّ اللّه كثيراً من الأنبياء بذلك ولكن أطبق المفسّرون أنّ المراد بالكتاب التوراة، ومعنى بقوّة أي: أنت قادر على أخذه قويّ العمل به وخذه بجدّ وصحّة عزيمة على القيام بما فيه.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ والمراد من الحكم قيل: الحكم وهو الفهم في التوراة والفقه في الدين. وقيل: المراد العقل. لكنّ القول الصحيح: المراد من الحكم النبوّة فإنّ اللّه أحكم عقله في حال صباه وأوحى إليه.

وقد بعث سبحانه يحيى وعيسى نبيّاً وهما صبيّان وبعث موسى

ومحمّداً وقد بلغا الأشدّ. والحكم هو ما يصلح لأن يحكم به على غيره على الإطلاق وذلك لا يكون إلّا بالنبوّة.

فإن قيل: كيف يعقل حصول العقل والفطنة والنبوّة حال الصبا.

قيل: إنّ بناء النبوّات على المعجزات، فإنّه ليس استبعاد صيرورة الصبيّ عاقلا نبيّاً أشدّ من استبعاد انشقاق القمر وانفلاق البحر.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ الحنان أصله من الحنين وهو الجزع للفراق كما يقال: حنين الناقة وهو صوتها إذا اشتاقت إلى ولدها ومنه حنّت خشبة الجذع لمّا اتّخذوا له المنبر وتحول إلى المنبر فاستعمل التحنّن على التعطّف والرحمة والحنان في الآية إمّا صفة للّه أو صفة ليحيى فإن كان صفة للّه فالتقدير: وآتيناه الحكم حناناً ورحمة منّا عليه وقيل: معناه تحنّنا منه على العباد ورقّة قلب عليهم. وهذه صفة يحيى ليدعوهم إلى الطاعة. وقيل: معنى تحنّن اللّه عليه كان كلّما كان يحيى يقول: يا اللّه، قال اللّه: لبّيك يا يحيى. وهو المرويّ عن الباقر عليه السلام.[1]

﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي: وآتيناه عملاً مزكّى صالحاً مهذباً بحسن الثناء عليه أو العمل لمن فعل ديته زكاة ومقبولاً أو وجود يحيى صدقة تصدّق اللّه به على أبويه. وقيل: معناه هو بركة ونماء كما قال عيسى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾.[2]

﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ أي: كان يحيى مطيعاً متّقياً لما نهى اللّه عنه قالوا: ومن تقواه أنّه لم يعمل خطيئة قطّ ولم يهمّ بها وإنّما أضاف اللّه كونه زكاة إلى نفسه وهو كان زكيّا ومطيعاً بفعله لأنّه إنّما صار عليه السلام كذلك في حال الصغر بألطاف اللّه ولذا نسبه إلى نفسه.

١ـ الكافي، ج ٢، ص ٥٣٥؛ وبحار الأنوار، ج ١٤، ص ١٦٤.

٢ـ سورة مريم: ٣١.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ أي: باراً محسناً إليهما مطيعاً لهما طالباً مرضاتهما ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾

متكبّراً متطاولاً على الخلق وإنّما وصفه بالبرّ بالوالدين لأنّه لا عبادة بعد تعظيم الله مثل تعظيم الوالدين كما قال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾(١) وإنّما نزّهه عن التجبّر لأنّ رأس العبادات معرفة الإنسان نفسه بالذلّ ومعرفة ربّه بالعظمة فإنّ إبليس لمّا تجبّس تمرّد وصار مبعداً عن الرحمة والجبّار هو الّذي يعاقب على غضب نفسه من غير حقّ ولا يرى لأحد حقّاً على نفسه عن أن يلزمه قضاءه.

﴿عَصِيًّا﴾ مبالغة من العاصي كما أنّ العليم أبلغ من العالم

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ أي: سلام عليه منّا قيل: وسلامة وأمان له ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ من عيث الشيطان وإغوائه إيّاه ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ من بلاء الدنيا ومن عذاب القبر ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ من هول المطّلع وعذاب النار وقوله: ﴿حَيًّا﴾ تأكيد لقوله: ﴿يُبْعَثُ﴾ وقيل: يعني: أنّه يبعث مع الشهداء لأنّهم وصفوا بأنّهم أحياء.

قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الإنسان في ثلاثة مواطن: يوم ولد فرأى نفسه خارجاً ممّا كان فيه ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن رآهم وأحكاماً ليس له بها عهد ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم فخصّ الله سبحانه يحيى بالكرامة والسلامة في المواطن الثلاثة والسلام الأوّل يوم الولادة بفضل وتشريف والثاني والثالث على وجه الثواب والجزاء(٢) وهذا السلام والبشارة يمكن أن يكون من الله وأن يكون من الملائكة وعلى التقديرين فدلالة شرفه وفضله ثابتة لأنّ الملائكة لا يسلّمون إلّا عن أمر الله.

١ـ سورة الإسراء: ٢٣.

٢ـ انظر: مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٠٩؛ أيضاً زاد المسير، ج ٥، ص ١٥١.

وفي هذه الآية دلالة على آداب الدعاء أحدها: نداء خفياً وهو يدلّ على أنّ أفضل الدعاء ما هذا حاله ويؤكّده قوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[1] ولأنّ رفع الصوت مشعر بالقوة وإخفاء الصوت مشعر بالانكسار وعجز النفس.

وكذلك يستفاد من الآية أن يذكر في مقدّمة الدعاء عجز النفس وضعفها كما في قوله تعالى عنه: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

ثمّ يستفاد من آداب الدعاء أنّه أن يكون الدعاء لأجل شيء متعلّق بالدين لا لمحض الدنيا كما قال: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾ وكذلك أن يكون بلفظ يا ربّ.

وأيضاً في هذه القصّة دلالة على أنّ البنية ليست شرطاً في الإيجاد والقدرة والوسائط عند القدرة ملغاة. وأيضاً ردّ على الطباعيين.

وفي «الكافي» عنهم عليهم السلام فيما وعظ الله عيسى عليه السلام: «ونظيرك يحيى من خلقي وهبته لأمّه بعد الكبر من غير قوّة بها أردت بها بذلك أن يظهر لها سلطاني ويظهر فيك قدرتي».[2]

وفي تفسير الإمام في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾[3] قال: «ما ألحق الله صبيا برجال كاملي العقول إلّا هؤلاء الأربعة: عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا والحسن والحسين عليهما السلام».[4]

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ

١ـ سورة الأعراف: ٥٥.

٢ـ الكافي، ج ٨، ص ١٢٧؛ وبحارالأنوار، ج ١٤، ص ٢٩٤؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٣٢٥.

٣ـ سورة البقرة: ٢٨٢.

٤ـ تفسير الإمام العسكري عليه السلام، ص ٦٦١؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٢٧٥.

﴿بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝١٩ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠﴾

هذه قصّة ثانية خارجة عن مناهج العادات وإنّما قدم قصّة يحيى على قصّة عيسى لأنّ خلق الولد من شيخين فانيين أقرب من تخليق الولد من غير أب وأحسن الطريق إلى بيان الأمر الأحد من الأقرب فالأقرب ثمّ إلى الأصعب فالأصعب فعطف قصة عيسى على يحيى عليه السلام فقال سبحانه: وليتله علمك يا محمّد في قرآنك هذا حديث ﴿مَرْيَمَ﴾ وولادتها عيسى وصلاحها في الدين ليقتدي الناس بها وليكون علمك بأحوالها من غير تعليم معلّم معجزة لك ﴿إِذِ انتَبَذَتْ﴾ وانفردت ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ إلى جهة المشرق وقعدت ناحية منهم ولذا اتّخذت النصارى المشرق قبلة، وفلان خلى نبذة من الناس أي: ناحية أي: اتّخذت مكاناً للعبادة متباعدة لئلّا تشتغل بكلام الناس، أو تباعدت عن قومها للعبادة حتى لا يروها.

ثمّ إنّها مع ذلك اتّخذت وجعلت بينها وبينهم ﴿حِجَابًا﴾ وحائلاً أي: جعلت بين نفسها وبينهم ستراً. وقيل: إنّها لما رأت الحيض تباعدت عن مكانها المعتاد المَعدّ للعبادة لكي تنتظر الطهر فتغتسل ثمّ تعود إلى مكانها فلمّا طهرت جاءها جبرئيل.

وقيل: قعدت في مشرقة للاغتسال من الحيض محتجبة بستر تستر بها وقيل: إن زكريّا زوج أختها كان رتّب لها محراباً على حدة تسكنه بقربه وتعبد فيه وكان زكريّا إذا خرج أغلق عليها فأرادت مريم أن تجد حلوة في الجبل لتمشط رأسها فانفجر السقف لها فخرجت من المكان إلى المفازة فجلست في المشرقة فتمنّت وراء الجبل فأتاها الملك والمكان الشرقيّ هو الّذي يلي شرقيّ بيت المقدس.

ولمّا جلست ذاك المكان ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يعني: جبرئيل وسمّاه الله روحا لأنه روحانيّ وأضافه إلى نفسه تشريفاً له كبيتي وعبدي. وقرئ روحنا بالفتح لأنه سبب لما فيه روح العباد ولا شكّ أنه من المقرّبين ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾[1] ولا يلزمنا هذه التكلّفات وقد سمّاه الله تعالى الروح قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[2] ثمّ إنّه قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ ولا يليق ذلك لجبرئيل.

واختلفوا في أنّه كيف ظهر لها أي: بصورة أي: إنسان. قيل: إنّه ظهر لها بصورة شابّ أمرد حسن الوجه سويّ الخلق. وقيل: ظهر لها بصورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس ولا دلالة في اللفظ على التعيين فانتصب بين يديها جبرئيل بصورة آدميّ صحيح لم ينقص منه شيء فلمّا رأته مريم أنكرته فاستعاذت بالله منه.

﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ أرادت إن كان يرجى منك أن تتّقي الله فإنّي عائذة بالله منك لأنها علمت أنّ الاستعاذة تؤثّر في التقى كقوله: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3] أي: شرط الإيمان يوجب هذا. وقيل: معناه إن النافية أي: ما كنت تقيّاً حيث استحللت النظر إليّ وخلوت في منزلي. وقيل: إنّه كان في ذلك الزمان إنسان فاجر اسمه تقيّ يتبع النساء فظنّت مريم عليها السّلام أنّه هو ذلك التقيّ.

وهاهنا بحث وهو أنّه جاء في الأخبار أنّ جبرئيل عليه السلام شخص عظيم الجثّة فذلك الشخص العظيم كيف بصر بدنه في مقدار جثّة الإنسان بأن

١ـ سورة الواقعة: ٨٨ ـ ٨٩.

٢ـ سورة الشعراء: ١٩٣.

٣ـ سورة البقرة: ٢٧٨.

تساقطت أجزاؤه وتفرّقت بنيته فحينئذ لا يبقى جبرئيل أو بأن تداخلت أجزاؤه وذلك توجب تداخل الأجزاء والأجسام وهو محال فكيف الأمر؟

والجواب أنّه لا يمتنع أن يكون جبرئيل له أجزاء أصلية وأجزاء فاضلة والأجزاء الأصليّة قليلة فيكون متمكّنًا من التشبّه بصورة الإنسان وهذا إذا جعلناه جسمانياً أمّا إذا جعلناه روحانياً فأيّ استبعاد في أن يبدو تارة بالهيكل العظيم وأخرى بالهيكل الصغير.(١)

والحاصل فلمّا سمع جبرئيل عليه السلام منها هذه الاستعاذة ﴿قَالَ﴾ لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ﴾ ولداً طاهراً من الأدناس نامياً في أفعال الخير. وقيل: يريد نبيّاً.

﴿قَالَتْ﴾ مريم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ وكيف يكون ليّ ولد؟ ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ على وجه الزوجيّة ولم أكن زانية، وإنّما قالت ذلك لأنّ العادة أن يكون الولد من إحدى هاتين الجهتين. وإنّما يقال: للفاجرة بغيّ لأنّها تطلب وتبغي الزنا.

وفي هذه الآيات دلالات على جواز إظهار المعجزات لغير الأنبياء خلافاً لمن قال: إنّ المعجزة خاصّة بالنبوّة لأنّ من المعلوم أنّ مريم ليست نبيّة وأنّ رؤية الملك على صورة البشر وبشارة الملك إيّاها وولادتها من غير وطء من الآيات الّتي آتاها الله من أكبر المعجزات.(٢)

وأجاب الّذي أنكر المعجزة لغير النبيّ وقالوا: إنّها معجزات لزكريّا.

وردّ هذا القول: لأنّ المعجز إذا كان مفعولا للنبيّ أو لأجل النبيّ فأقلّ ما فيه أن يكون عليه السلام عالماً به وزكريّا ما كان عنده علم بهذه الوقائع فكيف

١ـ تفسير الآلوسي، ج ١٦، ص ٧٦؛ وتفسير الرازي، ج ٢١، ص ١٩٧.

٢ـ بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٢٢٤؛ ومجمع البيان، ج ٦، ص ٤١١.

يجوز جعلها معجزاً له؟ بل يمكن إرهاصاً لعيسى عليه السلام أو كرامة لمريم.

قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ
وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾
فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ
نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ
سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي
وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ
صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ
يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ
وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ
صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾

المعنى: ﴿قَالَ﴾ لها جبرئيل حين سمع تعجيبها من هذه البشارة: الأمر ﴿كَذَٰلِكِ﴾ وكما وصفت لك وإحداث الولد من غير زوج للمرأة سهل منّا لا يشقّ عليّ ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ وعلامة ظاهرة وآية باهرة ﴿لِّلنَّاسِ﴾ وعلى نبوّته وبراءة على فعل مريم ولنجعله نعمة ﴿مِّنَّا﴾ على الخلق يهتدون بسببه ﴿وَكَانَ﴾ خلق عيسى ﴿أَمۡرٗا﴾ كائناً لا محالة محتوماً قضى الله بأنّه يكون.

فحملت مريم بعيسى في الحال. قيل: أخذ جبرئيل ردن قميصها بإصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها ووجدت حسّ الحمل وقيل: نفخ في كمّها فحملت. وروي عن الباقر عليه السلام أنّ: «جبرئيل تناول جيب مدرعتها فنفخ فيه نفخة فكمل الولد في الرحم من ساعته كما يكمل الولد في أرحام النساء تسعة أشهر فخرجت من المستحمّ وهي حامل مثقل فنظرت خالتها فأنكرتها ومضت مريم على

وجهها مستحيية من خالتها ومن زكريّا وخالتها زوجة زكريّا ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ تنحّت بالحمل إلى مكان بعيد حياء من أهلها وخوفاً من أن يتّهموها بسوء».[1]

واختلفوا في مدّة حملها فقيل: ساعة. قال ابن عبّاس: (لم يكن بين الانتباذ والحمل إلّا ساعة واحدة لأنّه تعالى لم يذكر فصلا لأنّه قال: فحملته فانتبذت به فأجاءها المخاض، والفاء للتعقيب. وقيل: كانت مدّة حملها تسع ساعات). وهذا مرويّ عن أبي عبد اللّه عليه السلام.[2] وقيل: ستّة أشهر. وقيل: ثمانية أشهر وهذا القول: بعيد. قال ابن عبّاس: (نظرت مريم إلى أكمة فصعدت مسرعة إليها فإذا عليها جذع نخلة نخرة ليس بها سعف).

فلمّا ولدت قالت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ وفي التهذيب عن السجّاد عليه السلام: «خرجت من دمشق حتّى أتت كربلا في موضع قبر الحسين ثمّ رجعت من ليلتها».[3]

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾ أي: ألجأها وجع الولادة إلى جذع النخلة لتستند إليها فلمّا ولدت ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ أي: شيئاً متروكاً لم أك في الذكر. قيل: وإنّما تمنّت الموت كراهية أن يظنّوا بها سوءاً.

وفي علّة الانتباذ قالوا وجوهاً: أحدها ما رواه الثعلبيّ في «العرائس» عن وهب قال: إنّ مريم لمّا حملت بعيسى وكانت ثلاث عشرة سنة أو عشرين سنة وكان قد رأت حيضتين وكان مع مريم ابن عمّ لها يقال له: «يوسف النجّار» وهو يعبد في المسجد الّذي كان تعبد فيه مريم قرب جبل صهيون

١ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٤١٧؛ وبحارالأنوار، ج ١٤، ص ٢٢٥.

٢ـ الكافي، ج ٨، ص ٣٣٢؛ ووسائل الشيعة، ج ١٥، ص ١١٦ (إسلامية) وانظر: مناقب آل أبي طالب، ج ٣، ص ١٣٤.

٣ـ التهذيب، ج ٦، ص ٧٣؛ وسائل الشيعة الإسلامية، ج ١٠، ص ٤٠٥؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٣٢٨.

ولا يعلم في أهل زمانها أحد أشدّ اجتهاداً وعبادة منهما.

وأوّل من عرف حمل مريم يوسف فتحير في أمرها فكلّما أراد أن يتّهمها ذكر صلاحها وعبادتها وأنّها لم يغب عنه ساعة قطّ وأنّها ما فترت عن العبادة وقتاً وإذا أراد أن يبرأها رأى الّذي ظهر بها من الحمل فتكلّم يوماً وقال: إنّه وقع في نفسي من أمرك يا مريم شيء أخبريني يا مريم هل نبت الزرع بغير بذر وهل تنبت شجرة من غير غيث وهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم ألم تعلم أنّ اللّه أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر وهذا البذر إنّما حصل من الذرع الّذي أنبته من غير بذر ألم تعلم أنّ اللّه أنبت الشجرة من غير غيث وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعد ما خلق كلّ واحد منهما على حدة أو تقول: إن اللّه لا يقدر على أن ينبت الشجرة ويخلق الزرع حتّى استعان بالماء والبذر ولو لا ذلك ما كان قادراً؟ فقال يوسف: لا أقول هذا، ولكنّي أقول: إنّ اللّه قادر على ما يشاء فيقول: كن فيكون. فقالت له مريم: ألم تعلم أنّ اللّه خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى؟ فعند ذلك البيان زالت الشبهة عن قلب يوسف وكان ينوب عنها في خدمة المسجد بسبب الحمل.

فلمّا دنا نفاسها أوحى اللّه إليها أن اخرجي من أرض قومك لئلّا يقتلوا ولدك فاحتملها يوسف إلى أرض مصر على حمار له فلمّا بلغت تلك البلاد أدركها النفاس فألجأها إلى أصل نخلة وذلك في زمان برد فوضعت عندها.[1]

والحديث الصحيح أنّها خرجت بأمر اللّه إلى كربلا في ليلة واحدة ووضعت ورجعت في ليلتها. وقيل: السبب في خروجها أنّها كانت مشهورة في بني إسرائيل بالزهد وتشاحّ الناس في تربيتها ثمّ تكفّل زكريّا بها ولأنّ

١ـ انظر: تفسير الرازي، ج ٢١، ص ٢٠١؛ وتفسير الآلوسي، ج ١٦، ص ٨١.

الرزق يأتيها من عند الله وهذه الأمور والمزايا كلّها في نهاية الشهرة استحت من هذه الواقعة فذهبت إلى مكان بعيد لا يراها زكريّا. وهذه الوجوه كلّها محتملة وليس في القرآن ما يدلّ على شيء من السبب.

ومعنى المخاض تمخّض الولد في البطن وحركته للولادة.

قال في «الكشّاف»: جذع نخلة يا بسة كانت في الصحراء على اختلاف الصحراء وليس لها رأس ولا ثمر ولا خضرة وكان الوقت شتاء وإنّ الله أرشدها إلى هذه النخلة ليطعمها منها الرطب والنخلة لا تثمر إلّا عند اللقاح ولا تلقح ولا تطلع إلّا في الربيع وإذا قطع رأسها لم تثمر قطّ وتموت فالله سبحانه أرشدها إلى هذه النخلة ليدلّ على جواز ظهور الولد من غير حياة ولقاح وأب كما أنّ الرطب حصل من جذع النخلة.[1]

وبالجملة فلو قيل: لم قالت: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ مع أنّها كانت تعلم أنّ الله بعث جبرئيل إليها ووعدا بأن يجعلها وابنها آية للعالمين؟

الجواب: أنساها كربة الغربة. وقيل: إنّ عادة الصالحين إذا وقعوا في بلاء أن يقولوا [مثل هذا الكلام]، قال أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل: «يا ليتني متّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة».[2] وعن بلال: (ليت بلالا لم تلده أمّه). وكذا قال عليّ بن الحسين عليه السلام يوم ورد إلى الشام.

﴿نَسْيًا﴾ قرئ بكسر النون أيضاً قيل: معناه خرقة ملقاة من خرق الطمث. قال صاحب «الكشّاف»: النسي ما من حقّه أن يطرح ويلقى كالذبح اسم لما شأنه أن يذبح.[3] وقيل: الحليب المخلوط بالماء الكثير ينساه أهله

١ـ الكشاف، ج ٢، شرح ص ٥٠٢.

٢ـ الشافي في الإمامة، ج ٤، ص. ٣٦٠.

٣ـ الكشاف، ج ٢، شرح ص ٥٠٦؛ وتفسير الرازي، ج ٢١، ص ٢٠٣.

لإعراضهم عنه.

وبالجملة قال ابن عباس: (فسمع جبرئيل كلامها وعرف جزعها ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ وكان أسفل منها تحت الأكمة ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾) وهذا قول جماعة: إنّ المنادي جبرئيل ناداها من سفح الجبل. وقيل: المنادي المولود عيسى: لا تغتمّي ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ﴾ أي: تحت قدميك نهرا تشربين منه شديد الجري تطهّرين به، قالوا: وكان نهرا قد انقطع الماء عنه فأرسل الله الماء فيه لحاجة مريم وأحيا ذلك الجذع حتّى أثمر وأورق. وقيل: ضرب جبرئيل برجله فظهر ماء عذب. وقيل: بل ضرب عيسى عليه السلام برجله فظهر عين ماء يجري وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام.[1] وقيل: السريّ عيسى ومعناه الشريف الرفيع.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ أي: اجذبي إلى نفسك جذع النخلة والباء زائدة ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا﴾ طريا ﴿جَنِيّٗا﴾ وقرئ بالكسر من الجيم للإتباع فقال الباقر عليه السلام: **«لم يستشف النفساء بمثل الرطب».**[2] وهذه معجزات تنوف على عشرة متوالية معجزة إثر معجزة.

﴿فَكُلِي﴾ يا مريم من هذا الرطب ﴿وَٱشۡرَبِي﴾ من هذا الماء أو من عصيره ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ أي: طيّبي نفساً وبرّدي عينيك سروراً بهذا الولد الّذي عندك لأنّ دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارّة.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ أصله ترأيين والاستعمال بغير الهمزة، والياء ضمير المؤنّث وإنّما حرّكت الياء لالتقاء الساكنين وهما الياء والنون الأولى والنونان أحدهما نون الرفع والآخر التأكيد كما تقول: ارضينّ زيداً للمرأة. وإن شرطيّة

١ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٤١٨؛ وبحار الأنوار، ج ١٤، ص ٢٢٦.

٢ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٤١٨؛ وبحار الأنوار، ج١٤، ص٢٢٦؛ والمحاسن، ج ٢، ص ٥٣٥.

أي: إذا رأيت آدمياً كان من كان فقولي: ان استنطقك وسألك عن ولدك: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ﴾ لله وأوجبت على نفسي صمّاً والصوم على هذا القول: معناه الصمت، وقيل: الصوم في ذلك الزمان كان يلزمه الصمت وكان في بني إسرائيل من أراد أن يجتهد صام عن الكلام كما يصوم عن الطعام فلا يتكلّم الصائم حتّى يمسي.

﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ وكان قد أذن لها أن يتكلّم بهذا القدر ثمّ تسكت ولا تتكلّم بشيء آخر. قيل: كان الله أمرها أن تنذر لله الصمت والصوم وإذا كلّمها أحد تؤمي بأنّها نذرت صمتا لأنّه لا يجوز أن تخبر بالكذب.

﴿فَأَتَتْ﴾ مريم بعيسى وذلك أنّها لفّته في خرقة وحملته إلى ﴿قَوْمَهَا﴾ راجعة إليهم حاملة لعيسى ﴿قَالُوا﴾ موبّخين لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ﴾ لقد فعلت أمراً عظيماً بديعاً منكراً فرى الجلد إذا قطعه. وقيل: إنّ يوسف انتهى بمريم إلى غار فأدخلها فيه أربعين يوماً ثمّ أتت بعد أن طهرت من النفاس وكلّمها عيسى في الطريق وقال: يا امّاه ابشري فانّي عبد الله ومسيحه.

والحاصل لمّا رأوه القوم وبّخوا مريم وأكّدوا توبيخهم ثانياً بقولهم: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ﴾ فيه أقوال:

أحدها: أنّ هارون هذا كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل ينسب إليه كل من عرف بالصلاح، عن جماعة هذا المعنى مرفوعاً عن النبيّ ﷺ[1] حتّى قيل: إنّه لمّا مات شيّع جنازة هذا الصالح أربعون ألفاً كلّهم يسمّى هارون تبرّكاً باسمه فحينئذ المعنى: يا شبيهة بهارون في الصلاح ما كان هذا الأمر معروفاً عنك.

وثانيها: أنّ هارون كان أخاها لأبيها ليس أمّها وكان معروفاً بحسن

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٦، ص ٤١٩؛ بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٢٢٧.

الطريقة. وثالثها: أنّ هارون المراد أخو موسى عليه السلام ونسبت إليه لأنّها من ولده وأعقابه وإنّما قيل: يا أخت كما يقال: يا أخا همدان أي: يا واحداً منهم.

والرابع: أنّ هارون كان رجلاً معلناً بالفسق فنسبت إليه تشبيها لا نسبة.[1]

وبالجملة جاء بنو إسرائيل ورأوها أنّ عيسى في صدرها وأقبلن مؤمنات بني إسرائيل يبزقن في وجهها فلن تكلّمهنّ حتّى دخلت في محرابها فجاء إليها زكريّا وقالت بنو إسرائيل ما قالت.

﴿فَأَشَارَتْ﴾ وأومات مريم إلى عيسى أي: هذا الّذي يجيبكم. روي أنّه لمّا أشارت إليه غضبوا غضباً شديداً وقالوا: لسخريّتها بنا أشدّ من زناها.

وفي ذلك الوقت كان عيسى يرضع فلمّا سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتّكأ على يساره وأشار بسبّابته وكلّمهم بذلك ثمّ لم يتكلّم حتّى بلغ مبلغاً يتكلّم فيه الصبيان. وقيل: إنّ زكريّا عليه السلام لمّا رأى مناظرة اليهود إيّاها فقال لعيسى: انطق بحجّتك إن كنت أمرت بها، فقال عيسى عند ذلك: إنّي عبد الله.

والمراد بالمهد قيل: هو حجرها لما روي أنّها أخذته في خرقة فلمّا رأوها وقعت هذه المحاورات ولم يكن بعد له منزل ومهد معدّ والمراد الّذي من شأنه النوم في المهد كيف نكلّمه؟

فوصف عيسى نفسه بصفات عديدة لأنّ الكلام مثل ذلك الوقت من الرضيع موهم بعض الأمور فابتدأ عليه السلام ابتداء بما يرفع ذلك الوهم فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ فنصّ على نفسه بالعبوديّة وجعل إزالة هذه الشبهة أولى من إزالة التهمة عن الزنا مع أنّ الله أعطاه هذه القوّة لإزالة تهمة الزنا عن أمّه.

١ـ بحارالأنوار، ج ١٤، ص ٢٢٧؛ وتفسير الرازي، ج ٢١، ص ٢٠٨.

الصفة الثانية قوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ واختلف الناس فيه، الجمهور على أنّه قال هذا الكلام حال ما تكلّم، وقال البلخيّ: إنّما قال حين كان كالمراهق الّذي يفهم. وقيل: إنّه كان في ذلك الصغر نبيّاً. وقيل: إنّ مراده حال صغره، قال: بأنّه سيبعثني نبيّاً.

واحتجّ من نصّ على فساد القول بنبوّته حال صغره بأمور:

أحدها: أنّه لو كان نبيّاً في هذا الصغر لكان كمال عقله مقدّماً على ادّعائه للنبوّة إذ النبيّ لابدّ وأن يكون كامل العقل وكمال عقله ذلك الوقت خارق للعادة فيكون المعجز متقدّماً على التحدّي وإنّه غير جائز.

الثاني: أنّه لو كان نبيّاً في ذلك الوقت لوجب أن يشتغل ببيان الأحكام وتعريف الشرائع ولو وقع ذلك لاشتهر ولنقل فحيث لم يحصل ذلك علمنا أنّه ما كان نبيّاً في ذلك الوقت.(١)

وأجابوا عن الوجه الأوّل بأنّه إذا أكمل اللّه عقله قبل دعواه يكون معجزة لزكريّا أو إرهاصاً لنبوّته أو كرامة لمريم. وعن الوجه الثاني أنّه يجوز تجرّد بعثته إليهم من غير بيان شيء من الشرائع ثمّ بعد البلوغ أخذ في شرح الشرائع فحينئذ لا يمتنع نبوته في صغره.

واختلفوا في الكتاب قيل: هو التوراة لأنّ الألف واللّام في الكتاب تنصرف للمعهود والكتاب المعهود لهم هو التوراة. وقيل: المراد الإنجيل لأنّ الألف واللّام للجنس يعني: آتاني من هذا الجنس.

الصفة الثالثة قوله: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ

١ـ تفسير الرازي، ج ٢١، ص ٢١٣.

حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ
وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ
ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ
أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾

الصفة الرابعة: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ والبركة في اللغة الثبات وأصله من بروك البعير أي: جعلني ثابتاً مستقراً على دين الله ويعلّم الناس دينهم ويدعوهم إلى الطريق فإن ضلّوا فمن قبل أنفسهم.

عن النبي صلى الله عليه وآله قال: **«أسلمت مريم عيسى إلى المعلّم وقالت: أدفعه إليك على أن لا تضربه. فقال له المعلّم: اكتب. قال عيسى: أي: شيء أكتب؟ فقال: اكتب أبجد فرفع عيسى رأسه وقال: هل تدري ما «أبجد» فعلاه المعلّم بالدرّة ليضربه فقال: يا مؤدّب لا تضربني إن كنت لا تدري اسألني أنا اعلّمك: الألف من آلاء الله والباء من بهاء الله والجيم من جمال الله والدال من أداء الحقّ إلى الله».**[1]

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ أي: مادمت في الدنيا صغيراً أكون أو كبيراً مستعلياً بالحجّة وإذا جاء وقت المفارقة عن الكون في الدنيا يكر مني الله بالرفع إلى السماء أو جعلني مباركاً على الناس بحيث يحصل بسبب دعائي إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص. روي أنّه رأته امرأة وهو يحيي الموتى ويبرأ الأكمه والأبرص فقالت: طوبى لبطن حملتك وثدي أرضعتك، فقال عيسى عليه السلام مجيباً لها: طوبى لمن تلا كتاب الله واتّبع ما فيه ولم يكن جبّاراً شقيّاً.

الصفة الخامسة: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ فإن قيل: كيف أمر بالصلاة والزكاة مع أنّه كان طفلاً صغيراً والقلم مرفوع عنه؟ فالجواب أنّ الكلام لا يدلّ على كون الصلاة والزكاة عليه في الحال بل بعد البلوغ أو أنّ

١ـ تفسير الرازي، ج ٢١، ص٢١٤؛ وانظر: التوحيد الصدوق، ص ٢٣٦.

الله جعله لمّا انفصل عن أمّه بالغا كاملاً في العقل مكلّفاً بالأحكام كخلقة آدم تامّاً كاملاً مكلّفاً دفعة. وقوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يؤيّد هذا المعنى فإنّه يفيد أنّ هذا التكليف متوجّه عليه في جميع زمان حياته ولم يتغيّر حين كان في الأرض وحين رفع إلى السماء وحين ينزل إلى الأرض مرّة أخرى.

الصفة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ أي: جعلني باراً ومحسناً بها أؤدّي شكرها في ما قاسته بسببي.

الصفة السابعة: وما جعلني متكبّراً بل متواضعاً لها ولو كنت جبّاراً لكنت عاصياً شقيّاً قال عيسى: قلبي ليّن وأنا صغير في نفسي. قال بعض أهل المعرفة: لا تجد العاقّ إلّا جبّاراً شقيّاً.

الصفة الثامنة: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي: السلامة عليّ من الله في هذه الأحوال الثلاث وقد مرّ بيانه في أحوال يحيى. وقيل: اللّام لام التعريف في السلام للعهد يعني: السلام الموجّه إلى يحيى في المواطن الثلاث موجّه إليّ أيضاً، وقال صاحب «الكشّاف»: اللّام للاستغراق أي: وكلّ السلام عليّ وعلى أتباعي وإنّما قال هذا القول تعريضا باللعن على من اتّهم مريم أمّه بالزنا وكان يليق به في هذا المقام مثل هذا التعريض إزالة للشبهة نظير قول موسى عليه السلام: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾[1] بمعنى أنّ العذاب على من كذّب وتولّى، فكأنّه سأل ربّه السلامة وطلب منه ما أخبر الله فعله بيحيى.[2]

وفي هذه الآيات دلالة على أنّه يجوز أن يصف الإنسان نفسه إذا أراد أن يعرّفها إلى غيره لا على وجه الافتخار بل على وجه حاجة لا تنقضي تلك

١ـ سورة طه: ٤٧.

٢ـ تفسير الرازي، ج ٢١، ص ٢١٥.

الحاجة إلّا ببيان ذلك الوصف أو في مقام زوال التهمة عن نفسه وأمثال هذه الموارد فإذا لا بأس بأن يصف الإنسان نفسه ويعرّف غيره بنفسه كما أنّ عيسى لمّا كلّمهم بهذه الكلمات علموا براءة مريم.

واعلم أنّ اليهود والنصارى ينكرون أنّ عيسى تكلّم في زمان الطفوليّة واحتجّوا عليه بأنّ هذا من الوقائع العجيبة الّتي تتوفّر الدواعي على نقله فلو وجدت لنقلت إلينا بالتواتر ولعرفه النصارى وهم أشدّ الناس بحثاً وغلوّاً في عيسى.

فالجواب أولا: أنّ عدم الوجدان عند نقلهم وأخبارهم لا يستلزم عدم الوجود والعقل يحكم على أنّه تكلّم فإنّه لو لا كلامه الّذي دلّهم على براءة أمّه من الزنا لما تركوا في ذلك الزمان إقامة الحدّ على أمّه ولما سكتوا عن مثل هذا الأمر الفظيع ولما ابستسلموا الأمر لمريم وما عظّموها هذا التعظيم الوافر بحيث يعرفون لها بالتثليث، والقرآن مصرّح ناطق بنطقه والإجماع من قاطبة المسلمين، والسنّة مشحونة بهذا الأمر ثمّ إنّه يمكن أن كان الحاضرون حينئذ عند كلام عيسى قليلين وغالط اليهود وقتئذ لعداوتهم ولذلك لم يشتهر عند النصارى ولم يبلغ إلى حدّ التواتر فانقطع الخبر عن الطبقات كما حصل مثل هذا في قصّة شقّ القمر.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: ذلك الّذي قال هذه الكلمات والموصوف بهذه الصفات الّتي منها إقراره بأنّي عبد اللّه، عيسى بن مريم وولده هذه المرأة الموصوفة لا أنّه ابن اللّه وأنّ كلامه هذا لهو الحقّ المبين، أو المعنى أنّ نفس عيسى قول لأنّ الحقّ اسم اللّه فالمعنى أنّ عيسى كلمة اللّه ولا فرق بين الكلمة وبين القول في هذا المقام.

وهذا البيان لأجل شبهات النصارى حيث بعض أثبتوا الألوهيّة وبعض جعلوا فيه جزءاً من الألوهيّة، وبعض اليهود إنّهم أضافوا إليه عليه السلام أموراً قبيحة

فهذا البيان ردّ لعقائدهم الفاسدة وهو معنى قوله: ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ويشكّون في حقيقته فكذّبهم الله بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ اتّخاذ الولد ولا ينبغي له لأنّ الولد لابدّ وأن يكون من جنس الوالد ومشابه ومتشاكل له والله تعالى ليس كمثله شيء وقوله: ﴿مِن وَلَدٍ﴾ هذه أي: كلمة «من» هذه هي الّتي تدلّ على نفي الواحد والجماعة.

ثمّ بيّن سبحانه السبب في كون عيسى من غير أب فقال: السبب في تكوين عيسى لا يلزم أن يكون من أب بل السبب إذا قضى أمراً كان ولا يتعذّر عليه شيء إذا أراد حصل بغير سببيّة الأبوّة بل يحصل بسببيّة الإرادة المحضة فقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ كقولنا: ما كان لله أن يظلم أي: لا يليق بإلهيّته وهو أمر ممتنع الحصول وبيان جهة امتناعه غير واحد ولا عشرة.

واحتجّ الأشاعرة بقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ على قدم كلام الله قالوا: لأنّ الآية تدلّ على أنّه إذا أراد إحداث شيء ﴿قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فلو كان قوله: «كن» محدثاً لافتقر حدوثه إلى قول آخر ولزم التسلسل وكأنّه خلق مخلوق مخلوقاً.

وأجاب المعتزلة بالآية على حدوث الكلام من وجوه:

أحدها: أنّه أدخل عليه كلمة «إذا» وهذه الكلمة دالّة على الاستقبال فوجب أن لا يحصل القول إلّا في الاستقبال وهذا هو الحدوث.

والثاني: الفاء في الكلام للتعقيب والفاء في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ يدلّ على تأخّر ذلك القول عن القضاء والمتأخّر عن غيره محدث.

والثالث: الفاء في قوله: «فيكون» يدلّ على حصول ذلك الشيء عقيب ذلك القول من غير فصل فيكون قول الله متقدّماً على حدوث الحادث تقدّماً بلا فصل والمتقدّم على المحدث تقدّماً بلا فصل يكون محدثاً فقول الله محدث.

وبالجملة قال الرازيّ: فقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ من الناس من أجرى الآية على ظاهرها فزعم أنّه تعالى إذا أحدث شيئاً قال له: ﴿كُن﴾ وهذا ضعيف لأنّه إمّا أن يقول له «كن» قبل حدوثه أو حال حدوثه فإن كان قبل حدوثه كان ذلك خطابا مع المعدوم وهو عبث وإن كان الثاني فهو حال حدوثه قد وجد بالقدرة والإرادة فأيّ تأثير لقوله: «كن» وقال آخرون: «كن» عبارة عن نفاذ قدرة الله ومشيّته في الممكنات فإنّ وقوعها بتلك القدرة والإرادة يجري مجرى العبد المسخّر المطيع لمولاه فعبّر الله عن ذلك المعنى بهذه العبارة على سبيل الاستعارة.[1]

وهاهنا بيان مختصر للرازيّ في أقوال النصارى فاعلم أنّ مذهب النصارى متخبّط جداً.[2]

روي أنّ عيسى عليه السلام لمّا رفع إلى السماء بعد أن صلبوه بزعمهم حضر أربعة من أكابر علمائهم فقيل للأوّل: ما تقول في عيسى؟ فقال: هو إله والله إله وأمّه إله فتابعه على ذلك جملة من الناس وهم الإسرائيليّة أهل التثليث. وقال العالم الثاني: هو الله وهم اليعقوبيّة. وقال الثالث: هو ابن الله وهم النسطوريّة. وقال الرابع: هو عبد الله وهم المسلمون منهم. وأظنّ أنّ الّذين نسبوا الابنيّة تشريفاً لا حقيقة هم النسطوريّة ثمّ قالوا: بالابنيّة حقيقة بجهلهم بعد مدّة قليلة.[3]

وقد اتّفقوا على أنّه سبحانه ليس بجسم ولا متحيّز ومع ذلك فإنّا نذكر تقسيما حاصراً يبطل مذهبهم لأنّهم إمّا أن يعتقدوا كونه متحيّزاً أولا فإن

١ـ تفسير الرازي، ج ٢١، ص ٢١٨.

٢ـ المصدرالسابق، ص ٢٠٩.

٣ـ انظر: مناقب آل أبي طالب، ج ٣، ص ٥٣؛ وأيضاً روى مجلسي في البحار، ج ٣٩، ص ٧٤.

اعتقدوا كونه متحيّزاً فيفسد قولهم حدوث الأجسام وحينئذ يبطل كلّ ما فرّعوا عليه وإن اعتقدوا أنّه ليس بمتحيّز فحينئذ يبطل ما يقوله بعضهم من أنّ الكلمة اختلطت بالناسوت اختلاط الماء بالخمر وإسراج النار بالفحم وذلك لا يعقل إلّا في الأجسام فإذا لم يكن جسماً استحال ذلك، ومن النصارى قالت: عيسى ابن الله وهم النسطوريّة ومنهم قالت: هو الله هبط إلى الأرض ثمّ صعد إلى السماء وهم اليعقوبيّة ومنهم الملكانيّة هو عبد الله ونبيّه معتقدهم.

ثمّ للناس في الإنسان قولان: منهم من يقول: هو هذه البنية أو جسم موجود في داخلها، ومنهم من يقول: إنّه جوهر مجرّد عن الجسميّة والحلول يكون في الأجسام.

فنقول: هؤلاء النصارى إمّا أن يعتقدوا أنّ الله أو صفة من صفاته اتّحد ببدن المسيح أو بنفسه أو يعتقدوا أنّ الله أو صفة من صفاته حلّ في بدن المسيح أو في نفسه أو يقولوا: لا نقول بالاتّحاد ولا بالحلول ولكن إنّه تعالى أعطاه القدرة على خلق الحياة والأجسام والقدرة وكان لهذا السبب إلهاً، أو لا يقولوا بشيء من ذلك ولكن قالوا: إنّه على سبيل التشريف اتّخذه ابنا كما اتّخذ إبراهيم على سبيل التشريف خليلاً.

فهذه الوجوه المنقولة في هذا الباب والكلّ باطل:

أمّا القول الأوّل بالاتّحاد فهو باطل قطعاً لأنّ الشيئين إذا اتّحدا فهما حال الاتّحاد إمّا أن يكونا موجودين أو معدومين أو يكون أحدهما موجوداً والآخر معدوماً فإن كانا موجودين فهما اثنان لا واحد فالاتّحاد باطل وإن عدما وحصل ثالث فهو-أيضاً لا يكون اتّحادا بل يكون قولاً بعدم ذينك الشيئين وحصول شيء ثالث وإن بقي أحدهما وعدم الآخر فالمعدوم يستحيل أن يتّحد بالموجود لأنّه يستحيل أن يقال: المعدوم بعينه هو الموجود فظهر من

هذا البرهان الباهر أنّ الاتّحاد محال.

وأمّا الحلول ففيه مقامان فلابدّ من البحث عن ماهيّة الحلول حتّى يمكننا أن نعلم أنّه هل يصحّ على الله أو لا يصحّ فذكروا للحلول تفسيرات ثلاثة:

أحدها: كون الشيء في غيره ككون ماء الورد في الورد والدهن في السمسم والنار في الفحم واعلم أنّ هذا باطل لأنّ هذا إنّما يصحّ لو كان الله جسماً وهم وافقونا على أنّه ليس بجسم.

وثانيها: حصوله في شيء على مثال حصول اللون في الجسم فنقول: المعقول من هذه التبعيّة حصول اللون الّذي هو تابع لذلك الحيّز لحصول محلّه فيه وهذا القسم إنّما يعقل في الأجسام لا في حقّ الله.

وثالثها: حصوله في الشيء على مثال حصول الصفات الإضافيّة للذوات وهذا أيضاً باطل لأنّ المعقول من هذه التبعيّة الاحتياج فلو كان سبحانه حلّ في شيء بهذا المعنى لكان محتاجاً ومفتقرا إلى المؤثّر وذلك محال ولا يتصوّر من الحلول غير هذه الأقسام الثلاثة.[1]

ثمّ احتجّ الأصحاب في المقام الثاني على نفي الحلول مطلقاً بطريق آخر بأن قالوا: لو حلّ سبحانه لحلّ إمّا مع وجوب أن يحلّ أو مع جواز أن يحلّ والقسمان باطلان لأنّه مع فرض وجوب أن يحلّ يقتضي إمّا حدوث الله أو قدم المحلّ وكلاهما باطلان لأنّا دلّلنا على أنّ الله قديم والجسم محدث.

ثمّ أنّه لو كان حلوله واجباً لكان محتاجاً إلى المحلّ والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته والممكن لا يكون واجباً ولو قلنا بجواز أن يحلّ وذلك أيضاً لا يجوز لأنّه لمّا كانت ذاته واجبة الوجود لذاتها وحلوله في المحلّ أمر جائز والموصوف بالوجوب غير ما هو موصوف بالجواز فيلزم أن يكون

١ـ تفسير الرازي، ج ٢١، ص ٢١٠.

حلوله في المحلّ أمراً زائداً على ذاته.

وذلك محال لوجهين وبيان الوجهين أعرضنا عن تفصيله ومن أراد فليراجع «المفاتيح» للرازيّ في تفسير الآية.

وذكروا في إبطال قول النصارى وجوهاً أخر: أحدها أنّهم وافقونا على أنّ ذاته سبحانه لم تحلّ في ناسوت عيسى عليه السلام بل قالوا: الكلمة حلّت فيه والمراد من الكلمة العلم، فنقول: العلم لمّا حلّ في عيسى ففي تلك الحالة إمّا أن يقال: إنّه بقي في ذات الله أو ما بقي فيها فإن كان الأوّل لزم حصول الصفة الواحدة في محلّين وذلك غير معقول وإن كان الثاني لزم أن يقال: إنّ الله لم يبق عالماً بعد حلول علمه وذلك ممّا لا يقوله عاقل.

قال الرازيّ: وقد جرت مناظرة بيني وبين بعض النصارى فقلت له: هل تسلّم أنّ عدم الدليل لا يدلّ على عدم المدلول أم لا فإن أنكرت لزمك أن لا يكون الله قديماً لأنّ دليل وجوده هذا العالم فإذا لزم من عدم الدليل عدم المدلول لزم من عدم العالم في الأزل عدم الصانع في الأزل وإن سلّمت أنّه لا يلزم ومن عدم الدليل عدم المدلول فنقول: إذا جوّزت اتّحاد الله بعيسى أو حلولها فيه فكيف عرفت أنّ كلمة الله ما حلّت في زيد وعمر بل ما حلّت في هذه الهرّة.

فقال النصرانيّ: إنّ هذا الكلام لا يليق بك لأنّا أثبتنا ذلك الاتّحاد والحلول بناء على ما ظهر على يد عيسى من إحياء الأموات وإبراء الأكمه والأبرص فإذا لم نجد شيئاً من هذه الآيات على يد غيره فكيف نثبت الاتّحاد أو الحلول؟

فقلت له: قد عرفت أنّك ما عرفت أوّل الكلام لأنّك سلّمت لي أن عدم الدليل لا يدلّ على عدم المدلول فإذا كان هذا الحلول غير ممتنع في الجملة

فأكثر ما في الباب أنّه وجد ما يدلّ على حصوله في حقّ عيسى ولم يوجد ذلك الدليل في حقّ زيد وعمر والسنّور ولكن عدم الدليل لا يدلّ على عدم المدلول ولا يلزم من عدم ظهور هذه الخوارق على يد زيد والهرّة عدم ذلك الحلول فثبت أنّك مهما جوّزت القول بالاتّحاد والحلول لزمك تجويز حصولهما في حقّ كلّ واحد منهم بل في حقّ كلّ حيوان ونبات والمذهب الّذي يسوق قائله إلى هذا القول الركيك يكون باطلاً قطعاً.

ثمّ قلت له: وكيف دلّ إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص على ما قلت؟ أليس انقلاب العصا ثعباناً أبعد من انقلاب الميّت حيّاً؟ فإذا ظهر ذلك على يد موسى ولم يدلّ على إلهيّته فبأن لا يدلّ هذا على إلهيّة عيسى أولى.

ثمّ تحقيق آخر هاهنا وهو أنّا نقول: دلالة أحوال عيسى على العبوديّة أقوى من دلالتها على الربوبيّة لأنّه كان مجتهدا في العبادة والعبادة لا تليق إلّا بالعبيد وأنّه كان عليه السلام في نهاية البعد عن الدنيا وفي نهاية الوحشة عنها حتّى زعمت النصارى أنّ اليهود قتلوه ومن كان في الضعف هكذا فكيف يليق به الربوبيّة؟

ثمّ أيها الّذي تدّعي لعيسى الربوبيّة هل المسيح قديم أو حادث والقول بقدمه باطل بالضرورة لأنّا نعلم أنّه ولد وكان طفلاً ثمّ صار شابّاً وكان يأكل ويشرب ويعرض له ما يعرض البشر وإن كان محدثاً كان مخلوقاً ولا معنى للعبوديّة إلّا ذلك.

فإن قيل: المعنيّ بإلهيّته أنّه حلّت صفة الإلهيّة فيه.

قلنا: هب إنّه كان كذلك لكنّ الحالّ هو صفة الإله والمسيح هو المحلّ والمحلّ مخلوق محدث والمحلّ غير الحال فمن أين له الربوبيّة، النهاية أنّ الله منحه بصفة يجري على يده بقدرة الله وهذا الأمر سار وجار في سائر الأنبياء

الأكمل فالأكمل على قدر درجاتهم بل في الأولياء أين التراب وربّ الأرباب؟

الخامس: أنّ الولد لابدّ وأن يكون من جنس الوالد فإن كان لله ولد فلابدّ أن يكون من جنسه فإذا اشتركا في بعض الوجوه فإن لم يتميّز أحدهما عن الآخر بأمر مّا فكلّ واحد منهما هو الآخر وإن حصل الامتياز فما به الامتياز غير ما به الاشتراك فلزم وقوع التركيب في ذات الله وكلّ مركب من ممكن فالواجب ممكن وهذا خلف محال.

هذا كلّه على الحلول والاتّحاد. أمّا الاحتمال الآخر وهو أن يقال: معنى كون عيسى إلهاً أنّ الله خص نفس عيسى وبدنه بالقدرة على خلق الأجسام وفعل ما يريد والتصرّف في هذا العالم والمراد من الألوهيّة هذا المعنى.

قلنا: هذا أيضاً باطل لأنّه لو كان قادراً على التصرّف في هذا العالم مطلقاً أو كان قادراً على خلق الأجسام لما قدر اليهود على صلبه وكان يذبّ عن نفسه ويخلق لنفسه عسكراً ويعارضهم. بقي احتمال آخر وهو أنّه سبحانه اتّخذه ابنا لنفسه على سبيل التشريف كما قاله قوم من النصارى يقال لهم: الارميوسيّة، وهذا القول ولو كان فيه خطاء إلّا أنّه ليس فيه خطاء كثير لكنّه قول قبيح وسوء أدب في اللفظ.

فهذا جملة الكلام على النصارى وبهذا البيان ثبت قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾[1]

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٣٦ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٣٧ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠﴾

١ـ تفسير الرازي، ج ٢١، ص ٢١٢.

قرئ إنّ بكسر الهمزة والواو عطف على قول عيسى. تقدير الآية: قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ كأنّه أخبر قومه عن بعثه ومولده ووصف ربّه بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي﴾ ويجوز أن يكون إنّ مفتوحة عطفاً على قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ وأوصاني بأن لا تعبد وأغير ربّكم لأنّ الله ربّي وربّكم، ويجوز أن يكون ابتداء كلام من الله أمر نبيّه محمّدﷺ بأن يقول لهم: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ وهذا الكلام يدلّ على أنّ مدبّر الناس ومصلح أمورهم هو الله خلاف قول المنجّمين حيث يقولون: إنّ مدبّر الناس ومصلح أمورهم في السعادة والشقاوة هي الكواكب ويدلّ على أنّ الإله واحد لأنّ لفظ «الله» اسم علم له سبحانه.

أمّا قوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ فقد ثبت في أصول الفقه أنّ ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بالعلّيّة أي: مشعر بعلّيّة ذلك الوصف للحكم فههنا الأمر بالعبادة وقع مرتّباً على ذكر وصف ذات متّصف بصفة الربوبيّة فدلّ على أنّه إنّما تلزمنا عبادته لكونه ربّاً لنا ومنعماً على الخلايق بأصول النعم وفروعها.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ يعني: القول بالتوحيد ونفي الولد والصاحبة والتثليث والتشريك طريق مستقيم لا اعوجاج فيه ومؤدّ إلى الحقّ والجنّة إن شاء الله.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي: تحزّبوا أهل الكتاب، والحزب المنقطع في رأيه عن غيره فصاروا حزباً حزباً كما ذكرنا من اختلاف علمائهم من اليعقوبيّة والنسطوريّة والمثلّثة وغيرهم وإنّما قال سبحانه: ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ لأنّ منهم من ثبت على طريق الحقّ وقيل: «من» زائدة.

﴿فَوَيْلٌ﴾ أي: فشدّة عذاب وهي كلمة وعيد ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بقولهم

الباطل ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ﴾ أي: حضورهم ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة لشدّة أهواله وعظم خوفه.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ وكلمة «بهم» جارّ ومجرور في موضع رفع وفاعل أسمع أي: ما أبصرهم وأسمعهم يوم القيامة وإن كانوا في الدنيا صمّاً وبكماً والتقدير هؤلاء الكفار صاروا ذوي سمع وبصر غاية وللتعجّب صيغتان: ما أفعله وأفعل به والتعجّب من الله غير واقع معناه أن هذا الأمر لو صدر من الخلق لكان في موضع العجب كثيراً وبهذا المعنى يضاف إليه المكر والاستهزاء وما لا يليق إلى الله.

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ﴾ في الدنيا جاهلون وفي الآخرة عارفون حيث لا ينفعهم معرفتهم هذا على أن يكون ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ كلمة التعجّب وعلى قول: الأمر أي: اسمع الناس يا محمّد بهولاء الأنبياء وبيّن لهم فيعرفوهم فيؤمنوا بهم ولا يضلّوا والقول الأول أوجه وأظهر.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ الخطاب للنبيﷺ أي: خوّف يا محمّد كفّار مكّة يوم يتحسّر المسيء هلّا أحسن العمل؟ والمحسن هلّا ازداد العمل؟ وهو يوم القيامة وروى[1] مسلم في «الصحيح» بالإسناد عن أبي سعيد الخدريّ قال: قال رسول اللهﷺ: **«إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قيل: يا أهل الجنة فيشرفون وينظرون فيجاء بالموت كأنّه كبش أملح فيقال لهم: أتعرفون فيقولون: هذا هذا وكلّ قد عرفه قال: فيقدّم فيذبح ثمّ يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت قال: وذلك قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ »** ورواه أصحابنا عن أبي جعفر وأبي عبد اللهﷺ ثمّ جاء في آخر الحديث: **«فيفرح أهل الجنه فرحاً**

ــــــــــــــــ

١ـ بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٤٤؛ ومجمع البيان، ج ٦، ص ٤٢٤.

لو كان أحد يومئذ ميتاً لماتوا فرحاً ويشهق أهل النار شهقة لو كان أحد ميتاً لماتوا».[1]

﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ وانقطعت الآمال وادخل قوم النار وقوم الجنّة وقيل: حكم بين الخلايق معناه أي: قضي على أهل الجنّة الخلود وقضي على أهل النار بالخلود ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ في الدنيا عن ذلك ومشغولون اليوم بما لا يغنيهم ولا يصدّقون بذلك.

ثمّ أخبر سبحانه عن نفسه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: نميت سكّانها ونرثها ومن عليها من العقلاء يعني: نميت من يعقل ومن لا يعقل ونهلك الجميع فلا يبقي فيها مالك ومتصرّف ﴿وَإِلَيْنَا﴾ يردّون بعد الموت إلى حيث لا يملك الأمر والنهي غيرنا.

وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ
مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ
ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ
إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ
ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ
لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ
لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

١ـ بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٤٥؛ ومجمع البيان، ج ٦، ص ٤٢٤؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٢٨٢.

النظم: هذه هي القصّة الثالثة بعد قصّة زكريّا وعيسى والغرض بيان التوحيد والنبوّة والحشر.

وأعلم أنّ المشركين فريقان فمنهم من أثبت معبوداً سوى اللّه حيّاً عاقلا فاهماً وهم النصارى ومنهم من أثبت معبوداً غير اللّه جماداً ليس بحيّ ولا عاقل ولا فاهم وهم عبدة الأوثان. والفريقان وإن اشتركا في الضلال إلّا أنّ ضلال فريق الثاني أعظم وأقبح فلمّا بيّن تعالى الفريق الأوّل بيّن ضلال فريق الثاني وهم عبدة الأوثان فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ والواو عطف على قوله: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ أي: بعد ذكر حال زكريّا وعيسى فاذكر حال إبراهيم وإنّما أمر بذكره لأنهﷺ ما كان هو وقومه ولا أهل بلدته مشتغلين بمطالعة الكتب فإذا أخبر عن هذه القصّة من غير زيادة ونقصان كان ذلك إخباراً عن الغيب ومعجزاً قاهراً على نبوّته.

ولأنّه كان إبراهيم أب العرب فكأنّه قال: إن كنتم مقلّدين لآبائكم على قولكم: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾[1] فأشرف آبائكم وأجلّهم إبراهيم فقلّدوه أيضاً في ترك عبادة الأوثان فإن كنتم من المستدلّين فانظروا في هذه الدلائل الّتي ذكرها إبراهيم لتعرفوا فساد عبادتكم وإمّا تقليدا له لأنّ كثيراً من قومهﷺ في زمانه كانوا يقولون: كيف نترك دين آبائنا وأجدادنا.

أو المراد أنّكم اتركوا التقليد على قولكم: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾[2] وقالوا: ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ فحكى اللّه سبحانه عن إبراهيم هذه الطريقة الاستدلاليّة تنبيهاً لهم على سقوط طريقتهم وحثّاً على طريقة الاستدلال مثل إبراهيم.

١ـ سورة الزخرف: ٢٣.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ والصدّيق الكثير الصدق والّذي عادته الصدق أو الّذي يكون كثير التصديق بالحقّ حتّى يصير مشهورا به فيرجع أيضاً إلى المعنى الأوّل.

﴿نَّبِيًّا﴾ أي: عليماً برسالة اللّه تعالى. وظهر لك مرتبة الصدق حيث اقترن بالذكر مع النبوّة.

ووقعت جملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ معترضة بين «إبراهيم» وبين كلمة: ﴿إِذْ قَالَ﴾ نظير قولك: رأيت زيداً ونعم الرجل أخاك ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ والتاء عوض عن ياء الإضافه ولا يقال: يا أبتي لأنّه لا يجمع بين العوض والمعوّض عنه وكذلك الهاء في يا «أبه» عوض عن ياء المتكلّم ولكن في النداء كذلك ولا يقال: أبتي بغير حرف النداء بل يقال: أبي وقد يقال: يا أبتا.

وبالجملة اذكر إذ قال إبراهيم: يا أبي ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ دعاء من يدعوه ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ من يتقرّب إليه ويعبده ﴿وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ من أمور الدنيا من نفع أو ضرّ.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ والمعرفة ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ﴾ على ذلك واقتد بي فيه وإنّ هذا الّذي تعبده لا يحسّ ولا يعقل وأنت إنسان وتعقل وتبصر وأشرف فكيف يليق بالأشرف أن يعبد الأخسّ؟ فاتّبع علمي ونظري ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا﴾ مستوياً من غير اعوجاج مستقيم.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ ولا تطعه فيما يدعوك إليه لأنّك إذا أطعت الشيطان فتكون بمنزلة من عبده، ومن هذا البيان تبيّن حال مطيعي الشيطان لأنّه لا شبهة أنّ الكافر لا يعبد الشيطان بل هو أيضاً يلعنه ولكن من أطاع شيئاً فقد عبده ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ لا ينبغي أن يطاع لأنّه ﴿كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ عاصياً.

ثمّ إنّ من المعلوم أنّ عمّ إبراهيم الّذي عبّر بالأب للإطلاق ما كان

يعتقد أنّ تلك الأوثان آلهة بمعنى أنّها خالقة قادرة مختارة موجدة للناس والحيوانات لأنّه كان عاقلا لأنّ العلم بأنّ هذا الخشب المنحوت في ساعته لا يمكن أن يكون خالقاً للسماوات والأرض والمجنون لا يزعم هذا الأمر الفاسد فضلاً عن العاقل فلو كان كذلك لا يجوز إيراد الحجّة عليه والمناظرة معه بل كان يعتقد أنها تماثيل الكواكب والكواكب هي الآلهة المدبّرة لهذا العالم فتعظيم تماثيل الكواكب بموجب تعظيم الكواكب.

أو كان يعتقد أنّ هذه الأوثان تماثيل أشخاص معظّمة عند الله من البشر فتعظيمها يقتضي كون أولئك الأشخاص شفعاء لهم عند الله.

أو كان يعتقد أنّ تلك الأوثان طلسمات ركّبت بحسب اتّصالات مخصوصة للكواكب قلّما يتّفق مثلها وإنّها بسبب تلك الاتّصالات والتركيبات شفع لها وتنجح أمورهم بسببها وهذه جملة عقائد أهل الأصنام والأوثان فلذلك أورد إبراهيم عليه السلام حجّته بهذا الطريق فقال: أما إنّها لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضرّ فلا تحسن عبادتها.

وخوّفه وقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾ من جهة الله أن تبقى على كفرك وشركك فتكون موكولا إلى الشيطان ووليّه وهو لا يغنيك عن عذاب الله وتلحق به واللاحق هو الّذي يلي الشيء فتكون له قرينا في النار ولم يقل: فيكون الشيطان وليّك لأنّه أبلغ في الفضيحة وهذا الخطاب من إبراهيم إليه لإطلاق الجدّ والعمّ على الأب وأنّه كان عمّه أو جدّه لأمّه وأنّ أباه الّذي ولده كان اسمه تارخ لإجماع الطائفة على أنّ آباء نبيّنا إلى آدم كلّهم مسلمون موحّدون ولما روي عنه صلى الله عليه وآله قال: «لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهّرات حتّى أخرجني في عالمكم».(١)

١ـ أوائل المقالات، الشيخ المفيد، ص ٤٦؛ ومجمع البيان، ج ٦، ص ٤٢٦؛ وبحار الأنوار، ج ١٥، ص ١١٧.

والكافر غير موصوف بالطهارة لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.[١]

والحاصل ﴿قَالَ﴾ آزر مجيباً لإبراهيم حين دعاه إلى الإسلام: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ﴾ ومعرض ﴿عَنْ﴾ عبادة ﴿ءَالِهَتِى﴾ الّتي هي الأصنام وتارك لها ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ وتمتنع عن هذا الأمر ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بالحجارة وقيل: لأرمينّك بالذنب والعيب والشتم، وقيل: معناه لأقتلنّك.

فانظر أيّها الإنسان كيف راعى إبراهيم قضاء حقّ القرابة والإرشاد إلى الدين الّذي من أعظم أنواع الإحسان وأورد كلامه باللطف ومراعاة حسن الأدب، وما أورد معروفه بالخشونة والغلظة حتّى يصير ذلك سبباً لإعراض المستمع فيكون ذلك في الحقيقة سعياً في الإغواء فقد روي أنّ النبي ﷺ قال: **«أوحى الله إلى إبراهيم أنّك خليلي فحسّن خلقك ولو مع الكفّار تدخل مداخل الأبرار فإنّ كلمتي سبقت لمن حسّن خلقه أن أظلّه تحت عرشي وأن أسكنه حظيرة قدمي وأدنيه من جواري»**.[٢]

ثمّ بعد أن هدّد آزر إبراهيم بالرجم قال: إن بقيت بقربي وما بعدت عنّي لأرجمنّك ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ أي: دهراً طويلاً أو سليماً سويّاً عن عقوبتي، وأتى على فلان ملاوة من الدهر أي: زمان بعيد.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ سلام توديع وهجر ومتاركة وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[٣] ويمكن أن يكون دعا له بالسلامة استمالة له ألا ترى أنّه وعده بالاستغفار وقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾.

١ـ سورة التوبة: ٢٨.

٢ـ تفسير الكشاف، ج ٢، شرح ص ٥١٠؛ وتفسير الرازي، ج ٢١، ص ٢٢٧.

٣ـ سورة فرقان: ٦٣.

واحتجّ الطاعنون في عصمة الأنبياء بهذه الآية وتقريره قالوا: إنّ إبراهيمعليه السلام فعل ما لا يجوز لأنّه استغفر له وهو كافر والاستغفار للكافر لا يجوز وإنّه استغفر لأبيه لقوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ وقوله: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾[1] وأمّا أنّه كافرٌ فذاك بنصّ القرآن وبالإجماع وأمّا أنّ الاستغفار لا يجوز للكافر لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾[2] ولقوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ـ إلى قوله ـ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[3] فأمر الناس بالاقتداء به إلّا في هذا الفعل فهذا فعل منهيّ عنه.

والجواب أنّ القطع على أنّ الله يعذّب الكافر لا يعرف إلّا بالسمع فلعل إبراهيم ما كان في شرعه ما يدلّ على القطع بعذاب الكافر.

أو أنّ الاستغفار قد يكون بمعنى الاستماحة كما في قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾[4] وعلى هذا المعنى قال إبراهيم: سأسأل ربّي أن لا يخزيك بكفرك مادمت حيّاً بعذاب الدنيا المعجّل.

الثالث: أنّهعليه السلام إنّما استغفر له لأنّهعليه السلام كان يرجو منه الإيمان فلمّا أيس منه ترك الاستغفار ولعلّ في شرعه جواز الاستغفار للمرجوّ منه الإيمان ويؤيّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[5] فبين سبحانه أنّ المنع من الاستغفار إنّما يحصل بعد أن يعرفوا أنّهم من أصحاب

١ـ سورة الشعراء: ٨٦.

٢ـ سورة التوبة: ١١٣.

٣ـ سورة الممتحنة: ٤.

٤ـ سورة الجاثية: ٤.

٥ـ سورة التوبة: ١١٣.

الجحيم ثمّ قال: بعد ذلك ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[1] فدلّت الآية على أنّه وعده بالاستغفار لو آمن فلمّا لم يؤمن لم يستغفر له بل تبرّأ منه والمنع من التأسّي به في ذلك لا يدلّ على أنّ ذلك كان منه معصية.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ من بقيّة كلام إبراهيم أي: إنّ ربّي كان بارّاً لطيفاً رحيماً وعوّدني بإحسانه ومكرّماً لي وبما أبتغيه لعلّه يهديك.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ وأتنحّى منكم جانباً [و] عبادة ﴿مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام وأعبد ﴿رَبِّى﴾ وأدعوه ﴿عَسَىٰٓ﴾ وقريب ﴿أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى﴾ ودعوته ﴿شَقِيًّا﴾ محروماً كما شقيتم بعبادة الأصنام وإنّما ذكر «عسى» على وجه الخضوع أو المعنى: لعلّه يقبل طاعتي وعبادتي ولا أشقي بالردّ فإنّ المؤمن بين الخوف والرجاء.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ وفارقهم من أرض بابل وهاجرهم إلى الأرض المقدسة، قيل: إنّه عليه السلام لمّا قصد الشام أتى أوّلاً حرّان وتزوّج بسارة واختار الهجرة إلى ربّه حيث أمره الله لم يضرّه ذلك دينا ودنيا بل نفعه فعوّضه أولاداً أنبياء وليس حالة للبشر أرفع من أن يجعل له رسولاً إلى خلقه ويلزم الخلق إلى طاعته والانقياد له مع ما يحصل فيه من عظيم المنزلة في الآخرة.

ثمّ بيّن سبحانه أنّه مع ذلك لهم من رحمته مع النبوّة وهب له ما وهب من المال والجاه والأتباع والنسل الطاهر والذرّيّة الطيّبة كيف لا وقد حصل من الذرّيّة له من خلق الله العرش بسبب وجوده وهو أحمد صلى الله عليه وآله.

ثمّ قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ واستجاب الله دعوته حيث

١ـ سورة التوبة: ١١٤.

قال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾[1] فصيّره قدوة للعالم كلّه حيث قال عزّ وجلّ: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾[2] و﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾[3] وفدى ابنه بذبح عظيم وأسلم نفسهﷺ لله حيث قال: ﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[4] فجعل الله تعالى النار عليه برداً وسلاماً فقال: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[5] وأشركه الله في الصلوات الخمس حيث تقول هذه الأمّة: كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم، وجعل موطأ قدميه مباركاً حيث يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾[6] وعادى كلّ الخلق في الله فقال: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[7] لا جرم اتّخذه الله خليلاً حيث قال عزّ وجلّ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾[8]

وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾

واذكر يا محمّد في القرآن الّذي هو كتابك وكتاب الخلق إلى يوم القيامة موسى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾ بالقراءتين بفتح اللّام وكسرها أي: كان ذا

١ـ سورة الشعراء: ٨٤.

٢ـ سورة الحج: ٧٨.

٣ـ سورة النحل: ١٢٣.

٤ـ سورة البقرة: ١٣١.

٥ـ سورة الأنبياء: ٦٩.

٦ـ سورة البقرة: ١٢٥.

٧ـ سورة الشعراء: ٧٧.

٨ـ سورة النساء: ١٢٥.

خلوص أو أخلصه اللّه بالنبوّة والرسالة إلى فرعون وقومه.

قيل: إنّ النبوّة والرسالة وصفان مختلفان لكنّ المعتزلة يقولون: إنّها متلازمان وعلى كونهما وصفين مختلفين يكون النداء من جانب الطور تشريفاً ثالثاً لموسى حيث يقول: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ أي: من ناحية اليمين من الطور أو من موسى ورابعها قوله: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ والمراد قرب المنزلة أي: أسمعه كلامه وقيل: المراد قربه حتّى سمع صرير القلم الّذي كتبت به التوراة وعلى المعنيين المراد قرب الكرامة والاصطفاء لا قرب المسافة وهو سبحانه لا يوصف بالحلول في مكان فيكون أحد أقرب إليه من حيث المكان من غيره. وأنعمنا عليه بأخيه هارون وأشركناه في أمره وشددنا به أزره.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الّذي هو القرآن ﴿إِسۡمَٰعِيلَ﴾ بن إبراهيم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ إذا وعداً بشيء وفى به ولم يخلف وقد وصفه اللّه بهذا الخلق الشريف لأنّه روي عن ابن عبّاس أنّه وعدا صاحبا له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة وقيل: ثلاثة أيام، أو المعنى: وعداً من نفسه، الصبر على الذبح حيث قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1] وسئل بعض العلماء عن الرجل يعد ميعاداً إلى أي: وقت ينتظره فقال: إن واعده نهاراً فكلّ النهار وإن واعده ليلاً فكلّ الليل.

﴿وَكَانَ﴾ إسماعيل ﴿رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۞ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ فإن كان المراد بالصلاة والزكاة المفروضتين فالمراد بالأهل هنا الأمّة أجمع وإن حمل على الصلاة والزكاة المندوبتين فالمراد أهله خاصّة ومن كان في داره وقربه.

وقيل: «إنّ إسماعيل بن إبراهيم مات قبل أبيه وأنّ هذا هو إسماعيل بن حزقيل بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة وجهه وفروة رأسه فخيّره الله فيما شاء من عذابهم

١ـ سورة الصافات: ١٠٢.

فاستعفاه ورضي بثوابه وفوّض أمرهم إلى الله في العفو والعقاب». رواه أبو عبد اللهعليه‌السلام. ثمّ قال في آخر الحديث: **«أتاه ملك من ربّه يقرءه السلام ويقول: الله قد رأى ما صنع بك وقد أمرني بطاعتك فأمرني بما شئت، فقال إسماعيل: يكون لي بالحسين أسوة».**[1]

وبالجملة فالنبيّ مأمور بما أمر به من طاعة ربّه أن يبلّغ إلى أمّته والصلاة والزكاة من دعائم الدين النهاية أنّ الكيفيّة تختلف باختلاف الأمم والأنبياء والنبيصلى‌الله‌عليه‌وآله أيضاً كان مأموراً بأن يأمر أهله بالصلاة كما قال الله سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[2] ولابدّ أن يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح ليجعلهم قدوة لمن سواهم كما قال الله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.[3] والصلاة بآدابها وشرائطها من فوائدها أنّها تحقّق معنى العبوديّة وصورتها وتمنع المصلّي عن ارتكاب الفحشاء والمنكر ولذلك صارت عمود الدين.

ومن آدابها الأذان والإقامة قال أبو عبد اللهعليه‌السلام: **«إنّك إذا أذّنت وأقمت صلّى خلفك صفّان من الملائكة وإن أقمت ولم تؤذّن صلّى خلفك صفّ واحد».**[4] وعن محمّد بن مروان عن الصادق قال: **«المؤذّن يغفر له مدّ صوته»**[5]، لعلّ المعنى أنّ أذانه يغفر له ذنوباً تملأ مدّ صوته ووقعت الذنوب في هذا المقدار من الفضاء في الأرض ويشهد له كلّ شيء يسمعه وقال رسول الله في ذيل حديث: **«إنّه يأتي على الناس زمان يطرحون الأذان على ضعفائهم وتلك لحوم حرّمها**

١ـ كامل الزيارات، ص ١٣٨؛ والمناقب، ج ٣، ص ٢٣٨؛ بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٦.

٢ـ سورة طه: ١٣٢.

٣ـ سورة الشعراء: ٢١٤.

٤ـ التهذيب، ج ٢، ص ٥٢؛ ووسائل الشيعة، ج ٤، ص ٦٢٠.

٥ـ التهذيب، ج ٢، ص ٥٢؛ ووسائل الشيعة، ج ٤، ص ٦١٥.

الله على النار[١]**، ومن أذّن سبع سنين احتساباً جاء يوم القيامة ولا ذنب له، وأوّل من يدخل الجنة بلال».**

قال شيخ الطائفة: ولا يجوز الأذان لشيء من الصلوات قبل دخول وقتها ولا بأس أن يؤذّن وهو على غير وضوء ولا بأس للمؤذّن إذا أذّن قبل الفجر لأنّ ذلك ينفع الجيران لقيامهم إلى الصلاة لكنّ السنّة فإنّه ينادي مع طلوع الفجر ولا بأس على المؤذّن أن يتكلّم في الأذان إذا عرض له حاجة ولكن في الإقامة مع الاختيار فلا يجوز[٢]، قال أبو عبد الله عليه السلام: **«يا أبا هارون الإقامة من الصلاة فإذا أقمت فلا تكلّم ولا تؤم بيدك».**[٣] وليتمكّن في الإقامة كما يتمكّن في الصلاة فإنّه إذا أخذ في الإقامة فهو في صلاة وعن يونس الشيبانيّ عن الصادق عليه السلام قلت: أؤذّن وأنا راكب فقال: **«نعم»** قلت: فأقيم وأنا راكب؟ قال: **«لا»**[٤]، وفي رواية أخرى عنه عليه السلام يؤذّن الرجل وهو قاعد قال: **«نعم ولا يقيم إلّا وهو قائم».**[٥]

قال الشيخ: وليس على النساء أذان ولا إقامة بل يتشهّدن شهادتين ولو أذّنّ وأقمن لم يكنّ مأزورات بل مأجورات.[٦]

قال أبو عبد الله عليه السلام: **«إذا أذّنت فلا تخفينّ صوتك فإنّ الله يأجرك مدّ صوتك».**[٧]

١ـ ثواب الأعمال، ص ٣٢؛ ومن لايحضره الفقيه، ج ١، ص ٢٨٣؛ والتهذيب، ج ٢، ص ٢٨٣.

٢ـ التهذيب، ج ٢، ص ٥٣ و٥٤؛ وانظر: وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٣٩١.

٣ـ الكافي، ج ٣، ص ٣٠٦، والاستبصار، ج ١، ص ٣٠١؛ والتهذيب، ج ٢، ص ٥٤.

٤ـ التهذيب، ج ٢، ص ٥٧، وص ٢٨٢؛ وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٦٣٥.

٥ـ الاستبصار، ج ١، ص ٣٠٢؛ والتهذيب، ج ٢، ص ٥٦.

٦ـ التهذيب، ج ٢، ص ٥٧.

٧ـ التهذيب، ج ٢، ص ٥٨؛ وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٦٤٠.

وعن أبي عبد اللّه قال: «**طول مسجد رسول الله قامة فكان ﷺ يقول لبلال إذا دخل الوقت: اعل يا بلال فوق الجدار وارفع صوتك بالأذان فإنّ الله قد وكل بالأذان ريحاً ترفعه إلى السماء فإنّ الملائكة إذا سمعوا الأذان من أهل الأرض قالوا: هذه أصوات أمّة محمّد ﷺ بتوحيد الله ويستغفرون لأمّة محمّد ﷺ حتّى يفرغوا من تلك الصلاة**».[1]

وشكا هشام بن إبراهيم إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام سقمه وأنّه لا يولد له فأمره أن يرفع صوته بالأذان في منزله قال: ففعلت فأذهب اللّه سقمي وكثر ولدي.[2]

قال محمّد بن راشد: وكنت دائم العلّة ما أنفكّ منها في نفسي وجماعة خدمتي فلمّا سمعت من هشام عملت به فأذهب اللّه عنّي وعن عيالي السقم.

قال أبو عبد اللّه عليه السلام: «**من جلس ما بين أذان المغرب والإقامة كان كالمتشحّط بدمه في سبيل الله**».[3]

وأمّا الصلاة فقد سئل الصادق عليه السلام عن أفضل ما يتقرّب به العباد إلى ربّهم فقال: «**لا أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من الصلاة**».[4] وقال رسول اللّه: «**لا يزال الشيطان زعراً من أمر المؤمن هائباً له ما حافظ على الصلوات الخمس فإذا ضيّعهنّ اجترى عليه**».[5]

وعن أبي بصير عن عبد اللّه قال: «**صلاة فريضة خير من عشرين حجّة وحجّه خير من بيت مملوء من ذهب يتصدّق منه حتّى يفنى**».[6]

١ـ المحاسن، ج ١، ص ٤٨، والكافي، ج ٣، ص ٣٠٧؛ والتهذيب، ج ٢، ص ٥٨.

٢ـ الكافي، ج ٦، ص ١٠؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٢٩٢.

٣ـ المحاسن، ج ١، ص ٥٠؛ والاستبصار، ج ١، ص ٣١٠؛ والتهذيب، ج ٢، ص ٦٥.

٤ـ الكافي، ج ٣، ص ٢٦٤؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٢١٠.

٥ـ التهذيب، ج ٢، ص ٢٣٦؛ وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٨١.

٦ـ الكافي، ج ٣، ص ٢٦٥؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٢٠٩.

قال رسول الله: «إنّ عمود الدين الصلاة وهي أوّل ما ينظر فيه من عمل ابن آدم فإن صحّت نظر في عمله وإن لم يصحّ لم ينظر في بقيّة عمله».(١)

قال رسول الله: «انتظار الصلاة بعد الصلاة كنز من كنوز الجنّة».(٢)

وعن الصادق قال: «من قبل الله منه صلاة واحدة لم يعذّبه ومن قبل منه حسنة لم يعذّبه».(٣)

قال رسول الله ﷺ: «ما من صلاة يحضر وقتها إلّا نادى ملك بين يدي الله أيّها الناس قوموا إلى نيرانكم الّتي أوقدتموها على ظهوركم فأطفئوها بصلاتكم».(٤)

وعن زرارة عن الباقر عليه السلام قال: «بينا رسول الله جالس في المسجد إذ دخل عليه رجل فقام فصلّى فلم يتمّ ركوعه ولا سجوده فقال ﷺ: نقر كنقر الغراب لئن مات هذا وهكذا صلاته ليموتنّ على غير ديني».(٥) وفي حديث آخر: «إنّ الله لا يقبل إلّا الحسن فكيف يقبل ما استخفّ به».(٦)

وقال الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾(٧) «هي الفريضة» وفي قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾(٨) «هي النافلة».(٩)

ومن موانع قبول الصلاة قال رسول الله ﷺ: «من تمثّل ببيت شعر من الخنا أي: الفحش لم يقبل منه صلاة في ذلك اليوم ومن تمثّل بالليل لم يقبل منه الصلاة

١ـ التهذيب، ج ٢، ص ٢٣٧؛ وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٢٣.

٢ـ التهذيب، ج ٢، ص ٢٣٧؛ وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٨٥.

٣ـ الكافي، ج ٣، ص ٢٦٦؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٢١١.

٤ـ ثواب الأعمال، ص ٣٥؛ علل الشرايع، ج ١، ص ٢٤٧.

٥ـ انظر: المحاسن، ج ١، ص ٧٩؛ والكافي، ج ٣، ص ٢٦٨؛ التهذيب، ج ٢، ص ٢٣٩.

٦ـ التهذيب، ج ٢، ص ٢٤٠؛ والكافي ج ٣، ص ٢٦٩.

٧ـ سورة المعارج: ٣٤.

٨ـ سورة المعارج: ٢٣.

٩ـ الكافي، ج ٣، ص ٢٧٠؛ التهذيب، ج ٢، ص ٢٤٠.

تلك الليلة».[1]

وعن يونس بن يعقوب قال: سمعت أبا عبد الله يقول: «حجّة أفضل من الدنيا وما فيها وصلاة فريضة أفضل من ألف حجّة».[2]

وقال الصادقعليه السلام: «إنّ الموتور أهله وماله من ضيّع صلاة العصر» قيل له: وما الموتور؟ قال: «لا يكون له أهل ولا مال في الجنّة» قيل: وما تضييعها؟ قال: «يدعها حتّى تصفرّ الشمس وتغيب».[3]

والصلاة بالجماعة تعدل بخمسة وعشرين صلاة.

قال أمير المؤمنينعليه السلام: «من سمع النداء فلم يجبه من غير علّة فلا صلاة له».[4]

وعن أبي عبد الله قال: «إنّ أناساً كانوا على عهد رسول الله أبطئوا عن الصلاة في المسجد فقال رسول الله: ليوشك قوم يتركون الصلاة في المسجد أن أمر بحطب فيوضع على أبوابهم فتوقد عليهم نار فتحرق عليهم بيوتهم».[5]

وعن أصبغ بن نباته عن عليّعليه السلام قال: كان يقول: «من اختلف إلى المسجد أصاب إحدى الثمان: أخاً مستفاداً في الله أو علماً مستطرفاً أو آية محكمة أو يسمع كلمة تدلّه على هدى أو رحمة منتظرة أو كلمة تردّه عن ردى أو يترك ذنباً خشية أو حياء».[6]

قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: «الاتكاء في المسجد رهبانيّة العرب المؤمن مجلسه

١ـ التهذيب، ج ٢، ص ٢٤٠؛ وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٨٥.

٢ـ التهذيب، ج ٢، ص ٢٤٠؛ وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٢٧.

٣ـ التهذيب، ج ٢، ص ٢٥٦؛ وسائل الشيعة، ج ٣، ص ١١١.

٤ـ الكافي، ج ٣، ص ٣٧٢؛ والتهذيب، ج ٣، ص ٢٤.

٥ـ التهذيب، ج ٣، ص ٢٥؛ وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٤٧٨.

٦ـ الخصال، ص ٤٠٩؛ وثواب الأعمال، ص ٢٧.

مسجده وصومعته بيته».(١)

قال أبو عبد الله: «من مشى إلى مسجد لم يضع رجلاً على رطب ولا يابس إلّا سبحت له الأرض إلى الأرضين السابعة».(٢)

قال النبي صلى الله عليه وآله: «من كان القرآن حديثه والمسجد بيته بنى الله له بنياناً في الجنة».(٣)

قال النبي صلى الله عليه وآله: «تعاهدوا نعالكم عند أبواب مساجدكم».(٤)

قال الصادق عليه السلام: «من وقّر بنخامته المسجد لقى الله يوم القيامة ضاحكاً قد أعطي كتابه بيمينه ومن تنخّع في المسجد ثمّ ردّها في جوفه لم تمرّ بداء في جوفه إلّا أبرأته».(٥)

وعن حكم بن الأنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أسرج في مسجد من مساجد الله سراجاً لم يزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له مادام في ذلك المسجد ضوء من ذلك السراج».(٦)

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ﴾ وهي واجبة في تسعة أشياء: الذهب والفضّة والحنطة والشعير والتمر والزبيب والإبل والبقر والغنم السائمة. أمّا الذهب إذا بلغ في الوزن عشرين مثقالاً بشرط أن يكون مضروباً ففيها نصف مثقال وليس فيما دون العشرين شيء. وأمّا الفضّة إذا بلغت مائتي درهم ففيها خمسة دراهم وليس فيما دون المائتين، ليس فيها حتّى تبلغ الأربعين وفي

١ـ الكافي، ج ٢، ص ٦٦٢؛ والتهذيب، ج ٣، ص ٢٤٩.
٢ـ التهذيب، ج ٣، ص ٢٥٥؛ وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٤٨٣.
٣ـ ثواب الأعمال، ص ٢٧؛ التهذيب، ج ٣، ص ٢٥٥.
٤ـ التهذيب، ج ٣، ص ٢٥٦؛ ووسائل الشيعة، ج ٣، ص ٥٠٤.
٥ـ التهذيب، ج٣، ص٢٥٦؛ ووسائل الشيعة، ج ٣، ص ٥٠٠.
٦ـ ثواب الأعمال، ص ٢٩؛ والتهذيب، ج ٣، ص ٢٦١.

الأربعين درهم وليس في شيء من المكسور شيء وكذلك الدنانير بعد نصاب الأوّل ليس شيء إلّا إذا بلغ أربعة وعشرين ثمّ على هذا الحساب.

والذهب والفضّة الّتي لا يعمل به ولا يقلّب في التجارة إذا كان مضروباً وحبس تلزمها الزكاة في كلّ سنة إلّا أن يسبك وما كان منهما ركازاً وعليه الحول فعليه الزكاة ولا زكاة على الحليّ وإن بلغ مائة ألف وزكاته أن يعار إلّا ما فرّ به من الزكاة إذا جعله حليّاً بعد حلول وقت الزكاة عليه وأمّا إذا جعله حليّاً في أوّل السنة أو قبل أن يحول الحول فالظاهر أنّه ليس عليه شيء إذا لم يقصد الفرار.

وأمّا زكاة الحنطة والشعير والتمر والزبيب إذا بلغت بخمسة أوساق وجبت فيها الزكاة والوسق ستّون صاعاً فذلك ثلاثمائة صاع فحينئذ عليه العشر إذا اشرب بالسيح والمطر وأمّا إذا يشرب بالدوالي وأمثالها فنصف العشر ويجب إخراج الخمس بعد إخراج الزكاة ما فضل منها بعد مؤونة السنة أيضاً.

وأمّا زكاة الإبل قال الشيخ: وليس فيما دون الخمسة من الإبل شيء فإذا بلغت خمسا ففيها شاة ثمّ إلى عشره ففيها شاتان ثمّ إلى خمسة عشر ففيها ثلاث من الغنم وإلى عشرين ففيها أربع من الغنم ثمّ إلى خمس وعشرين ففيها خمس من الغنم فإذا زادت واحدة من خمس وعشرين ففيها ابنة مخاض إلى خمس وثلاثين وإذا لم تكن ابنة مخاض فابن لبون فإذا زادت واحدة على خمس وثلاثين ففيها ابنة لبون إلى خمس وأربعين والمراد من ابنة مخاض أي: ما من شأنها أن تحمل وهي ما دخلت في السنة الثانية والمراد من بنت لبون أي: ذات لبن ولو بالصلاحية وهي الّتي سنّها ستتان إلى ثلاث ثمّ نصاب الستّ وأربعين من الإبل حقّة بكسر الحاء وهي الّتي سنّها ثلاث سنين إلى أربع ثمّ إحدى وستّون فجذعة بفتح الجيم والذال سنّها أربع

سنين إلى خمس ثمّ ستّ وستّون فبنتا لبون ثمّ إحدى وتسعون ففيها حقّتان ثمّ إذا بلغت مائة وإحدى وعشرين ففي كلّ خمسين حقّة وكلّ أربعين بنت لبون.(١) قال الشهيد: (ولو لم يطابق أحدهما يجزي أقلّهما عفواً وأمّا البقر فلها نصابان ثلاثون فتبيع وهو ابن سنة إلى سنين أو تبيعة يجز في ذلك وأربعون فمسنّة أنثى سنّها ستين إلى ثلاث وهكذا أبداً يعتبر بالمطابق من العددين).(٢)

وأمّا الغنم لها خمسة نصب: أربعون فشاة ثمّ مائة وإحدى وعشرون فشاتان ثمّ مائتان وواحدة فثلاث شياة ثمّ مائة وواحدة فأربع على الأقوى ثمّ إذا بلغت أربعمائة فصاعداً ففي كلّ مائة شاة ويشترط فيها الحول والسوم، والسخال والأولاد إذا بلغت النصاب وبلغت حولا بإنفرادها من دون أن يتبعن امّهاتهنّ أيضاً يجب الزكاة وابتداء حول السخال والأولاد غناؤها بالرعي ولو ثلم النصاب قبل تمام الحول فلا شيء ويجزي في الشاة الواجبة في الإبل والغنم من الضأن ما كمل سنّه سبعة أشهر ومن المعز ما كمل سنّه سنة ولا يكفي إعطاء الشاة النفساء إلى خمسة عشر يوماً عوضاً عن الزكاة وإن رضي المالك ولا المعيبة ولا المريضة ولا الهرمة وليس على الأكولة أي: المعدّة للأكل زكاة ولا على فحل الضراب أيضاً انتهى مبحث الصلاة والزكاة.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ قيل: كان يأمر أهله بصلاة الليل وصدقة النهار وكان إسماعيل عند ربّه بواسطة هذه الأعمال مرضيّاً عند ربّه لأنّها كلّها طاعات فحصل له عند الله المنزلة العظيمة.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ

١ـ انظر: الخلاف، ج ٢، ص ٩، والمبسوط، ج ١، ص ١٩٢.

٢ـ شرح اللمعة، ج ٢، ص ١٤ ٨ وانظر: ذخيرة المعاد. ج ١ ق ٣، ص ٤٣٤.

إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾

ثمّ ذكر سبحانه حديث إدريس هو جدّ أبي نوح واسمه أخنوخ سمّي إدريس لكثرة دراسته وصفه اللّه بأنه صدّيق وأنّه نبيّ والوصف الثالث بأنه رفيع المكانة أو المكان لأنّ اللّه رفعه إلى السماء وإلى الجنّة وهو حيّ لم يمت وقيل: رفع إلى السماء وقبض روحه وقيل: والقائل ابن عبّاس: جاء خليل له من الملائكة فسأله حتّى يكلّم ملك الموت ويسأله هل يمكن أن يؤخّر قبض روحه فيؤخّر فحمله ذلك الملك بين جناحيه فصعد به إلى السماء فلمّا كان في السماء الرابعة فإذا ملك الموت يقول: بعثت وقيل لي: اقبض روح إدريس في السماء الرابعة وأنا أقول: كيف ذلك وهو في الأرض فالتفت إدريس فرآه ملك الموت فقبض روحه هناك.[١]

وبالجملة شرّفه اللّه بالنبوّة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة وهو أوّل من خطّ بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب وأوّل من خاط الثياب ولبسها وكانوا يلبسون الجلود.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ وهو سبحانه أثنى على كلّ واحد ممّن تقدّم ذكره بما يخصّه من الثناء ثمّ جمعهم أخيرا فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بالنبوّة والكرامة من لدن زكريّا إلى إدريس وجمعهم في كونهم ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ ثمّ خصّ بعضهم بأنّه من ذرّيّة من حمل مع نوح لأنّ بعضهم من ذرّيّة آدم وهو إدريس لأنّه كان قبل نوح وبعضهم من ذرّيّة من حمله مع نوح

١ـ تفسير الرازي، ج ٢١، ص ٢٣٣. وراجع: تفسير ابن كثير، ج ٣، ص ١٣٣.

وهو إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وزكريّا ويحيى وعيسى من قبل الأمّ وهؤلاء كلّهم من أولاد إبراهيم وإبراهيم من أولاد سام بن نوح وقد فضّلوا بطهارة المولد والنسب كما فضّلوا بالأعمال الصالحة.

ثمّ بيّن سبحانه أنّهم ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ بأعمالهم وهدايتنا وهم في حال وشأن ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا﴾ حال كونهم ساجدين باكين حذراً وخشوعاً وخوفاً والمراد ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ كتبهم المنزلة بما تتضمّن الوعد والوعيد والترغيب والترهيب لأنّ كلّ ذلك إذا تأمّل المتفكّر ينبغي أن يسجد عنده وأن يبكي واختلف في هذه السجود فقيل: إنّه الصلاة وقيل: المراد سجود التلاوة ﴿وَبُكِيًّا﴾ جمع باك وزنه فعول مثل قعود.

وعن رسول اللهﷺ: «**اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا**»[1] وعن صالح المريّ قال: قرأت القرآن على رسول اللهﷺ في المنام فقال لي: «**يا صالح هذه القراءة فأين البكاء**» وعن رسول اللهﷺ: «**القرآن نزل بحزن فاقرؤوه بحزن**».[2] وعنهﷺ: «**إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتّى تبكوا**»[3] وعنه: «**ما اغرورقت عين به بماء إلّا حرّم الله جسدها على النار**»[4] وعنهﷺ: «**لا يلج النار من بكى من خشية الله**».[5] ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات ﴿خَلْفٌ﴾ والخلف بسكون اللّام البدل السيّئ أي: قوم سوء قيل: المراد هم اليهود ومن تبعهم لأنّهم من ولد إسرائيل وقيل: هم من هذه الأمّة إلى قيام الساعة جماعة بعكسهم موصوفون بإضاعة الصلاة واتّباع الشهوات

١ـ الصافي، ج ٣، ص ٢٨٦؛ والكشاف، ج ٢، ص ٥١٤.

٢ـ تفسير الرازي، ج ٢١، ص ٢٣٤؛ وتفسير النسفي، ج ٣، ص ٤١.

٣ـ الكشاف، ج ٢، شرح ص ٥١٤؛ وتفسير الرازي، ج ٢١، ص ٢٣٤.

٤ـ انظر: الأمالي، الشيخ المفيد، ج ص ١٤٣؛ وبحار الأنوار، ج ٩٠، ص ٣٣٥.

٥ـ وسائل الشيعة، ج ٤، ص ١١٢٣؛ ومستدرك الوسائل، ج ١١، ص ٢٤٦.

قيل: المراد: أضاعوها بتأخيرها عن مواقيتها من غير أن يتركوها عن ابن مسعود وهو المرويّ عن أبي عبد الله عليه السلام.[1]

قال ابن عبّاس: (هم اليهود تركوا الصلوات المفروضة وشربوا الخمر واستحلّوا نكاح الأخت من الأب شرّابون للقهوات اللعّابون بالكعبات ركّابون للشهوات متّبعون للّذات تاركون للجماعات والجمعات فسوف هؤلاء يلقون مجازات الغيّ والضلال). وقيل: يلقون شرّاً وخيبة وقيل: الغيّ واد في جهنم.

﴿إِلَّا مَن﴾ ندم ورجع إلى ما سلف ﴿وَءَامَنَ﴾ في مستقبل عمره ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وتدارك ما فات من الواجبات بل المندوبات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ ويبخسون ﴿شَيْـًٔا﴾ من ثوابهم وفي هذا دلالة على أنّ الله لا يمنع أحداً ثواب عمله ولا يبطله لأنّه سبحانه سمّى ذلك ظلماً. و«يدخلون» قرئ مجولاً ومعلوماً.

جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

«جنّات» بدل عن الجنّة المذكورة في الآية السابقة.

ولمّا ذكر حال التائب أنّه يدخل الجنّة وصف الجنّة في هذه الآية بأمور:

أحدها قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ والعدن الإقامة وصفاً على الدوام بخلاف جنّات الدنيا. ومعنى ﴿وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وعدها وهي غائبة عنهم

١ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٣١؛ والصافي، ج ٣، ص ٢٨٧؛ وانظر: الكافي، ج ٣، ص ٢٧٠.

غير مشاهدة لهم أو المراد أنّها للّذين يؤمنون به بالغيب ويعبدونه في السرّ بخلاف المنافقين فإنّهم يعبدونه في الظاهر ولا يعبدونه في السرّ والواقع. ثمّ قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ يقيناً و«مأتيّا» مفعول بمعنى فاعل وما أتاك فقد أتيته وكلّ ما وصل إليك فقد وصلت إليه والمراد أنّ الوعد منه تعالى وإن كان بأمر غائب فهو كأنّه مشاهد.

والوصف الثاني ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ واللغو من الكلام ما من شأنه أن يلقى ويطرح أي: لا يسمعون كلاما معرضا عنه. أمّا قوله: ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ فإن قيل: إنّ السلام ليس من جنس اللغو فكيف استثنى السلام من اللغو؟ فالجواب أن يحمل على الاستثناء المنقطع أو من باب استثناء المدح بما يشبه الذمّ وهو عين المدح كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

والسلام محتمل أن يكون تحيّة بعضهم على بعض أو من تسليم الملائكة أو من تسليم اللّه سبحانه كقوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.[1]

الوصف الثالث من الجنّة والرابع ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ والمراد دوام الرزق كما تقول: أنا عند فلان صاحباً ومساء وبكرة وعشيّاً تريد الدوام ولا تريد بيان الوقتين لأنّه لا صباح عند ربّك ولا مساء وليس في الجنّة ليل ولا نهار والمراد أنّهم يأكلون عند مقدار الغداة والعشيّ وقد أراد اللّه سبحانه أن يرغّب كلّ قوم بما أحبّوه في الدنيا ولذلك ذكر أساور من الذهب والفضّة ولبس الحرير الّتي كانت عادة العجم والأرائك الّتي هي الحجال المضروبة على الأسرة وكانت من عادة أشراف العرب من اليمن ولا شيء كان أحبّ إلى العرب من الغداء والعشاء.

١ـ سورة يس: ٥٨.

﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ هذه الإشارة صحّت حيث إنّها غائبة ﴿نُورِثُ﴾ أي: نبغي عليه كما نبغى على الوارث مال المورّث وهذا الإرث لمن أطاع من عبادنا واتّقى وقيل: أورثهم اللّه من الجنّة المساكين الّتي كانت لأهل النار لو أطاعوا اللّه وأضاف العباد إلى نفسه أراد به المؤمنين.

قال بعض المعتزلة كالقاضي وأصحابه: إنّ في الآية دلالة على أنّ الجنّة يختصّ بدخولها من كان متّقياً والفاسق المرتكب للكبائر لا يوصف بذلك. والجواب: الآية تدلّ على أنّ المتّقي يدخلها وليس فيها دلالة على أنّ غير المتّقي لا يدخلها وأيضاً فصاحب الكبيرة متّق عن الكفر ومن صدق عليه أنّه متّق عن الكفر صدق عليه أنّه متّق لأنّ المتّقي جزء من مفهوم قولنا المتّقي عن الكفر وإذا كان صاحب الكبيرة يصدق عليه أنّه متّق وجب أن يدخل تحته فدلالة الآية بأنّ صاحب الكبيرة يدخل الجنّة أولى من أن تدلّ على أن لا يدخلها.

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ الآية سبب النزول: قيل: إنّ هذه الكلمات من كلام جبرئيل. وقيل: من كلام أهل الجنّة حين يدخلونها فعلى كونها من كلام جبرئيل فالسبب في النزول أنّ قريشاً بعثت خمسة رهط إلى يهود المدينة والنصارى يسألونهم عن صفة محمّدﷺ وهل يجدونه في كتابهم فسألوا النصارى فزعموا أنّهم لا يعرفونه وقالت اليهود: نجده في كتابنا وهذا زمانه وقد سألنا رحمن اليمامة عن ثلاث أمور فلم يعرف فاسألوه عنهنّ فإن أخبركم بخصلتين منها فاتّبعوه فاسألوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فجاءوا يسألوه عن ذلك فلم يدر كيف يجيبهم فوعدهم أن يجيبهم فأبطأ عليه جبرئيل قيل: خمسة عشر يوماً فشقّ عليهﷺ مشقّة شديدة وقال بعض الناس: ودّعه ربّه وتركه فنزل جبرئيل فقال له النبيﷺ:

«أبطأت عنّي واشتقت إليك وشقّ ذلك عليّ قال جبرئيل: إنّي كنت أشوق إليك ولكنّي عبد مأمور إذا بعثت نزلت وإذا حبست احتبست وقال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ »والغرض أنّ أمرنا موكول إلى الله ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ حالنا ومستقبلنا وماضينا أو دنيانا وآخرتنا وما بينهما وما نساك وتركك ربّك وما كان امتناع النزول للنسيان وترك الله لك بل لامتناع الأمر به هذا إذا كان المحكيّ عن قول جبرئيل وأمّا إذا كان من قول أهل الجنّة بعد الورود فالمعنى إنّا ما نتنزّل الجنّة إلّا بأمر ربّك.

﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ مستقبلاً في الجنّة وما خلفنا ممّا كان في الدنيا وما بين ذلك ما بين الوقتين والنفختين أو ابتداء خلقنا ومدّة آجالنا وما كان ربّك نسيّاً لشيء ممّا خلق فيترك وما يعزب عن علمه مثقال ذرّة.

وقيل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ابتداء كلام منه تعالى في مخاطبة الرسول.

ويتّصل به ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ﴾ فأمره بالعبادة والمصابرة على مشاقّ التكليف والإبلاغ.

فإن قيل: إذا كان قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ كلام غيره فكيف جاز عطف هذا على ما قبله وهو قوله: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ من غير فصل؟

فالجواب إذا كانت القرينة ظاهرة لم يضرّ كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[١] هو كلام وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾[٢] كلام غير الله وأحدهما معطوف على الآخر.

وبالجملة ثمّ خاطب نبيّه ﷺ ﴿هَلْ تَعْلَمُ﴾ لربّك ﴿سَمِيًّا﴾ أي: من

١ـ سورة البقرة: ١١٧؛ وسورة آل عمران: ٤٧؛ وسورة مريم: ٣٥؛ وسورة غافر: ٦٨.

٢ـ سورة آل عمران: ٥١.

يكون مثلاً وشبيهاً في القدرة ويكون له علامة مثله ويستحقّ أن يكون إلهاً إلّا هو؟ وهذا استفهام بمعنى النفي أي: لا تعلم من يسمّى ويتّسم بصفة القدرة والخلق والرزق والإحياء والإماتة والثواب والعقاب فإذا كان الأمر كذلك فالزم عبادته واصطبر عليها.

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

هذه الآية جواب لمنكري الحشر ويكذّبون القيامة وإذا كان كذلك فما فائدة العبادة وقد أمر بالعبادة؟ فلهذا حكى الله قول منكري الحشر.

والمراد بالإنسان نوع القائلين بعدم البعث ولو أنّ كل نوع الإنسان لا يقول بهذا القول: لأنّه لمّا كانت هذه المقالة موجودة في نوعهم صحّ إسنادها إلى جميعهم كما يقال: بنو فلان قتلوا فلاناً وإنّما كان القاتل رجل منهم أو أنّ هذا الاستبعاد ابتداء موجود في طبع كلّ إنسان إلّا أنّ بعضهم ترك الاستبعاد المبنيّ على الطبع بالدلالات القاطعة الّتي قامت على صحّة القول به.

هذا إذا كان المراد نوع الإنسان وإذا كان المراد شخص مخصوص كما قيل: إنّها نزلت في أبيّ بن الخلف الجمحيّ وذلك أنّه أخذ عظماً بالياً فجعل يفتّته بيده ويذريه في الريح ويقول: يزعم محمّد أنّ الله يبعثنا بعد أن نموت ونصير عظاماً مثل هذا إنّ هذا شيء لا يكون أبداً وهذا استفهام بطريق الإنكار والاستهزاء ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ مجيباً لهذا الكافر: أولا يتذكّر هذا الإنسان القائل الجاحد حال ابتداء خلقه ليستدلّ بالابتداء على الإعادة كما بدأنا هم أوّل مرّة نعيدهم ثاني مرّة فحصول البدء من العدم يدلّ على إمكان

العود فرضاً من العدم.

قال بعض المتكلّمين: لو اجتمع كلّ الخلائق على إقامة حجّة في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها إذ لا شكّ أنّ الإعادة ثانياً أهون من الإيجاد أولا وهذا معنى إعجاز القرآن.[1]

أو لم يتذكّر ويتدبّر هذا الإنسان ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ موجوداً حيّاً أي: قدّرناه في العلم حيث كان اللّه ولم يك معه شيء فكلّ يعلم هذا الأمر.

ثمّ أردف الدليل بالتهديد بالقسم والعادة جارية بتأكيد الخبر باليمين وفي هذا اليمين والإضافة تفخيم لشأن الرسول ورفع لدرجته. والواو في ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ يجوز أن يكون للعطف وأن يكون بمعنى «مع» وبمعنى مع أوقع أي: أنّهم مع قرنائهم من الشياطين الّذين أغووهم يقرن كلّ كافر مع شيطان في سلسلة.

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ باركين على ركبهم كصورة الذليل العاجز وهذا الإحضار يكون قبل إدخالهم جهنّم.

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ﴾ كلّ جماعة وفرقة شايعت وتبعت غاوياً من الشياطين والغواة من كان أشدّ عتواً وتمرداً. ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ﴾ بالنار ﴿صِلِيًّا﴾ عذاباً وبلزوم النار الأعتى فالأعتى منهم والعتيّ من العتوّ.

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ

١ـ تفسير الرازي، ج ٢١، ص ٢٤١.

ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾

المعنى: لمّا بيّن سبحانه في الآية السابقة بيان الحشر فقال: وما من أحد منكم إلّا وارد جهنّم. واختلف العلماء في معنى الورود فقال بعضهم: لا يجوز للمؤمنين أن يردو النار والدليل على أنّ المراد بالورود القرب لا الدخول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[1] والمبعد عنها لا يوصف أنّه واردها. الثاني قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾[2] ولو وردوا جهنّم لسمعوا حسيسها. الثالث قوله: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[3] فهذه الآيات تدلّ على أنّ المراد بالورود غير الدخول. واحتجّوا أيضاً على أنّ الورود قد يراد به القرب لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾[4] ومعلوم أنّ ذلك الوارد ما دخل الماء وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾[5] وأراد به القرب ويقال: وردت القافلة البلدة وإن لم تدخلها، فعلى هذا معنى الآية أنّ الإنس والجنّ يحضرون حول جهنّم.

كان ذلك على ربّك حتماً مقتضياً واجباً. ثمّ ننجّي الّذين اتّقوا ونبعدهم عن جهنّم وهو المراد من قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾

وقال الأكثرون: إنّ المراد بالورود الدخول ويدلّ عليه الآية والخبر: أمّا الآية فقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا

١ـ سورة الأنبياء: ١٠١

٢ـ سورة الأنبياء: ١٠٢.

٣ـ سورة النمل: ٨٩.

٤ـ سورة يوسف: ١٩.

٥ـ سورة القصص: ٢٣.

وَٰرِدُونَ ﴾[١] وقال تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾[٢] ويدلّ عليه قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ والمبعد وهو الّذي لو لا التبعيد لكان في النار.

وقوله: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ وهذا يدلّ على أنّهم قد دخلوا النار.

وأمّا الخبر فهو أنّ عبد اللّه بن رواحة قال للنبي صلى الله عليه وآله: أخبر اللّه عن الورود ولم يخبر عن الصدور فقال صلى الله عليه وآله: **«يا ابن رواحة اقرأ ما بعدها ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾ ».**[٣]

وذلك يدلّ على أنّ ابن رواحة فهم من الورود الدخول والنبي صلى الله عليه وآله ما أنكر عليه في ذلك.

وعن جابر أنّه سئل عن هذه الآية فقال[٤]: سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول: **«الورود الدخول لا يبقى برّ ولا فاجر إلّا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً حتّى أنّ للناس ضجيجاً من بردها فحينئذ المؤمنون يدخلون النار من غير خوف وضرر بل مع الغبطة والسرور لأنّ اللّه أخبر عنهم أنّهم ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ »**[٥] ولأنّ الآخرة دار الجزاء لا دار التكليف، وإيصال الغمّ والحزن إنّما يجوز في دار التكليف.

وقد وردت الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله: **«أنّ الملائكة يبشّر في القبر من كان من أهل الثواب بالجنّة حتّى يرى مكانه في الجنّة ويعلمه».**[٦]

ثمّ اختلفوا في أنّه كيف يندفع عنهم ضرر النار فقال بعضهم: البقعة

١ـ سورة الأنبياء: ٩٨.

٢ـ سورة هود: ٩٨.

٣ـ تفسير الرازي، ج ٢١، ص ٢٤٣.

٤ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٤٢؛ وبحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٤٩.

٥ـ سورة الأنبياء: ١٠٣.

٦ـ تفسير الرازي، ج ٢١، ص ٢٤٣؛ وانظر: من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ١٣٨، ح ٣٧٥.

الّتي سمّيت جهنّم لا يبعد أن يكون في خلالها ما لا نار فيه ويكون من المواضع الّتي يسلك فيها إلى دركات جهنّم وإذا كان كذلك لم يمتنع أن يدخل الكلّ في جهنّم فالمؤمنون يكونون في تلك المواضع الخالية عن النار والكفّار يكونون في النار أو أنّ اللّه يخمد النار فيعبرها المؤمنون وتنهار بالكافرين.

قال ابن عبّاس: (يردونها كأنّها هالة أو أنّ حرارة النار ليست بطبعها فالأجزاء الملاصقة لأبدان الكفّار يجعلها اللّه عليهم موذية محرقة والأجزاء الملاصقة لأبدان المؤمنين يجعلها اللّه برداً وسلاماً كما في حقّ إبراهيم وكما أنّ الكوز الواحد من الماء كان يشربه القبطيّ فكان يصير دماً والإسرائيليّ يشربه فكان يصير ماء عذبا كما أنّه لابدّ من أحد هذه الوجوه في الملائكة الموكّلين بالعذاب حتّى يكونوا في النار مع المعاقبين).

فان قيل: إذا لم يكن على المؤمنين عذاب في دخولهم النار فما الفائدة في ذلك؟ فيه وجوه: أحدها: أنّ ذلك ممّا يزيدهم سروراً إذا علموا الخلاص منه وفيه مزيد غمّ للكافرين حيث يرون المؤمنين الّذين هم أعداؤهم يتخلّصون منها وهم يبقون فيها وأنّ المؤمنين كانوا يخوّفونهم من النار والحشر والنشر وما كانوا يقبلون منهم الدلائل فإذا دخلوا جهنّم معهم أظهروا لهم أنّهم صادقين والغلبة على الخصم من اللذائذ لهم ومزيد العذاب عليهم، ثمّ إنّ المؤمنين إذا شاهدوا ذلك العذاب صار ذلك سبباً لمزيد التذاذهم بنعيم الجنّة كما قيل: «وبضدّها تتبيّن الأشياء» فقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ المراد: عن عذابها مبعدون فلا ينافي الدخول.

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ كائناً لا محالة واقعا قد قضى به وكلمة «على» معناه الوجوب والمحتوم وفيه دلالة على أنّه يجب عليه سبحانه أشياء من طريق الحكمة واللطف خلافاً لما ذهب إليه أهل الجبر.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ قال ابن عبّاس: (أي: الّذين اتّقوا الشرك وصدّقوا وآمنوا)، قال النبي ﷺ: «يرد الناس النار ثمّ يصدرون بأعمالهم فأوّلهم كالبرق اللامع ثمّ كمرّ الريح ثمّ كمحضر الفرس ثمّ كالراكب ثمّ كشدّ الرحل وعدوه ثمّ كمشيه».(١)

وعن رسول اللّه مرفوعاً: «تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جزيا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي».(٢)

﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا﴾ جاثين وفي الاعتقادات روي أنه لا يصيب أحداً من أهل التوحيد ألم من الدخول في النار إذا دخلوها وإنّما يصيبهم الألم عند الخروج منها فتكون تلك الآلام جزاء بما كسبت أيديهم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

ومن المعتزلة من تمسّك في الوعيد بقوله: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ ولفظ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ لفظ جمع دخل عليه حرف التعريف فيفيد العموم.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: إذا تتلى على الكافرين آياتنا المنزلة في القرآن ظاهرات الحجج بحيث يمكن تفهّمها ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ لو كنتم أنتم على الحقّ وكنّا على الباطل لكان حالكم في الدنيا أحسن وأطيب من حالنا، ويوقعون هذه الشبهة في الناس وكانوا يقولون: إنّ الحكيم لا يليق به أن يوقع أوليائه المخلصين في الذلّ والفقر والعذاب وأعداءه المعرضين عن خدمته في العزّ والراحة ولمّا كان الأمر بالعكس وكان الكفّار في النعمة والراحة والاستعلاء والمؤمنون في ذلك الوقت في الخوف والذلّ لبسوا على الضعفاء بأنّهم على الحقّ.

روي أنّهم كانوا يرجّلون شعورهم ويدّهنون ويتطيّبون ويتزيّنون بالزينة

١ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٤٢؛ وبحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٤٩؛ وسنن ترمذي، ج ٤، ص ٣٧٨.

٢ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٤٣؛ وكنز العمال، ج ١٤، ص ٣٨٥.

الفاخرة ثمّ يدّعون مفتخرين على فقراء المؤمنين أنّهم أكرم على الله، فأجاب الله عن شبهتهم بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ بأنواع العذاب فلو دلّ حصول النعمة على كونه محبوباً صاحبه عند الله لوجب أن لا يعذّبهم ولا يصل إليهم مكروهاً وأولئك الّذين أصابهم المكروه والعذاب منّا كانوا أجمل وأكثر مالاً منكم ومتاعاً ومقاماً ﴿وَرِءْيًا﴾ أي: هيئة ومنظراً. وقرئ «ريئا» على القلب وريًا من النعمة والترفّه، وقرئ بالزاي أخت الراء من الزيّ والمعنى: محاسن مجموعة والشأن.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ هذا هو الجواب الثاني عن تلك الشبهة وتقريره أنّه نفرض أنّ هذا الضّالّ المتنعّم في الدنيا قد مدّ الله في أجله وأمهله مدّة مديدة فلابدّ وأن ينتهي إلى العذاب إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة بعد ذلك.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ بعد ما رأوا العذاب أنّ الأمر بعكس ما زعموا وقوله: ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مذكور في مقابلة «خير مقاماً» وقوله: ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ في مقابلة قولهم: «أَحْسَنُ نَدِيًّا» والحاصل أنّهم وإن ظنّوا في الحال أنّ منزلتهم أفضل من حيث إنّه فضّلهم الله بالمقام والنديّ فسيعلمون أنّهم شرّ مكاناً لأنّه لا مكان شرّ من النار.

﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ أمر معناه الخبر وتأويل المعنى أنّ من كان في الضلالة واختارها على الهدى حقّه أن نمدّ له ونتركه فيها كقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1] ولفظ الأمر يؤكّد معنى الخبر فكأنّ المتكلّم يقول: أفعل ذلك لأجل ذا.

وبالجملة اخرج الخبر بلفظ الأمر ايذاناً بوجوب ذلك ووقوعه لقطع

١ـ سورة الأنعام: ١١٠.

معاذيرهم ويقال لهم: أو لم نعمّركم لتتأمّلون وتنبّهون؟

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ﴾ قيل المراد عذاب الاستيصال. وقيل: عذاب القبر. وقيل: عذاب السيف والذلّ. والمراد من العذاب غير عذاب القيامة ﴿وَإِمَّا﴾ عذاب ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ فهو أوّل عذاب القيامة فهذه معاملتنا مع الكفّار.

وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدًىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

في «الكافي» عن الصادقعليه السلام قال: «**كلّهم كانوا في الضلالة الّذين لا يؤمنون بولاية عليّ حتّى إذا رأوا ما يوعدون بخروج القائم وما ينزل بهم من العذاب فسيعلمون من هو...**».[1] وأمّا مع المؤمنين فـ﴿يَزِيدُ ٱللَّهُ﴾ المهتدين بالإيمان والتصديق بالنبوّات ﴿هُدًى﴾ على هداهم مثلاً الإيمان هدى والإخلاص في الإيمان زيادة هدى.

هذا إذا فسّرنا الهداية على ظاهره وإذا فسّرنا الهداية على الثواب فواضح.

ثمّ شرح سبحانه أنّ المهتدين الّذين يعملون الأعمال الصالحة الباقية وتدوم ولا تبطل وهي الإيمان والفرائض والسنن كالصلوات والصلاة والتسبيح.

وعن أبي الدرداء قال: جلس رسول اللهصلى الله عليه وآله ذات يوم وأخذ عوداً فأزال الورق عنه ثمّ قال: «**إنّ قول لا إله إلّا الله والله أكبر وسبحان يحط الخطايا حطّاً كما يحطّ ورق هذه الشجرة الريح خذهنّ يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهنّ،**

١ـ الكافي، ج ١، ص ٤٣١؛ وبحارالأنوار، ج ٢٤، ص ٣٣٢.

هنّ الباقيات الصالحات وهنّ من كنوز الجنة». وكان أبو الدرداء يقول: لأعملنّ ذلك ولأكثرنّ منه حتّى إذا رآني جاهل حسب أنّي مجنون.[1]

والمراد أنّها خير ممّا ظنّه الكفّار بقولهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ فأخبر أنّها خير ثواباً وخير مرجعاً.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

سبب النزول: عن خباب بن الأرت قال: كان لي على العاص بن وائل دين فاقتضيته وكنت رجلاً غنياً فلمّا أتيته أتقاضاه قال لي: لا أقضيك حتّى تكفر بمحمّدﷺ فقلت له: لن أكفر به حتّى نموت ونبعث قال العاص: فإنّي لمبعوث بعد الموت فسوف أقضيك دينك إذا رجعت. فنزلت الآية.

لمّا ذكر سبحانه الدلائل على صحّة وشبهة المنكرين ذكر ما ذكروه على سبيل الاستهزاء طعناً في القول بالحشر فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ وهذه الكلمة تستعمل في التعجّب ومعناه: أرأيت هذا الكافر الّذي كفر بأدلّتنا من القرآن ومن هو مثله وبصفته في الكفر ﴿وَقَالَ﴾ على سبيل الاستهزاء: لأعطينّ ﴿مَالًا وَوَلَدًا﴾ ألستم تزعمون أنّ في الجنّة الذهب والفضّة والحرير؟ قال خباب: بلى قال: فموعد ما بيني وبينك الجنّة فو اللّه لأوتينّ فيها خيراً ممّا أوتيت في الدنيا فأنكر اللّه سبحانه عليه وقال: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ وبلغ شأنه إلى أن ارتقى إلى عالم الغيب حتّى ادّعى أنّه يؤتى في الآخرة مالاً وولداً وتألّى عليه ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قيل: بعمل صالح أم عهد اللّه إليه أنّه

١ـ تفسير الرازي، ج ٢١، ص ٢٤٨؛ وانظر: كنز العمال، ج ١٦، ص ٢٤٨.

يدخل الجنّة. وقيل: أم قال: لا إله إلّا الله فيرحمه الله بها.

﴿كَلَّا﴾ وكلّا تستعمل بمعنى «لا» وهو معنى الإنكار والردع، وتارة تستعمل بمعني «ألا» للتنبيه فقال سبحانه: ليس الأمر كذلك ﴿سَنَكْتُبُ﴾ أي: سنأمر الحفظة بإثبات ﴿مَا يَقُولُ﴾ لنجازيه عليه ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: نصل إليه بعض العذاب بالبعض ونزيد عذاباً فوق العذاب دائماً.

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي: نرث ما عنده من المال والولد بإهلاكنا إيّاه لأنّه كان يقول: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ فيقول الله: نحن نرث المال والولد ويبقى في الآخرة وحيداً بلا عدّة ولا عدد يأتينا فنعدّ به.

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

المعنى: حكى الله عن عبدة الأصنام أنّهم إنّما اتّخذوا آلهة لأنفسهم ليكونوا عزاً لهم حيث يكونون لهم شفعاء في الآخرة وليصيروا بسببهم إلى العزّ أو ليمنعوهم منّي وينقذوهم من المهالك فأجاب الله بقوله: ﴿كَلَّا﴾

وهو ردعهم من هذا الاعتقاد وقرء ابن نهيك: كلّا أي: كلّهم ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا بل صاروا بهم إلى الذلّ والعذاب.

واختلفوا في الضمير في «يكفرون» قيل: إلى المعبود وقالوا: إن اللّه يحيي هذه الأصنام يوم القيامة حتّى يوبّخوا عابديهم ويتبرّؤوا منهم فيكون ذلك أعظم لحسرتهم.

ومن الناس يقولون: إنّ الضمير يرجع إلى العابدين أي: إنّ المشركين يوم القيامة ينكرون أنّهم عبدوا الأصنام.

أمّا قوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ فذكر ذلك في مقابلة قوله: ﴿لَهُمْ عِزًّا﴾ أي: يكونون عليهم ضدّ ما قصدوه. والضدّ يكون واحداً وجمعاً كالعدوّ.

ولمّا ذكر حال المشركين مع الأصنام ذكر بعده حالهم مع الشياطين في الدنيا فإنّهم ينقادون للشياطين فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ﴾ أي: خلّينا بينهم وبين الشياطين إذا وسوسوا إليهم. قال القاضي: إذا حملنا لفظ الإرسال على الحقيقة فكان يجب في الكافر أن يكون بقبوله من الشيطان مطيعاً للّه وذلك كفر لأنّ الكافر لا يكون إلّا عاصياً متمرداً، وهذه التخلية تسمّى إرسالاً في سعة اللغة كما إذا لم يمنع الرجل كلبه من دخول بيت جيرانه يقال: أرسل عليه كلبه، وإن لم يرد أذى جاره، وهذه التخلية وإن كان فيها تشديد للمحنة عليهم ولكنّهم متمكّنون من أن لا يقبلوا منهم ويكون ثوابهم على ترك القبول أعظم والدليل عليه قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[1] وذلك مثل جعل قوّة الزنا في الإنسان لكنّه لا يضطرّ الإنسان بجعل القوّة إلى الزنا بحيث لم يتمكّن من تركه.

١ـ سورة إبراهيم: ٢٢.

﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي: تزعجهم إزعاجا من الطاعة إلى المعصية. الأزّ والهزّ والاستفزاز أخوات في معنى التهييج أي: تغريهم وتحثّهم بالوساوس والتسويلات تقول لهم: امض امض لا يفوتك هذا الأمر، حتّى توقعهم في النار.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ معناه فلتطب نفسك يا محمّد ولا تستعجل لهم العذاب فإنّ مدّة بقائهم قليلة فإنّا نعدّ لهم الأيّام والسنين والأنفاس وما دخل تحت العدّ إلى الأجل الّذي أجّلناه لعذابهم. نزلت في المستهزئين بالقرآن وهم خمسة رهط، وكان ابن عبّاس إذا قرأ الآية بكى وقال: آخر العدد خروج نفسك آخر، العدد دخول قبرك، آخر العدد فراق أهلك. قال ابن السماك: إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما نفد.(١)

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ ثمّ بيّن حال ما سيعدّ للمتّقين والمجرمين فقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ﴾ أي: اذكر يوم نحشر المتّقين إلى محلّ كرامة الرحمن وإلى دار ثوابه وفوداً وجماعات عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله والّذي نفسي بيده إنّ المتّقين وهم الّذين اجتنبوا الشرك والمعاصي في الدنيا إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة عليها رجال من الذهب**».(٢)

وكذلك ﴿نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ على المسير ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ عطاشا كالإبل الّتي ترد عطاشا إلى الماء وهم يساقون بإهانة واستخفاف و«الورد» اسم للعطاش لأنّ من يرد الماء لا يرده إلّا للعطش وحقيقة الورود السير إلى الماء فسمّي به الواردون، ذكر السبب وأراد المسبّب.

فلو قيل: إنّ الكلام يستقيم في قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ﴾

١ـ جوامع الجامع، ج ٢، ص ٤٦٩؛ وتفسير القرطبي، ج ١١، ص ١٥٠.

٢ـ كنز العمال، ج ٢، ص ٤٦٣؛ وانظر: تفسير الرازي، ج ٢١، ص ٢٥٢.

إذا كان الحاشر غير الرحمن فالجواب أنّ التقدير: إلى كرامة الرحمن.

﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ قيل: فلا يشفعون ولا يشفع لهم ولكنّ الظاهر أنّ أحداً لا يملك أن يشفع لهم لأنّ معنى الأوّل يجري مجرى إيضاح الواضحات وإذا ثبت ذلك دلّت الآية على حصول الشفاعة لأهل الكبائر لأنّه قال عقيبة: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ والتقدير: إنّ هؤلاء لا يستحقّون أن يشفع لهم غيرهم إلّا إذا كانوا قد اتّخذوا عند الرحمن عهداً للتوحيد والنبوّة.

وممّا يؤكّد قولنا ما روى ابن مسعود أنّه‌ﷺ قال لأصحابه ذات يوم: «أيعجز أحدكم أن يتّخذ كلّ صباح ومساء عند الله عهداً؟» قالوا: وكيف ذلك؟ قال: «يقول كلّ صباح ومساء: اللّهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة إنّي أعهد إليك بأنّي أشهد أن لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك وأنّ محمّداً عبدك ورسولك فإنّك إن تكلني إلى نفسي تقرّبني من الشرّ وتبعدني من الخير وإنّي لا أثق إلّا برحمتك فاجعل لي عهداً توفّيه يوم القيامة إنّك لا تخلف الميعاد. فإذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع ووضع تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الّذين لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنّة؟»(١)

فظهر بهذا الحديث أنّ المراد من العهد كلمة الشهادة وظهر وجه دلالة الشفاعة في الآية لأهل الكبائر خلافاً للقاضي عبد الجبّار المعتزليّ.

وفي الآية قول آخر أنّ معنى ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أي: إلّا من وعداً له الرحمن بإطلاق الشفاعة كالأنبياء والشهداء والعلماء والمؤمنين على ما ورد به الأخبار.

قال عليّ بن إبراهيم بن هاشم في تفسيره: حدّثني أبي عن الحسن بن محبوب عن سليمان بن جعفر عن أبي عبد الله عن آبائه‌عليهم‌السلام قال: «قال رسول

١ـ جوامع الجامع، ج ٢، ص ٤٦٩؛ والصافي، ج ٣، ص ٢٩٦.

اللهﷺ: من لم يحسن وصيته عند الموت كان نقصاناً في مروءته قيل: يا رسول الله وكيف يوصي الميّت؟ قال: إذا حضرته الوفاة واجتمع الناس إليه قال: اللّهمّ فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم اللّهمّ إنّي أعهد إليك في دار الدنيا إنّي أشهد أن لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك وأنّ محمّداً عبدك ورسولك وأنّ الجنّة حقّ وأنّ النار حقّ وأنّ البعث حقّ والحساب حقّ والقدر حقّ والميزان حقّ وأنّ الدين كما وصفت وأنّ الإسلام كما شرّعت وأنّ القول كما حدّثت وأنّ القرآن كما أنزلت وأنّك أنت الله الحقّ المبين جزى الله محمّداً عنّا خير الجزاء وحيّى الله محمّداً وآله بالسلام اللّهمّ يا عدّتي عند كربتي ويا صاحبي عند شدّتي ويا وليّ نعمتي إلهي وإله آبائي لا تكلني إلى نفسي طرفة عين فإنّك إن تكلني إلى نفسي أقرب من الشرّ وأبعد من الخير وآنس في القبر وحشتي واجعل لي عهداً يوم ألقاك منشوراً، ثمّ يوصي بحاجته وتصديق هذه الوصيّة في سورة مريم في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ فهذا عهد الميّت والوصيّة حقّ على كلّ مسلم وحقّ عليه أن يحفظ هذه الوصيّة ويعملها فقال أمير المؤمنين عليّعليه السلام: علّمنيها رسول اللهﷺ وقال: علّمنيها جبرئيل».[1]

وعن أبي حمزة عن أحدهماعليهما السلام قال: «إنّ الله يقول: تطوّلت عليك بثلاثة: سترت عليك ما لو علم به أهلك ما واروك وأوسعت عليك فاستقرضت منك لك فلم تقدّم خيراً وجعلت لك نظرة عند موتك في ثلثك فلم تقدّم خيراً».[2]

وعن معاوية بن عمّار عن أبي عبد اللهعليه السلام قال: «كان في وصيّة رسول اللهﷺ لعليّعليه السلام يا علي أوصيك في نفسك بخصال فاحفظها ـ ثمّ قال: اللّهمّ أعنه ـ: أمّا الأولى فالصدق، لا يخرجنّ من فيك كذبة أبداً. والثانية الورع، لا تجترِ على جناية

١ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ٥٥؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٢٩٦.

٢ـ التهذيب، ج ٩، ص ١٧٥، ح ٧١٢؛ ووسائل الشيعة، ج ٢، ص ٦٥٨، ح ٢٦١٠.

أبداً. والثالثة الخوف من الله كأنّك تراه. والرابعة كثرة البكاء لله يبنى بكلّ دمعة بيت في الجنّة. والخامسة بذلك مالك ودمك دون دينك.

والسادسة الأخذ بسنّتي في صلاتي وصيامي وصدقتي: فأمّا الصلاة فالخمسون ركعة وأمّا الصوم فثلاثة في كلّ شهر خميس في أوّله وأربعاء في وسطه وخميس في آخره وأمّا الصدقة فجهدك حتّى تقول: قد أسرفت ولم تسرف، وعليك بصلاة الليل وعليك بصلاة الليل وعليك بصلاة الليل وعليك بصلاة الزوال وعليك بصلاة الزوال وعليك بصلاة الزوال وعليك بتلاوة القرآن على كلّ حال وعليك برفع يديك في صلاتك وتقلّبها وعليك بالسواك عند كلّ وضوء وعليك بمحاسن الأخلاق فاركبها ومساوي الأخلاق فاجتنبها فإن لم تفعل فلا تلو منّ إلّا نفسك».[1]

وعن سليم بن قيس الهلاليّ قال: شهدت وصيّة أمير المؤمنين حين أوصى إلى ابنه الحسن قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أوصي إليك وأن أدفع إليك كتبي وسلاحي كما أوصى إليّ رسول الله ﷺ ودفع إليّ كتبه وسلاحه وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفع ذلك إلى أخيك الحسين».

قال: ثمّ أقبل على ابنه الحسين فقال: «وأمرك رسول الله أن تدفعه إلى ابنك هذا» ثمّ أخذ بيد ابن ابنه عليّ بن الحسين وهو صبيّ فضمّه إليه ثمّ قال لعليّ بن الحسين: «يا بنيّ وأمرك رسول الله ﷺ أن تدفعه إلى ابنك محمّد بن عليّ فاقرأه من رسول الله السلام».

ثمّ أقبل على ابنه الحسن فقال: «بنيّ أنت وليّ الأمر ووليّ الدم فإن عفوت فلك وإن قتلت فضربة مكان ضربة ولا تأثم» ثمّ قال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به عليّ بن أبي طالب أوصى أنّه يشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأنّ محمّداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه

١ـ الكافي، ج ٨، ص ٧٩؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ١٨٨.

ولو كره المشركون ثمّ إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين. ثمّ إنّي أوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهل بيتي ومن بلغه كتابي من المؤمنين بتقوى الله ربّكم ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون.

واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا فإنّي قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إصلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصوم وإنّ البغضة حالقة الدين وفساد ذات البين ولا قوّة إلّا بالله انظروا ذوي أرحامكم فصلوهم يهوّن الله عليكم الحساب. والله الله في الأيتام فلا تغبّوا أفواههم ولا يضيّعوا بحضرتكم فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من عال يتيماً حتّى يستغني أوجب الله له الجنّة كما أوجب لآكل مال اليتيم النار. والله الله في القرآن فلا يسبقنّكم إلى العمل به غيركم.

والله الله في بيت الله فلا يخلونّ منكم ما بقيتم فإنّه إن يترك لم تناظروا وأدنى ما يرجع به من أمّه أن يغفر له ما قد سلف. والله الله في الصلاة فإنّها خير العمل وإنّها عمود دينكم. والله الله في الزكاة فإنّها تطفئ غضب الربّ. والله الله في شهر رمضان فإنّ صيامه جنّة من النار. والله الله في الفقراء والمساكين فشاركوهم في معيشتكم. والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم فإنّما يجاهد في سبيل الله رجلان إمام هدى ومطيع له يقتدي بهداه. والله الله في ذرّيّة نبيّكم صلى الله عليه وآله فلا يظلمون بين أظهركم وأنتم تقدرون على الدفع عنهم. والله الله في أصحاب نبيّكم الّذين لم يحدثوا حدثاً ولم يؤووا محدثاً فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى بهم ولعن المحدث منهم ومن غيرهم والمؤوي للمحدث.

والله الله في النساء وما ملكت أيمانكم ولا تخافنّ في الله لومة لائم فيكفيكم الله من أرادكم وبغى عليكم وقولوا للناس حسنا كما أمركم الله.

ولا تتركنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولّي الله الأمر شراركم وتدعون فلا يستجاب لكم.

وعليكم يا بنيّ بالتواصل والتباذل والتبارر وإيّاكم والنفاق والتدابر والتقاطع والتفرّق وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتّقوا الله إنّ الله شديد العقاب حفظكم الله من أهل بيت وحفظ فيكم نبيّكم أستودعكم الله وأقرأ عليكم السلام».

ثمّ لم يزل يقول: «**لا إله إلّا أنت**» حتّى قبض عليه السلام في أوّل ليلة من العشر الأواخر في شهر رمضان ليلة الجمعة سنة أربعين من الهجرة.[1]

اللّهم إنّ كاتب هذه الأحرف في هذه الورقة وناقلها عن التهذيب ينشدك ويقسم عليك بحقّ هذا الموصي والموصى له وأهل بيته أن تغفر سيّئاته الّتي إذا حاسبته يوم المحاسبة بالمناقشة فهي أكثر من رمال عالج ولكنّه يعلم إنّ عفوك وسعة رحمتك لمن أحبّ عليّاً أكثر وأعظم من رمال عالج يسألك العفو العفو العفو والإصلاح فيما أفسده من دينه ودنياه.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ هذا إخبار عن اليهود والنصارى ومشركي العرب فإنّ اليهود قالوا: عزير ابن اللّه، وقالت النصارى: المسيح ابن اللّه، وقال مشركو العرب: الملائكة بنات اللّه.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ أي: شيئاً منكراً هو عظيم فظيع شنيع، وحذف الباء من «بشيء» فنصبه بالفعل ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أي: أرادت السماوات أن تنشقّ لعظم فريتهم إعظاماً لقولهم الفاسد وكادت الأرض تنشقّ والجبال تسقط ﴿هَدًّا﴾ أي: كسراً شديداً وهدماً عظيماً لأن ﴿دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ لأن أخرجوه من صفة الإلهيّة لأنّ اتّخاذ الولد يدلّ على الحاجة تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، وتكرّر لفظة الرحمن مراراً في الآية تنبيهاً على أنّ أصول النعم ليس إلّا منه.

١ـ كتاب سليم بن قيس، ص ٤٤٧؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج٤، ص١٨٨.

وحاصل المعنى أنّه لو لا حلمي لكنت أفعل بالسماوات والجبال والأرض عند وجود هذه الكلمة فكيف بمن تفوّه بها ولكنّي لا أعجل العقوبة.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ أي: ما كلّ من في السماوات والأرض من الإنس والجنّ والملائكة إلّا ويأتي اللّه سبحانه عبداً مملوكاً خاضعاً ذليلاً وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾[1] والنبوة ـ بتقديم الباء ـ والعبوديّة لا تجتمعان.

﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ أي: علم تفاصيلهم وأعدادهم ولا يخفى عليه شيء من أحوالهم ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ يأتي المحشر فرداً وحيداً ليس له مال ولا ولد ولا ناصر، مشغول بنفسه لا يهمّه همّ غيره.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾

لمّا شرح في الآيات السابقة حال الكفّار ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والطاعات ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ وللمفسّرين في قوله: ﴿وُدّٗا﴾ أقوال:

القول الأوّل ـ وهو الصحيح ـ أنّه خاصّة في عليّ بن أبي طالب فما من مؤمن إلّا وفي قلبه محبّة لعليّ عليه السلام عن ابن عبّاس، وفي تفسير أبي حمزة الثماليّ قال: حدّثني أبو جعفر الباقر قال: **«قال رسول اللّه لعليّ عليه السلام: قل: اللّهم اجعل لي عندك عهداً واجعل لي في قلوب المؤمنين ودّاً فقالها عليّ عليه السلام فنزلت هذه**

١ـ سورة النمل: ٨٧.

الآية» وروي مثلها عن جابر بن عبد الله.[1]

القول الثاني: أنّها عامّة في جميع المؤمنين يجعل الله في قلوبهم المحبّة والمقة[2] بعضهم بعضاً، قال هرم بن حيّان: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلّا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتّى يرزقهم مودّتهم ورحمتهم. قال الربيع بن الأنس: إنّ الله إذا أحبّ مؤمناً قال لجبرئيل: إنّي أحببت فلاناً فأحبّه فيحبّه جبرئيل ثمّ ينادي في السماء ألا إنّ الله أحبّ فلاناً فأحبّوه فيحبّه أهل السماء ثمّ يوضع له قبول في أهل الأرض من المؤمنين فعلى هذا يحبّهم الله ويحبّهم الناس.

القول الثالث: أنّ الله سيجعل لهم ودّاً في الآخرة فيحبّ بعضهم بعضاً كمحبّة الوالدة للولد في ذلك أعظم السرور، ويؤيّد هذا القول ما صحّ عن أمير المؤمنين أنّه قال: **«لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني ولو صببت الدنيا بجملتها على المنافق على أن يحبّني ما أحبّني وذلك أنّه قضى على لسان النبيّ ﷺ أنّه قال: لا يبغضك مؤمن ولا يحبّك منافق»**.[3]

ثمّ قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: يسّرنا القرآن بلسانك بأن أنزلناه بلسانك وهو لغة العرب ليسهل عليهم معرفته أو المعنى مكّنّاك من قراءته وحفظه ﴿لِتُبَشِّرَ﴾ بالقرآن الّذين يتّقون الشرك والكبائر وتخبرهم بما أعدّه الله لهم وتخوّف وتنذر به قوماً شديد الخصومة يعني: قريشاً ذوي جدل.

ثمّ أنذرهم سبحانه بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ قبل هؤلاء المخاصمين المجادلين ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ وجيل مكذّبين بالرسل، والغرض تسلية النبيّ أي: لا

١ـ تفسير ابن حمزة الثمالي، ص ٢٤٣؛ وأيضاً تفسير جوامع الجامع، ج ٢، ص ٤٧١.

٢ـ مصدر قولك: ومق يمق.

٣ـ مشكاة الأنوار، ص ١٥١؛ وبحار الأنوار، ج ٣٤، ص ٥١؛ وأيضاً مجمع البيان، ج٦، ص ٤٥٥.

يهمّك كفرهم ونفاقهم فإنّ وبال ذلك راجع إليهم وأهلكنا قبلهم من كان مثلهم ﴿هَلْ تُحِسُّ﴾ وتبصر ﴿مِنْهُم﴾ أحداً ﴿أَوْ﴾ هل ﴿تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ وصوتاً فلم يغنهم مالهم ولا خصومتهم وقدرتهم فحكم هؤلاء من قومك كحكمهم «والركز» الصوت الخفيّ والمراد بالإهلاك بالعذاب وبالموت ومن ذلك المعنى الركاز لأنّ الركاز المال المدفون المخفيّ.

تمّت السورة بعون الله والحمد لله ربّ العالمين.

سُورَةُ طه

مكيّة. فضلها: أبيّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها أعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار».[1] وعن أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنّ الله قرأ طه ويس قبل أن يخلق آدم عليه السلام بألفي عام فلمّا سمعت الملائكة القرآن قالوا: طوبى لامّة نزل هذا عليها طوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسن يتكلّم بهذا».[2] وعن الحسن قال: «قال النبيّ صلى الله عليه وآله: لا يقرأ أهل الجنّة من القرآن إلّا يس وطه».[3]

وروى إسحاق بن عمّار عن الصادق عليه السلام: «لا تدعوا قراءة طه فإنّ الله تعالى يحبّها ومن قرأها وأدمن على قراءتها أعطاه يوم القيامة كتابه بيمينه ولم يحاسبه ممّا عمل في الإسلام وأعطي من الأجر حتّى يرضى».[4]

التفسير: ختم الله سورة مريم بالبشارة للمتّقين والإنذار للكافرين وابتدأ وافتتح هذه السورة بالسعادة وأنّه ما أنزل القرآن للمشقّة عليه فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٥؛ ونور الثقلين، ج ٣، ص ٣٦٦.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ ثواب الأعمال، ص ١٠٨؛ ومجمع البيان، ج ٧، ص ٦؛ ونور الثقلين، ج ٣، ص ٣٦٦.

تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

في لغات «طه» قراءات: بفتح الطاء وسكون الهاء على أنّ أصله طإ الأرض بقدميك جميعاً فأبدلت الهمزة بالهاء لأنه ﷺ كان يرفع إحدى رجليه في الصلاة ليزيد تعبه أو كان يقف على أصابع رجليه في الصلاة فأنزل الله عليه: «طه» إلخ.

ويجوز أن يكون «طه» أمر من وطأ يطأ، فالأمر على قول من لم يهمز «طه» فزيدت الهاء في الوقف، وقرأ أبو عمر وبفتح الطاء وكسر الهاء، وأهل المدينة بين الفتح والكسر، وقرأ ابن عامر بفتح الطاء والهاء، وقرأ حمزة والكسائيّ بكسر الطاء والهاء. واعلم أنّ للمفسّرين في هذه الكلمة أقوالاً:

الأوّل: أنّه من حروف التهجّي ومن المرموزات وقد تقدّم الكلام فيها في سورة البقرة. والقول الآخر: فيها معان قال الثعلبيّ: الطاء شجرة طوبى، والهاء هاوية فكأنّه سبحانه أقسم بالجنّة والنار.[1]

والثاني: قال جعفر بن محمّد عليه السلام: **«الطاء طهارة أهل البيت والهاء هدايتهم»**.[2]

الثالث: خطاب النبيّ يا مطمع الشفاعة للأمّة ويا هادي الخلق إلى الملّة.

الرابع: وهو قول سعيد بن جبير هو افتتاح اسمه المبارك بالطيّب الطاهر الهادي. الخامس: الطاء من الطهارة والهاء من الهداية ومعناه: يا طاهراً من

١ـ تفسير الثعلبي، ج ٦، ص ٢٣٦؛ وتفسير القرطبي، ج ١١، ص ١٦٦.

٢ـ كنز الفوائد، ص ١٥٤؛ وتفسير الرازي، ج ٢٢، ص ٣؛ وتفسير الثعلبي، ج٦، ص٢٣٦.

الذنوب ويا هادياً إلى علّام الغيوب، وهذا القول قريب من قول الثاني.

السادس: الطاء طول القرّاء والهاء هيبتهم في قلوب الكفّار من قراءة القرآن.

السابع: الطاء تسعة في الحساب والهاء خمسة تكون أربعة عشر ومعناه: يا أيّها البدر أو الأئمّة الأربعة عشر المعصومون.

الثامن: طه بلغة الطيء معناه يا محمّد، نزلت هذه الكلمة بلغة طيء.

التاسع: معناه يا رجل بلغة النبطيّه، عن ابن عبّاس والحسن والمجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلينيّ إلّا أنّه قال عكرمة: هي بلغة الحبشة، وقتادة قال: بلغة السريانيّة، والكلبيّ قال: بلغة علكّ واستشهد بقول شاعرهم:

إنّ السفاهة طه في خلائقكـم ... لا قدّس اللّه أرواح الملاعـين

وإذا كان بهذا المعنى فلا يجوز الحمل إلّا بلغة علكّ لأنّ القرآن نزل بلغة العرب ويمكن أنّه يوافق في هذه الكلمة لغة العرب مع الحبشة والسريانيّة وإلّا لا يصحّ.

وفي «الكافي» عن الباقر عليه السلام قال: **«كان رسول الله عند عائشة ليلتها فقالت: يا رسول الله لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فقال: يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً؟»**[1]

وفي «الاحتجاج» عن الكاظم عليه السلام عن أمير المؤمنين: **«لقد قام رسول الله عشر سنين على أطراف أصابعه حتّى تورّمت قدماه واصفرّ وجهه يقوم الليل كلّه حتّى عوتب في ذلك بقوله سبحانه: ﴿طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ بل لتسعد به»**[2]، والشقاء بمعنى التعب شائع ومنه أشقى من رابض المهر، وسيّد القوم أشقاهم.

١ـ الكافي، ج ٢، ص ٩٥؛ وفتح الباري، ج ٣، ص ١٢.

٢ـ الاحتجاج، ج ١، ص ٣٢٦؛ والخرائج والجرائح، ج ٢، ص ٩١٧.

المعنى: سبب النزول قيل: سبب ما ذكرناه من أنّه كان ﷺ يقوم على أصابعه، فنزلت الآية.

وقيل: كان إذا قام من الليل ربط وعلق صدره بحبل حتّى لا ينام فقال له جبرئيل: **«ابق على نفسك فإنّ لها حقّاً عليك»**.

أي: ما أنزلناه لتهلك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقّة الشديدة وما بعثت إلّا بالحنيفيّة السمحة.

وقيل: المعنى لا تشقّ على نفسك ولا تعذّبها بالأسف على كفر هؤلاء فإنّا إنّما أنزلنا عليك القرآن لتذكّر به فمن اتّقى وأصلح فلنفسه فمن كفر فلا يحزنك كفره فما عليك إلّا البلاغ كقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ....﴾.[1]

وقيل: إنّ الآية ردّ قول المشركين وذلك أنّ أبا جهل والوليد بن مغيرة ومطعم ابن عديّ والنضر بن الحارث قالوا لرسول الله: إنّك لتشقى حيث تركت دين قومك، فقال ﷺ: **«بل بعثت رحمة للعالمين»**، قالوا: بل أنت تشقى، فنزلت الآية.[2]

وقيل: إنّ هذه السورة من أوائل ما نزل بمكّة وفي ذلك الوقت كان ﷺ مقهوراً تحت ذلّ أعدائه فنزلت الآية أنّه لا تظنّ أنّك تبقى على هذه الحالة أبداً في العناء والتعب بل يعلو أمرك ويظهر قدرك وإنّا ما أنزلنا عليك القرآن لتبقى شقيّاً بينهم بل تصير معظّماً مكرّماً.

وأمّا قوله: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ قيل: ﴿إِلَّا﴾ هاهنا استثناء منقطع بمعنى لكن أو التقدير: ما أنزلنا عليك القرآن لتحمّل التعب والأذيّة وما أنزلنا إلّا ليكون تذكرة ليعتبر بك غيرك وإنّما خصّ من يخشى لأنّهم المنتفعون

١ـ سورة الكهف: ٦؛ وسورة الشعراء: ٣.

٢ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ٣؛ وتفسير الثعلبي، ج ٦، ص ٢٣٧.

بهذه التذكرة وإن كان الحكم عاماً في الجميع وهو كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1].

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ تقديره: أنزلناه تنزيلاً ممّن خلق الأرض وبدأ بالأرض ليستقيم رءوس الآي والسماوات الرفيع العالية، نبّه بذلك للدلالة على عظم خالقهما.

ثمّ أكّد بقوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ أي: هو الرحمن أقبل على خلق العرش، قال أحمد بن يحيى: الاستواء الإقبال على الشيء والتوجّه والاستيلاء.

﴿لَهُ﴾ ملك ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وتدبيرها وعلمها ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوق والهوى ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ أي: التراب الندى وما وارى الثرى من كلّ شيء وما ضمّن من الكنوز والأموات.

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ﴾ وترفع صوتك أولا تجهر به ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ من السرّ، قالوا: السرّ ما حدّث به الإنسان غيره في خفية وأخفى منه ما أضمرت في نفسك ولم تحدّث به غيرك أو الوسوسة وحديث النفس.

قال الباقر والصادق عليهما السلام: «السرّ ما أخفيته في نفسك وأخفى ما خطر ببالك ثمّ نسيته»[2] والله هو العالم بجميع المعلومات فهذه الآية إمّا نهي عن الجهر الفاحش في ذكر الله كقوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾[3] وإمّا المراد أنّ الجهر ليس لاستماع الله وإنّما لغرض آخر وأنّه عالم لذاته في كلّ الأوقات بعلم واحد وذلك العلم غير متغيّر لأنّه عين ذاته من غير أن يكون موصوفاً بالحدوث والإمكان والخلق بأسره لا يشارك الربّ إلّا في السدس الأوّل وهو أصل العلم ثمّ هذا السدس بينه وبين خلقه

١ـ سورة البقرة: ٢.

٢ـ مجمع البيان، ج ٧، ص٨؛ وبحار الأنوار، ج ٨٨، ص ٢٨.

٣ـ سورة الأعراف: ٢٠٥.

أيضاً نصفان فخمسة دوانيق ونصف منه مسلّم له والنصف الواحد لجملة خلقه ثمّ هذا الجزء الواحد مشترك بين الخلائق أجمعون من الملائكة الكرَوبيّة والملائكة الروحانيّة وحملة العرش وسكّان السماوات وملائكة الرحمة والعذاب وجميع الأنبياء أوّلهم آدم وآخرهم محمّدﷺ وكذا جميع الخلائق من البشر والجنّ في علومهم الضروريّة والنظريّة والحرف والصناعات والتركيبات وجميع الحيوانات في إدراكاتها وشعوراتها والاهتداء إلى مصالحها في معاشها وتغذيتها ومضارّها فكلّ على قدر رتبته يحصل له من ذلك الجزء والحاصل لك من ذلك الجزء أقلّ من الذرة المؤلّفة ثمّ إنّك إذا عرفت بهذه الذرّة صفاته الواجبة والجائزة والمستحيلة فكيف يكون علمه بخمس دوانيق ونصف؟ أفلا يعلم أسرار عبوديّتك وخضوعك؟

فهذا تحقيق قوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ بل الحقّ أنّ الدينار بتمامه له لأنّ الّذي تعلّمته بتعليمه، ولهذا التحقيق مثال وهو الشمس فإنّ ضوءها يجعل العالم منوراً ولا ينتقص من ضوئها شيء البتّة فكذا ههنا.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ثمّ ذكر الموصوف بالعلم المذكور والقدرة هو الله واحد لا شريك له وهو الّذي يستحقّ العبادة لا غيره.

وهاهنا تحقيق وهو أنّ مراتب التوحيد أربع: أحدها: الإقرار باللسان والثاني: الاعتقاد بالقلب والثالث: تأكيد الاعتقاد بالحجّة والرابع: أن يصير العبد مغموراً في بحر التوحيد بحيث لا يدور في خاطره شيء غير عرفان الأحد الصمد.

أمّا الإقرار باللسان إذا كان خالياً عن الاعتقاد بالقلب فذلك هو المنافق، وأمّا الاعتقاد بالقلب إذا وجد خالياً عن الإقرار باللسان ففيه صور:

الصورة الأولى: أنّ من نظر وعرف الله ومات قبل أن يمضي عليه من

الوقت ما يمكنه التلفّظ به فقال قوم: إنّه لا يتمّ إيمانه والحقّ أنّه يتمّ لأنّه أدّى ما كلّف به وعجز عن التلفّظ.

قال الرازيّ: ورأيت في الكتب أنّ ملك الموت مكتوب على جبهته: لا إله إلّا اللّه، لكي إذا رآه المؤمن تذكّر كلمة الشهادة فيكفيه ذلك التذكّر عن الذكر.[١]

الصورة الثانية: أنّ من عرف اللّه ومضى عليه من الوقت ما يمكنه التلفّظ بالكلمة ولكنّه قصّر فيه.

قال الشيخ الغزاليّ: يحتمل أن يقال: اللسان ترجمان القلب فإذا حصل المقصود في القلب كان امتناعه من التلفّظ جارياً مجرى امتناعه من الصلاة والزكاة وكيف يكون من أهل النار وقد قال ﷺ: **«يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرّة من الإيمان؟»**[٢] وقلب هذا الرجل مملوّ منّ الإيمان. وقال آخرون: الإيمان والكفر أمور شرعيّة نحن نعلم أنّ الممتنع من هذه الكلمة كافر.

الصورة الثالثة: من أقرّ باللسان واعتقد بالقلب من غير دليل فهو مقلّد والاختلاف في صحّة إيمانه مشهور.

أمّا المقام الثالث من المقامات الأربعة وهو إثبات التوحيد بالحجّة وقد شرح اللّه هذه الحجّة بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٣] وهو دليل التمانع وقد شرحوا هذا البيان والمطلوب بالدلائل العقليّة والسمعيّة.

وأمّا المقام الرابع وهو الفناء في بحر التوحيد فقال المحقّقون: العرفان مبتدأ من تفريق وبغض وترك ورفض ممكن في جميع صفات هي من صفات الحقّ للذات المريدة منته بالصدق إلى الواحد القهّار وحينئذ تكون

١ــ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١٠.

٢ــ المصدر السابق نفسه؛ وتفسير القرآن، ج ١، ص ١٦٠.

٣ــ سورة الأنبياء: ٢٢.

الأسماء والأذكار والتهليلات كاشفة عن هذا المعنى من القلب وحاكية عنه.[١]

قال رسول الله: «أفضل الذكر لا إله إلّا الله وأفضل الدعاء أستغفر الله» ثمّ تلاﷺ هذه الآية: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.[٢]

قال النبيﷺ: «إنّ الله تعالى خلق ملكاً من الملائكة قبل أن خلق السماوات والأرض وهو يقول: أشهد أن لا إله إلّا الله مادّا بهذه الكلمة صوته لا يقطعها ولا تنفّس فيها ولا يتمّها فإذا أتمّها أمر إسرافيل بالنفخ في الصور وقامت القيامة تعظيماً لله تعالى».[٣]

وروي عن أنس بن مالك عن النبيﷺ أنّه قال: «ما زلت أشفع إلى ربّي ويشفّعني حتّى قلت: يا ربّ شفّعني فيمن قال: لا إله إلّا الله قال: يا محمّد هذه ليست لك ولا لأحد وعزّتي وجلالي لا أدع أحداً في النار قال: لا إله إلّا الله».[٤]

قال الثوريّ: سألت جعفر بن محمّدﷺ عن «حم عسق» قال: «الحاء حكمه والميم ملكه والعين عظمته والسين سناؤه والقاف قدرته يقول الله: جلّ ذكره بحكمي وملكي وعظمتي وسنائي وقدرتي لا أعذّب بالنار من قال: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله».[٥]

وعن عمر روى عن رسول اللهﷺ قال: «من قام في السوق فقال: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حيّ لا يموت بيده الخير وهو هو على كلّ شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١٠؛ والدر المنثور، ج ٦، ص ٦٢.

٢ـ سورة محمّد: ١٩.

٣ـ تفسير الرازي، ج٢٢، ص١٠؛ والوافي بالوفيات، ج ٥، ص ١٤٨.

٤ـ تفسير الرازي، نفس المصدر، وكنز العمّال، ج١، ص ٥٦.

٥ـ تفسير الرازي، ج٢٢، ص١٠.

سيئة وبنى له بيتا في الجنة».[1]

أقول: ولا تغفل أيها الإنسان من شروط لا إله إلّا اللّه وهي الولاية الولاية الولاية ولو أنّك طول عمرك بل عمر الدهر تقول: لا إله إلّا اللّه عن عقيدتك بقلبك ولسانك وتوقّفت في ولايتهم وليس معنى الولاية أنّك تحبّهم بل معنى الولاية أن تعتقد أنّ الأئمّة الاثني عشر خلفاء اللّه بعد النبيّ في أرضه وسمائه فلو توقّفت بهذا الأمر أو شككت أو تركت واحداً منهم فما ينفعك أمر قطّ لأنّ اللّه قرن طاعتهم بطاعته وقد جعلهم اللّه من شروط لا إله إلّا اللّه.

وينبغي لأهل هذه الكلمة التصديق والتعظيم والحلاوة والحريّة فمن ليس له التصديق فهو منافق ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع ومن ليس له الحلاوة فهو مراء ومن ليس له الحريّة فهو فاجر.

قال المفسّرون والمحقّقون في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾[2] أنه لا إله إلّا اللّه، وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[3] لا إله إلّا اللّه، وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾[4] لا إله إلّا اللّه، و﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾[5] لا إله إلّا اللّه، وقيل: المراد بواحدة فاطمة، وقوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[6] عن قول لا إله إلّا اللّه، وقوله: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾[7] هو لا إله إلّا اللّه ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

١ـ تفسير الرازي، نفس المصدر وتفسر القرطبي، ج ١٣، ص ١٧.

٢ـ سورة إبراهيم: ٢٤.

٣ـ سورة فاطر: ١٠.

٤ـ سورة العصر: ٣.

٥ـ سورة سبا: ٤٦.

٦ـ سورة الصافات: ٢٤.

٧ـ سورة يس: ٥٢.

﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[1] هو لا إله إلّا الله ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾[2] عن قول لا إله إلّا الله.

وفي الحديث أنّ موسى بن عمران عليه السلام قال: **«يا ربّ علّمني شيئاً أذكرك به قال الله تعالى: قل: لا إله إلّا الله. قال موسى: كلّ عبادك يقولون: لا إله إلّا الله. فقال الله: قل: لا إله إلّا الله. قال موسى: إنّما أردت شيئاً تخصّني به. قال: يا موسى لو أنّ السماوات السبع ومن فيهنّ في كفّة ولا إله إلّا الله في كفّة لمالت بهنّ لا إله إلّا الله»**.[3]

فائدة نحوية وهي أنّه من إعراب هذه الكلمة تبيّن معناه: قالوا: كلمة «لا» هاهنا دخلت على الماهيّة فانتفت الماهيّة وإذا انتفت الماهيّة انتفت كلّ أفرادها وأمّا كلمة «الله» فإنّه اسم علم للذات المعيّنة إذ لو كان اسماً معيّنا لكان كلّها محتملاً للكثرة فلم تكن مفيدة للتوحيد.

وكلمة «لا» نفي الماهيّة استحقّت عمل إنّ لمشابهتها لها من وجهين: أحدهما ملازمة الأسماء والآخر تشاركهما في التأكيد فإنّ أحدهما لتأكيد الثبوت والآخر لتأكيد النفي ومن عادتهم تشبيه أحد الضدّين بالأخرى في الحكم إذا ثبت هذا فقوله: إنّ زيداً ذاهب كان يجب أن يقول: لا رجلاً ذاهب حالة الإعراب منوّناً لكنّهم جعلوا مدخول «لا» مبنيّاً أمّا البناء فلشدّة اتّصال حرف النفي بمدخوله فصارا كأنّهما اسم واحد وأمّا الفتح فللخفّة وللفرق بين حركة الإعراب والبناء.

ثمّ إنّ خبره محذوف والأصل: لا إله في الوجود وهذا يدلّ على أنّ

١ـ سورة إبراهيم: ٢٧.

٢ـ سورة إبراهيم: ٢٧.

٣ـ المستدرك، الحاكم النيشابوري، ج ١، ص ٥٢٨؛ والسنن الكبرى، ج ٦، ص ٢٠٩.

الوجود زائد على الماهيّة.

ولو قيل: تصوّر الثبوت مقدّم على تصوّر السلب فإنّ السلب ما لم يضف إلى الثبوت لا يمكن تصوّره فكيف قدّم هاهنا السلب على الثبوت؟ لأنّ هذا السلب من مؤكّدات الثبوت لا جرم قدّم عليه قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1] أي: الأسماء الدالّة على توحيده وإنعامه على العباد والمعاني الحسنة بأيّها دعوتهم جاز.

روي عن النبي ﷺ أنّه قال: «**إنّ لله تعالى تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنّة**»[2]. **تأويله من وحّد الله وذكر هذه الأسماء يريد بها إعظامه دخل الجنّة. وقد جاء في الحديث: من قال: لا إله إلّا الله مخلصاً دخل الجنّة**»[3]، فهذا لمن ذكر اسم الله موحداً له به فكيف لمن ذكر أسماءه كلّها يريد بها توحيده والثناء عليه.

وإنّما قال: «الحسنى» بلفظ المفرد ولم يقل: الأحاسن لأنّ الأسماء إذا كانت مؤنّثة فباعتبار الجماعة يقع مفردة مؤنّثة كأنّه اسم واحد للجمع كقوله: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[4] و﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾.[5]

وقال ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة نادى مناد أيها الناس أنا جعلت لكم نسبا وأنتم جعلتم لأنفسكم نسبا أنا جعلت أكرمكم عندي أتقاكم وأنتم جعلتم أكرمكم أغناكم فالآن أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون الّذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**».[6]

واعلم أنّ الأشياء في قسمة العقول على ثلاثة أقسام: كامل لا يحتمل

١ـ سورة طه: ٨.

٢ـ التوحيد، ص ١٩٥، وصحيح البخاري، ج ٨، ص ١٦٩.

٣ـ التوحيد، ص ٢٧. وثواب الأعمال، ص ٥؛ ومعاني الأخبار، ص ٣٧٠.

٤ـ سورة النمل: ٦٠.

٥ـ سورة طه: ١٨.

٦ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١١؛ وانظر: الدر المنثور، ج ٦، ص ٩٨.

النقصان فهو الله وذلك في حقّه بالوجوب الذاتيّ، ثمّ بعده الملائكة لكن بالوجود الإمكانيّ فإنّ من كما لهم أنّهم لا يعصون الله ما أمرهم ومن صفاتهم أنّهم عباد مكرمون ومن صفاتهم أنّهم يستغفرون للّذين آمنوا، وأمّا الناقص الّذي لا يحتمل الكمال فهو الجمادات والنباتات والبهائم، وأمّا الّذي يقبل الأمرين جميعاً فهو الإنسان فتارة يكون في الترقّي بحيث يخبر عنه بأنّه ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[١] وتارة في التسفّل بحيث يقال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾[٢] وإذا كان الأمر كذلك فاستحال أن يكون الإنسان كاملاً لذاته وما لا يكون كاملاً لذاته استحال أن يصير موصوفاً بالكمال إلى أن يصير منتسباً إلى الكامل لذاته والانتساب قسمان: قسم يعرض للزوال وقسم لا فالّذي يعرض للزوال فلا فائدة فيه كالجمال والمال والصحّة وأمّا الّذي لا يعرض للزوال فعبوديّتك للّه فإنّه كما يمتنع زوال صفة الإلهيّة عنه يمتنع زوال العبوديّة عنك مادمت عبداً فهذه النسبة لا تزول ما دامت العبوديّة كما أنّ المنتسب إليه وهو الحقّ لا يقبل الخروج عن صفة الكمال.

وأنت أيّها الإنسان إذا كنت في بلدة نزهة أو كنت منتسباً إلى قبيلة شريفة فلا تزال تبالغ في مدح تلك البلدة والقبيلة بسبب ذلك الانتساب العرضيّ الزائليّ فأن تشتغل بذكر الله ونعوت كبريائه بسبب النسبة الدائميّ الغير الزائليّ كان أولى فلهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[٣] وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.[٤]

وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بيان أنّ ما ذكر من صفات الكمال من

١ـ سورة القمر: ٥٥.

٢ـ سورة التين: ٥.

٣ـ سورة الأعراف: ١٨٠.

٤ـ سورة طه: ٨.

الخالقيّة والرحمانيّة والمالكيّة والعالميّة أسماؤه وصفاته من غير تعدّد في ذاته فإنّه روي أنّ المشركين حين سمعوا النبيّ ﷺ يقول: **«يا الله يا رحمن»** قالوا: ينهانا أنّ نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر.

قال الرازيّ في «المفاتيح»: يقال: إنّ للّه أربعة آلاف اسم: ألف لا يعلمها إلّا اللّه وألف لا يعلمها إلّا اللّه والملائكة وألف لا يعلمها إلّا اللّه والملائكة والأنبياء وأمّا الألف الرابع فانّ المؤمنين يعلمونه فثلاثمائة منها في التوراة وثلاثمائة في الإنجيل وثلاثمائة في الزبور ومائة في القرآن تسع وتسعون منها ظاهرة وواحد مكتوم فمن أحصاها دخل الجنّة.

والأسماء الواردة في القرآن منها ما ليس بانفراده ثناء ومدحاً كقوله: «جاعل» و«فالق» فإذا قيل: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾[1] صار مدحاً ومنها ما هو مدح فإذا قرن بغيره صار أبلغ كقولنا: «حي» فإذا قيل: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[2] أو ﴿ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ كان أبلغ، ومنها ما يكون اسم مدح مفرداً أو مقروناً كقولنا: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وليس حسن الأسماء حسنا يتعلّق بالصورة والخلقة فإنّ ذلك محال على من ليس بجسم بل حسن يرجع إلى معنى الإحسان مثلاً اسم الستّار والرحيم والغفّار إنّما كانت حسناء لأنّها دالّة على معنى الإحسان.

قيل: إنّ حكيماً ذهب إليه قبيح وحسن والتمسا الوصيّة والموعظة منه فقال للحسن: أنت حسن والحسن لا يليق به الفعل القبيح، وقال للآخر: أنت قبيح والقبيح إذا فعل القبيح عظم قبحه. فنقول: إلهنا يكفينا قبح أفعالنا وسيرتنا فلا تضمّ إليه بسبب استحقاقنا وحشة العذاب.

١ـ سورة الأنعام: ٩٦.

٢ـ سورة البقرة: ٢٥٥.

ذكر أنّ صيّادا كان يصيد السمك فصاد سمكة وكان له ابنة فأخذت السمكة وطرحتها في الماء وقالت: إنّها ما وقعت في الشبكة إلّا لغفلتها. إلهنا تلك الصبيّة رحمت غفلة هاتيك السمكة وكانت تلقاها مرّة أخرى في البحر ونحن قد اصطادتنا وسوسة إبليس وأخرجنا من بحر رحمتك فارحمنا بفضلك، وألقنا في بحار رحمتك مرّة أخرى.

وحكاية بشر الحافي وهي معروفة وأصلها أنّه رأى كاغذا مكتوباً فيه «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» في الأرض فرفعه وطيّبه بالمسك وقيل: بلعه، فرأى في النوم قائلاً يقول: يا بشر طيّبت اسمنا فنحن نطيّب اسمك في الدنيا والآخرة.

وقد ذكر اللّه سبحانه في الفاتحة من الأسماء خمسة وهي اللّه والربّ والرحمن والرحيم والمالك ومن أراد الاستقصاء في الأسماء والصفات فعليه بكتاب لوامع البيّنات في الأسماء والصفات.

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ
ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا
نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ
طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا
لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ
هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

المعنى: خاطب اللّه نبيّه تسلية له ممّا ناله من أذى قومه وتثبيتاً له بالصبر على أمر ربّه كما صبر موسى حتّى نال الفوز في الدنيا والآخرة كما

قال سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[١] وبدأ بموسى عليه السلام لأنّ المشقّة الحاصلة له كانت أعظم فقال: وهل سمعت بخبر موسى إذ رأى ناراً؟

عن ابن عبّاس قال: (كان موسى رجلاً غيوراً لا يصحب الرفقة لئلّا ترى امرأته فلمّا قضى الأجل وفارق مدين خرج)، وقيل: استأذن موسى شعيباً عليه السلام في الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج فولد له في الطريق ابن وكان معه غنم له وأهله على أتان وعلى ظهرها جوالق فيها أثاث البيت فأضلّ الطريق في ليلة مظلمة باردة وتفرّقت ماشيته ولم ينقدح زناده[٢] كلّما قدح وامرأته في الطلق وبينا هو كذلك إذ نظر ناراً من بعيد عن يسار الطريق فظنّ أنّها نار من نيران الرعاة وهي عند موسى عليه السلام كانت ناراً وعند الله نوراً.

قيل: النار أربعة أقسام: نار تأكل ولا تشرب وهي نار الدنيا ونار تشرب ولا تأكل وهي نار الشجر كالمرخ وأمثاله لقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾[٣] ونار تأكل وتشرب وهي نار المعدة ونار لا تأكل ولا تشرب وهي نار موسى عليه السلام.

وأيضاً باعتبار آخر ينقسم إلى أربعة أخرى: نار لها نور بلا حرقة وهي نار موسى عليه السلام وثانيها: حرقة بلا نور وهي نار جهنّم. وثالثها: الحرقة والنور وهي نار الدنيا ورابعها: لا حرقة ولا نور نار الأشجار.

وبالجملة فلمّا أبصر موسى النار توجّه نحوها ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ﴾ والخادم وأمثاله: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ وأقيموا مكانكم والفرق بين الإقامة والمكث أنّ الإقامة

١ـ سورة هود: ١٢٠.

٢ـ العود الذي يقتدح به النار.

٣ـ سورة يس: ٨٠.

تدوم والمكث لا يدوم. ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ أي: أبصرت ناراً والإيناس الإبصار الّذي لا شبهة فيه. ومنه إنسان العين فإنّه يتبيّن به الشيء ويظهر. والإنس يقال لظهورهم كما قيل الجنّ لاستتارهم وخفائهم وأيضاً هو من مادّة الأنس والإيناس.

ولمّا كان الإيناس بالقبس مترقّباً ومتوقعاً بنى الأمر فيه على الطمع والرجاء فقال: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ أي: بجذوة أو برأس عود أو فتيلة منها ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ هادياً يدلّني على الطريق لأنّ النار لا تخلو من أهل لها وناس عندها. والهدى اسم مصدر لما يهتدى به.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: أتى النار فإذا النار في شجرة عنّاب فوقف متعجّباً من حسن ضوء تلك النار وشدّة خضرة تلك الشجرة فسمع النداء من الشجرة وهو قوله: ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ كقولك: يا فلان أنا ربّك الّذي خلقك، فأجاب سريعاً ما يدري من دعاه فقال: إنّي أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت؟ فقال: أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب إليك من نفسك فعلم موسى إنّ ذلك لا ينبغي إلّا لربّه وأيقن به.

وقيل: إنّه لمّا رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها يتوقّد فيها نار بيضاء وسمع تسبيح الملائكة ورأى نوراً عظيماً لم يكن الخضرة تطفئ النار ولا النار تحرق الخضرة تحيّر وعلم أنّه خارق العادة ومعجز وإنّه أمر عظيم فألقيت عليه السكينة وإنّما كرّر الكناية لتأكيد الدلالة وإزالة الشبهة وتحقيق المعرفة.

﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ وانزعهما والسبب في هذا الأمر قيل: إنّما كانتا من جلد حمار ميّت، عن كعب وعكرمة وروي ذلك عن الصادق عليه السلام.[1] وقيل:

١ـ علل الشرايع، ج ١، ص ٦٦؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٢٤٨.

كانتا زكيّة ولكنّه أمر بخلعهما ليباشر بقدميه الأرض فتصيبه بركة الوادي المقدّس. وقيل: لأنّ الحفاء من علامة التواضع ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي: واد كثير البركة مطهّر و«طوى» اسم للوادي وقيل: «طوى» الوادي بالبركة.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ واصطفيتك للرسالة ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ إليك من كلامي وأصغ إليه، ولمّا أمره باستماع الوحي فابتدأ سبحانه بالتوحيد فقال: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ ولا يستحقّ العبادة غيري ﴿فَٱعْبُدْنِي﴾ خالصاً ولا تشرك في عبادتي غيري أحداً.

وهاهنا مسألة قال الأشعري: إنّ الله أسمعه الكلام القديم الّذي ليس بحرف ولا صوت والمعتزلة أنكروا وجود ذلك الكلام وقالوا: إنّ الله سبحانه خلق ذلك الصوت والنداء في جسم من الأجسام كالشجرة لأنّ النداء كلام الله والله قادر عليه ومتى شاء فعله.

وأمّا أهل السنّة من أهل ما وراء النهر فقد اعتقدوا بقدم الكلام إلّا أنّهم زعموا أنّ الّذي سمعه موسى صوت خلقه الله في الشجرة واحتجّوا بالآية على أنّ المسموع هذا النداء والصوت المحدث وأنّه رتّب النداء على أنّه أتى النار والمرتّب على المحدث محدث فالنداء محدث.

واستدلّت المعتزلة بقوله: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ على أنّ كلام الله تعالى ليس بقديم إذ لو كان قديماً لكان الله قائلاً قبل وجود موسى: فاخلع نعليك يا موسى، ومعلوم أنّ ذلك باطل فإنّ الرجل لا يقول ولا ينادي في الدار الخالية: يا زيد وإذا قال يحسب سفهاً فكيف يليق بالإله سبحانه؟ ولأنّ الأمر في ذلك الوقت ما كان له متعلّق.

وفي قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ دلالة على أنّ علم الأصول مقدّم على علم الفروع والفاء في قوله: ﴿فَٱعْبُدْنِي﴾ تدلّ على

التعقيب.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أي: اذكرني في الصلاة بالتسبيح والتعظيم لأنّ الصلاة لا يكون إلّا بذكر اللّه وقيل: معناه «أقم الصلاة» لأن أذكرك بالمدح والثناء. وقيل: معناه صلّ لي ولا تصلّ لغيري ولا تذكّر لغيري كما يفعله المشركون. وقيل: أقم الصلاة متى ذكرت أنّ عليك صلاة وهو المرويّ عن الباقر عليه السلام[1] ويؤيّده ما رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «**من نسي فليصلّها إذا ذكرها**».[2]

ثمّ أخبر سبحانه لموسى بمجيء الساعة فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ وجائية لا محالة ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ أي: أريد أن أخفيها عن الناس لئلّا تأتيهم إلّا بغتة قال ابن عبّاس: (معناه المبالغة في الخفاء أي: أكاد لا اظهر علمها أحداً حتّى من نفسي إذا كدت أن أخفيها من نفسي فكيف أظهرها لك؟) ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ وتعمل من خير وشرّ.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ عن الصلاة ولا يصرفنّك ﴿مَن لَّا يُؤۡمِنُ﴾ بالساعة، وقيل: الضميران راجعة كلاهما إلى الساعة قوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ولا يمنعك عن هذه الخصال من بنى أمره على متابعة الهوى دون الحقّ ﴿فَتَرۡدَىٰ﴾ وتهلك حينئذ بسبب المخالفة وترك التأهّب والخطاب لموسى عليه السلام وهو من سائر المكلّفين.

وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا
وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾
فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا

١ـ مستدرك الوسائل، ج ٦، ص ٤٢٨؛ ومجمع البيان، ج ٧، ص ١٣.

٢ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ١٣؛ وانظر: عوالي اللئالي، ج ١، ص ١١٦.

سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ
ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾
قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾
يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ
أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ
كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

المعنى: كلمة ﴿تِلْكَ﴾ قيل: إشارة، وقيل: موصولة أي: ما الّتي في يمينك؟

أو بالإشارة: ما تلك في يمينك؟ والسؤال إنّما يكون لطلب العلم وهو على الله محال لكنّه أراد أن ينبّهه على وقوع أمر عظيم لكي لا يدهش بسبب ذلك الأمر العظيم ويعلم أنّ هذا الأمر إنّما وقع بطريق المعجزة فلا يخاف أنّ الخشبة اليابسة تنقلب ثعباناً عظيماً.

ولمّا تكلّم معه بهيبة الإلهيّة وألزمه التكاليف الصعبة من علم المبدأ والمعاد والوسط وختمه بالتهديد العظيم حيث قال: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ إلى آخر الآية، تحيّر موسى ودهش من التحيّر بحيث كاد أن لا يعرف اليمين من الشمال.

فلو قيل: إنّ الله تعالى خاطب موسى من غير واسطة ولم يحصل ذلك لمحمّد ﷺ فيلزم أن يكون موسى أفضل من محمّد.

فالجواب أنّه كما خاطب سبحانه موسى فقد خاطب محمّداً في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[1] والفرق بينهما أنّ الّذي ذكره مع موسى أفشاه إلى الخلق والّذي ذكره مع محمّد ﷺ كان سرّاً لم يستأهل له أحد من الخلق وأمّة محمّد يخاطبون الله مرّات في الليل والنهار كما قال ﷺ: «المصلّي

١ـ سورة النجم: ١٠.

يناجي ربّه وفي يوم القيامة يكلّم الله المتّقين من أمّته بقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾».(١)

والصحيح أنّ «تلك» مبتدأ و«ما» خبره مقدّم عليه لما فيه من معنى الاستفهام.

فأجاب موسى ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ أعتمد عليها إذا مشيت والتوكّؤ التحامل على العصا في المشي وأخبت بها ورق الشجر لترعاه غنمي وقرئ «أهسّ» بالسين المهملة زجر الغنم ﴿وَلِيَ فِيهَا﴾ فوائد أخرى ولم يقل: «أخر» بالجمع لتوافق رءوس الآي.

قال ابن عبّاس: كان يحمل عليها زاده ويركزها فيخرج منه الماء ويضرب بها الأرض فيخرج ما يأكل ويطرد بها السباع وإذا ظهر عدوّ حاربت وإذا أراد الاستسقاء من بئر طالت وصارت شعبتاها كالدلو وكان يظهر عليها كالشمعة فتضيء بالليل وكانت تحدّثه وتؤنسه وإذا طالت شجرة جناها بمحجنها وكانت هذه الفوائد لعصا بعد أن صار موسى موسى.

قال الله تعالى: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ ولعلّ التأويل أنّ من كان قلبه مشغولاً بالعصا ومنافعها والنعلين كيف يكون مستغرقاً في بحر معرفة الله فألق هذه العلائق عنك وأنّ محمّداًﷺ لمّا عرض عليه الجنّة والنار لم يلتفت إلى شيء منها: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾.(٢)

وأيضاً في تأويل إلقاء العصا أنّ كلّ ما سوى الله فالالتفات إليه شاغل وهو كالحيّة المهلكة لك كما قال الخليل: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٣)

١ـ سورة يس: ٥٨.

٢ـ سورة النجم: ١٧.

٣ـ سورة الشعراء: ٧٧.

وفي الحديث: «**يجاء يوم القيامة بصاحب المال الّذي لم يؤدّ زكاته ويأتي ذلك المال على صورة شجاع أقرع**» الحديث.[1]

ومن قوله: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ يتبيّن أنّ الاستطاعة قبل الفعل لأنّ القدرة على إلقاء العصا إمّا يوجد والعصا في يده أو خارجة من يده فإن أتته القدرة وهي في يده فثبت المطلوب وأنّ اللّه ليس بظلّام للعبيد. وإذا أتته وليست في يده وإنّما استطاع أن يلقي من يده ما ليس في يده فذلك محال.

فإن قيل: إنّ الثعبان والجانّ بينهما تناف لأنّ الثعبان هو العظيم من الحيّات والجانّ الدقيق منها والصغير منها وأنّ وقت انقلاب العصا كانت حيّة صغيرة دقيقة ثمّ تورّمت وتزايد جرمها حتّى صارت ثعباناً.

فالجانّ أوّل حالها والثعبان مآلها على أنّها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجانّ والدليل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾[2] وأمّا صفتها: كان لها عرف كعرف الفرس وكان بين لحييها أربعون ذراعاً وكانت تبتلع كلّ ما مرّت به من الصخور والأحجار حتّى سمع موسى صرير الحجر في فمها وجوفها.

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ لمّا نودي موسى وخصّ بتلك الكرامات العظيمة وعلم أنّه مبعوث من اللّه إلى الخلق فلمّا خاف وكان ذلك الخوف من نفرة الطبع ومقتضى البشريّة والخوف دليل لصحّة نبوّته وصدق ادّعائه لأنّ الساحر يعلم أنّ الّذي أتى به تمويه فلا يخافه البتّة.

فلمّا سمع: ﴿خُذْهَا﴾ أدخل يده بين أسنانها فانقلب خشبة ولمّا قال له ربّه: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ٢٦.

٢ـ سورة النمل: ١٠؛ سورة القصص: ٣١.

وأخذ بلحييها فعادت عصا ونصب ﴿سِيرَتَهَا﴾ بنزع خافض أي: إلى سيرتها وحالتها الأولى وعلى موسى يومئذ مدرعة من صوف قد خلّها بخلال فلمّا أمره سبحانه بقوله: «خذها» لفّ طرف المدرعة على يده فقال اللّه: يا موسى أرأيت لو أذن اللّه ممّا تحاذر كانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟ قال: ولكنّي ضعيف ومن ضعف خلقت فكشف عن يده ثمّ وضعها في فم الحيّة فإذا يده في الموضع الّذي كان يضعها إذا توكأ عليها بين الشعبتين.

وقيل: كانت العصا من آسّ الجنّة أخرجها آدم وتوارثها الأنبياء إلى أن بلغ شعيباً فدفعها إلى موسى عليه السلام وقيل: كانت من عوسج وكان طولها عشرة أذرع على مقدار قامة موسى والمراد من الذراع من المرفق إلى رءوس الأصابع لا الذراع الاصطلاحيّ.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ اعلم أنّه يقال: لكلّ ناحيتين جناحان كجناحي العسكر لطرفيه وجناحا الإنسان جنباه والأصل المستعار منه جناحا الطائر لأنّه يجنحهما ويميل بهما إلى الحركة أي: واجمع يدك إلى ما تحت عضدك أو إلى جنبك أو إلى جيبك ادخل يدك تخرج بيضاء لها نور ساطع تضيء بالليل والنهار أشدّ من نور الشمس والقمر من غير بياض كالبرص ففعل فخرجت يده كما قال اللّه ثمّ ردّها فعادت إلى لونه الّذي كانت عليه، آية أخرى زيادة على آية العصا.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: خذها لنريك بعض آياتنا ﴿ٱلْكُبْرَى﴾ والكبرى بمناسبة الآية ونعت الآية فلو قيل: نعت الآيات فكقوله: ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ و﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وبالجملة لمّا أظهر سبحانه له هاتين الآيتين أمره بالذهاب ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وبيّن العلّة في ذلك وقال: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ وتكبّر في كفره.

﴿قَالَ﴾ موسى عند ذلك ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ووسّعه حتّى أتحمّل ولا أخاف وسهّل عليّ إذا كلّفتني بالرسالة وأطلق عن لساني العقدة الّتي فيه حتّى يفهموا كلامي وكان في موسى رتّة لا يفصح معها بالحروف شبه التمتمة وسبب ذلك جمرة طرحها في فيه لمّا أراد فرعون قتله لأنّه أخذ بلحية فرعون ونتفها وهو طفل فقالت آسية بنت مزاحم: لا تفعل لأنّه صبيّ لا يعقل وعلامة جهله أنّه لا يميّز الدرّة من الجمرة فأمر فرعون حتّى احضر الدرّة والجمرة بين يديه فأراد موسى أن يأخذ من الدرّة فضرب جبرئيل يده إلى الجمرة فأخذها ووضعها في فيه فاحترق لسانه.

وبالجملة فأجاب الله مسؤوله بقوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ ومناك ومن مسؤولاته: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي﴾ أتقوى به وبرأيه وكونه من أهله يوجب أن يكون له أولى ببذل النصح وكان هارون أخاه لأمّه وأبيه ﴿وَأَشْرِكْهُ﴾ معي في الأمر والنبوّة والمراد من الشركة النبوّة ولو لا ذلك لكان يجوز له أن يستوزره من غير مسألة لأنّ الوزارة الإعانة والاستعانة لا يلزم الرخصة وكان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين وأتمّ طولاً وأبيض جسماً وأفصح لساناً ﴿كَيْ﴾ ننزّهك عمّا لا يليق بك وإنّما سأل هذه الحاجات ليتوصّل بها إلى الطاعات لأنّها موجباتها لا للرياسة ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ بأحوالنا وعالماً باحتياجنا بهذه الأمور.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو فإنّ موسى عليه السلام خرج يقتبس لأهله ناراً فكلّمه الله فعاد وهو نبيّ، وخرجت ملكة سبأ كافرة فأسلمت مع سليمان عليه السلام، وخرج سحرة فرعون يطلبون العزّة ويعارضون الربّ فرجعوا مؤمنين».**[1]

فانظر في فضيلة التسبيح والدعاء أنّ مثل هذا النبيّ المكرّم الّذي كلّمه

١ـ الكافي، ج ٥، ص ٨٣؛ والأمالي الصدوق، ص ٢٤٤؛ وبحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٤٦.

الله تعالى وأنعم عليه بهذه النعم العظيمة من المعجزة والرسالة وقبول مسؤولاته قابل هذه النعم بالذكر والدعاء فقال: نسبّحك كثيراً.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾

المعنى: لمّا أخبر سبحانه بأنّه أتاه طلبته بقوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ عقّبه في هذه الآية بأنّ نعمتنا جارية عليك قديماً وحديثاً وعدّد تلك النعمة بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ قبل هذه المرّة «والمرّة» الكرّة الواحدة وذلك حين ألهمنا امّك ما كان فيه نجاتك من القتل قيل: رأت بالمنام أن تفعل هكذا أو القي هذا الأمر في خاطرها أو أنّه سبحانه أوحى إلى بعض الأنبياء في ذلك الزّمان كشعيبعليه السلام وغيره وذلك النبيّ عرّفها.

ثمّ فسّر ذلك الإيحاء بقوله: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ واجعليه بأن ترميه فيه واقذفي التابوت والصندوق ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ يراد به النيل روي أنّها اتّخذت تابوتاً وجعلت فيه قطنا محلوجاً ووضعت فيه موسى وقيّرت شقوقه ورأسه ثمّ ألقته في النيل والّذي صنع التابوت قيل: حزقيل مؤمن آل فرعون.

﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ والساحل بمعنى المسحول سمّي بذلك لأنّ الماء

يسحله فكأنّه سبحانه أمر اليمّ كما أمر أمّ موسى، والمعنى أنّها متى تلقيه في البحر يلقيه اليمّ في الساحل حتماً واليمّ اسم يقع على البحر والنهر العظيم ﴿يَأْخُذْهُ﴾ بعد إلقائه في اليمّ ﴿عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ يعني: فرعون كان عدواً لله ولأنبيائه وعدواً لموسى خاصّة لتصوّر أنّ ملكه ينقرض على يده لأنّ فرعون خاف من هذا الأمر كان يقتل غلمان بني إسرائيل ثمّ خشي أن يفنى نسلهم فكان يقتل بعد ذلك في سنة ولا يقتل في سنة فولد موسى في السنة الّتي كان يقتل الغلمان فيها فنجاه الله فهذه المنّة الأولى.

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ أي: جعلتك بحيث يحبّك من يراك حتّى أحبّك عدوك فرعون وأحبّتك امرأته آسية فربّتك في حجرها وأنّ البحر القى التابوت بموضع من الساحل فيه فوهة نهر قصر فرعون وأدّاه النهر إلى بركته فلما رآه أخذه قيل: جعل الله موسى محبوباً إلى الناس فلا يلقاه أحد مؤمن ولا كافر إلّا أحبّه وقيل: كانت ملاحة في عين موسى فما رآه أحد إلّا أحبّه.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ أي: ولتربّى وتغذّى بمرأى منّي ويجري أمرك على ما أريد من الرفاهة في غذائك وذلك أنّ من صنع الإنسان شيئاً وهو ينظر إليه صنعه كما يحبّ قال القفّال: معناه لترى على عيني ووفق إرادتي والمراد من العين العلم أي: ترى على علم منّي كما أنّ العالم بالشيء يحرسه عن الآفات كما أنّ الناظر إليه يحرسه عن الآفات فالعين كأنّها سبب الحراسة فأطلق اسم المسبّب مجازاً وقيل: المعنى أن تربّى وتغذّى بحياطتي وحفظي كما يقال: عليك عين الله وقوله: إذ تمشي أختك فتقول هل أدلّكم على من يكفله فرجعناك إلى امّك، فصار ذلك تفسيراً لحياطة الله.

و«لتصنع» قرئ بكسر اللّام وجزم العين بصيغة الأمر وبفتح التاء والنصب أي: وليكون تصرّفك وعملك على علم منّي.

وبالجملة لمّا فشا الخبر بمصر أنّ آل فرعون أخذ وا غلاماً في النيل وهو لا يرتضع من ثدي كلّ امرأة يؤتى بها لأنّ اللّه حرّم عليه المراضع غير أمّه اضطرّوا إلى تتبّع النساء فلمّا رأت أخت موسى جاءت إليهم منكّرة فقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ﴾ أهلِ بيتٍ يكفلونه لكُمْ ثمّ جاءت بالأمّ فقبل ثديها فرجع إلى أمّها بلطف اللّه ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾.

ومن المنن قوله تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ خطاء وهو الّذي وكزه موسى وكان قبطيّا كافراً فخاف موسى أن يقتلوه به ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ﴾ من خوف الاقتصاص ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ واختبرناك اختباراً وعاملناك معاملة المختبر حتّى خلصت للاصطفاء بالرسالة وهذه النعمة الأخيرة من أعظم النعم وقيل: امتحنّاك في تشديد المعاش حتّى رعيت لشعيب عشر سنين.

ثمّ شرح سبحانه في ذلك فقال: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ حين كنت راعياً لشعيب ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك ﴿جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: في الوقت الّذي قدّر لإرسالك نبيّاً. قال الشاعر:

نال الخلافة إذ كانت له قـدراً كما أتى ربّه موسى على قـدر

وقيل: جئت على الوقت الّذي يوحى فيه إلى الأنبياء وهو على رأس أربعين سنة.

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ﴾ واتّخذتك صنيعتي وأخلصتك لتشتغل بإرادتي وإقامة حجّتي وجعلتك بيني وبين خلقي.

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ﴾ وهارون بحججي وآياتي ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ أي: ولا تضعفا ولا تفترا في أمري ولا تقصرا. ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ كرّر الأمر بالذهاب للتأكيد وقيل: إنّ في الأوّل اختصّ موسى بالأمر وفي الثاني أمرهما ليصيرا شريكين في الأمر ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ وجاوز الحدّ في الطغيان.

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ له أي: ارفقا في الدعوة والقول ولا تغلظا له وقيل: معنا كنّياه وكنيته أبو الوليد وقيل: أبو العبّاس وقيل: أبو مرّة ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ ما أغفل عنه من عبوديّة نفسه وربوبيّة اللّه سبحانه ويخشى العقاب والعذاب وقيل: إنّ هارون كان بمصر فلمّا أوحى اللّه إلى موسى أن تأتي مصر أوحى إلى هارون أن يتلقّى موسى فتلقّاه على مرحلة وذهبا إلى فرعون.

وقال يحيى بن معاذ في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ إلهي هذا رفقك بمن يدّعي الألوهيّة فكيف رفقك بمن أقرّ بالعبوديّة؟

قيل: إنّ موسى أتاه وقال له: تسلم وتؤمن لربّ العالمين على أنّ لك شبابك فلا تهرم وتكون ملكاً لا تنزع الملك حتّى تموت ولا تنزع منك لذّة الطعام والشراب والجماع حتّى تموت فإذا متّ دخلت الجنّة فأعجبه ذلك وكان لا يقطع أمراً دون هامان وكان غائباً فلمّا أقدم هامان أخبره بالّذي دعاه إليه وأنّه يريد أن يقبل منه فقال هامان: قد كنت أرى أنّ لك عقلا وأنّ لك رأياً بينا أنت ربّ تريد أن تكون مربوباً وبينا أنت تعبد تريد أن تعبد؟ فقلّبه عن رأيه ولا ينافي هذه التوصية من اللّه تعالى لموسى في قوله: ﴿قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ مع علمه بأنّه لا يؤمن لأنّه أراد أن يتمّ الحجّة عليه لئلّا يكون للناس على اللّه حجّة.

قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي
مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ
ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ
فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾

لمّا أمر الله موسى وهارون أن يمضيا إلى فرعون ويدعواه إليه ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ ونخشى أن يسبقنا بعذاب ويعجل بعقوبة علينا.

﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ بالنصرة والحفظ و﴿أَسْمَعُ﴾ ما يسأله عنكما فألهمكما جوابه ﴿وَأَرَىٰ﴾ ما قصده بكماً فأدفعه عنكما قوله: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ أي: فأتيا فرعون ﴿فَقُولَآ﴾: أرسلنا إليك خالقنا بما ندعوك إليه ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أطلقهم ولا تعذّبهم بالأعمال الشاقّة.

واحتجّ القائلون بعدم فوريّة الأمر بهذه الآية لأنّه لو كان يقتضي الفوريّة لما جاز لهم أن يسألوا ما يزيدهم الاطمينان والثبات ولكانوا يمضون سريعاً إلى حيث أمرهم الله خصوصاً إذا ضمّت إليه ما يدلّ على أنّ المعصية غير جائزة على الرسل.

﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ ودلالة واضحة ولائحة من الله يشهد لنا بالصدق والنبوة ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ قالوا: لم يرد بالسلام هنا التحيّة بل معناه أنّ من اتّبع الهدى سلم من عذاب الله ويدلّ على هذا المعنى بعده ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: إنّما يعذّب الله من كذّب بما جئنا به وأعرض عنه فأمّا من اتّبعه فإنّه يسلم من العذاب.

وفي الكلام حذف وتقدير وهو فأتياه ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ قال لهما

فرعون: فمن ربّكما يا موسى؟ واكتفى بذكر موسى للتغليب والشمول لهارون ولتسوية رءوس الآي.

وأراد فرعون من هذا الكلام أنّ ربّكما من أي: جنس من الأجناس حتّى أفهمه.

فبيّن موسى أنّه تعالى ليس له جنس وإنّما يعرف بأفعاله فقال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: كلّ شيء قدّره بالصورة فهداه إلى مطعمه ومشربه ومنكحه وغير ذلك من ضروب الهداية الموجبة لبقاء وجوده ووجود نوعه من أمور معاشه بعضاً وأمور معاشه ومعاده بعضاً كالإنسان ليتوصّل بها إلى الآخرة ونعيمها أو الآية بالتقديم والتأخير أي: أعطى خلقه كلّ شيء يحتاجون إليه.

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ﴾ الماضية فإنّها لم تقرّ بالله وما تدعو إليه كعبدة الأوثان ومثل قوم نوح وعاد وثمود وأمثالها ف ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ أي: أعمالهم محفوظة عند الله يجازيهم على أعمالهم والتقدير: علم أعمالهم عند ربّي ﴿فِى كِتَـٰبٍ﴾ أي: في اللوح المحفوظ أو ما يكتبه الملائكة لا يخطئ ربّى ﴿وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا يغفل ولا يترك شيئاً ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾.

وهاهنا مسألة وهي أنّه كيف يتصوّر أنّ الّذي يميّز أنّ العشرة أكثر عدداً من الخمسة أن يعتقد نفسه أنّه إله العالمين وهو يدرك عجزه في تدبير بدنه ولكلّ أحد يحصل علم الضروريّ بأنّه ليس خالقاً وموجدا للعالم فكيف جهل فرعون هذا الأمر وادّعى الربوبيّة؟ فيحتمل أنّه كان دهريّاً نافيا للمؤثّر أصلاً ويحتمل أنّه كان فلسفيّا قائلاً بالعلّة الموجبة ويحتمل أنّه كان من عبدة الكواكب ويحتمل أنّه كان من الحلوليّة المجسّمة وادّعاؤه الربوبيّة لنفسه

بمعنى أنّه يجب عليهم طاعته والانقياد له في تمام الأمور وعدم الاشتغال بطاعة غيره وهذا من أقبح أقسام الشرك والكفر لأنّه قد عرف أنّ ربّه وخالقه غيره وقد جحده وادّعى الإطاعة والعبادة لنفسه.

وقيل: إنّ موسى عليه السلام لمّا دعا فرعون إلى الإقرار بالبعث قال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فلم لم يبعثوا؟ فجاوبه موسى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾ إذ لا يذهب عليه شيء.

وبالجملة ثمّ زاد موسى في الأخبار عن اللّه وقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ ومقراً ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: أدخل لأجلكم في الأرض طرقاً تسلكونها وسهّل لكم فيها طرقاً من الجبال والأودية والبراري ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني: المطر، تمّ كلام موسى.

ثمّ أخبر اللّه عن نفسه ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ بذلك الماء ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي: صنوفاً وأقساما من النبات مختلفة الألوان والطعم والشكل فمنها ما يصلح لطعام الإنسان ومنها ما يصلح لغير الإنسان ﴿كُلُوا۟﴾ ممّا أخرجنا لكم بالمطر من النبات والثمار ﴿أَنْعَٰمَكُمْ﴾ وأسيموا مواشيكم واللفظ بالأمر والمراد الإجابة والتذكير بالنعمة إنّ ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكورات دلالات لأهل العقل وقيل. لذوي الورع والتقوى.

﴿مِنْهَا﴾ أي: من الأرض ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أباكم آدم وفي الأرض ﴿نُعِيدُكُمْ﴾ إذا أمتناكم ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ دفعة أخرى إذا حشرناكم.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ﴾ أي: فرعون ﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ يعني: الآيات التسع ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون بجميع ذلك ﴿وَأَبَىٰ﴾ أن يؤمن به فجحد الدليل وإنّما أراد بالآيات الّتي أعطاها موسى.

فإن قيل: إنّ فرعون خاطب الاثنين بقوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ ثمّ لم وجّه

النداء إلى أحدهما وهو موسى؟ لأنّه لخبثه كان يعلم الرتّة الّتي في لسان موسى عليه السلام فأراد استنطاقه للفضيحة كما أنّه لمّا قهره موسى بالحجّة بقوله: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ خاف فرعون أن يزيد موسى بالحجّة ويظهر للناس صدقه وفساد طريقة فرعون فصرفه عن ذلك الكلام شغله بالحكايات بقوله: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ فلم يلتفت إليه موسى جاوبه بقوله: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ أي: لا يتعلّق غرضي بأحوالهم. وعاد إلى تتميم كلامه الأوّل وإيراد الدلائل الباهرة كقوله: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

وهذا الدليل ذكره الله لمحمّد صلى الله عليه وآله في قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[1] وقال إبراهيم في حججه لنمرود: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[2] لأنّك إذا نظرت إلى أضعف الخلق مثلاً كالبقّ والبعوضة كيف تهتدي إلى مصالح أنفسها من الميل إلى ما ينفعها والإعراض عن ما يضرّها وكذا هداية الحيوانات من عطف الأمّهات إلى الأولاد وهدى الأولاد لثدي[3] الأمّهات لبقاء النوع ودوام التناسل وضروب الانتفاعات من الجوارح لعرفت أنّ ذلك لا يمكن إلّا بإلهام من مدبّر عالم بجميع ما يحتاج يكون من غير سنخها وشبهها من جميع جهات المخلوقيّة.

وبيانه أنّ دلالة هذه الأشياء والأمور على وجود المدبّر الصانع القديم المختار بسبب أنّ اتّصاف كلّ جسم من هذه الأجسام بتلك الصفة المخصوصة من التركيب والشكل والقوّة والهداية إمّا أن يكون واجباً أو جائزاً

١ـ سورة الأعلى: ١ ـ ٣.

٢ـ سورة الشعراء: ٧٧ ـ ٧٨.

٣ـ الأمّهات لبقاء النوع ودوام التناسل وضروب الانتفاعات من الجوارح.

والأوّل باطل لأنّا نشاهد تلك الأجسام بعد الموت منفكّة عن تلك التراكيب والقوى فدلّ على أنّ ذلك جائز والجائز لابدّ له من مرجّح وليس ذلك المرجّح هو الإنسان ولا أبواه لأنّ فعل ذلك يستدعي قدرة عليه وعلماً بما فيه من المصالح والمفاسد وكلاهما نائيان عن الإنسان لأنّه بعد كمال عقله يعجز عن تغيير شعرة واحدة وبعد البحث الشديد عن كتب التشريح لا يعرف من منافع الأعضاء ومصالحها إلّا القدر القليل فلابدّ أن يكون المتولّي لتدبيرها موجوداً آخر وذلك الموجود لا يجوز أن يكون جسماً لأنّ الأجسام متساوية في الجسميّة فاختصاص ذلك الجسم بتلك المؤثّريّة لابدّ وأن يكون جائزاً فلمّا صار جائزاً افتقر إلى سبب آخر والدور والتسلسل محالان فلابدّ من الانتهاء في سلسلة الحاجة إلى موجود مؤثّر ومدبّر ليس بجسم ولا جسمانيّ. ثمّ تأثير ذلك المؤثّر إمّا أن يكون بالذات أو بالاختيار والأوّل محال لأنّ الموجب لا يميّز مثلاً عن مثل وهذه الأجسام متساوية في الجسميّة فلم اختصّ بعضها بالصورة الفلكيّة وبعضها بالصورة العنصريّة وبعضها بالنباتيّة وبعضها بالحيوانيّة فثبت أنّ المؤثّر والمدبّر قادر وأن يكون واجب الوجود بالذات وإلّا لا فتقر إلى مدبّر آخر ويلزم التسلسل وهو محال.

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ

﴿ٱلۡمُثۡلَىٰ ۝٦٣ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ۝٦٤ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ۝٦٦﴾

ثمّ حكى سبحانه عن فرعون أنّه نسب موسى إلى السحر تلبيساً على قومه ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ﴾ أرض مصر لنأتينّك مثل ما أتيتنا فاجعل. وإنّما قال اللعين: ﴿لِتُخۡرِجَنَا﴾ لإلقاء الشبهة في مسامع أهل مصر ما يصيرون مبغضين لموسى جداً لأنّ هذه الأمر صعب نهاية بحيث جعله الله تعالى مساويا للقتل في قوله: ﴿أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾[1] ثمّ أورد الشبهة الطاعنة لنبوّته حيث نسبه إلى السحر لا المعجز.

﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ﴾ والموعد يمكن أن يكون مصدراً ويجوز أن يكون اسماً لمكان الوعد كقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ﴾[2] ويجوز أن يكون اسم زمان الوعد كقوله: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُ﴾[3] والّذي في هذه الآية بمعنى المصدر أي: اجعل بيننا وعداً لأنّ الوعد هو الّذي يصحّ وصفه بالخلف.

﴿سُوٗى﴾ قرئ بضمّ السين وبكسرها لغتان مثل طوى وطوى وقرئ منوّناً وغير منوّن قيل: المراد مكاناً مستوياً لا يحجب العين ما فيه من الارتفاع والانخفاض أي: لا يكون فيه ارتفاع وانخفاض حتّى يشاهد كلّ الحاضرين ما يجري أو المعنى مكاناً يستوي حالنا في الرضا والانتصاف ويكون نصفا بيننا وبينك. وقيل: متساوي المسافة على الفريقين.

١ـ سورة النساء: ٦٦.

٢ـ سورة الحجر: ٤٣.

٣ـ سورة هود: ٨١.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ وكان يوم عيد لهم يسمّى يوم الزينة لأنّ الناس كانوا يتزيّنون فيه ويزيّنون أسواقهم ويوم ﴿يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ حال اجتماعهم في الضحى. وقيل: يوم الزينة كان عيدهم يوم النيروز. وقيل: يوم سوق لهم وقيل: يوم عاشورا وإنّما وعدهم ذلك اليوم موسى لتكون كلمة الله هي العليا ويظهر الحقّ من الباطل على الرءوس في المجمع العامّ ليحدّثوا بذلك الأمر العجيب.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ وانصرف وفارق موسى على هذا الموعد ثمّ جمع حيلته ومكره وذلك جمع السحرة ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ وحضر الموعد في الموضع بالسحرة وبالقوم وبالآلات.

قال ابن عبّاس: (كانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كلّ واحد منهم حبل وعصا).

وقيل: كانوا أربعمائة. وقيل: أكثر من ذلك. ثمّ ضربت قبّة لفرعون فجلس فيها ينظر إليهم وكان طول القبّة سبعين ذراعاً.

ثمّ بيّن موسى عليه السلام قبل كلّ شيء الوعيد والموعظة ممّا قالوه وحذّرهم فقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ وأنّ الّذي تزعمون ليس بحقّ وأنّه سحر ولا يمكنكم أيّتها السحرة معارضتي. ومعنى ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أي: ألزمكم الله الويل ويجوز على النداء. وقوله: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ والسحت استقصاء الشعر في الحلق أي: يستأصلكم العذاب ويهلككم.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: تشاوروا وتفاوضوا في حديث موسى وهارون وفرعون أو تشاورت السحرة في ما هيّئوه للمعارضة مع موسى فيمن يبتدي في الأعمال والإلقاء.

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ يعني: أنّ السحرة أخفوا كلامهم وتناجوا في ما بينهم سرّاً من فرعون فقالوا: إن غلب علينا موسى اتّبعناه لأنّ موسى لمّا قال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا

﴿تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ قال السحرة بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر.

﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ وفي رفع «هذان» ذكروا وجوهاً:

الأوّل: أنّ كلمة «إن» ضعيفة في العمل لأنها تعمل بسبب المشابهة للفعل لا بالأصالة وإذا كان عملها بالمشابهة لا بالأصالة فهي ضعيفة في العمل فجاز بقاء المبتداء على حاله.

وقيل: «إن» في الآية وقعت موقع نعم أي: نعم هذان لهما ساحران واللّام دخلت على المبتدأ وهو ضميرهما لا على الخبر وذكروا وقالوا: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ مثل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾[١] ومثل قوله: ﴿لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ -إلى قوله- وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.[٢]

وقيل: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ بالتخفيف أي: ما هذان إلّا ساحران.

وقال الأخفش: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ خفيفة في معنى ثقيلة لغة يرفعون بها ويدخلون اللّام ليفرّقوا بينهما وبين الّتي تكون في معنى «ما».[٣]

وقيل: وهو الأقوى إنّ هذه لغة لبعض العرب لغة لحارث بن كعب وكنانة وخثعم وبعض بني عذرة وبني ربيعة، واستشهد الفراء بقولهم:

تزوّد منّا بين أذنـاه ضـربة ... دعته إلى هاتي التراب عقيم

وقال الجاهليّ من بني ضبّة:

أعرف منه الجيد والعينانـا ... ومنخـرين أشـبها ظبيانـا

وقال الآخر:

١ـ سورة المائدة: ٦٩.

٢ـ سورة النساء: ١٦٢.

٣ـ جامع البيان، ج ١٦، ص ٢٢٥؛ وأيضاً تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ٧٤.

كان يميناً سجل ومضيفه　　　يراق دم لن يبرح الدهر ثاويا

وأنشدوا:

إنّ أباهـا وأبـا أباهـا　　　قد بلغا في المجد غايتاهـا

وقال ابن جنّي: عن قطرب صاحب كتاب «مثلث»:

هناك أن تبكي بشعشعان　　　رحب الفؤاد طائل اليـدان

وأمثاله كثيرة: وبالجملة قالوا: إن هذان لساحران ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم﴾ من ملك مصر ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ الشريفة قال الفراء: الطريقة الرجال الأشراف الّذين هم قدوة لغيرهم يقال: هم طريقة قومهم وللواحد هو طريقة قومه.

وحاصل المعنى أنّهم أظهروا بأنّ موسى وهارون يريدان أن يذهبا بأشراف قومكم وأكابركم وهم بنو إسرائيل لقول موسى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وبنو إسرائيل كان يومئذ أكثر عدداً وأموالاً ومن المفسّرين من فسرّ الطريقة المثلى بالدين وكان عندهم دينهم الطريقة المثلى الأمثل الأشبه بالحقّ ومنهم من فسّر الطريقة بالمال والجاه وغرضهم من هذا البيان تنفير الناس عن اتّباع موسى. ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ أي: لا تدعوا من كيدكم شيئاً إلّا جئتم به ﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ﴾ مصطفّين مجتمعين لكي يكون أنظم لأمركم وأشدّ لهيبتكم ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ وغلب وعلا وهذا قول بعض السحرة.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ أي: إمّا أن تلقي ما معك أو نلقي ما معنا وهذا التخيير مع تقديمه في الذكر حسن أدب منهم وتواضع منهم لموسى لا جرم أنّ الله رزقهم الإيمان ثمّ إنّ موسى قابل أدبهم بأدب بقوله: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ﴾ فلو قيل: كيف أمرهم موسى بإعمال السحر والكفر فإنّهم قصدوا بذلك تكذيب موسى؟ والجواب أنّ موسى لمّا علم أنّ إلقاءهم لا يترتّب عليه أمر بل يحصل الخذلان لهم وإبطال معتقداتهم ويظهر

الحقّ والباطل من هذا الإلقاء ثمّ هذا الأمر مشروط بكونهم محقّين كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ... إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] أي: قادرين وكان هذا الإلقاء طريقاً إلى دفع الشبهة فله أن يأمرهم به.

وهاهنا حذف في الكلام وتقديره: فألقوا ما معهم ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ والضمير في «إليه» راجع إلى موسى وقيل: إلى فرعون أي: كان يرى الحبال أنّها تسير وتعدو مثل الحيّات.

وإنّما قال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ لأنّها لم تكن تسعى حقيقة وإنّها تحرّكت لأنّهم جعلوا داخلها الزيبق فلمّا حميت الشمس طلب الزيبق الصعود والخروج فحرّكت الشمس ذلك قال ابن عبّاس: ألقوا حبالهم وعصيّهم فخيّل إلى موسى أنّ الأرض كلّها حيّات وأنّها تسعى فخاف فلمّا قيل له: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾.

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي
يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ
السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ
لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ
فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا
مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾
إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ
مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ
عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

١ـ سورة البقرة:٢٣؛ وسورة يونس:٣٨.

المعنى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ﴾ أي: أحسّ موسى في نفسه خوفاً ووجد في نفسه ما يجده الخائف والسبب في ذلك أنّه خاف أن يلتبس على الناس أمرهم فيتوهّموا أنّهم فعلوا مثل فعله فيظنّوا المساواة ولا يتّبعونه وقيل: خوف الطباع البشريّ أو خاف أن يتفرّق الناس قبل إلقائه العصا ويبقوا في الشبهة.

قلنا وخاطبنا موسى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ عليهم بالظفر والغلبة وألق العصا تبتلع وتلقف ما صنعوا من السحر ولمّا ألقى عصاه صارت حيّة وطاف حول الصفوف حتّى رآها الناس كلّهم ثمّ قصدت الحبال والعصيّ فابتلعها كلّها على كثرتها.

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ والعرب تقول في الكذب: هو كلام مصنوع وموضوع ومجعول أي: أنّ صنيعهم حيلة ومكر ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ بمقصوده وبغيته إذ لا حقيقة له حيث كان من الأرض و﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ بسحره لا فوز له لأنّ الحقّ يبطله.

فلمّا ألقى عصاه وابتلع ما صنعوه ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ حال كونهم ساجدين وخرّوا لأنّهم كانوا من الطبقة العليا في السحر فلمّا رأوا ما فعله موسى عرفوا أنّه خارج عن الصناعة وليس أمره من السحر فاستدلّوا بفناء أجسام الحبال والعصيّ العظيمة على القادر العالم وبظهورها على يد موسى على كونه رسولاً من عند الله فلا جرم تابوا وآمنوا بربّ العالمين.

قال الزمخشريّ: ما أعجب أمرهم! قد ألقوا حبالهم وعصيّهم للكفر والجحود ثمّ ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الإلقاءين![1] وروي أنّهم من سرعة ما سجدوا ألقوا ولم يرفعوا رءوسهم حتّى رأوا الجنّة والنار.

١ـ الكشاف، ج ٢، شرح ص ٥٤٥؛ وتفسير النفسي، ج ٣، ص ٦١؛ وتفسير الرازي، ج ٢٢، ص ٨٦.

عن عكرمة: لمّا خرّوا سجّداً أراهم الله منازلهم، وهذا بعيد لأنّهم لو كانوا كذلك لما يليق أن يقولوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ ولو أنّه جاز منهم هذا القول كما قال إبراهيم: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي﴾[1] فلم لا يجوز في مثل السحرة؟

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ واستدلّوا بهذه الآية التعليميّة أنّهم آمنوا بالله الّذي عرفوه من قبل هارون وموسى، فدلّ ذلك على أنّ معرفة الله لا يستفاد إلّا من الإمام، والحقّ أنّ هذا القول قويّ ويؤيّد هذا القول قولهم عليهم السلام: «بنا عرف الله ولولانا ما عرف الله».[2]

وبالجملة ﴿قَالَ﴾ فرعون للسحرة: قد صدّقتم لموسى قبل إذني. وقد بلغ من الجهل أنّه لا يعتقد دين إلّا بإذنه والفرق بين الإذن والأمر أنّ في الأمر دلالة على إرادة الآمر المأمور به وليس في الإذن ذلك. وقيل: قال اللّعين ذلك لأن يموّه على الناس بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾ وأنتم تلامذته لأنّه خاف أن يفعل الناس ما فعلوا فألقى هذه الشبهة وتصلّف باقتداره وتمويهه بهذا الكلام.

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ والقطع من خلاف أن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى لأنّ كلّ واحد من العضوين خلاف الآخر أي: لأقطعنّها مختلفات واليمين خلاف الشمال. وجملة «من خلاف» منصوبة على الحال واتّصفت بالاختلاف.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ فشبّه اللعين وقوع الصلب وتمكّن المصلوب في الجذع بتمكّن الشيء المودع في وعائه قال الرازيّ هذا المعنى،

١ـ سورة الشعراء: ٨٢.

٢ـ التوحيد، ص ١٥٢ وكفاية الأثر، ص ٣٠٠؛ وبحار الأنوار، ج ٢٦،ص ٢٦٠؛ وج ٤٦، ص ٢٠٢.

وقال: والّذي يقال في المشهور أنّ في بمعنى على فضعيف.[1]

ثمّ قال: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ وأدوم أنا أم ربّ موسى؟

فلو قيل: إنّ فرعون مع نقض عهده في تلك الساعة بمشاهدة انقلاب العصا ثعباناً وقصد ابتلاعها قصر فرعون وآل الأمر أن استغاث بموسى كيف يعقل أن يهدّد السحرة ويبالغ هكذا في وعيدهم إلى هذا الحدّ ويستهزئ بموسى في قوله: ﴿أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾؟

قلنا: إنّه كان في أشدّ الخوف في قلبه إلّا أنّه كان يظهر الجلادة تمشية لأمره وناموسه وخوفاً من أن ينقلب الناس دفعة واحدة عليه، وأمّا حال السحرة، قال ابن عبّاس: (كانوا في النهار سحرة كفرة وفي آخره شهداء بررة).

و﴿قَالُوا﴾ لفرعون: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ ونفضّلك على ما آتانا من الأدلّة الدالّة على صدق موسى ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: فاصنع ما أنت صانعه، فأيّ شيء تصنع بنا؟ فإنّا لا نرجع عن الإيمان إنّما تقضي وتصنع بسلطانك في هذه الحياة الدنيا دون الآخرة.

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ وإنّما قالوا ذلك لأنّ الملوك كانوا يجبرون بعض الناس على تعليم السحر كيلا يخرج السحر من أيديهم حتّى يعجزون عن تمويه النّاس في دعاويهم الباطلة.

قيل: إنّ السحرة قبل أن يقابلوا موسى قالوا لفرعون: أرنا موسى إذا نام فأراهم إيّاه فإذا هو نائم وعصاه تحرسه، فقالوا: ليس هذا بسحر إنّ الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى إلّا أن يعملوا فذلك إكراههم.

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ٨٧.

﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ﴾ لنا ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾ وهذا جواب قوله: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾ انتهى الأخبار عن السحرة.

ثمّ قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا﴾ قيل: إنّه من بقيّة قول السحرة، قيل: المجرم هنا الكافر، وقيل: الّذي أجرم وفعل مثل فعل فرعون ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح من العذاب ﴿وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ حياة فيها راحة بل هو معاقب بأنواع العذاب، والهاء ضمير الشأن.

قال بعض المفسّرين: سبحان الله! القوم كفّار وهم أشدّ الكافرين أثبت في قلوبهم الإيمان في طرفة عين فلم يتعاظم عندهم أن خاطبوا فرعون بقولهم: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ في ذات الله وإنّ أحدكم اليوم ليصحب القرآن ستّين عاماً ثمّ أنه يبيع دينه بثمن حقير.

استدلّت المعتزلة بهذه الآية في القطع على وعيد أصحاب الكبائر، قالوا: صاحب الكبيرة مجرم وكلّ مجرم فإنّ له نار جهنّم لقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا﴾ وكلمة «من» في معرض الشرط تفيد العموم بدليل أنّه يجوز الاستثناء في كلّ واحد منها والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل.

واعترض بعض المتكلّمين على هذا الكلام فقال: لا نسلّم أنّ صاحب الكبيرة مجرم والدليل عليه أنّه تعالى جعل المجرم في مقابلة المؤمن فإنّه قال في هذه الآية: ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾[1] وأيضاً فإنّه قال: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ والمؤمن صاحب الكبيرة وإن عذّب بالنار لا يكون بهذا الوصف وفي الخبر الصحيح: «**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرّة من الإيمان**».[2]

١ـ سورة المطففين: ٢٩.

٢ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١٠؛ وتفسير القرآن، ج ١، ص ١٦٠.

وهذا الجواب ليس جواباً للمعتزلة لأنهم يقولون: إنّ صاحب الكبيرة ليس بمؤمن وإنّ هذا الجواب جواب من يعتقد أنّ الكبيرة لا يخرج صاحبها عن الإيمان.

وبالجملة ثمّ ذكر حال المؤمنين فقال: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ مصدّقاً بالله وبأنبيائه ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: أدّى الفرائض ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أي: درجات الجنّة وبعضها أعلى من بعض والعلى جمع العليا وهي تأنيث الأعلى ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ وإقامة ودوام ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ وتطهّر بالإيمان والطاعة عن دنس الكفر، وقيل: من تزكّى طلب الزكاء بالعمل.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾

المعنى: لمّا وقعت هذه القضيّة ورأى فرعون من الآيات فلم يؤمن هو وقومه واستجاب بعض بني إسرائيل موسى فأراد الله تمييزهم من طائفة فرعون وخلاصهم فأوحى الله إلى موسى أن أسر بهم أي: المستجيبين ليلاً أي: في الليل من البحر وإنّما أمره بالإسراء لئلّا يكون اجتماعهم بمشهد فرعون فيمنعهم عن استكمال مراد هم وبسبب سراهم بالليل يكون فرعون عائقاً عن طلبهم ولو تقارب العسكران لا يرى عسكر موسى عسكر فرعون

فيها بوهم، فأمر الله موسى أن يضرب عصاه في البحر وأريد بضرب الطريق جعل الطريق بالضرب يبساً. و«يبساً» قرئ بسكون الباء وفتح الياء، واليبس واليابس شيء واحد والمعنى: طريقاً ذا يبس، ومن قال بتسكين الباء فالمراد: ما كان فيه وحل ولا نداوة فضلاً عن الماء.

﴿لَا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ أي: لا تخاف أن يدركك فرعون فإنّي أحول بينك وبينه بالتأخّر عنك أي: غير خائف ولا خاش وفي قوله: ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ مستأنفة كأنّه وأنت لا تخشى «لا» بمعنى النفيّة لا النهييّة. وقيل: بمعنى الناهية، فحينئذ الألف ليست الألف المنقلبة من لام الفعل بل زائد للإطلاق من أجل الفاصلة مثل: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[1] ومثل: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.[2]

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ وألحق جنوده بهم وبعث بجنوده في أثرهم فأحاطهم ولحقهم ما لحقهم، وفي البيان تهويل وتعظيم للواقعة مثل قول أبي النجم: (أنا أبو النجم وشعري شعري)، أي: تعلم شعري أي: شعر. فهلك فرعون وقومه ونجا موسى وقومه فليعتبر المعتبرون.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ أي: صرفهم عن الحقّ وما هداهم إلى طريق النجاة. قال القاضي: لو كان الضلال من خلق الله لما جاز أن يقول: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ وإنّه تعالى ذمّه بذلك فكيف يجوز أن يكون خالقاً للكفر؟ وإنّما قال: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ بعد قوله «أضلّ» ليتبيّن أنه استمرّ على ذلك، وحذف المفعول لمكان رأس الآية، وإنّما قال سبحانه هذا الكلام تكذيباً

١ـ سورة الأحزاب: ٦٧.

٢ـ سورة الأحزاب: ١٠.

لقول فرعون إذ كان يقول لقومه: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.[١]

قال ابن عبّاس: (لمّا أمر اللّه موسى أن يقطع بقومه البحر وكان موسى وبنو إسرائيل استعاروا من قوم فرعون الحليّ والدوابّ لعيد يخرجون إليه فخرج بهم ليلاً وهم ستّمائة ألف وثلاثة آلاف ونيّف ليس فيهم ابن ستّين ولا عشرين، وقد كان يوسف عليه السلام عهد إليهم عند موته بجسده أو بعظامه ـ على أنّ معنى العظام الجسد ـ معهم من مصر فلم يخرجوا بها فتحيّر القوم حتّى دلّتهم عجوز على الموضع فأخذوها فقال موسى للعجوز: احتكمي، فقالت: أكون معك في الجنّة).[٢]

وبالجملة وخرج فرعون في طلب موسى عليه السلام وعلى مقدّمته ألف ألف وخمسمائة ألف سوى الجنبين والقلب فلمّا انتهى موسى إلى البحر قال: هاهنا أمرت ثمّ قال موسى للبحر: انفرق، فأبى فأوحى اللّه إليه: أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فانفلق فقال لهم موسى: ادخلوا فيه، فقالوا: كيف وأرضه رطبة؟ فدعا اللّه فهبت عليها الصبا فجفّت، فقالوا: نخاف الغرق في بعضنا، فجعل بينهم كوى[٣] حتّى يرى بعضهم بعضاً ثمّ دخلوا حتّى جاوزوا البحر فأقبل فرعون إلى تلك الطرق فقال قومه له: إنّ موسى قد سحر البحر فصار كما ترى، وكان على فرس حصان وأقبل جبرئيل على رمكة في ثلاثة وثلاثين من الملائكة فصار جبرئيل بين يدي فرعون وأبصر الحصان الرمكة فاقتحم بفرعون على أثرها وصاحت الملائكة في الناس: الحقوا الملك، حتّى إذا دخل آخرهم وكاد أولهم أن يخرج التقى البحر عليهم فغرقوا فسمع بنو

١ـ سورة غافر: ٢٩.

٢ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ٩٣؛ والدر المنثور، ج ٥، ص ٨٨.

٣ـ جمع الكوة: الخرق في الحائط.

إسرائيل خفقة البحر عليهم فقالوا: يا موسى ما هذا؟ قال: فأغرق الله فرعون وقومه فرجعوا لينظروا إليهم فقالوا: يا موسى ادع الله أن يخرجهم لنا حتّى ننظر إليهم فدعا فلفظتهم البحر إلى الساحل وأصابوا من سلاحهم.

وذكر ابن عبّاس أنّ جبرئيل قال: (يا محمّدﷺ لو رأيتني وأنا أدسّ فرعون في الماء والطين مخافة أن يتوب وسيأتي تمام القصّة في سورة الشعراء).

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ فشرح الله نعمة بإزالة العدوّ عنهم أوّلا ثمّ ثنّى بذكر المنفعة الدينيّة لأنّه سبحانه أنزل عليهم كاباً فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم ثمّ ثلّث بذكر المنفعة الدنيويّة بقوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ يعني: في التيه ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ صورته صورة الأمر والمراد الإباحة كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْ﴾[1] ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ ولا تتعدّوا عن الحلال إلى الحرام ولا تتناولوا من الحلال للاستعانة به على المعصية فيجب عليكم عقوبتي ﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِي﴾ ومن ضمّ الحاء فالمعنى: فينزل عليكم عقوبتي ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ وهلك وإنّما نسب إلى الطور جانب اليمين وليس للجبل يمين ويسار فالمراد أنّ طور سيناء واقع عن يمين من انطلق من مصر إلى الشام وكان موسى خارجاً من مصر وقاصدا البلاد المقدّسة، وقرئ الأيمن بالكسر على جرّ الجارّ نحو جحر ضبّ خرب.

وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

اعلم أنّ الله وصف نفسه في القرآن بكونه غفّاراً وغفوراً وغافرا وعبّر عنه بلفظ الماضي والمستقبل والأمر والمصدر. في هذه الآية: ﴿وَإِنِّي

١ـ سورة المائدة: ٢.

لَغَفَّارٌ....﴾ والمصدر قوله: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾(١) والمغفرة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾(٢) وبصيغة الماضي قوله في حقّ داود: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾(٣) وبصيغة المستقبل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾(٤) والاستغفار: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾(٥) وفي حقّ نوح: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾(٦) وفي الملائكة: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾(٧) والأنبياء عليهم السّلام طلبوا المغفرة أمّا آدم عليه السلام فقال: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٨) وأمّا نوح فقال: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾(٩) وأمّا إبراهيم فقال: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾(١٠) وأمّا يوسف فقال في إخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾(١١) وأمّا موسى ففي قصّة القبطيّ: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾(١٢) وأمّا داود: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾(١٣) وأمّا سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ

١ـ سورة البقرة: ٢٨٥.

٢ـ سورة الرعد: ٦.

٣ـ سورة ص: ٢٥.

٤ـ سورة النساء: ٤٨ و١١٦.

٥ـ سورة محمد: ١٩.

٦ـ سورة نوح: ١٠.

٧ـ سورة الشورى: ٥.

٨ـ سورة الأعراف: ٢٣.

٩ـ سورة هود: ٤٧.

١٠ـ سورة الشعراء: ٨٢.

١١ـ سورة يوسف: ٩٢.

١٢ـ سورة الأعراف: ١٥١.

١٣ـ سورة ص: ٢٤.

لِي مُلْكًا﴾[١] وأمّا عيسى: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢] وأمّا محمّد ﷺ فقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.[٣]

وبالجملة ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ ورجع عن الشرك والمعصية وآمن وصدّق بوحدانيّته وصدّق رسله وعمل صالحاً وأدّى الفرائض ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ أي: أدام على الهدى ولزم الإيمان إلى أن يموت لا يكون يرجع بعد التوبة إلى المعصية والشرك أي: بشرط أن يبقى على هدايته بسبب التوبة والإيمان والعمل، والمراد من الاهتداء الاستعانة على التوبة والإيمان ويؤيّد هذا القول قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[٤] كأنّه قال تعالى الإتيان بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ممّا قد يتّفق لكلّ أحد إنّما الحكم والصعوبة في المداومة على ذلك والاستمرار عليه: فالأوّل: الرجوع والندم ثمّ الإذعان والتصديق بما جاء به النبيّ وما أمر الله وهو الإيمان، والثالث العمل بالفرائض حسب ما ورد من أعمال الجوارح، والرابع البقاء على هذه الأمور الثلاثة وهذا الأخير من ما يتعلّق بتطهير القلب من الأخلاق الذميمة وهو المسمّى في لسان العرفاء بالطريقة فبعد انكشاف حقايق الأشياء للسالك بسبب المداومة على هذه الطريقة فذلك الانكشاف يسمّى بلسان العرفاء الحقيقة.

وعن ابن عبّاس في تفسير قوله: (﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ أي: أخذ بسنّة النبيّ ﷺ ولم يسلك سبيل البدعة)، عن ابن عبّاس والرّبيع بن أنس.

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «ثمّ اهتدى إلى ولايتنا أهل البيت فو الله لو أنّ رجلاً عبد الله عمره ما بين الركن والمقام ثمّ مات ولم يجيء بولايتنا لأكبّه الله في النار

١ـ سورة ص: ٣٥.

٢ـ سورة المائدة: ١١٨.

٣ـ سورة محمد: ١٩.

٤ـ سورة فصلت: ٣٠؛ وسورة الأحقاف: ١٣.

على وجهه».[1] ورواه الحاكم أبو القاسم الحسكانيّ بإسناده[2] وأورده العيّاشيّ في تفسيره عن عدّة طرق.

وفي «المجالس» عن النبيّ ﷺ أنّه قال لعليّ عليه السلام في حديث: «ولقد ضلّ من ضلّ عنك ولن يهتدي إلى الله من لم يهتد إليك وإلى ولايتك وهو قول ربّي عزّ وجلّ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ إلى ولايتك».

وفي «المناقب» عن السجّاد عليه السلام في هذه الآية ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ قال: «إلينا أهل البيت»[3] وفي «المحاسن» عن الصادق عليه السلام ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ قال: «إلى ولايتنا».[4]

وفي «الكافي» عن الباقر عليه السلام قال ـ وهو مستقبل البيت ـ: «إنّما أمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها ثمّ يأتونا فيعلمونا ولايتهم لنا وهو قول الله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ـ ثمّ أومأ بيده إلى صدره ـ إلى ولايتنا».[5]

والعيّاشيّ عن الصادق عليه السلام قال: «لهذه الآية تفسير يدلّ ذلك على أنّ الله لا يقبل من أحد عملاً إلّا ممّن لقيه منه بالوفاء بذلك التفسير وما اشترط منه على المؤمنين».[6]

وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام قال: «إنّكم لا تكونون صالحين حتّى تعرفوا ولا تعرفون حتّى تصدّقوا ولا تصدّقون حتّى تسلّموا أبواباً أربعة لا يصلح أوّلها إلّا بآخرها

۱ـ مجمع البيان، ج ۷، ص ٤٥؛ وانظر: كفاية الأثر، ص ۸٥.
۲ـ شواهد التنزيل، ج ۱، ص ٤۹۲ وبحارالأنوار، ج ۱۳، ص ۲۰۷.
۳ـ المناقب، ج ۳، ص ۲۷۳.
٤ـ المحاسن، ج ۱، ص ۱٤۲؛ وانظر: بحار الأنوار، ج ۲٤، ص ۱٤۸.
٥ـ الكافي، ج ۱، ص ۳۹۳؛ وبحار الأنوار، ج ۲٤، ص ۱٥۰.
٦ـ العياشي، ج ۱، ص ۲۲۸؛ وتفسير الصافي، ج ۳، ص ۳۱٥.

ضلّ أصحاب الثلاثة وتاهوا تيهاً عظيماً إنّ الله لا يقبل إلّا العمل الصالح ولا يقبل الله إلّا بالوفاء بالشرط والعهد فمن وفى الله بشرطه وعهده واستعمل ما وصف في عهده نال ما عنده واستكمل وعده إنّ الله أخبر العباد بطرق الهدى وشرع لهم فيها المنار[١] وأخبرهم كيف يسلكون فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ وقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[٢] فمن اتّقى الله فيما أمره لقي الله مؤمناً بما جاء به محمّد صلى الله عليه وآله هيهات هيهات! فات قوم وماتوا قبل أن يهتدوا وظنّوا أنّهم آمنوا وأشركوا من حيث لا يعلمون إنّه من أتى البيوت من أبوابها اهتدى ومن أخذ في غيرها سلك طريق الردى وصل الله طاعة وليّ أمره بطاعة رسوله وطاعة رسوله بطاعته فمن ترك طاعة ولاة الأمر لم يطع الله ولا رسوله وهو الإقرار بما نزل من عند الله.

قال الفيض رحمه الله: المراد بالأبواب الأربعة في الحديث الترتيب في الآية: التوبة من الشرك، والإيمان بالوحدانيّة، والعمل الصالح والاهتداء إلى الحجج الاثني عشر عليهم السلام وأصحاب الثلاثة إشارة إلى من جمع الثلاثة من التوبة والإيمان والعمل ولم يأت بالرابع إذ هي كلّها شروط للمغفرة.

وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾

المعنى: اعلم أنّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾

١ـ الكافي، ج ١، ص ١٨١؛ وبحار الأنوار، ج ٦٤، ص ١٩١.

٢ـ سورة المائدة: ٢٧.

دلالة على أنه قد تقدّم موسى قومه في المسير إلى المكان الموعود الّذي نبّه عليه في قوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ في هذه السورة وفي سائر السور كقوله: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾[1] يريد الميقات عند الطور.

قال ابن إسحاق: كانت المواعدة أن يوافي الميعاد هو وقومه أو المختارون من وجوه قومه فعجل موسى من بينهم شوقاً إلى ربّه وخلّفهم ليلحقوا به فقيل له: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ وبأيّ سبب خلّفت قومك وسبقتهم وجئت وحدك؟ قال موسى في الجواب: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ ومن ورائي يدركونني عن قريب ما تقدّمتهم إلّا بخطى يسيرة. وقيل: المعنى هم ينتظرون من بعدي ما الّذي آتيهم به، وليس يريد أنّهم يتبعونه ولمّا كان السؤال عن سبب التقدّم ونفس العجلة فقال: ليس بيني وبينهم إلّا تقدّم يسير، ثمّ عقّبه بجواب للسؤال عن العجلة فقال: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾

واختلفوا في المراد بالقوم فقال بعضهم: هم النقباء السبعون الّذين قد اختارهم الله ليخرجوا معه إلى الطور فتقدّمهم موسى عليه السلام شوقاً إلى ربّه. وقال آخرون: إنّ القوم جملة بني إسرائيل وهم الّذين خلّفهم موسى عليه السلام مع هارون عليه السلام فيهم خليفة له إلى أن يرجع هو مع السبعين فقال: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ وقريبون منّي ينتظرونني وإنّ المسارعة إلى امتثال أمر موجبة لمرضاتك.

وفي «مصباح الشريعة» عن الصادق عليه السلام قال: «**المشتاق لا يشتهي طعاماً ولا يلتذّ شراباً ولا يستطيب رقاداً ولا يأنس حميماً ولا يأوي داراً ولا يسكن عمراناً ولا يلبس لباساً ولا يقرّ قراراً ويعبد الله ليلاً ونهاراً إلى أن يصل إلى ما يشتاق إليه ويناجيه بلسان شوقه معبراً عمّا في سريرته كما أخبر الله عن موسى في ميعاد ربّه بقوله:**

١ـ سورة الأعراف: ١٤٢.

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾، وفسرّ النبي ﷺ عن حاله أنّه ما أكل ولا شرب ولا نام ولا اشتهى شيئاً من ذلك في ذهابه ومجيئه أربعين يوماً[١] شوقاً إلى ربّه».[٢]

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أي: امتحنّاهم وشدّدنا عليهم التكليف بما حدث فيهم من أمر العجل فألزمناهم بالحجّة والنظر ليعلموا أنّ العجل ليس بإله من بعد انطلاقك، والسامريّ دعاهم إلى الضلال فقبلوا منه فأضاف الضلال إلى السامريّ والفتنة إلى نفسه ليدلّ سبحانه على أنّ الفتنة غير الضلال، ومعنى الامتحان ذكرناه مراراً أي: عاملناهم معاملة المختبر المبتلي ليظهر لهم ولغيرهم من الخلق المنافق منهم والمخلص ليترتّب الجزاء.

قالت المعتزلة: لا يجوز أن يكون المراد أنّ اللّه خلق فيهم الكفر لوجهين:

الأوّل: الدلائل العقليّة الدالّة على أنّه لا يجوز من اللّه أن يفعل ذلك لأنّه ظلم إذا عذّبهم خلق الكفر فيهم.

الثاني: أنّه تعالى قال: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ ولو كان اللّه خلق الضلال فيهم لم يكن لفعل السامريّ فيه أثر وكان يبطل قوله: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ وأيضاً فلأنّ موسى لمّا طالبهم بذكر سبب الفتنة قال: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فلو حصل ذلك بخلق اللّه لكان لهم أن يقولوا: السبب فيه أنّ اللّه خلقه فينا لا ما ذكرت فكان يبطل تقسيم موسى، وأيضاً فقال: ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ولو

١ـ هذا بعيد ولم نظفر عليه، نعم في البحار، ج ٥، في أحواله ﷺ انه لم ياكل شيئاً ثلاثة أيام.

٢ـ مصباح الشريعة، ص ١٩٦؛ وأيضاً رواه المجلسي في البحار، ج ٦٧، ص ٢٤؛ وأيضاً تفسير الصافي، ج ٣، ص ٣١٦.

كان ذلك بخلقه لاستحال أن يغضب عليهم فيما هو الخالق له.[١]

قال ابن عبّاس وسعيد بن جبير: (كان السامريّ علجاً من أهل كرمان وقع إلى مصر وكان من قوم يعبدون البقر). والأكثرون أنّه من عظماء بني إسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة. وقيل: كان من القبط جارا لموسى وقد آمن به.[٢] والّذين خلّفهم موسى مع هارون وأضلّهم السامريّ على ساحل البحر ستمائة ألف افتتنوا بالعجل غير اثني عشر ألفاً وإنّ الجماعة أقاموا بعد مفارقة موسى عشرين ليلة وحسبوها أربعين مع أيّامها وقالوا: قد أكملنا العدّة والسامريّ شرع في تدبير الأمر لمّا غاب موسى وعزم على إضلالهم.

فلمّا استخبر موسى بالفتنة رجع إلى قومه من الميقات حزيناً شديد الغضب متلهّفاً على ما فاته لأنّه خشي أن لا يمكنه تدارك الأمر قال: يا بني إسرائيل ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ وهو إيتاء التوراة لتعلموا وتعملوا، أو المراد النجاة من فرعون وقومه والمغفرة لمن تاب وتمسّك بالدين ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ حتّى قست قلوبكم بسبب زيادة العشرة ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ﴾ فهذا لا يمكن إجراؤه على الظاهر لأنّ ليس أحد يريد ذلك لكن مريد السبب مريد للمسبّب بالعرض.

واحتجّ العلماء بأنّ الغضب من صفات الأفعال لا من صفات الذات ولذا فرّقوا بين الغيظ والغضب وأنّ الله لا يوصف بالغيظ ويوصف بالغضب لأنّ الغضب إرادة الإضرار بالمغضوب عليه والغيظ تغيّر يلحق المغتاظ وذلك لا يصحّ إلّا على الأجسام كالضحك والبكاء تعالى الله عن ذلك.

﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ أي: تخلّفتم ما وعدتموه لي من حسن الخلافة

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١٠٠.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

بعدي بمفارقتي إيّاكم وهو أنّه أمرهم أن يتمسّكوا بطريقة هارون وطاعته إلى أن يرجع، ويؤيّد هذا المعنى قوله: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾.[1]

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦)﴾

قرئ الملك بضمّ الميم وبكسرها ومعناه واحد وقرئ بفتح الميم.

المعنى: قيل: قال الّذين عبدوا العجل. وقيل: قال الّذين لم يعبدوا العجل، وكانوا اثني عشر ألفاً: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ﴾ وكانوا وعدوه من الإقامة على دينه إلى أن يرجع إليهم من الطور أي: ما أخلفنا موعدك ﴿بِمَلْكِنَا﴾ أي: بأمر كنّا نملكه إنّ الشبهة قويت على عبدة العجل فلم نقدر على منعهم عنه لكثرتهم وقلّتنا لأنّ عبدة العجل كانوا ستّمائة ألف رجل. ومن قرأ بضمّ الميم والكسر فمعناه بسلطاننا وقدرتنا وبفتح الميم بمعنى أمرنا وما كان ملاك الأمر في يدنا للرهبة منهم لكثرتهم وقلّتنا ولم نقدر أيضاً على مخالفتهم لأنّا

١ـ سورة الأعراف: ١٥٠.

خفنا أن يصير ذلك سبباً لوقوع التفرقة وزيادة الفتنة.

ثمّ فسّروا السبب الموجب لهذا الأمر فقالوا: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: حملنا أثقالاً من حليّ آل فرعون، وقرئ حملنا مخفّفة فمعناه حملنا مع أنفسنا ما استعرناه.

وبالتشديد أي: حملنا أثاثاً من حليّ القوم لأنّهم استعاروا حليّاً من القبط ليتزيّنوا بها في عيد كان لهم ثمّ لم يردّوها عليهم عند الخروج من مصر مخافة أن يعلموا بخروجهم فحملوها وكان ذلك ذنباً منهم إذ كانوا مستأمنين فيما بينهم. وقيل: إنّهم كانوا في حكم الإسراء فيما بينهم وكان يحلّ لهم أخذ أموالهمْ. فعلى هذا لا يمكن حمله على الإثم.

وقيل: إنّ هذه الحليّ هي ما ألقاه البحر على الساحل من ذهبهم وفضّتهمْ وحليّهم بعد إغراق فرعون فأخذوها ولهذا كانت أثقالاً. وقيل: إنّ موسى أمرهم باستعارة الحليّ والخروج بها فكأنّه ألزمهم ذلك وإنّها لكثرتها كانت أثقالاً. وقيل: سمّيت أثقالاً لأنّ المغانم كانت عليهم محرّمة فكان يجب عليهم حفظها من غير فائدة فكانت أثقالاً.

وروي أنّ هارون عليه السلام قال: «**إنّها نجسة فطهّروا منها**».[1] وقيل: إنّ ذلك الحليّ كان القبط يتزيّنون به في مجامع لهم يجري فيها الكفر لا جرم وصفت بكونها أوزاراً.

﴿فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي: فقذفنا الحليّ في النار رجاء للخلاص عن تبعتها وذنبها فألقى السامريّ مثل ما قذفنا ما معه منها يوهم لهم أنّه فعل مثل ما فعلوا وإنّما كان الّذي ألقى هي التربة الّتي أخذها من أثر الرسول جبرئيل.

وسبب إلقاء الحليّ في النار لأنّ السامريّ قال لهم: إنّما تأخّر موسى

١ـ التبيان، ج ١، ص ٢٣٧؛ ومجمع البيان، ج ١، ص ٢٣١؛ وتفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١٠٣.

عنكم لما معكم من الأوزار فالرأي أن نحفر حفيرة ونسجر فيها ناراً ونقذف فيها كلّ ما معنا، ففعلوا وفعل السامريّ مثلهم بزعمهم. وقيل: إنّ بني إسرائيل أمرهم هارون أن يحفروا حفيرة ويجمعوا الحليّ فيها إلى أن يرجع موسى فما أمرهم به فعلوا فغرّهم السامريّ بهذه الحيلة لمّا كان هو يعبد العجل سرّاً ويظهر الإيمان فلمّا عبر بنو إسرائيل البحر ورأوا قوماً يعبدون التماثيل عجبتهم هذه العبادة فانتهز السامريّ حينئذ الفرصة وغرّهم بهذه الحيلة.

أمّا قوله: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي: أخرج لهم من ذلك عجلاً جسيما أي: من تلك الحليّ المذابة صورة عجل لها منافذ ومناخر بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل، هذا قول أكثر المفسّرين. وقال بعضهم: كان ذلك الجسد حيّاً وخار كما يخور العجل واحتجّوا بقوله: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ ولو لم يصر حيّاً لما كان لهذا الكلام فائدة. واحتجّوا أيضاً أنّه تعالى سمّاه عجلاً والعجل حقيقة في الحيوان.[1]

وقال منكرو الحياة: إنّه لا يجوز إظهار مثل هذا الأمر وخرق العادة على يد الضالّ مثل السامريّ إذ الحياة ليست من فعله بل فعل فعل الله وليست الحياة كالسحر والتمويهات وإنّ للحياة حقيقة ولا يقدر عليها أحد إلّا الله.

وأجاب المثبتون بأنّ ظهور خوارق العادة على يد مدّعي الإلهيّة جائز لأنّه لا يحصل الالتباس مع النظر وهاهنا كذلك فلا يمتنع وقوعه. وقيل: ما كان حيّاً إلّا أنّ هارون مرّ بالسامريّ وهو يصنع العجل فقال: ما تصنع؟ فقال السامريّ: أصنع ما ينفع ولا يضرّ فادع لي، فقال: هارون اللّهم أعطه ما سأل فلمّا مضى هارون قال السامريّ: اللّهم إنّي أسألك أن يخور فخار روى عكرمة عن ابن عبّاس.

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١٠٣؛ وانظر: عدة الأصول، ج ١، ص ١٩٢.

﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ أي: فقال السامريّ ومن تبعه من السفلة والعوامّ: هذا العجل معبودكم ومعبود موسى. فلو قيل: إنّ القوم إن كانوا في الجهالة بحيث اعتقدوا أنّ ذلك العجل المعمول في تلك الساعة حضوراً بالمرأى منهم هو الخالق للسماوات والأرض فهم مجانين وليسوا بمكلّفين وإنّ مثل هذا الجنون على مثل ذلك الجمع العظيم محال فكيف قالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ واعتقدوا هذا الأمر الفاسد، فالسبب أنّهم كانوا من الحلوليّة وهم يجوّزون حلول الإله أو حلول صفة من صفاته في الجسم على أنّهم كانوا في نهاية البلادة والجلافة.

﴿فَنَسِيَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنّه قول السامريّ ومن تبعه أي: نسي موسى أن يقول لكم: إنّه الإله. وقيل: المعنى قال السامريّ: فنسي وأخطأ موسى وترك إلهه هنا وخرج يطلبه.

والقول الثاني: أنّه من قول الله أي: فنسي السامريّ، ومعنى النسيان الترك أي: ترك الإيمان الّذي بعث الله به موسى ونسي الاستدلال على حدوث العجل وترك هذا الأصل الأصيل: إنّ الحادث لا يجوز أن يكون إلهاً.

ثمّ احتجّ سبحانه عليهم أي: على عبدة العجل فقال: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ﴾ ويبصرون أنّ العجل الّذي اتّخذوه إلهاً لا يردّ عليهم جواباً ولا يقدر أن يضرّ وينفع ووجوده لا جاء ولا ساء ومن كان بهذه الصفة كيف يعقل أن يكون إلهاً؟ قال بعض المفسّرين: لمّا مضى من موعد موسى خمسة وثلاثون يوماً أمر السامريّ بني إسرائيل أن يجتمعوا وصاغ ما استعاروه من حليّ آل فرعون كما ذكرنا سابقاً وصاغه عجلاً في السادس والثلاثين والسابع والثامن ودعاهم إلى عبادته في التاسع فأجابوه وجاءهم موسى بعد استكمال الأربعين.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ عود موسى من الطور: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم﴾ بالعجل وضللتم بسببه ووقعتم في الفتنة فاعلموا أنّ إلهكم الله الواحد ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ في عبادة الله ولا تطيعوا السامريّ في عبادة العجل.

وإنّما قال ذلك شفقة على نفسه وعلى الخلق أمّا شفقته على نفسه فلأنّه كان مأموراً من عند الله عموماً وخصوصاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمّا عموماً فواضح وأمّا خصوصاً لأنّه كان نبيّاً وخليفة موسى فلو لم يشتغل بهذا العمل لكان مخالفاً لأمر الله ومختلّفاً عن أمر موسى حين قال له: اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبّع سبيل المفسدين، وذلك ما كان يجوز له أما سمعت أنّ الله أوحى إلى يوشع بن نون: إنّي مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستّين ألفاً من شرارهم فقال يوشع: يا ربّ هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فقال الله: إنّهم لم يغضبوا لغضبي.

قال ثابت البنانيّ عن أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: **«من أصبح وهمّه غير الله فليس من الله في شيء ومن أصبح لا يهتمّ بالمسلمين فليس منهم».**(1) وعن طرق العامّة قال الشعبيّ عن النعمان بن بشير عن النبيّ ﷺ: **«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».**(2)

وقال أبو عليّ الحسن الغوريّ: كنت في بعض المواضع فرأيت زورقاً فيها دنان مكتوب عليها لطيف فقلت للملّاح: إيش هذا؟ فقال: أنت صوفيّ فضوليّ وهذه خمور المعتضد فقلت له: أعطني ذلك المدرى فقال لغلامه:

١ـ المستدرك، الحاكم النيشابوري، ج ٤، ص ٣٢٠؛ وكنز العمال، ج ١٦، ص ١١.

٢ـ صحيح البخاري، ج ٧، ص ٧٧؛ وانظر: مسند أحمد، ج ٤، ص. ٢٧.

أعطه حتّى نبصر إيش يعمل فأخذت المدرى وصعدت الزورق فكنت أكسر دنّا دنّا والملّاح يصيح حتّى بقيت واحدة فأمسكت فجاء صاحب السفينة فأخذني وحملني إلى المعتضد وكان سيفه قبل كلامه فلمّا وقع بصره عليّ قال: من أنت؟ قلت: المحتسب، قال: من ولّاك الحسبة؟ قلت: الّذي ولّاك الخلافة! قال: لم كسرت هذه الدنان؟ قلت: شفقة عليك إذ لم تصل يدي إلى دفع مكروه عنك، قال: فلم أبقيت واحدة منها؟ قلت: إنّي لمّا كسرت هذه الدنان فإنّي كسرتها حميّة في دين اللّه فلمّا وصلت إلى هذا أعجبت فأمسكت ولو بقيت كما كنت لكسرته، فقال: اخرج يا شيخ فقد ولّيتك الحسبة، فقلت: كنت أفعله للّه تعالى فلا أحبّ أن أكون شرطيّاً. وأمّا الشفقة على المسلمين فلأنّ الإنسان يجب أن يكون رقيق القلب مشفقاً على أبناء جنسه وأي: شفقة أعظم من أن يرى جمعاً يتهافتون على النار فيمنعهم منها؟

وعن أبي سعيد الخدريّ عنه ﷺ **«يقول اللّه تعالى: اطلبوا الفضل عند الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم فإنّي جعلت فيهم رحمتي ولا تطلبوها في القاسية قلوبهم فإنّ فيهم غضبي»**.(١)

وروي أنّه بينا رسول اللّه جالس ومعه أصحابه إذ نظر إلى شابّ على باب المسجد فقال: **«من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا»**، فسمع الشابّ ذلك فولّى وقال: إلهي وسيّدي هذا رسولك يشهد عليّ بأنّي من أهل النار وأنا أعلم أنّه صادق فإذا كان الأمر كذلك فأسالك أن تجعلني فداء أمّة محمّد ﷺ وتشعلني بالنار حتّى تبرّ يمينه ولا تشعل النار بأحد آخر فهبط جبرئيل عليه السلام وقال: **«يا محمّد بشّر الشابّ بأنّي أنقذته من النار بتصديقه لك**

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١٠٦. وكنز العمال، ج ٦، ص ٥١٩.

وفدائه نفسه لأمّته ولشفقته على الخلق».[1]

وبالجملة إنّ هارون لمّا رأى أنّ الناس متهافتين على النار لم يبال بكثرتهم وأمر بمعروف دينه وصرّح الحقّ بقوله: «يا قَوْمِ إنَّما فُتِنْتُمْ بالعجل» ثمّ دعاهم إلى معرفة الله ثانياً بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ﴾ ثمّ دعاهم ثالثاً بمعرفة النبوّة بقوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ ثمّ دعاهم رابعاً إلى الشرائع بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ وهذا هو الترتيب الجيّد لأنّه قبل كلّ شيء لابدّ من إماطة الأذى والقاذورات عن الطريق ودفع الشبهات ثمّ معرفة الله فانّها هي الأصل ثمّ النبوّة ثمّ الشريعة وإنّما قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ﴾ وخصّ هذا الموضع باسم الرحمن لأنّه كان ينبئهم بأنّهم إن تابوا قبل الله توبتهم.

ثمّ إنّهم لجهلهم قابلوا هذا الترتيب الحسن بهذا الكلام الركيك الّذي ينبع عن التقليد والجحود فـ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فقالوا: نستديم على عبادة العجل إلى أن يأتي موسى.

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ ولا زائده ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ واعلم أنّ الطاعنين في عصمة الأنبياء خذلهم الله انتهزوا فرصة في ظاهر الآية وجالوا في الكلام وقالوا: إنّ موسى إمّا أن يكون قد أمر هارون باتّباعه أولم يأمره فإن أمر به فإمّا أن يكون هارون قد اتّبعه أولم يتّبعه فإن اتّبعه كانت ملامة موسى لهارون معصية وإن لم يتّبعه كان هارون تاركاً للواجب فكان منه معصية وأيضاً إنّ هارون قال: لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي فإن كان الأخذ بلحيته وبرأسه جائزاً كان قول هارون عليه السلام: ﴿تَأْخُذْ﴾ منعاً له عمّا كان له أن يفعله فيكون ذلك معصية من هارون عليه السلام وإن لم يكن ذلك الأخذ جائزاً كان موسى عليه السلام فاعلاً للمعصية. هذه مناقشات الطاعنين في العصمة.

١ـ تفسير الرازي، ج٢٢، ص١٠٦.

والجواب عن الكلّ قد ذكر في سورة البقرة في قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾[1] وأنّه لا يجوز صدور المعصية من الأنبياء ببراهين ثابتة وأصول محكمة ودلائل منفصلة الّتي توجب التأويل في ظاهر الآية ومعارضة ما يبعد عن التأويل بما يتسارع إليه التأويل غير جائز. إذا ثبتت هذه المقدّمة: فالجواب عن هذه المناقشات وجوه وهو أنّه بتقدير ما أوردتموه لا يوجب صدور المعصية منهما بل يحصل ترك الأولى منهما أو من أحدهما لأنّ الفعل الّذي فعله أحدهما ومنعه الآخر أعني موسى وهارون عليهما السلام كان أحدهما أولى والآخر ترك الأولى بل يمكن أن لا يكون أيضاً ترك أولى منها مثلاً في قول موسى لهارون عليه السلام: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ يجوز أن يكون موسى عليه السلام أمر هارون عليه السلام باللحاق به بشرط المصلحة ورأى هارون عليه السلام الإقامة أصلح. والشاهد يرى مالاً يراه الغائب كما أنّه بيّن هارون عذره في عدم اللحاق بموسى والإقامة معهم بقوله: ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ويمكن أن يكون لم يأمره موسى بذلك وإنّما أمره بأن يتّبعه أي: يجاهد مع القوم ويزجرهم فخاف من استتباع القتال والجدال من التفريق الّذي لا يرجى بعده الاجتماع فلذلك استأتيتك وداريت معهم إلى أن ترجع إليهم لتكون أنت المتدارك للأمر حسب ما رأيت لا سيّما والقوم في غاية القوّة ونحن على الضعف كما يعرب عن هذا المعنى: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾.

وإنّما خصّ هارون عليه السلام باللّائمة لأنّ موسى خلّف هارون عليه السلام فخصّه بالعتاب واللوم تشديداً للقوم وبيانا لقبح ما ارتكبوا وأجراه مجرى نفسه إذا غضب في القبض على لحيته وكان وقوع هذا الأمر من جرّ الرأس والأخذ

١ـ سورة البقرة: ٣٦.

باللحية من شدّة تصلّبه في دين اللّه فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلاً من دون اللّه من بعد ما رأوا الآيات العظام أن ألقى التوراة لمّا غلب على ذهنه هذا الأمر الشنيع والدهشة العظيمة حميّة على دين اللّه ولذا أقبل على أخيه بهذا النوع من استنكار فعل القوم وهذه الأمور كلّها غير قبيحة بل حسنة.

وقد قيل: إنّ موسى لمّا رجع من الميقات وأتى بالتوراة ورأى ما وقع من فعل السامريّ أخذ برأس أخيه ليدنيه فيتفحّص عن كيفيّة الواقعة فخاف هارون‌عليه السلام أن يسبق إلى قلوب بني إسرائيل مالاً أصل له فقال إشفاقاً على موسى‌عليه السلام: لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي لئلّا يظنّ القوم ما لا يليق بك لأنّ بعض بني إسرائيل كانوا يزعمون أنّ موسى‌عليه السلام يكره هارون‌عليه السلام كما اتّهموه في فوت هارون‌عليه السلام وقالوا: إنّ موسى‌عليه السلام قتله.

وبالجملة لمّا ظهرت معاذير هارون‌عليه السلام وبراءة ساحته أقبل موسى‌عليه السلام على السامريّ ﴿قَالَ﴾ له: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ وما شأنك وما دعاك إلى ما صنعت وما حملك عليه؟ ﴿قَالَ﴾ السامريّ: ﴿بَصُرْتُ﴾ أمراً لم يروه ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ من تراب ﴿مِّنْ أَثَرِ﴾ قدم حافر دابّة جبرئيل ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ و«قبضة» قرئ بضمّ القاف وهي اسم للمقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الأمير وقرئ «قبصة» بالصاد المهملة والفرق في المعنى أنّ الضاد بجميع الكفّ والصاد المهملة بأطراف الأصابع.

واختلفوا أنّه متى رأى موضع حافر دابّته فقال الأكثرون: إنّما رآه يوم فلق البحر. وعن أمير المؤمنين‌عليه السلام قال: **«إنّ جبرئيل لمّا نزل ليذهب بموسى إلى الطور أبصره السامريّ من بين النّاس»**.[1]

وأمّا كيف اختصّ هذا اللعين بالرؤية من بين سائر النّاس فقال ابن

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١١٠؛ وتفسير الآلوسي، ج ١٦، ص ٢٥٣.

عبّاس في رواية الكلبيّ: إنّما عرف جبرئيل لأنّه رآه في صغره وحفظه من القتل حين أمر فرعون بذبح أولاد بني إسرائيل فكانت المرأة تلد وتطرح ولدها حيث لا يشعر به آل فرعون فيأخذ الملائكة الولدان فيربّونهم حتّى يترعرعوا ويختلطوا بالنّاس فكان السامريّ ممّن أخذه جبرئيل وجعل كفّ نفسه في فيه وارتضع منه العسل واللبن فلم يزل يختلف إليه حتّى عرفه فلمّا رآه عرفه، قال ابن جريح: فعلى هذا قوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ﴾. ومن فسّر الكلمة بالعلم فهو أيضاً صحيح في هذا المعنى. وروي أنّ موسى عليه السلام همّ بقتل السامريّ فأوحى اللّه إليه: لا تقتله يا موسى فإنّه سخيّ.(١)

ولمّا أوحى اللّه إلى موسى عليه السلام بقوله: ﴿قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ فقال موسى عليه السلام: يا ربّ العجل من السامريّ فالخوار ممّن؟ فقال: منّي يا موسى إنّي لمّا رأيتهم قد ولّوا منّي إلى العجل استحقّوا أن أزيدهم فتنة.

وقال أبو مسلم الإصبهانيّ: ليس في القرآن تصريح لهذا الّذي ذكره المفسّرون فههنا وجه آخر وهو أن يكون المراد بالرسول موسى وبأثره سنّته فيكون المعنى أن يكون السامريّ قال: عرفت أنّ الّذي أنتم عليه ليس بحقّ فأخذت شيئاً من سنّتك وقذفته وطرحته.

والحقّ أنّ هذا المعنى ركيك جداً لأنّ السنّة والدين ليس شيء يقبض باليد ويقذف في النّار.

وبالجملة فقال السامريّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ أي: كما أخبرتك زيّنت لي نفسي بهذه الأمور الّتي فعلتها.

قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٥٤؛ وبحار الأنوار، ج ١٣، ص ٢٠٨.

لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ
لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ
كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ
مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ﴿٩٩﴾ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠٠﴾
خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ﴿١٠١﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ
ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ
أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ
ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا
عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴿١٠٧﴾

المعنى: لمّا سمع موسى عليه السلام هذا الكلام من السامريّ أجابه: ﴿فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ ومادمت حياً في الدنيا قيل: معناه أنه عليه السلام أمر الناس بأمر الله أن لا يخالطوه ولا يجالسوه تضييقاً عليه والمعنى: أن تقول: لا أمسّ ولا امسّ مادمت حيّاً، والمساس فعال من المماسّة أي: لا يمسّ بعضنا بعضاً فصار السامريّ مقيم في البريّة مع الوحش لا يمسّ أحداً ولا يمسّه أحد عاقبه الله بذلك وكان إذا لقي أحداً يقول: لا مساس أي: لا تقربني ولا تمسّني ولو مسّه أحد أو أحداً منهم أي: من أولاده حمّ كلاهما في الوقت. وقيل: معناه أنّ السامريّ خاف وهرب في البريّة ولا يجد أحداً من النّاس يمسّه حتّى صار في البعد عن الناس كالقائل: لا مساس. وقيل: إذا مسّه أحدهم حمّ الماسّ والممسوس فكان إذا أراد أن يمسّه أحد صاح: لا مساس خوفاً من الحمّى وبالجملة خرج طريداً إلى البراريّ هو وأهله هذا شرح حاله في الدنيا.

وأمّا في الآخرة قوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥ﴾ والموعد بمعنى

الوعد أي: هذه عقوبتك في الدنيا ولك الوعد بالمصير إلى عذاب الآخرة فأنت ممّن خسر الدنيا والآخرة ولن يتأخّر عنك ولن تتخلّف عنه. ﴿وَانظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى﴾ صنعته و﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾ بكسر الظاء وفتحها وأصله ظللت فحذفت الّلام الأولى وكذا الحكم في المضاعف تقول: مست ومسست، أي: انظر إلى معبودك الّذي كنت تعبده مقيماً يعني: العجل ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ أي: لنذرينّه كالذرّة ننشره في البحر.

وفي قوله: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ وجهان. المراد إحراقه وهذا آخر ما يدلّ على أنّه صار حيواناً ولحماً ودما لأنّ الذهب لا يمكن إحراقه بالنار قال السدّي: أمر موسى بذبح العجل فذبح فسال منه الدم ثمّ احرق ثمّ نسف رماده. والقول الثاني أنّ المراد من الحرق البرد أي: لنبرّدنّه بالمبرد ففعل وذراه في البحر وعاد إلى بيان الدين الحقّ فقال: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ﴾ المستحقّ للعبادة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ ويعلم من يعبده ولا يعبده ويعلم كلّ شيء علماً.

ثمّ قال عزّ وجلّ لنبيّه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي: مثل ما قصصنا عليك يا محمّد من نبأ موسى وقومه نقصّ عليك من أخبار ما قد مضى من الأمم والأمور تبصرة لك وللمتبصّرين من أمّتك ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ أي: القرآن لأنّ فيه ذكر كلّ ما تحتاج إليه من أمور الدّين.

ثمّ أوعد على من أعرض من هذا الذكر بأنّه ﴿يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حملاً ثقيلاً من الإثم ﴿خَٰلِدِينَ﴾ في ذلك الوزر وعذابه وجزائه وهم مخلّدون في النار بسبب ذلك الوزر.

ويمكن أن يكون ذلك الوزر ينقلب بالنار وبئس الحمل أي: بئس المحمول هذا الحمل لهم يوم القيامة وساء ما حملوا على أنفسهم من الإثم

وهو كفرهم بالقرآن.

وذكر في تسمية القرآن بالذكر وجوه: الأول: أنّه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم. والثاني: يذكر أنواع آلاء اللّه وفيه التذكير والمواعظ وفيه الذكر والشرف لك وللمؤمنين.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ بدل من يوم القيامة وقرئ ننفخ بصيغة المتكلّم ونحشر، وقرئ «الصور» بفتح الواو جمع الصورة فحينئذ النفخ الروح والقراءة المشهورة في الصور وهو قرن ينفخ فيه يدعى به النّاس المحشر للحضور والمراد من هذا النفخ هو النفخة الثانية لأنّه يقول بعد ذلك: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ أي: زرق العيون سود الوجوه وهي زرقة تتشوّه خلقتهم، والزرقة الخضرة تكون في سواد العين كعين السنّور، والمعنى تشويه الخلقة. وقيل: معناه عطاشا يظهر في عيونهم كالزرقة. وقيل: المراد من الزرقة العمى أي: يخرجون بصراء في أوّل مرّة ثمّ يعمون ويذهب سواد العين وتزرق العين. أو المراد بالزرقة شخوص أبصارهم.

ويمكن كلّها لأنّ مواقف القيامة كثيرة. وقيل: المراد من المجرمين يتناول الكفّار والعصاة فيدلّ على عدم العفو عن العصاة وقال ابن عبّاس: يريد بالمجرمين الّذين اتّخذوا مع اللّه إلهاً آخر، والقول الأوّل قول المعتزلة ويقولون: الآية تدلّ على عدم العفو عن العصاة.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي: يتسارّون وإنّما يتسارّون لأنّه امتلأت صدورهم من الرعب والهول أو لأنّهم بسبب الخوف صاروا في نهاية الضعف فلا يطيقون الجهر إن لبثتم في الدنيا أو في القبر ما لبثتم إلّا عشر ليال أو عشر ساعات قال ابن عبّاس: (المراد من النفخة الأولى إلى الثانية وذلك أنّه يكفّ عنهم العذاب في ما بين النفختين وهو أربعون سنة).

ثمّ قال سبحانه: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ ويتسارّون بعضهم بعضاً ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ أي: أوفرهم عقلا وأصلحهم رأياً وفهما: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ وإنّما قال ذلك لأنّ اليوم الواحد والعشرة إذا قوبلا بيوم القيامة وما بعدها كان اليوم الواحد أقرب إليه وهو كقوله: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾.[1]

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ أي: يسألونك منكر والبعث عند ذكر القيامة عن الجبال ما حالها ﴿فَقُلْ﴾ يا محمّد: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ أي: يجعلها اللّه ربّي بمنزلة الرمل ثمّ يرسل عليها الرياح فتذريها كتذرية الطعام من القشور والتراب فلا يبقى على وجه الأرض منها شيء ويصيّرها كالهباء فيدع أماكنها من الأرض ﴿ فَيَذَرُهَا﴾ ملساء منكشفة ﴿صَفْصَفًا ﴾ أي: مستوية ليس للجبل فيها أثر، وقيل: القاع والصفصف بمعنى واحد وهو المستوي الّذي لا نبات فيه.

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ أي: ليس فيها منخفض ولا مرتفع والعوج ما انخفض من الأرض والأمت ما ارتفع من الروابي. وهذه الآية ردّ لشبهة جالينوس في أنّ السماوات لا تفنى قال: لأنّها لو فنيت لابتدأت بالنقصان فحينئذ تقرير الجواب أنّ بطلانها قد يكون بطلاناً توليدياً فحينئذ يجب تقديم النقصان على البطلان وقد يكون بطلاناً يقع دفعة واحدة وعلى هذه الصورة لا يجب تقديم النقصان على البطلان فأجاب سبحانه عن هذه الشبهة أنّه سبحانه يفرّق هذه التركيبات دفعة واحدة.

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ

١ـ سورة النازعات: ٤٦.

قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ
ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ
قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾
فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ
وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ
نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾

المعنى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف ليتّبعون ثمّ وصف سبحانه القيامة فقال: يوم القيامة ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ صوت داعي الله الّذي ينفخ في الصور وهو إسرافيل ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لدعاء الداعي ولا يعدل عن أحد بل يحشرهم جميعاً ولا عوج وميل لهم عن دعائه أي: لا يعدلون ولا يميلون عن ندائه ويتّبعونه سراعاً ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً.

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ﴾ لعظمة ﴿لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ وهو صوت الأقدام أي: لا تسمع من صوت أقدامهم إلّا صوتاً خفيّاً كما تسمع من وطء الإبل.

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ أي: لا تنفع ذلك اليوم شفاعة أحد في غيره إلّا شفاعة من أذن الله له في أن يشفع ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ فيها من الأنبياء والأولياء والصلحاء والصدّيقين والشهداء.

القميّ عن الباقر عليه السلام: «**إذا كان يوم القيامة جمع الله الناس في صعيد واحد حفاة عراة متوقّفون في المحشر حتّى يعرقوا عرقاً شديداً وتشدّ أنفاسهم فيمكثون في ذلك مقدار خمسين عاماً وهو قول الله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾. قال: ثمّ ينادي مناد من تلقاء العرش: أين النبيّ الأمّيّ فيقول الناس: قد أسمعت فسمّ باسمه فينادي أين نبيّ الرحمة أين محمّد بن عبد الله؟ فيتقدّم رسول**

الله ﷺ أمام الناس كلّهم حتّى ينتهي إلى حوض طوله ما بين أيلة وصنعاء فيقف عليه فينادي صاحبكم فيتقدّم عليّ عليه السلام أمام الناس فيقف معه ثمّ يؤذن للناس فيمرّون فبين وارد الحوض وبين مصروف عنه يومئذ فإذا رأى النبيّ ﷺ من يصرف عنه من محبّينا بكى فيبعث الله ملكاً إليه فيقول: ما يبكيك يا محمّد؟ فيقول: يا ربّ شيعة عليّ أراهم قد صرفوا تلقاء أصحاب النار ومنعوا ورود الحوض. فيقول له الملك: إنّ الله يقول: يا محمّد إنّ شيعة عليّ قد وهبتهم لك يا محمّد وصفحت لهم عن ذنوبهم بحبّهم لك ولعترتك وألحقتهم بك وبمن كانوا يقولون به وجعلناهم في زمرتك فأوردهم حوضك» قال أبو جعفر عليه السلام: «فكم من باك يومئذ وباكية ينادون: يا محمّداه إذا رأوا ذلك ولا يبقى أحد يومئذ يتولّانا ويحبّنا ويتبرّأ من عدوّنا ويبغضهم إلّا ومعنا ويرد حوضنا».[1]

وفي قوله: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ قيل: المعنى لا تنفع الشفاعة من الشفيع للمشفوع له إلّا أن يكون الشفيع مأذوناً في الشفاعة ومرضيّاً قوله.

وقيل: إنّ هذا المعنى توضيح الواضح بل المعنى أن يكون المشفوع له يؤذن في حقّه الشفاعة ويكون مرضيّاً قوله مثل أن يكون من أهل الشهادات لأنّه حينئذ يصدق عليه أنّه مرضيّ القول.

وقال الرازيّ: هاهنا مسألة: قالت المعتزلة: إنّ الفاسق غير مرضيّ عند الله فوجب أن لا يشفّع الرسول في حقّه لأنّ هذه الآية تدلّ على أنّ المشفوع له لابدّ وأن يكون مرضيّاً عند الله.[2]

وقال أهل الجماعة: إنّ هذه الآية من أقوى الدلالة على ثبوت الشفاعة في حقّ الفسّاق لأنّ قوله ورضي له قولاً يكفي في صدقه قولاً واحداً من

١ــ تفسير القمي، ج ٢، ص ٦٥؛ والأمالي، ص ٢٩١.

٢ــ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١١٩.

أقواله وهو شهادة أن لا إله إلّا اللّه فوجب أن يكون الشفاعة نافعة له لأنّ الاستثناء من النفي إثبات.

فإن قيل: إنّه تعالى استثنى عن النفي بشرطين: أحدهما: حصول الإذن.

والثاني: أن يكون قد رضي له قولاً، فهب أنّ الفاسق قد حصل فيه أحد الشرطين وهو «قد رَضِيَ لَهُ قولاً» فمن أين حصل فيه الإذن؟

فالجواب أنّ أحد الأمرين وهو أنّه رضي له قولاً كاف في حصول الاستثناء لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[1] فاكتفى هناك بهذا القيد.

ودلّت هذه الآية على أنّه لابدّ من الإذن فظهر من مجموعها أنّه إذا رضى له قولاً يحصل الإذن في الشفاعة وإذا حصل القيدان حصل الاستثناء وتمّ المقصود.

أقول: إنّ في هذا البيان الّذي يقوله الرازيّ: «فظهر من مجموعهما أنّه إذا رضي له قولاً يحصل الإذن في الشفاعة» تأمّل لأنّه من أين أثبت هذه الملازمة فلو أثبت الملازمة من الآية فغير محقّقة لكن قد وردت أخبار صحاح على أنّ الشفاعة تنال الفسّاق من أهل الإيمان والقبلة وعندنا أنّ الفسق لا يخرج العبد من الإيمان إذا لم يكن الفاسق مستحلاً.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الضمير يرجع إلى الّذين يتّبعون الداعي أي: يعلم سبحانه منهم جميع أقوالهم وأفعالهم قبل أن خلقهم وبعد أن خلقهم وما كان في حياتهم وبعد مماتهم.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾ باللّه ﴿عِلْمًا﴾ أي: لا يعلمون بمقدوراته ويكنه عظمته في ذاته وأفعاله، وقيل: ولا يحيطون علماً بما في بين أيمانهم وخلفهم إلّا من اطّلعه اللّه على ذلك ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ وذلّت خضوع الأسير الوجوه أي:

١ـ سورة الأنبياء: ٢٨.

أرباب الوجوه واستسلموا ﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ وحكمه.

وإنّما أسند الفعل إلى الوجوه لأنّ أثر الذلّ يظهر على الوجوه قبل كلّ عضو.

وقيل: المراد من الوجوه الرؤساء والقادة والملوك أي: يذلّون وينسلخون عن ملكهم وعزّهم، والعنو الذلّة ومنه أخذوا العاني للأسير، وتفسير الحيّ القيّوم قد تقدّم.

روى أبو أمامة الباهليّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: **«اطلبوا اسم الله الأعظم في هذه السور الثلاث: البقرة وآل عمران وطه»**. قال الراوي: فوجدنا المشترك في السور الثلاث ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.[1]

والمراد من معنى الآية أنّ ذلك اليوم حال الإنسان مخالفة للحال الّتي كان عليها في الدنيا غير مختار لنفسه في المعصية والطاعة وليس له الاختيار لنفسه.

﴿وَقَدْ خَابَ﴾ وحرم من الثواب ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ ولم يتب عنه.

واستدلّت المعتزلة بهذه الآية في المنع من العفو وقال: «وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظلماً» يعمّ كلّ ظالم وقد حكم الله فيه بالخيبة والعفو ينافيه. قال الطبرسيّ: أي: وقد خاب عن ثواب الله من حمل شركاً إلى يوم القيامة[2]، عن ابن عبّاس. وقيل: قد خسر الثواب من جاء يوم القيامة كافراً ظالماً.

هذا حال الكافرين العاصين وأمّا حال المؤمنين فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ والطاعات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ عارف بالله تعالى مصدّق بما يجب التصديق به وإنّما قيّد سبحانه بهذا القيد لأنّه لا تنفع الطاعات من غير إيمان ولابدّ أن يكون العمل الصالح مقروناً بالإيمان ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ أن يظلم ويزاد عليه في سيّئاته ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ ولا يخاف أن ينقص من حسناته وقوله

١ـ تفسير الرازي، ج٢٢، ص ١٢٠؛ والمستدرك، الحاكم النيشابوري، ج ١، ص ٥٠٥.

٢ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٥٩.

«لا يخاف» في موضع الجزم لكونه في موضع جواب الشرط وقرئ بصيغة النهي «فلا يخف» أي: فليأمن والنهي عن الخوف أمر بالأمن. وفي هذه دلالة على بطلان التحابط.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أخبرناك بأخبار القيامة أنزلنا هذا الكتاب قرآناً عربيًا بلسان العرب وكرّرنا ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ بوجوه مختلفة وبألفاظ متفرّقة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ يخافون و﴿يَتَّقُونَ﴾ المعاصي ويتّقي العرب من قبل أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أو يجدّد القرآن لهم عظة واعتباراً ويذكروا به عقاب اللّه للأمم.

فلو قيل: حدوث الذكر والتقوى لا منافات بينهما وكلمة أو للمنافاة.

فالجواب هذا كقولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين أي: لا تكن خالياً منهما فكذا هاهنا. وقيل يحدث لهم شرفا بإيمانهم كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾.[1]

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ارتفع صفاته عن صفة المخلوقين فلا يشبهه أحد في صفاته لأنّه أقدر من كلّ قادر وأعلم من كلّ عالم.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ فيه وجوه:

الأوّل: قالوا: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ إلى هاهنا كلام ثمّ ينقطع ويستأنف بقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾.

الوجه الثاني: روي أنّهﷺ كان يخاف من أن يفوته من القرآن شيء فيقرأ مع الملك فأمره بأن يسكت حال قراءة الملك ثمّ يأخذ بعد فراغه في القراءة أي: تفهّم ما يوحى إليك إلى أن يفرغ جبرئيل من قراءته وإبلاغه ولا

١ـ سورة الأنفال: ٢.

تخف النسيان والسهو فإنّا نصونك عنه.[۱]

وقيل: معناه: ولا تسأل إنزال القرآن قبل أن يأتيك وحيه لأنّه تعالى ينزله وقت الحاجة.

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي: استزد من الله علماً إلى علمك روت عائشة عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقرّبني إلى الله فلا بارك الله لي في طلوع شمسه».**[۲] وقيل: معناه: زدني قرآناً لأنّه كلّما ازداد من نزول القرآن عليه ازداد علماً.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ وذكروا في تعلّق هذه الآية بما قبلها وجوهاً:

أحدها: لمّا قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ فذكر قصّة آدم إنجازا للوعد.

وثانيها: أنّه سبحانه لمّا قال: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أردفه بقصّة آدم وبيّن أنّ إطاعة بني آدم للشّيطان وتركهم التحفّظ من وساوسه أمر قديم فإنّا عهدنا وبيّنّا من قبل حيث قلنا له: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ ثمّ إنّه مع ذلك نسي وترك ذلك العهد وما تحفّظ له.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ فيه وجوه: أحدها: أنّه أوصينا إليه أن لا تقرب الشجرة ولا تأكل منها فترك الأمر ولم نجد له عزماً وعقداً ثابتاً وقيل: معناه فنسي من النسيان الّذي هو السهو ولم نجد له عزماً على الذنب وأخطأ ولم يتعمّد. وقيل: ولم نجد له حفظا لما أمر به. وقيل: معناه صبراً.

ومن حمله على النسيان فما الّذي نسيه فيه أقوال: أحدها: أنّه نسي

۱ـ تفسير الرازي، ج ۲۲، ص ۱۲۲.

۲ـ مجمع البيان، ج ۷، ص ٦۰؛ والصافي، ج ۳، ص ۳۲۲.

الوعيد بالخروج من الجنّة إن أكل. والثاني: نسي قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾.

والثالث: أنه نسي الاستدلال على أنّ النهي عن الجنس وظنّ أنّه عن العين. هذا هو المرّة السادسة من بيان قصّة آدم في القرآن تحذيرا وعظة للنّاس: أولها في سورة البقرة، ثمّ في الأعراف، ثمّ في الحجر، ثمّ في الإسراء ثمّ في الكهف، ثمّ هاهنا.

قال ابن عبّاس: (من قبل أن يأكل من الشجرة عهدنا إليه أن لا يأكل منها).

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾
فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ
فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا
تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ
شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا
وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ
ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا
يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾

اعلم أنّ سبب عداوة إبليس لآدم العمدة منها أنّه بسبب عدم السجود لآدم طرد عن رحمة الله فحصل له العداوة. ثمّ إنّ اللعين لمّا رأى آثار نعم الله على آدم وحرمان نفسه حسده فصار عدوّاً له. والثالث: أنّ آدم كان شابّاً

عالماً لقوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[1] وإبليس كان شيخاً كبيراً جاهلاً لأنّه أثبت فضله بفضيلة أصله ولم يعلم أنّ الفضيلة ليست بالبنية.

وإنّما أسند الإخراج إلى إبليس لأنّه هو الّذي فعل ما يترتّب عليه فصحّ ذلك. والشقاء والتعب إنّما أسند إلى آدم وحده لأنّ الرجل قيّم بأمور المعاشيّة للمرأة فاختصّ الإسناد إليه مع المحافظة على رعاية الفاصلة في الآي. والمراد من الشقاء المشقّة في طلب القوت.

قال سعيد بن جبير: أنزل على آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويرشّح العرق عن جبينه.[2]

واذكر إذ وصّينا لآدم بأنّ الشيطان ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ فلا يخرجنّك بسبب الوسوسة ويغرّكما فتقع حينئذ في تعب القوت والمعاش والاكتساب لنفسك ولزوجك و﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ﴾ في الجنّة ولا تصير عارياً من اللباس لسعة طعام الجنّة وثيابها ولا تعطش في الجنّة ولا يصيبك حرّ الشمس لأنّه ليس في الجنّة شمس وإنّما فيها ضياء ونور وظلّ ممدود من غير شمس.

وهذه الأشياء كأنّها تفسير الشقاء المذكور لأنّ الشبع والريّ والكسوة والاكتنان في الظلّ هي الأقطاب الّتي يدور عليها أمر الإنسان بالراحة فذكر اللّه حصولها من غير تعب بذكر أضدادها نفيا الّتي هي الجوع والعرى والظماء والضحى. وحذّر سبحانه آدم عنها حتّى يبالغ الاحتراز عن السبب الموقع.

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ وكانت تلك الوسوسة بتطميعه في أمرين: أحدهما قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: من أكل منها صار مخلّداً ولم يمت، الثاني: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ أي: من أكل منها لا يضعف ولا يهرم.

١ـ سورة البقرة: ٣١.

٢ـ تفسير جوامع الجامع، ج ٢، ص ٥٠٤؛ وأيضاً بحارالأنوار، ج ١١، ص ١٥٩.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ مرّ تفسيره في سورة الأعراف مفصّلاً وإجماله أنّه بعد أن أكلا ظهرت عورتهما ونزع لباس الجنّة عنهما وظلّا عاريين فشرعا وأخذا من ورق تين الجنّة ويلزقان ويجعلان الأوراق على عورتهما حياء عن العرى.

و﴿وَعَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ معناه: خالف أمر ربّه فخاب من ثوابه، والمعصية مخالفة الأمر سواء كان الأمر واجباً أو ندباً ولا يمتنع أن يسمّى تارك النفل عاصياً كما يسمّى بذلك تارك الواجب يقولون: فلان أمرته بكذا وكذا من الخير فعصاني. واستعمل لفظة «غوى» في الخيبة. قال الشاعر:

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ... ومن يغو لا يعدم على الغيّ لائما

ويجوز أن يكون المراد فخاب ممّا كان يطمع فيه بأكل الشجرة من الخلود. وقال بعض أهل السنّة والجماعة: وفي وصف آدم عليه السلام بالعصيان والغواية مع صغر زلّته تعظيم لها وزجر بليغ لأولاده عن أمثالها.

قال الرازيّ في «المفاتيح»: إنّ مذهبنا أنّ واقعة الزلّة إنّما وقعت قبل رسالته لا بعدها.[1] وقالت المعتزلة: إنّها وقعت صغيرة لا كبيرة. وقال أبو مسلم الإصفهانيّ: بأنّه عصى في مصالح الدنيا لا فيما يتّصل بالتكاليف وكذلك القول في غوى، والغيّ ضدّ الرشد فمن توصّل بشيء إلى شيء ثمّ حصل له ضدّ مقصوده كان ذلك غيّا. وعلى التقادير لم يجز بعد أن قبل الله توبته واجتباه للرسالة إطلاق هذا الإثم عليه مطلقاً.

فعاد سبحانه عليه بالرحمة والمغفرة بقوله: ﴿ثُمَّ اجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ واصطفاه للرسالة ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ وقبل توبته وهداه للكلمات الّتي تلقّاها منه سبحانه والتثبّت بأسباب العصمة.

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١٢٦.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ الخطاب من الله لآدم وحوّاء أو لآدم وحوّاء وإبليس ولمّا كانا أصلي الذريّة خاطبهما مخاطبتهم والخطاب يعمّ المبشّر.

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ﴾ هدايتي وديني ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة. بسبب قبول الدين ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ والذكر يشمل كتب الله جميعاً والقرآن ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: ضيّقاً وهو أن يمسكه ولا ينفقه على نفسه فضلاً عن غيره ومن غلبة الحرص عليه وعلى الجمع والطلب يضيق المعيشة عليه. وقيل: المراد من هذا الضيق عذاب القبر. وقيل: هو طعام الضريع والزقّوم في جهنّم وإن كان في سعة في الدنيا. وقيل: هو الحرام الّذي ينفقه ولا خلف له ويؤدي إلى النار. وقيل: إنّهم بسبب إعراضهم عن الدين تنقص بركاتهم كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾.[٤]

وأمّا القول بأنّ المراد من عيشة الضنك عذاب القبر فهو قول جماعة من أصحاب الحديث مثل عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخدريّ وعبد الله بن عبّاس ورفعه أبو هريرة إلى النبيّ ﷺ قال: إنّ عذاب القبر للكافر؟ قال:

١ـ سورة المائدة: ٦٦.

٢ـ سورة الأعراف: ٩٦.

٣ـ سورة نوح: ١٠، ١١، ١٢.

٤ـ سورة الجن: ١٦.

«والذي نفسي بيده إنّه ليسلّط عليه في قبره تسعة وتسعون تنّينا».(١)

قال ابن عبّاس: (نزلت الآية في الأسود بن عبد العزّى المخزوميّ والمراد ضغطة القبر تختلف أضلاعه). وقيل: المراد الضيق في كلّ ذلك أو أكثره. روي عن أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: **«عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة والعسر في الشدّة وأن لا يتوصّل إلى قوته إلّا بمعصية الله».**(٢)

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ أي: أعمى العين أي: يحشر بصيراً فإذا سيق إلى المحشر عمي. وقيل: المراد عمى البصيرة لا البصر لا حجّة له يهتدي بها. وروى معاوية ابن عمّار قال: سألت أبا عبد الله عن رجل لم يحجّ وله مال؟ قال: هو ممّن قال الله: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ فقلت: سبحان الله أعمى! قال: أعماه الله عن طريق الحقّ.(٣) فهذا القول مطابق قول من قال: أعمى عن جهات الخير لا يهتدي بشيء منها.

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

قال ابن عبّاس: (ضمن الله سبحانه لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضلّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة قال: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ﴾ آياتي)، هذا جواب

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١٣٠؛ وانظر: جامع البيان، ج ١٦، ص ٢٨٣.

٢ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١٣١.

٣ـ بحار الأنوار، ج ٧، ص ١٤٩؛ والكافي، ج ٤، ص ٢٦٩؛ والتهذيب، ج ٥، ص ١٨.

من اللّه لمن يقول يوم القيامة: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعۡمَىٰ﴾ أي: كما حشرناك أعمى جاءك محمّد والقرآن والآيات الدالّة فأعرضت عنها وتعرّضت لنسيانها فإنّ النسيان ليس من فعل الإنسان فيوعد عليه لكن يفعل فعلاً يوجب النسيان فتعمّد لحصول النسيان ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ وتترك في العذاب بمنزلة المنسيّ.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الموافق كما ذكرنا من العمى والنسيان نجزي من أسرف وجاوز العصيان ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ﴾ اللّه ولم يصدّق بحجج ربّه ورسله.

واختلفوا في معنى الإسراف أي: أشرك وكفر، وبعضهم قال: أسرف في معصية اللّه.

وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام: **«المراد من أشرك بولاية أمير المؤمنين عليه السلام غيره ولم يؤمن بآيات ربّه وترك الأئمّة عليهم السلام معاندة ولم يتّبع آثارهم ولم يتولّهم»**.[1]

﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ ولمّا بيّن سبحانه بأنّ العيش الضنك والعمى للمتجاوزين المشركين باللّه وبالولاية بيّن من بعد ذلك أنّ عذاب الآخرة المتأخّرة أشدّ وأبقى أمّا الأشدّ فلعظمه وأمّا الأبقى فلأنّه غير منقطع ومن المعلوم أنّ عذاب جهنّم أشدّ من عذاب الدنيا وعذاب القبر لأنّه لا يزول.

﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ وقرئ نهد بالمتكلّم والمعنى أفلم يتبيّن لهم طريق الاعتبار وكثرة إهلاكنا ﴿قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ بسبب تكذيبهم رسلنا ويعتبرون بما فعل بأسلافهم فيؤمنوا ولا يكذّبوا وقوله: ﴿يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡ﴾ يريد أهل مكّة كانوا يتّجرون إلى الشام فيمرّون بمساكن العاديّين والثموديّين وغيرهم ويرون علامات الإهلاك أفلا يخافون أن تقع بهم مثل ما وقع بأولئك؟

١ـ الكافي، ج ١، ص ٤٣٦؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٣٢٦.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ إهلاكنا إيّاهم لعبرة ودلالات لأهل العقل والأقرب أنّ للنهية مزيّة على العقل، والنهى لا يقال إلّا فيمن له عقل ينتهي عن القبائح كما أنّ لقولنا: أولي العزم مزيّة على أولي الجزم فلذلك قال بعضهم: أهل الورع وأهل التقوى.

ثمّ بيّن سبحانه السبب الّذي لأجله لا ينزل العذاب معجّلا على من كذّب وكفر بمحمّدﷺ فقال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ وفيه تقديم وتأخير والتقدير: ولو لا كلمة سبقت من ربّك وأجل مسمّى لكان نزول العذاب ملازماً لهم والكلمة هي إخبار اللّه ملائكته وكتبه في اللوح المحفوظ أنّ أمّته وإن كذّبوا وكفروا فيؤخّرون ولا يفعل بهم ما يفعل بغيرهم من الاستئصال.

واختلفوا فيما لأجله يؤخّر العذاب عنهم قال بعضهم: لأنّه علم أنّ فيهم من يؤمن. وقال آخرون: المصلحة فيه خفيّة لا يعلمها إلّا هو وقال أهل السنّة: له بحكم المالكيّة أن يختصّ من شاء بفضله ومن شاء بعذابه من غير علّة وقالوا: لو كان فعله لعلّة لكانت تلك العلّة إن كانت قديمة لزم قدم الفعل وإن كانت حادثة افتقرت إلى علّة أخرى ولزم التسلسل فلهذا قالوا: كلّ شيء صنعه لا لعلّة.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: لا يهلك أحداً قبل استيفاء أجله. ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ وأمره بالصبر على ما يقولون ويكرهه من أقوالهم الشنيعة كقولهم: ساحر أو شاعر أو مجنون أو غير ذلك أو المراد تكذيبهم لرسالته وتركهم القبول منه لأنّ كلّ ذلك ممّا يهمّه، وأمره بالدعاء والتسبيح أي: دم لربّك بالحمد له والثناء عليه واحمده في هذه الأوقات.

واختلفوا في التسبيح على وجهين فالأكثرون على أنّ المراد منه الصلاة

وهؤلاء اختلفوا على ثلاثة أوجه: أحدها: أنّ الآية تدلّ على أنّ الصلوات الخمس لا أزيد ولا أنقص فقال ابن عبّاس: (دخلت الصلوات الخمس فيه فقبل طلوع الشمس هو صلاة الصبح وقبل غروبها هو الظهر والعصر لأنّهما جميعاً قبل الغروب ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أي: المغرب والعشاء الآخرة). وقوله: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ كالتوكيد للصّلاتين الواقعتين في طرفي النهار وهما صلاة الفجر وصلاة المغرب والتكرار في هاتين للخصوصيّة والتأكيد بهما كما اختصّت في قوله: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ بالتأكيد.

والقول الثاني: أنّ الآية تدلّ على الصلوات الخمس وزيادة أمّا دلالتها على الصلوات الخمس فلأنّ الزمان إمّا أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها فالليل والنهار داخلان في هاتين العبارتين فأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيهما بقي قوله: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ للنوافل.

والقول الثالث: أنّها تدلّ على أقلّ من الخمس بقوله قبل طلوع الشمس للفجر وقبل غروبها للعصر ومن آناء الليل للمغرب والعشاء فيبقى الظهر خارجاً.

هذا كلّه إذا حملنا التسبيح على الصلاة والأليق الأقرب حمله على التنزيه والآجلال والمعنى اشتغل بتنزيه اللّه تعالى في هذه الأوقات أراد بذلك المداومة على التسبيح والتحميد في عموم الأوقات لعلّك ترضى بجميع ما وعدك اللّه وبالشفاعة والدرجة الرفيعة ولعلّك تنال عند اللّه ما به رضاء نفسك.

في «الخصال» عن الصادق عليه السلام، سئل عن هذه الآية فقال: «**فريضة على كلّ مسلم أن يقول قبل طلوع الشمس وقبل غروبها عشر مرّات: لا إلهَ إلّا اللّهُ وحده لا**

شَرِيكَ لَهُ... لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ... يُحْيِي وَ يُمِيتُ وهو حيّ لا يموت بيده الخير وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».[1]

وفي «الكافي» عن الباقر عليه السلام في قوله: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ **«أي: تطوّع بالنهار»**[2] فلو قيل: إنّ النهار ليس له غير طرفين كما قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ قيل: إنّما جمع لأنّه متكرّر في كلّ نهار ويعود أو الجمع المنطقيّ اثنان.

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

لمّا صبّر سبحانه نبيّه على أكاذيب قومه وأمره أن يعدل إلى التسبيح والاشتغال بعبادته أتبع في هذه الآية بنهيه عن مدّ عينيه إلى ما متّع به القوم قيل: المراد من المدّ ليس هو النظر بل هو الأسف أي: لا تأسف على ما فاتك ممّا نالوه من حظّ الدنيا.

سبب النزول: قال أبو رافع: نزل ضيف بالنبي صلى الله عليه وآله فبعثني إلى يهوديّ فقال صلى الله عليه وآله: **«قل: إنّ رسول الله يقول: بعني كذا وكذا من الدقيق أو أسلفني إلى هلال**

١ـ الخصال، ص ٤٥٢، والمحاسن، ج ١، ص ٣١؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٣٢٦.

٢ـ الكافي، ج ٣، ص ٤٤٤، ووسائل الشيعة الإسلامية، ج ٣، ص ٥٣.

رجب» فأتيته فقلت له، فقال: والله لا أبيعه ولا أسلفه إلّا برهن فأتيت رسول الله وأخبرته. فقال صلى الله عليه وآله: «والله لو باعني أو أسلفني لقضيته وإنّي لأمين في السماء وأمين في الأرض، اذهب بدرعي الحديد إليه»، فنزلت الآية تسلية له عن الدنيا.

قال أبيّ بن كعب في هذه الآية: من لم يتعزّ بعزاء الله تقطّعت نفسه حسرات على الدنيا، ومن يتبع بصره ما في أيدي الناس طال حزنه ولا يشفى غيظه، ومن لم ير لله عليه نعمة إلّا في مطعمه ومشربه نقص علمه ودنا عذابه وقد فعل نظّارة قارون حيث قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.[1] حتّى واجههم أولو العلم والإيمان بقولهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.[2]

ولقد شدّد المتّقون في وجوب غضّ البصر عن أبنية الظلمة وزينة الفسقة في اللّباس والمركوب وغير ذلك قال عيسى عليه السلام: «لا تتخذوا الدنيا ربّاً فتتخذكم عبيداً».[3]

وعن عروة بن الزبير: أنّه إذا كان رأى ما عند السلاطين والأمراء يتلو هذه الآية وقال: الصلاة يرحمكم الله.

﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافاً من الكفرة وأشباهاً والمزاوجة من المشاكلة لأنّ الكفّار متشاكلون في الذهاب عن الحقّ والدين والتمتّع المراد منه الاستلذاذ من المناظر الحسنة والأصوات المطربة وشمّ الروائح الطيّبة والمناكح والملابس وأمثالها.

﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقرئ بفتح الهاء والزهرة النور[4] الّذي يروق عند

١ـ سورة القصص: ٧٩.

٢ـ سورة القصص: ٨٠.

٣ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١٣٦؛ وبحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٢٧.

٤ـ بفتح النون.

الرؤية، أزهر اللون أي: منير اللون والزهراوان: البقرة وآل عمران، والزهرة بالتحريك الزينة والبهجة كما جاء في الجمهرة ويصحّ أن يكون جمع زاهر وصفاً لهم بأنّهم زهرة هذه الدنيا لصفاء ألوان الكفّار وتهلّل وجوههم بخلاف ما عليه الصلحاء من شحوب الألوان والتقشّف في الثياب.

أمّا قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ أي: لنعاملهم معاملة المختبر ونجعل ذلك امتحانا وفتنة لهم قال الكلبيّ ومقاتل: معناه تشديداً في التكليف عليهم لأنّ الإعراض عن الدنيا عند حضورها والإقبال إلى الله أشدّ من ذلك عند عدم حضورها وأسبابها ولذلك كان رجوع الفقراء إلى خدمة الله والتضرّع إليه أكثر من تضرّع الأغنياء ولأنّ على من أوتي الدنيا ضروباً من التكاليف لولاها لما لزمتهم تلك التكاليف ولأنّ القادر على المعاصي يكون الاجتناب عنها أشقّ عليه من العاجز القصير فمن هذه الجهات يكون الزيادة في الدنيا تشديداً في التكليف.

ثمّ قال لرسوله: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي: ما نصبك من الثواب خير من مطلوبهم وأبقى لأنّه يدوم ولا ينقطع وليس حال ما أوتوه من الدنيا كذلك أو المراد أنّ ما أعطيت من الكرامة والنبوّة خير لك ممّا متّعنا به هؤلاء.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾ أي: فأمر يا محمّد أهل بيتك وأهل دينك بالصلاة روى أبو سعيد الخدريّ قال: لمّا نزلت هذه الآية كان رسول الله ﷺ يأتي باب فاطمة وعليّاً تسعة أشهر عند كلّ صلاة فيقول: «**الصلاة رحمكم الله إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ويطهّركم تطهيرا**».[1] وقال أبو جعفر عليه السلام: «**أمره الله أن يخصّ أهله دون الناس ليعلم الناس أنّ لأهله منزلة ليست للنّاس فأمرهم مع الناس عامّة في موضع آخر ثمّ أمرهم خاصّة**».[2]

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٦٨؛ وانظر: بحار، ج ٣٥، ص ٢١٦.

٢ـ عوالي اللئالي، ج ٢، ص ٢٢؛ ومجمع البيان، ج٧، ص٦٨.

﴿وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾ أي: كما تأمرهم فحافظ عليها فعلاً فإنّ الوعظ بلسان الفعل أتمّ منه بلسان القول. ثمّ بيّن سبحانه أنّه يأمرهم بذلك لمنافع وأنّه متعال عن المنافع بقوله: ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ﴾ لخلقنا ولا لنفسك بل كلّفناك العبادة وضمنّا رزق الجميع ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ﴾ ونرزقهم جميعاً لا نسترزقكم كما يريدون السادة من العبيد الخراج وهذا المعنى كقوله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾[1] وقيل: إنّ المعنى: لا نسألك رزقاً لنفسك ولا لأهلك بل نحن نرزقك ففرّغ بالك لأمر الآخرة. وقيل: معناه أنّا لمّا أمرناك بالصلاة فليس ذلك الأمر لأنّا ننتفع بصلاتك فعبّر عن هذا المعنى بقوله: ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ﴾.

قال عبد اللّه بن سلام: كان النبيﷺ إذا نزل بأهله ضيّق أو شدّة أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية.

ثمّ قال: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أي: لأهل التقوى العاقبة المحمودة.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ الّتي اقترحناها كما أتى بها الأنبياء. فأزال اللّه شبهتهم الّتي أوردوها بأنّه يكلّفهم الإيمان والتصديق من غير آية فأجاب بقوله: ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ وفيه وجوه:

أحدها: أنّ ما في القرآن إذا وافق ما في كتبهم مع أنّ الرسولﷺ لم يشتغل بالدراسة والتعلّم وما رأى استاذا البتّة كان ذلك إخباراً بالغيب فيكون معجزاً.

وثانيها: أنّ بيّنة ما في الصحف الأولى ما فيها من البشارة بمحمّدﷺ ونبوّته.

وثالثها: ذكر ابن جبير والقفّال، والمعنى: أولم تأتهم بيّنة ما في الصحف الأولى من أنباء الأمم الّتي أهلكناهم لمّا سألوا الآيات وأوتوا بها فكفروا بها كيف عاجلناهم بالعقوبة فما ذا يؤمّنهم أن يكون حالهم في سؤال الآيات

١ـ سورة الذاريات: ٥٧ و٥٦.

واقتراحها كحال أولئك؟ وإنّما أتاهم هذا البيان في القرآن فلهذا وصف القرآن بكونه بيّنة ما في الصحف الأولى كأنّ المعنى يقول: ألم يأتهم نبأ سائر الآيات الّتي وقعت قبلهم أولم تأتهم خاصّة بيّنة ما في الصحف الأولى في قرآنك.

ثمّ أزاح لهم العذر في التكليف فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ والمراد كان لهم أن يقولوا ذلك فيكون عذرا لهم فأمّا الآن وقد أرسلنا وبيّنّا على لسانك ما عليهم ومالهم فلا حجّة لهم بل الحجّة عليهم، ومعنى ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل إرساله ومن قبل إظهاره القرآن والبيّنات فقطعنا عذرهم ولم يبق لهم.

﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بالعذاب ﴿وَنَخْزَىٰ﴾ في جهنّم أو المراد من قبل أن نذلّ في الدنيا بالقتل والأسر ونشقى في الآخرة بالعذاب.

قال أبو سعيد الخدريّ: قال رسول اللهﷺ: **«يحتجّ على الله يوم القيامة ثلاثة: الهالك في الفترة يقول: لم يأتني رسول وإلّا كنت أطوع خلقك لك»** وتلا قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾. **«والمغلوب على عقله يقول: يا ربّ لم تجعل لي عقلا أنتفع به. والصبيّ يقول: كنت صغيراً لا أعقل ولا أميّز فحينئذ ترفع لهم نار ويقال لهم: ادخلوها، فيدخلها من كان في علم الله أنّه سعيد ويبقى من في علمه أنّه شقيّ فيقول الله تعالى لهم: عصيتم اليوم أمري فكيف برسلي لو أتوكم؟»**[1]

وبعض طعنوا في هذا الخبر كالقاضي عبد الجبّار وقالوا: لا يحسن العقاب على من لا يعقل.

قال الجبّائيّ: هذه الآية تدلّ على وجوب فعل اللطف إذ المراد أنّه يجب أن يفعل بالمكلّفين ما يؤمنون عنده ولو لم يفعل لكان لهم أن يقولوا:

١ـ جامع البيان، ج ١٦، ص ٢٩٥؛ وتفسير ابن كثير، ج ٣، ص ٣٢.

هلّا فعلت ذلك لنؤمن وهلّا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك.[١]

قال الكعبيّ: قوله: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أوضح دليل على أنّه تعالى يقبل الاحتجاج من عباده وأنّه ليس قوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ كما ظنّه أهل الجبر من أنّ ما هو جور منّا يكون عدلاً منه بل معناه أنّه لا يقع منه إلّا العدل فإذا ثبت أنّه تعالى يقبل الحجّة فلو لم يكونوا قادرين على ما أمروا به لكان لهم فيه حجّة وأعظم حجّة.

وقد ختم اللّه السورة بضرب من الوعيد فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿كُلٌّ﴾ منّا ومنكم منتظر عاقبة أمره بعد الموت وهو ظهور أمر الثواب والعقاب فإنّه يتميّز في الآخرة المحقّ من المبطل بما يظهر على المحقّ من أنواع الكرامة وعلى المبطل من أنواع العذاب والإهانة ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عند ذلك ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ أي: من أهل الدين المستقيم ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ إلى طريق الجنّة نحن أم أنتم؟

وفي «ثواب الأعمال» و«المجمع» عن الصادق عليه السلام قال: **«لا تدعوا قراءة سورة طه فإنّ الله يحبّها ويحبّ من قرأها ومن أدمن قراءتها أعطاه الله يوم القيامة كتابه بيمينه ولم يحاسبه بما عمل في الإسلام».**[٢]

تمّت السورة.

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٤، ص ٢٥٨.

٢ـ ثواب الأعمال، ص ١٠٨؛ ووسائل الشيعة (آل البيت)، ج ٦، ص ٢٥٢.

سُورَةُ الأنبياء

مكية كلها. فضلها: قال أبيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله: **«من قرأها حاسبه الله حساباً يسيراً وصافحه وسلّم عليه كلّ نبيّ ذكر اسمه في القرآن».**[1]

وقال أبو عبد الله عليه السلام: **«من قرأها حبّاً لها كان ممّن يوافق الأنبياء أجمعين في جنّات النعيم وكان مهيباً في أعين الناس حياة الدنيا».**[2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن
ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ
وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ
ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ
وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ
شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾

القرب لا يعقل إلّا في المكان والزمان والقرب المكانيّ هاهنا ممتنع فتعيّن القرب الزمانيّ فالمعنى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾ وقت ﴿حِسَابُهُمْ﴾.

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٧٠؛ ونور الثقلين، ج ٣، ص ٤١٢.

٢ـ مجمع البيان، ج٧، ص ٧٠؛ وثواب الأعمال، ص ١٠٨؛ ونور الثقلين، ج٣، ص٤١٢.

فلو قيل: كيف وصف بالاقتراب وقد مضى من هذا القول أكثر من ألف سنة؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنّه مقترب عند الله وأنّ يوماً عند ربّك كألف سنة ممّا تعدّون وكلّ ما هو آت قريب وإن طالت أوقات ترقّبه وإنّما البعيد هو الّذي انقرض. قال الشاعر:

فلا زال ما تهواه أقرب مـن غـد ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

وثانيها: أنّ المعاملة إذا كانت مؤجّلة إلى سنة مثلاً ثمّ انقضى منها شهر فإنّه لا يقال: اقترب الأجل، أمّا إذا كان الماضي أكثر من الباقي فإنّه يقال: اقترب الأجل، فقرب القيامة من هذا الوجه ولهذا المعنى أشار ﷺ قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين»[1] لأنّ الباقي من مدّة التكليف أقلّ من الماضي.

ثمّ إنّه سبحانه ذكر هنا الاقتراب لهذا البيان الّذي ذكرنا على أنّ ذكر الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلّفين لتلافي الذنوب وتداركها والتحرّز عنها خوفاً من ذلك وإنّما لم يعيّن الوقت لأجل أنّ كتمانه أصلح كما أنّ كتمان وقت الموت أصلح ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ وصفهم بأمرين: الغفلة والإعراض أمّا الغفلة لأنّهم غافلون وساهون وناسون لا يتفكّرون في حسابهم مع اقتضاء عقولهم ملازمة جزاء المحسن والمسيء ثمّ إذا انتبهوا عن سنة الغفلة بما يتلى عليهم من الآيات والمواعظ أعرضوا ولم يقبلوا بوجه القبول والتدارك.

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ ومن في ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ زائدة للتأكيد و«ذكر» محلّه الرفع والمراد من الذكر القرآن فدلّ النصّ بحدوث القرآن لأنّ الله يجدّد لهم الذكر وقتاً فوقتاً وآية بعد آية وسورة بعد سورة،

۱ـ مستدرك الوسائل، ج ۱۲،ص۳۲٤؛ والأمالي، للمفيد۱۱.

واحتجّ المعتزلة بحدوث القرآن ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي: لم يستمعوا استماع تدبّر ونظر وقبول وإنّهم استمعوه استماع اشتغال ولهو واستهزاء غافلة قلوبهم.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ أي: تناجوا بينهم المشركون فبيّن المتناجين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وأشركوا تناجوا فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بدل من «أسرّوا» أو جاء على لغة أكلوني البراغيث أو أسرّوا خبر مقدّم والّذين ظلموا مبتدأ مؤخّر وإنّما أسرّوا لوجهين:

الأوّل: أنّه كان كالتشاور والتحاور في طلب الطريق إلى هدم أمر القرآن وعادة المتشاورين أن يجتهدوا في كتمان سرّهم عن أعدائهم أو كانوا يسرّون القول لأن يقولوا لرسول الله والمؤمنين: إن كان ما تدّعونه حقّاً فأخبرونا بما أسررناه.

فإن قيل: إنّ النجوى اسم من التناجي ولا يكون إلّا خفية فما معنى ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾؟ فالمعنى: بالغوا في إخفاء كلامهم وجعلوها بحيث لا يفطن أحد كلامهم لتناجيهم بل هم يستمعون كلامهم بينهم بالمشقّة.

ثمّ إنّهم كانوا يناقشون في نبوّته ﷺ بأمرين: أحدهما: أنّه بشر مثلهم. والثاني: أنّ الّذي أتى به سحر.

وكلاهما: فاسد أمّا الأوّل لأنّ النبوّة تقف صحّته على المعجزة والدلائل لا على الصور وإنّما يعلم كونه نبيّاً بالمعجزة والعلم فإذا ظهرت الأمور من البشر فيكون هو الأولى من الملك لأنّ المرء من أشكاله آنس وإلى القبول عن سنخه أقرب.

وأمّا الثاني: وهو أنّ ما أتى به الرسول أي: القرآن سحر وهذا الكلام جهل لأنّه ﷺ كلّ ما أتى به من القرآن ظاهر الحال ويتحدّاهم حالاً بعد حال

مدّة من الزمان فهلّا قابلوه وهم أرباب الفصاحة والبلاغة وكانوا في نهاية الحرص على إبطال أمره وأقوى الأمور في إبطال أمره كان معارضة القرآن فلو قدروا على المعارضة لامتنع أن لا يأتوا بها لأنّ الفعل عند توفّر الداعي واجب الوقوع فلمّا لم يأتوا بها دلّ ذلك على أنّه في نفسه معجزة وأنّهم عرفوا وعلموا حقيقة الأمر وما ذكرنا يدلّ على أنّهم كانوا عالمين بصدقه إلّا أنّهم كانوا يموّهون على الضعفاء لأغراض كانت لهم في تلك المكابرة.

﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ وقرأ بعض: قل ربّي فإذا كان ﴿ قَالَ رَبِّي ﴾ حكاية لقول الرسول وإن كان الكلّ يكون يقولون هذا أي: إنّكم وإن أخفيتم قولكم وطعنكم فإنّ ربّي عالم بذلك وهو السميع لأقوالهم العليم لضمائرهم.

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ ثمّ أضربوا عن القولين وهما لكونه بشراً ليس بنبيّ وأنّ القرآن ليس بمعجز بل سحر و﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ أي: تخاليط أحلام يراها في المنام ثمّ قالوا: لا ﴿بَلِ﴾ هو ﴿ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ وافتعله وتخرّصه. ثمّ قالوا: لا ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ تقوّله وهذا قول المتحيّر الّذي بهره ما سمع فمرّة يقول: سحر ومرّة يقول: شعر ومرّة يقول: حلم ولا يجزم على أمر واحد.

ولمّا فرغوا من هذه الاحتمالات قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ أي: طلبوا آية جليّة كالآيات المنقولة عن موسى وعيسى عليهما السلام مثل الناقة والعصا واقترحوا الآيات الّتي ليس معها إمهال ولابدّ إذا صدرت ولم يؤمنوا يأخذهم العذاب لأنّ حكم الله فيمن كذّب بعد الإجابة إلى ما اقترحه من الآيات أن ينزل به عذاب الاستئصال وقد مضى حكمه في أمّة محمّد خاصّة بخلافه فلذلك لم يجبهم.

﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٦ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٩ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٠﴾

المعنى: أجاب سبحانه عن الكفّار الّذين اقترحوا الآيات بقولهم: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾. ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم﴾ أي: لم يؤمن قبل هؤلاء الكفّار ﴿مِّن﴾ أهل ﴿قَرۡيَةٍ﴾ جاءتهم الآيات الّتي اقترحوها وطلبوها فأهلكناهم مصرّين على الكفر ﴿أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ عند مجيئها أي: هؤلاء سبيلهم سبيل من تقدّم منهم ومن المعلوم أنّهم لا يؤمنون فلذلك لم يأت هؤلاء بالآيات المقترحة.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ هذا جواب عن قولهم: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾[1] أي: هذه عادة اللّه في الرسل أن يبعث من البشر من قبيل محمّد صلى الله عليه وآله.

﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ في «الكافي» عن الباقر عليه السلام قيل له: إنّ من عندنا يزعمون أنّ قول اللّه ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ أنّهم علماء اليهود والنصارى قال عليه السلام: «**إذا يدعوكم إلى دينهم ثمّ أومأ بيده إلى صدره نحن أهل الذكر ونحن المسئولون**».[2] وعن عليّ عليه السلام أنّه قال: «**نحن أهل الذكر**».[3] ويعضده أنّ اللّه سمّى النبيّ ذكرا رسولاً وقيل: أهل الذكر المراد أهل التوراة والإنجيل وقيل: أهل

١ـ سورة الأنبياء: ٣.

٢ـ الكافي، ج ١، ص ٢١١؛ والتوحيد، ص ٣١٩.

٣ـ المناقب، ج ٢، ص ٢٩٣؛ ومجمع البيان، ج ٧، ص ٧٣.

العلم بأخبار من تقدّم من الأمم. وقيل: أهل القرآن والذكر هو القرآن وهم العلماء بالقرآن.

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ هذا جواب وردَ من الله لقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[1] ومعناه: ما جعلنا الأنبياء قبلك ذوي أجساد لا يأكلون الطعام ولا يموتون حتّى يكون أكلك الطعام وشربك وموتك علّة لترك الإيمان بك فإنّا لم نخرجهم عن حدّ البشريّة بالوحي.

والجسد المجسّد الّذي فيه الروح ويأكل ويشرب فحينئذ جسم. وقيل: الجسد ما لا يأكل ولا يشرب فحينئذ نفس. ووحّد لفظ الجسد لإرادة الجنس بتقدير ذوي جسد والحاصل من المعنى: ما جعلنا الأنبياء ذوي جسد غير طاعمين.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ بأنّ العاقبة المحمودة كانت لهم وأنجزنا ما وعدناهم من النصر والظهور على الأعداء فأنجيناهم من أعدائهم والمؤمنين بهم ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ على أنفسهم بتكذيبهم الأنبياء، وقيل: المراد من المسرفين المشركين.

ثمّ ذكر سبحانه نعمته عليهم بإنزال القرآن فقال: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا﴾ يا معشر الناس ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: في اتّباع القرآن ذكركم وشرفكم وفيه ذكر ما تحتاجون إليه في أمر دينكم ودنياكم وفيه مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما فضّلتم به لتفوزوا بالجنّة بعمله لأنّ دفع الضرر عن النفس من لوازم العقل.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾

١ـ سورة الفرقان: ٧.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

لمّا أبطل شبهاتهم بالغ سبحانه في زجرهم فقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ القصم أقطع الكسر وهو الّذي لا يتلاءم الأجزاء بخلاف الفصم وذكر القرية توسّعاً والمراد أهلها فالمعنى: أهلكنا قوماً وأنشأنا قوماً آخرين، والمراد من القرية أهل القرية لأنّ القرية لا تكون ظالمة ولا مكلّفة.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ﴾ عذابنا و﴿بَأْسَنَآ﴾ وهذه البيانات قرائن دالّة على أنّ المراد أهل القرية وإلّا لما جاز منه ذكر المجاز لأنّه موهم للكذب والمراد من البأس في الآية القتل بالسيف والمراد بالقرية بلدة حضور وسحول في اليمن ينسب إليهما الثياب وفي الحديث: «**كفّن رسول الله ﷺ في ثوبين سحوليّين**»[1]، وروي: «**حضوريّين**».

وبعث الله فيها نبيّاً يقال له حنظلة فقتلوا نبيّهم فسلّط الله عليهم بخت النّصر حتّى قتلهم وسباهم ونكأ فيهم حتّى خرجوا من ديارهم منهزمين فبعث الله ملائكة حتّى ردّهم إلى مساكنهم فقتل صغارهم وكبارهم حتّى لم يبق لهم اسم ولا رسم روي أنّه لمّا أخذتهم السيوف نادى مناد من السماء: يا لثارات الأنبياء.

هذا على أنّ المراد من العذاب القتل وأمّا إذا كان المراد من البأس غير القتل فالمراد عذاب الاستئصال والقرية غير منحصرة في القريتين بل مطلق القرى المعذّبة ولعلّ ابن عبّاس ذكر حضور بأنّها إحدى القرى الّتي أرادها الله بهذه الآية. فلمّا أحسّوا بأسنا ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ والمعنى لمّا علموا

١ـ تذكرة الفقهاء، ج ١، ص ٤٣؛ ووسائل الشيعة، ج ٢، ص ٧٢٦.

شدّة عذابنا مشاهدة ركضوا في ديارهم والركض ضرب الدابّة بالرجل ومنه قوله: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾[1] فيجوز أن يكونوا ركبوا دوابّهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم.

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ كلمة «قال» محذوف والقائل إمّا بعض الملائكة أو المؤمنين الّذين من شأنهم أن يقولوا ولم يقولوا أو يقوله اللّه ويسمعه الملائكة فيحدّثون به أنفسهم لثبات دينهم أي: ارجوا إلى نعمكم ومساكنكم من العيش والرفاهية والحال الناعمة، والإتراف إبطار النعمة وهي الترفّه ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ فهو تهكّم بهم وتوبيخ لهم أي: ارجعوا إلى مساكنكم حتّى تسألكم الناس في أنديتكم لتعاونوهم في نوازل الخطوب ويستعينوكم بآرائكم أو يسألكم الوافدون عليكم الطامعون فيكم إمّا لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس طلباً للثّناء أو للبخل فقيل لهم ذلك تهكّما إلى تهكّم.

فلمّا رأوا وشاهدوا العذاب ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ على سبيل التندّم إنّا ظلمنا أنفسنا حيث كذّبنا رسل ربّنا.

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ ولم يزالوا يقولون يا ويلنا وتلك إشارة إلى هذه الكلمة، الويل أي: يا ويل احضر فهذا وقت حضورك ويكرّرون هذه الكلمة فلم ينفعهم ذلك إلى أن ﴿جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ محصوداً مقطوعاً ﴿خَامِدِينَ﴾ ساكني الأنفاس والحركات ميّتين كما تخمد النار إذا طفئت.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ

١ـ سورة ص: ٤٢.

فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

وجه التعلّق في هذه الآية بما قبلها أنّه لمّا بيّن إهلاك القوم لأجل تكذيبهم بيّن في هذه الآية على أنّ ذلك الفعل عدلاً منه ومجازاة على فعلهم فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما سوّينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب كما يفعل الجبابرة سقوفهم وفروشهم للّهو وإنّما سوّيناها لفوائد دينيّة ودنيويّة لتفكّرون في خلق السماوات والأرض وتنتفعون منها منافع.

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ اللهو: المرأة. وقيل: هو الولد. وقيل: اللهو داعي الهوى. والمعنى: لو اتّخذنا نساء أو ولداً لاتّخذناه من أهل السماء ولم نتّخذه من أهل الأرض أي: من الروحانيّين لا من الجسمانيّين لأنّ ذلك أليق بحضرتنا. وأصل اللهو معناه الجماع. قال امرؤ القيس:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنّني كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي

وتأويل الآية: لمّا قالت في المسيح وأمّه ما قالت قال الله عزّ وجلّ: لو أردنا أن نتّخذ صاحبة وولداً كما يقولون لاتّخذنا ذلك من عندنا ولم نتّخذ من عندكم ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ هذا الفعل وقيل: «إن» نافية وهذا البيان ردّ لمن قال بولادة المسيح وعزير.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ وكلمة «بل» إضراب عن اتّخاذ اللهو واللّعب وتنزيه من اللهو لذاته بل من عادتنا أن نغلب اللعب بالجدّ وندحض الباطل بالحقّ. واستعار لفظ القذف والدمغ بيانا لإبطال ما تصوّروا في اتّخاذ الولد فجعل الحقّ كالجسم الصلب مثل كالصخرة وقذف به على

جرم رخو أجوف أي: يبطل اللهو الباطل المدفوع بالرمي الشديد بالجرم الصلب كالصخرة وهو الحقّ فإذا الباطل زاهق وذاهب بالكلّية ويؤدّي الأمر إلى زهوق روح الباطل واضمحلاله.

﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: ولكم العذاب الشديد ممّا تصفون اللّه به من اتّخاذ الولد والصاحبة وتكذيب الرسول والقرآن ونسبة السحر إلى القرآن وأمثاله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لمّا حكى كلام الطاعنين في النبوّة وتمرّدهم عن الطاعة ذكر في هذه الآية أنّه تعالى منزّه عن طاعتهم وأنّه المالك لجميع المخلوقات ويعبدوه من هو أطوع والملائكة مع جلالتهم خائفون مطيعون له فالبشر مع نهاية الضعف أولى أن يطيعوه وكلّ المكلّفين في السماء والأرض عبيده ويجب على الكلّ الانقياد لحكمه.

والمراد من الآية نفي النبوّة عن الملائكة بقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ أي: لا يأنفون لأنّ أحداً لا يستعبد ابنه ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يعيون ولا يملّون ولا ينقطعون، مأخوذ من الحسر وهو البعير المنقطع بالإعياء.

﴿يُسَبِّحُونَ﴾ اللّه وينزّهونه عمّا لا يليق على الدوام ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ ولا يضعفون عنه. قال عبد اللّه بن الحرث بن نوفل: قلت لكعب الأحبار: أرأيت قول اللّه: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ ثمّ قال: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾[١] أفلا تكون تلك الرسالة مانعة لهم عن هذا التسبيح؟ وأيضاً قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾[٢] فكيف يشتغلون باللعن حال اشتغالهم بالتسبيح؟ فقال كعب: التسبيح لهم كالتنفّس لنا فكما أنّ التنفّس لنا

١ـ سورة فاطر: ١.

٢ـ سورة البقرة: ١٦١.

لا يمنعنا من الكلام فكذلك اشتغالهم بالتسبيح لا يمنعهم سائر الأعمال.

فإن قيل: هذا القياس غير صحيح لأنّ الاشتغال بالتنفّس لا يمنع من الكلام وآلة التنفّس غير آلة الكلام فيمكن الجمع ولكنّ التسبيح واللعن فهما من جنس الكلام واجتماعهما محال.

والجواب أنّه لا يستبعد أن يخلق الله لهم ألسنة كثيرة ببعضها يسبّحون وببعضها يلعنون.

أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾

اعلم أنّ الكلام من أوّل السورة إلى هاهنا كان في النبوّة وما يتّصل بها سؤالا وجواباً فشرع سبحانه في بيان التوحيد ونفي الأنداد.

«أم» هاهنا هي المنقطعة الكائنة بمعنى «بل» للإنكار لما بعدها وليست المعادلة بهمزة الاستفهام حتّى يكون مثل: أزيد قائم أم عمرو أي: لم يتّخذوا

آلهة من الأرض يحيون الأموات يعني: أنّ هؤلاء إذا كانوا لا يقدرون على إحياء الأموات ويميتوا ويضرّوا وينفعوا فأيّ عقل يجوّز اتّخاذهم آلهة؟

﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ نسبتها إلى الأرض للإيذان بأنّها الأصنام الّتي تعبد في الأرض منحوتة من بعض الحجارة أو معمولة من بعض جواهر الأرض، وقرئ ينشرون بفتح الياء يقال: أنشر اللّه الموتى ونشرها.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ و«إلّا» هاهنا بمعنى «غير» أي: لو كان يتولّاهما شيء غير اللّه الواحد الّذي هو فطرهما لفسدتا ولا يجوز أن يكون بمعنى الاستثناء لأنّه لو حمل على الاستثناء لكان المعنى: لو كان فيهما آلهة ليس معهم اللّه لفسدتا وهذا يوجب بطريق المفهوم أنّه لو كان فيهما آلهة معهم اللّه أن لا يحصل الفساد وذلك باطل لأنّه لو كان فيهما آلهة إلّا اللّه فسواء لم يكن اللّه معهم أو كان اللّه فالفساد لازم فيجب أن يكون معناه غيره.

ذكر سبحانه الدليل على توحيده وهذا هو دليل التمانع الّذي بنى عليه المتكلّمون مسألة التوحيد وتقرير ذلك أنّه لو كان مع اللّه إله آخر لكانا قديمين والقدم من أخصّ الصفات فالاشتراك فيه يوجب التماثل فيجب أن يكونا قادرين عالمين حيّين، ومن حقّ كلّ قادرين أن يصحّ كون أحدهما مريداً لضدّ ما يريد الآخر من إماتة وإحياء أو تحريك أو تسكين أو إفقار أو إغناء فإذا فرضنا ذلك فلا محالة إمّا أن يحصل مرادهما وذلك محال وإمّا أن لا يحصل مرادهما فينتقض كونهما قادرين وإمّا أن يقع مراد أحدهما ولا يقع مراد الآخر فينتقض كون من لم يقع مراده من غير وجه منع معقول قادراً فإذا لا يجوز الإله إلّا واحداً.

ولو قيل: إنّهما لا يتمانعان لأنّ ما يريد أحدهما يكون حكمة فيريده الآخر بعينه. فالجواب أنّ كلامنا في صحّة التمانع لا في وقوع التمانع وصحّة

التمانع يكفي في الدلالة لأنّه يدلّ على أنّه لابدّ من أن يكون أحدهما متناهي المقدور فإذا كان كذلك فلا يجوز أن يكون إلهاً.[١]

قال الرازيّ وذكر بعض الوجوه الإقناعيّة[٢]:

لو كان كلّ واحد من الإلهين قادراً على ما لا نهاية له امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر بل لابدّ وأن يستويا في القدرة وإذا استويا في القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثاني وإلّا لزم ترجيح الممكن من غير مرجّح.

وأيضاً إذا قدّرنا إلهين لوجب أن يكون كلّ واحد منهما مشاركاً للآخر في الإلهيّة ولابدّ وأن يتميّز كلّ واحد منهما عن الآخر بأمر مّا وإلّا لما حصل التعدّد فما به الممايزة إمّا أن يكون صفة كمال أولا يكون فإن كان صفة كمال فالخالي عنه يكون خالياً عن الكمال فيكون ناقصاً والناقص لا يكون إلهاً وإن لم يكن صفة كمال فالموصوف به يكون موصوفاً بما لا يكون صفة كمال فيكون ناقصاً. ويمكن أن يقال: ما به الممايزة إن كان معتبراً في تحقّق الإلهيّة فالخالي عنه لا يكون إلهاً وإن لم يكن معتبراً في الإلهيّة لم يكن الاتّصاف به واجباً فيفتقر إلى المخصّص فالموصوف به مفتقر ومحتاج.

ثم هاهنا دليل آخر وهو أنّا لو فرضنا إلهين لكان لابدّ وأن يكونا بحيث يتمكّن الغير من التميّز بينهما لأنّه إن تساويا في كلّ الجهات لما حصل الاثنينيّة، والأمتياز لا يحصل إلّا بالتباين في المكان أو في الزمان أو في الوجوب والإمكان وأمثالها وكلّ ذلك على الإله محال فيمتنع حصول الأمتياز.

والرابع من الدليل أنّ أحد الإلهين إمّا أن يكون كافياً في تدبير العالم أولا

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٨٠.

٢ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١٥١.

يكون فإن كان كافياً كان الثاني ضائعا وغير محتاج إليه وذلك نقص لأنّ وجود المهمل ناقص والناقص لا يكون إلهاً.

والخامس: أنّ العقل يقتضي ويحكم باحتياج المحدث إلى الفاعل ولا امتناع في كون الفاعل الواحد مدبّراً لكلّ العالم فأمّا ما وراء ذلك فليس عدد أولى من عدد فيفضي ذلك إلى وجود أعداد لا نهاية لها وذلك محال فالقول بوجود الآلهة محال.

والسادس: أنّ أحد الإلهين إمّا أن يقدر على أن يستر شيئاً من أفعاله عن الآخر أو لا يقدر فإن قدر لزم أن يكون المستور عنه جاهلاً وإن لم يقدر لزم كونه عاجزاً.

والسابع: أنّا لو فرضنا معدوماً ممكن الوجود ثمّ قدّرنا إلهين فإن لم يقدر واحد منهما على إيجاده كان كلّ واحد منهما عاجزاً والعاجز لا يكون إلهاً وإن قدر أحدهما دون الآخر فهذا الآخر لا يكون إلهاً وإن قدراً جميعاً فإمّا أن يوجداه بالتعاون فيكون كلّ واحد منهما محتاجاً إلى إعانة الآخر وإن قدر كلّ واحد على إيجاده بالاستقلال فإذا أوجده أحدهما فإمّا أن يبقى الثاني قادراً عليه وهو محال لأنّ إيجاد الموجود محال وإن لم يبق فحينئذ يكون الأوّل قد أزال قدرة الثاني وعجزه فيكون مقهوراً تحت تصرّفه فلا يكون إلهاً.

فإن قيل: الواحد إذا أوجد مقدوره فقد زالت قدرته عنه فيلزمكم العجز.

قلنا: الواحد إذا أوجده فقد نفذت فنفاذ القدرة لا يكون عجزاً أمّا الشركة فإنّه لمّا نفذت قدرته لم يبق لشريكه قدرة في إيجاده البتّة فزالت قدرة الثاني بسبب قدرة الأوّل وإيجاده فيكون إيجاد الأوّل تعجيزاً للثاني.

والثامن: وهو أن نعيّن جسماً مثلاً ونقول: هل يقدر كلّ واحد منهما

على خلق الحركة فيه بدلا عن السكون وبالعكس فإن لم يقدر كان عاجزاً وإن قدر فنقول: إذا خلق أحدهما فيه حركة امتنع على الثاني خلق السكون فالإله الأوّل أزال قدرة الثاني وعجزه.

والتاسع: أنّ الشركة صفة نقص والتوحيد صفة الكمال وكلّما كان الملك أعظم كان النقص في الشركة أعظم فإن أراد أحد الإلهين استخلاص الملك لنفسه مثلاً فإن قدر على الثاني كان المغلوب فقيرا عاجزاً فلا يكون إلهاً وإن لم يقدر فالأوّل عاجز وناقص ومسلوب القدرة ولا يصلح أن يكون إلهاً.

والعاشر: وهو أنّا إذا قدّرنا إلهين لكان إمّا أن يحتاج كلّ واحد منهما إلى الآخر أو يستغني كلّ واحد منهما عن الآخر أو يحتاج أحدهما إلى الآخر والآخر يستغني عنه فإن كان الأوّل كان كلّ واحد منهما ناقصاً لأنّ المحتاج ناقص وإن كان الثاني كان كلّ واحد منهما مستغنياً عنه والمستغنى عنه ناقص، لأنّ وجوده مهمل ولا ضرورة ولا فائدة له لأنّ الإله هو الّذي يستغنى به ولا يستغنى عنه وإن احتاج أحدهما إلى الآخر من غير عكس كان المحتاج ناقصاً والمحتاج إليه هو الإله.

واعلم أنّ هذه الوجوه المذكورة واحد من ألف بعضها براهين قطعيّة في إثبات التوحيد وبعضها إقناعيّة. وأما الدلائل السمعيّة فأكثر من أن تحصى كقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾[1]:

فالأوّل: هو الفرد السابق بلا مسبوق فيكون أزلياً فوجب أن لا يكون له شريك.

والثاني: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[2] فالنصّ يقتضي أن

١ـ سورة الحديد: ٣.

٢ـ سورة الأنعام: ٥٩.

لا يكون أحد سواه عالماً بالغيب ولو كان له شريك لكان عالماً بالغيب وهو خلاف النصّ.

والثالث: أنّ الله صرّح بكلمة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في سبعة وثلاثين موضعاً من كتابه وصرّح بالوحدانيّة في مواضع نحو قوله: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[1] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[2].

والرابع: قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[3] حكم بهلاك كلّ ما سواه ومن عدم بعد وجوده لا يكون قديماً ومن لا يكون قديماً لا يكون إلهاً.

والخامس: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4] ولو كان له شريك لكان ذلك الشريك جالباً للنّفع ودافعاً للضرر.

والسادس: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾[5] وهذا الحصر يدلّ على نفي الشريك.

والسابع: قوله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[6] فلو وجد الشريك لم يكن خالقاً.

واعلم أنّه من طعن في دلالة التمانع في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فسّر الآية بأنّ المراد لو كان في السماء والأرض آلهة يقول بإلهيّتها عبدة الأوثان لزم فساد العالم لأنّها جمادات لا يقدر على تدبير العالم

١ـ سورة النحل: ٢٢.

٢ـ سورة الإخلاص: ١.

٣ـ سورة القصص: ٨٨.

٤ـ سورة الأنعام: ١٧.

٥ـ سورة الأنعام: ٤٦.

٦ـ سورة الرعد: ١٦؛ وسورة الزمر: ٦٢؛ سورة غافر: ٦٢.

فيلزم فساد العالم قالوا: وهذا أولى لأنه تعالى حكى عنهم قوله: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾[1] ثمّ ذكر الدليل على فساد هذا القول فوجب أن يختصّ الدليل به وفي هذا القدر من البيان الكفاية وبالله التوفيق.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ لمّا أثبت الدلالة القاطعة على التوحيد أمر أنّ التسبيح لائق بالخالق القادر ولا يجوز العبادة لغيره وإنّما خصّ العرش بالذكر لأنّه أعظم المخلوقات ومن قدر على الأعظم فبالأولى أن يخلق ما دونه وكيف يجوز للعاقل أن يجعل الجماد الّذي لا يعقل شريكاً في الإلهيّة لخالق العرش العظيم؟

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ وجه تعلّق الآية بما قبلها أنّ طلب اللمّيّة في أفعال الله بعد معرفة توحيده وقدرته غلط وذلك أنّ الثنويّة والمجوس وهم الّذين أثبتوا للّه شريكاً وقالوا: رأينا في العالم خيراً وشراً ولذّة وألما وحياة وموتا وصحّة وسقماً وفاعل الخير خيّر وفاعل الشرّ شرير ويستحيل أن يكون الفاعل الواحد خيراً وشريراً معا فلابدّ من فاعلين ليكون أحدهما فاعلاً للخير والآخر فاعلاً للشرّ.

وحاصل هذه الشبهة أنّ مدبّر العالم لو كان واحداً لما خصّ هذا بالحياة والصحّة والغنى وخصّ ذلك بالموت والألم والفقر فلمّا كان مدار القائلين بالشريك على طلب اللمّيّة لا جرم بيّن سبحانه بعد بيان الدلائل على التوحيد أنّه سبحانه غير مسؤول عن أفعاله وغيره مسؤول عن فعله لا يقال للحكيم: لم فعلت؟ وبم فعلت؟ لأنّه العالم بالأصلح وعالم بقبح القبائح وغنيّ عنها ومنزّه منها ومن كان كذلك فإنّه يستحيل أن يفعل القبيح، وإذا عرفنا إجمالاً أنّ كلّ ما يفعله على وفق الحكمة والصواب فلم يجز للعبد الملوك أن يقول

١ـ سورة الأنبياء: ٢١.

لمولاه: لم فعلت هذا؟

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦ ءَالِهَةً﴾ كرّر هذا البيان استعظاماً لكفرهم وعقيدتهم الفاسدة استفهام إنكار وتوبيخ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿هَاتُوا﴾ حجّتكم على صحّة اتّخاذكم وفعلكم قل لهم يا محمّد: ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ بما يلزمهم من الأحكام ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ فيه من الأمم من أحوالهم ممّن نجا بالإيمان وهلك بالكفر.

وقال أبو عبد الله عليه السلام: يعني: «**بذكر من معي من معه وما هو كائن ويعني: بذكر من قبلي ما قد كان**».[1]

وقيل: إنّ معناه: في القرآن خبر من معي على ديني ممن يتّبعني إلى يوم القيامة بمالهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية وذكر ما أنزل الله من الكتب قبلي فانظروا هل في واحد من الكتب أنّ الله أمر باتّخاذ إله سواه؟

قال الزمخشري: «ذكر» منوّناً و«من» مفعول للمصدر بمعنى الفاعل.

وقال الزجّاج: معناه قل يا محمّد لهم: هاتوا برهانكم بأنّ رسولاً من الرسل أتى أمّته بأنّ لهم إلهاً غير الله فهل في ذكر من معي وهو القرآن وذكر من قبلي كالتوراة والإنجيل إلّا توحيد الله؟ ويدلّ على صحّة هذا قوله فيما بعد. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ﴾. فلمّا توجّهت الحجّة عليهم ذمّهم على جهلهم فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن التفكّر وإنّما خصّ الأكثر منهم لأنّ فيهم من آمن.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمّد ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ و«من» زائدة ﴿إِلَّا

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٨٠؛ والصافي، ج ٣، ص ٣٣٥.

نُوحِىٓ إِلَيۡهِ﴾ نحن أو يوحي إليه الله البتّة بأنّه لا معبود على الحقيقة إلّا أنا فوجّهوا العبادة إليّ دون غيري.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ يعني: من الملائكة، نزّه نفسه عن ذلك. نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله وأضافوا إلى ذلك أنّه تعالى صاهر الجنّ، والمراد بالجنّ هنا الملائكة على ما حكى الله عنهم فقال: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗا﴾ فنزّه نفسه بقوله سبحانه لأنّ الولد لابدّ وأن يكون شبيهاً بالوالد فلو كان لله ولد لأشبهه من بعض الوجوه ثمّ لابدّ وأن يخالفه من بعض الوجوه وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيقع التركيب في ذات الله وكلّ مركّب ممكن فاتّخاذ الولد يوجب كونه ممكناً غير واجب وذلك يخرجه عن حدّ الإلهيّة ويدخله في حدّ العبوديّة.

﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ مفضّلون يتّبعونه في أوامره ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ لا يقولون شيئاً حتّى يقوله أي: يأمر به ولا يسبق قولهم قوله وقولهم تابع لقوله وأمره ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به.

ثمّ ذكر ما يجري مجرى السبب لهذه الطاعة فقال: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ أي: لمّا علموا كونه سبحانه عالماً بجميع المعلومات وعلموا كونه عالماً بظواهرهم وبواطنهم فكان ذلك داعيا لهم إلى نهاية الخضوع والعبوديّة. قال ابن عبّاس: (يعلم ما قدّموا وما أخّروا من أعمالهم). وقيل: ما بين أيديهم الآخرة وما خلفهم الدنيا. وقيل: على العكس. وقيل: المعنى: يعلم ما كان قبل خلقهم وما يكون بعد خلقهم وهو محيط بهم.

﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ﴾ الملائكة ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ الله دينه. وقيل: إلّا لمن رضي الله عنه. وقيل: إنّهم أهل شهادة أن لا إله إلّا الله. وقيل: هم المؤمنون

المستحقّون للثواب وحقيقة المعنى أنّهم لا يشفعون إلّا لمن ارتضى اللّه أن يشفع فيه فيكون في معنى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾[١].

وفي «الخصال» عن الصادق عليه السلام: **«وأصحاب الحدود فسّاق لا مؤمنون ولا كافرون لا يخلدون في النار ويخرجون منها يوماً والشفاعة جائزة لهم وللمستضعفين إذا ارتضى الله دينهم»**.[٢]

وفي «التوحيد» عن الكاظم عليه السلام عن آبائه عليهم السّلام عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله قال: **«إنّما شفاعتي لأهل الكبائر فأمّا المحسنون منهم فما عليهم من سبيل»**. قيل: يا ابن رسول اللّه كيف يكون الشفاعة لأهل الكبائر واللّه يقول: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ ومن ركب الكبيرة لا يكون مرتضى؟ فقال عليه السلام: **«ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلّا ساءه ذلك وندم عليه»** وقال النبي صلى الله عليه وآله: **«كفى بالندم توبة»**. وقال عليه السلام: **«من سرّته حسنة وساءته سيّئة فهو مؤمن فمن لم يندم على ذنب ارتكبه فليس بمؤمن ولم يجب له الشفاعة وكان ظالماً والله تعالى ذكره بقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾»**[٣] فقيل له: يا ابن رسول اللّه وكيف لا يكون مؤمناً من لم يندم على ذنب يرتكبه؟ فقال عليه السلام: **«ما من أحد يرتكب كبيرة من المعاصي وهو يعلم أن سيعاقب عليها إلّا ندم على ما ارتكب ومتى ندم كان تائباً مستحقّاً للشفاعة ومتى لم يندم عليها كان مصرّاً والمصرّ لا يغفر له لأنّه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب ولو كان مؤمناً بالعقوبة لندم»** وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: **«لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار»**، وأمّا ما قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ فإنّهم لا يشفعون إلّا لمن ارتضى اللّه دينه والدين الإقرار بالجزاء

١ــ سورة البقرة: ٢٥٥.

٢ــ الخصال، ص ٦٠٨؛ وبحار الأنوار، ج ٦٩، ص ١٥٩.

٣ــ سورة غافر: ١٨.

على الحسنات والسيّئات فمن ارتضى الله دينه ندم على ما ارتكبه من الذنوب لمعرفته بعاقبته في القيامة.[١]

﴿وَهُم﴾ أي: الملائكة ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ أي: من خشيتهم منه تعالى مشفقون وخائفون وجلون من التقصير في عبادته، فأضيف المصدر إلى المفعول.

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: من هؤلاء الملائكة من يقل منهم إنّي إله يحقّ لي العبادة من دون الله ﴿فَذَٰلِكَ﴾ القائل ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ وهذا لا يدلّ على أنّهم قالوا ذلك وما قالوه، وهو قريب من قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٢] وقيل: المراد إبليس لأنّه الّذي دعا الناس إلى عبادته وهذا يصحّ إذا كان إبليس من الملائكة وعند الأكثر أنّه ليس من الملائكة.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ في الآية بيان أنّ الإله القادر على مثل هذه المخلوقات العجيبة العظيمة الغريبة كيف يجوز في العقل أن يعدل عن عبادته إلى عبادة مخلوق حجر لا يضرّ ولا ينفع؟ وذكر ستّة أنواع من الدلائل:

النوع الأوّل: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ والمراد من الرؤية هاهنا العلم أي: العقل يحكم بأنّ الأجسام يصحّ عليها الرتق والفتق يعني: الاجتماع وصالحة لقبول الاجتماع والافتراق باختصاصها فالاجتماع دون الافتراق أو بالعكس يستدعي مخصّصاً وقد فسّر الخاصّة الرتق في السماء والأرض بأن لا يمطر السماء ولا ينبت الأرض ففتقنا هما أي: أمطرنا من السماء وأنبتنا من الأرض.

في «الكافي» عن الباقر عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال: «**لعلّك تزعم أنّهما**

١ـ التوحيد، ص ٤٧؛ ووسائل الشيعة الإسلامية، ج ١١، ص ٢٦٦.

٢ـ سورة الزمر: ٦٥.

كانتا ملتزقتان ففتقت إحداهما عن الاخرى؟» فقال: نعم. فقال: «استغفر ربّك فقوله «كانتا رتقاً» يقول: كانت السماء لا ينزل بالمطر وكانت الأرض لا تنبت الحبّ فلمّا اهبط آدم إلى الأرض وتاب الله عليه أمر السماء فتقطّرت بالغمام ثمّ أمرها فأرخت عزاليها[1] وأمر الأرض فأنبتت النبات فكان ذلك رتقها وهذا فتقها فكانت السماء خضراء على لون الماء الأخضر والأرض غبراء على لون الماء العذب وكانتا مرتوقتين لم تمطر ولم تنبت ففتقهما بالمطر والنباته واليهود والنصارى كانوا عالمين بذلك فإنّه جاء في التوراة أنّ الله خلق جوهرة ثمّ نظر إليها بعين إلهيته فصارت ماء ثمّ خلق السماوات والأرض منها وفتقهما وكان بين عبدة الأوثان وبين اليهود صداقة بسبب الاشتراك في عداوة محمّد ﷺ فاحتجّ الله عليهم بهذه الحجّة بناء على قبولهم قول اليهود».[2]

واختلفوا في المراد من الرتق والفتق: قيل: إنّ المعنى: كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ففصّل اللّه بينهما ورفع السماء إلى حيث هي وأقرّ الأرض. وهذا القول يشعر بأنّ جعل الأرض على وضعها مقدّم على السماء لأنّه تعالى لمّا فصّل بينهما ترك الأرض حيث هي وأصعد الأجزاء السماويّة.

وقيل: المراد من الرتق الاستواء والصلابة ففتقهما اللّه أمّا السماء بالمطر والأرض بالنبات والزرع والشجر. والدليل على هذا المعنى قوله بعد ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وذلك لا يليق إلّا وللماء تعلّق بما تقدّم من المعنى.

وقيل: المراد بالرتق حال عدم الأشياء قبل الوجود والفتق الإيجاد والظهور كقوله: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فأخبر سبحانه عن الإيجاد بلفظ الفتق وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ الرتق لأنّ العدم نفي محض وليس فيه

١ـ جمع العزلاء: مصب الماء من القربة.

٢ـ الكافي، ج ٨ ص ٩٥؛ وبحار الأنوار، ج ٥٤، ص ١٣.

ذرات مميّزة وكأنّه أمر واحد بسيط فعند الوجود والتكوّن يتميّز بعضها عن بعض وينفصل، فبهذا الطريق يحسن إطلاق العدم على الرتق والوجود على الفتق مجازاً.

النوع الثاني: من الدلائل الستّة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ وجعلنا إمّا أن يتعدّى إلى واحد فالمعنى: خلقنا كلّ ذي روح وحيوان من الماء وهذا كقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾[1] وإذا تعدّى إلى مفعولين فالمعنى: صيّرنا كلّ شيء حيّاً بسبب من الماء لابدّ له منه، فحينئذ «من» في هذا الكلام مثل «من» في كلامه: «ما أنا من دد ولا الدد مني» وعلى هذا يكون «حيّاً» بالنصب على المفعول الثاني.

فإن قيل كيف قال: وخلقنا من الماء كلّ حيوان وقد قال: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾؟[2]

والجواب: اللفظ وإن كان عامّاً إلّا أنّ القرينة المخصّصة قائمة والدليل إذا كان مشاهداً محسوساً فخروج الجنّ والملائكة وعيسى لا يخرج الدليل عن كونه دليلاً لأنّ الكفّار لم يروا شيئاً من ذلك ولا يختصّ بالحيوان كونه من الماء بل يدخل فيه النبات والأرض أما ترى يقول سبحانه: ﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾؟[3]

وبالجملة فالماء الّذي بسببه حياة كلّ حيوان وشيء من ينزله من السماء غير اللّه؟ أفلا يؤمنون ويصدّقون بتوحيده ويدعون الشرك والتثليث؟

النوع الثالث من الدلائل الستة:

١ـ سورة النور: ٤٥.

٢ـ سورة الحجر: ٢٧.

٣ـ سورة الروم: ٥٠.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

الجبال الراسية أي: الراسخة في الأرض كراهة أن تميل بهم لأنّ الأرض بسطت على الماء فكانت تتكفئ بأهلها كما تتكفئ السفينة فأرساها اللّه بالجبال الثقال لئلّا تميل وتنقلب بأهلها فحذف «لا» لعدم الالتباس لوضوح المعنى وحذف لام الأولى من «لئلّا» وبقيت «أن» والجبال أثبت الأرض عن الحركة والاضطراب والتمايل وحصول الاستقرار.

النوع الرابع من شواهد القدرة والدلائل: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ الفجّ الطريق الواسع أي: جعل في الجبال طرقاً واسعة حين خلقها على تلك الصفة. وقيل: الضمير في «فيها» راجعة إلى الأرض، وفي رواية عطا عن ابن عبّاس وعن ابن عمر: كانت الجبال منضمّة فلمّا أغرق اللّه قوم نوح فرّقها فجاجا وجعل فيها طرقاً لكي يهتدوا إذ الشكّ لا يجوز على اللّه والمراد ليهتدوا بأمور معاشهم ويهتدوا إلى معرفة القادر الخالق على وجه الحكمة.

وهذه الآية دليل على أنّ اللّه أراد من المكلّفين الاهتداء والخير لهم والاهتداء إلى المعاش والمعاد يشتركان في مفهوم واحد وهو أصل الاهتداء فيحمل اللفظ على ذلك المشترك فتكون الآية متناولة للأمرين ولا يلزم منه كون اللفظ المشترك مستعملا في مفهوميه معاً.

النوع الخامس قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ سمّي السماء سقفا لأنها للأرض كالسقف للبيت سمّي محفوظاً من الوقوع والسقوط وقيل: محفوظاً من الشياطين بالشهب الّتي ترمى بها قال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾[1] وهم عن آياتها من العجائب في حركاتها وآثارها ومطالعها ومغاربها واختلاف أوضاعها من الأدلّة والعبر ﴿مُعْرِضُونَ﴾ وغافلون.

النوع السادس: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ مثلاً لو كان يخلق سبحانه السماء والأرض ولم يخلق الشمس والقمر ليظهر بهما الليل والنهار ويظهر بهما من المنافع بتعاقب الحرّ والبرد لم تتكامل النعم على عباده وإنّما حصلت وكملت النعم عليهم بسبب حركاتها في أفلاكها ولهذا قال: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يجرون ويدورون من الشمس والقمر والنجوم ومع هذا لا يتدبّرون ولا يتفطّنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيويّة كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها وحياة الأرض بأمطارها وكونها آية بيّنة على وجود الخالق ووحدانيّته، معرضون وغافلون.

قال صاحب «الكشّاف»: التنوين في «كلّ» عوض عن المضاف إليه أي: كلّهم في فلك يسبحون والجمع باعتبار أنّ النجوم داخلة فيها والنجم باعتبار وجود الليل والجمع بالواو والنون لا يكون إلّا للعقلاء لأنّها موصوفة بصفة العقلاء وهو الحركة والسياحة والجري.[2]

واختلف الناس في حركات الكواكب، والوجوه المتصوّرة فيها ثلاثة: فإنّه إمّا أن يكون الفلك ساكناً والكواكب تتحرّك فيه كحركة السمك في الماء

١ـ سورة الحجر: ١٧.

٢ـ الكشاف، ج ٣، شرح ص ٣٢٤.

الراكد وإمّا أن يكون الفلك متحرّكاً والكواكب تتحرك فيه أيضاً إمّا مخالفاً لجهة حركته أو موافقاً لجهته إمّا بحركة مساوية لحركة الفلك في السرعة والبطء أو مخالفة. وإمّا أن يكون الفلك متحرّكاً والكواكب ساكناً.

أمّا الرأي الأوّل: فقالت الفلاسفة: إنّه باطل لأنّه يوجب خرق الأفلاك وهو محال. وأمّا الرأي الثاني: فحركة الكواكب إن فرضت مخالفة لحركة الفلك فذاك أيضاً يوجب الخرق وإن كانت حركتها إلى جهة الفلك فإن كانت مخالفة في السرعة والبطء لزم الانخراق وإن استوتا في الجهة والسرعة والبطء فالخرق أيضاً لازم لأنّ الكواكب يتحرّك بالعرض بسبب حركة الفلك فتبقى حركته الذاتيّة زائدة فيلزم الخرق فلم يبق إلّا القسم الثالث وهو أن يكون الكواكب مغروزا في ثخن الفلك واقفاً فيه والفلك يتحرّك فيتحرّك الكواكب بسبب حركة الفلك.

واعلم أنّ مدار هذا الكلام على امتناع الخرق على الأفلاك وهو باطل بل الحقّ أنّ أقسام الثلاثة ممكنة واللّه تعالى قادر على كلّ الممكنات وهذه المحالية الّتي فرضوها الفلاسفة بمعزل عن القدرة وليس لنا طريق إلى العلم بهذه الأوضاع إلّا السمع والّذي يدلّ عليه القرآن أن تكون الأفلاك واقفة والكواكب تكون جارية فيها كما تسبح السمكة في الماء.[١]

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ المعنى: لمّا استدلّ بالدلائل المذكورة من النعم وهي أصول النعم أتبعه ونبّهه على أنّ هذه النعم لا تدوم ولا تبقى بل لا يبقى من خلقت الدنيا والأفلاك له وبسببه بل خلقها للابتلاء والامتحان فقال: وما جعلنا لبشر من قبلك الخلود والبقاء.

سبب النزول: قال مقاتل: إنّ ناسا كانوا يقولون: إنّ محمّداً ﷺ لا

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١٦٨؛ وانظر: ج ٥٥، ص ١٢٩.

يموت فنزلت الآية. وقيل: كانوا يقولون: إنّه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله عنه الشماتة بأن قضى الله أن لا يخلد في الدنيا بشراً فلا أنت ولا هم إلّا عرضة للموت أفإن متّ أنت أيبقى هؤلاء وما جعلنا في حكمنا وتدبيرنا لبشر من قبلك يا محمّد الدوام والبقاء في الدنيا.

﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾ على ما يتوقّعونه وينتظرونه فهم الباقون يعني: مشركي العرب حتّى قالوا: نتربّص بمحمّد ريب المنون والحاصل فأيّ فائدة لهم؟

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ لابدّ لكلّ نفس أن يدخل عليه الموت وتخرج عن كونها حيّة. واعلم أنّ هذا العموم مخصوص فإنّه تعالى نفس لقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾[1] مع أنّ الموت لا يجوز عليه وكذلك الجمادات لها نفوس وهي لا تموت ولو أنّ في هذا الكلام الأخير تأمّلاً بأنّ الجمادات لا تموت بل يمكن إعدامها بموتها وعلى الجملة فالعامّ المخصّص مستثنى وحجّة ويبقي معمولاً به فيما عداه.

وذلك يبطل قول الفلاسفة في أنّ الأرواح البشريّة والعقول المفارقة والنفوس الفلكيّة لا تموت. والذوق هاهنا إدراك خاصّ من لازم الموت وإعدام الحياة ولعلّ له مرارة خاصّة من شدّة ألم النزع فيكون من المذاقات حقيقة من الآلام العظيمة الّتي من مقدّمات حصول الموت قبل دخوله في الوجود.

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ والابتلاء لا يتحقّق إلّا مع التكليف فالآية دالّة على حصول التكليف، ويمتحن سبحانه المكلّف بأمرين: أحدهما: ما سمّاه خيراً وهو نعم الدنيا من الصحّة واللذّة والسرور والتمكّن من المرادات. والثاني: ما سمّاه شراً وهو المضارّ الدنيويّة من الفقر والآلام والشدائد النازلة

١ـ سورة المائدة: ١١٦.

على المكلّفين، والعبد يتردّد بين هاتين الحالتين لكي يشكر على المنح ويصبر ويتحمّل في المحن فيعظم ثوابه إذا قام بما يلزم وإنّما سمّى ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من أعمال العباد العاملين قبل وجودهم. قال الزمخشري: «فتنة» مصدر تأكيد لقوله «لنبلوكم» من غير لفظه.[١]

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ واحتجّت التناسخيّة بقوله: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فإنّ الرجوع إلى موضع مسبوق بالكون فيه وهذا الاستنباط غلط لأنّ المراد من الرجوع الرجوع والمردّ إلى حكمته سبحانه ومحاسبته ومجازاته وليس المعنى أنّهم كانوا قبل دخولهم في هذا العالم ثمّ رجعوا إليه ومن المعلوم ضرورة أنّهم كانوا مسبوقين بالعدم ثمّ وجدوا فمن أين ثبت أنّهم كانوا ثمّ رجعوا؟ كما أنّ المجسّمة قالوا بأنّا أجسام فرجوعنا إلى الله يقتضي كون الله جسماً وهذا غلط أفحش من الأوّل لأنّ الجسم محتاج إلى حيّز وتركيب واحتياج وكلّه منزّه عنه تعالى الله عن التجسّم والتركيب والاحتياج.

وبالجملة لابدّ للإنسان المكلّف أن يمتحن بالخير والشرّ. في «المجمع» عن الصادق عليه السلام: **«إنّ أمير المؤمنين عليه السلام مرض فعاده إخوانه فقالوا: كيف نجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: بشرّ، قالوا: ما هذا كلام مثلك قال: إنّ الله يقول: ونبلوكم بالشرّ والخير فالخير الصحّة والغنى والشرّ المرض والفقر».**[٢]

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ

١ـ الكشاف، ج ٢، ص ٥٧٢؛ وجوامع الجامع، ج ٢، ص ٥٢٢.

٢ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٨٥؛ وبحار الأنوار، ج ٥، ٨٥.

وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

قيل: نزلت في أبي جهل مرّ به النبي ﷺ وكان أبو سفيان مع أبي جهل فقال أبو جهل: هذا نبيّ بني عبد مناف، فقال أبو سفيان: وما ننكر أن يكون نبيّاً في بني عبد مناف فسمع النبي ﷺ قولهما فقال لأبي جهل: **«ما أراك تنتهي حتّى ينزل بك ما نزل بعمّك الوليد بن المغيرة»**. فنزلت الآية وخاطب نبيّه: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا﴾ وأنت تعيب آلهتهم وذلك قوله ﷺ: **«إنّها جماد لا تضرّ ولا تنفع ما يتّخذونك إلّا سخرية ويقول بعضهم لبعض»**: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بسوء ويدلّ على معنى السوء القرينة ﴿وَهُم بِذِكْرِ﴾ التوحيد وبكتابه المنزل جاحدون وعجّب الله نبيّه منهم حيث جحدوا الحيّ المنعم القادر الخالق الرازق ثمّ إنّ من دعاهم إلى ترك عبادة الجماد المهملة اتّخذوه هزواً وهم أحقّ بالسخريّة عند من يتدبّر.

وتكرار الضمير للعناية بالتأكيد.

﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كان الكفّار يستعجلون عذاب الله الّذي يوعدهم النبي ﷺ بسبب مخالفتهم وكفرهم فذمّهم سبحانه على إفراط العجلة.

ثمّ نهاهم وزجرهم وأوعدهم بهذا الاستعجال فقال: ﴿سَأُورِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ الدالّة على صدق محمّد ﷺ فيما يوعدكم به من العذاب ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ بنزوله فإنّه سيدرككم عن قريب.

قال ابن عبّاس: (المراد من الإنسان في الآية هو الشخص وهو النضر بن الحارث وهو الّذي قال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ

فَأَمْطِرْ﴾ الآية)،[1] وأراد بقوله: ﴿سَأُورِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ يوم بدر.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني: المشركون يقولون للمسلمين: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الّذي تعدوننا؟ يريدون وعداً القيامة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في وعدكم وقيل: المراد بالإنسان آدمعليه السلام.

ثمّ قيل في معنى «عجل» تأويلات: منها أنّه خلق بعد خلق كلّ شيء آخر نهار يوم الجمعة وهو آخر أيام الستّة معاجلاً به غروب الشمس، عن مجاهد.

ومنها أنّ معناه: في سرعة من خلقه لأنّه لم يخلقه من نطفة ثمّ من علقة ثمّ من مضغة كما خلق غيره وإنّما أنشأه إنشاء فكأنّه نبّه بذلك على الآية العجيبة في خلقه.

ومنها أنّ آدم لمّا خلق وجعلت الروح في أكثر من جسده وثب عجلان مبادراً إلى ثمار الجنّة وهمّ بالوقوف فهذا معنى قوله: «من عجل» روي ذلك عن أبي عبد اللهعليه السلام.[2]

وفي معنى خلق الإنسان من عجل ذكروا وجوهاً على قول من قال: المراد نوع الإنسان لا شخص آدمعليه السلام:

أحدها: أن معناه: خلق الإنسان عجولا أي: خلق على حبّ العجلة في أمره يعني: أنّه يستعجل في كلّ شيء يشتهيه وللعرب عادة في استعمالهم هذا اللفظ عند المبالغة يقولون لمن يصفونه بكثرة النوم: ما خلق إلّا من نوم، وبكثرة وقوع الشرّ منه ما خلق إلّا من شرّ ومنه قول الخنساء في وصف البقرة: «فإنّما هي إقبال وإدبار».

۱ـ سورة الأنفال: ۳۲.

۲ـ انظر: الأمالي، للمرتضي، ج ۲، ص ۱۱۹؛ ومجمع البيان، ج ۷، ص ۸۷.

وثانيها: أنّه من المقلوب والمعنى: خلقت العجلة من الإنسان وهذا ضعيف.

وثالثها: أنّ العجل هو الطين عن أبي عبيدة وجماعة واستشهد بقول الشاعر:

والنبع ينبت بين الصخر ضاحية　　　والنخل تنبت بين الماء والعجل

فعلى هذا يكون كقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾[1].

ورابعها: أنّ معناه: خلق الإنسان من تعجل من الأمر لأنّه تعالى قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[2].

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ وجواب لو محذوف. وإنّما خصّ الوجوه والظهور لأنّ مسّ العذاب لهما أعظم موقعا أي: لو علموا الوقت الّذي لا يدفعون فيه عذاب النار عن وجوههم ولا عن ظهورهم ويحيط بهم من جوانبهم لما استعجلوا العذاب ولصدّقوك.

﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ فجاة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ وتحيّرهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ على دفعها ولا يؤخّرون إلى وقت آخر ولا يمهلون بمعذرة وتوبة.

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا

١ـ سورة السجدة: ٧.

٢ـ سورة النحل: ٤٠.

﴿يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

المعنى: ثمّ ذكر الوجه الّذي دفع الحزن عن قلب رسول الله فقال: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ﴾ بالمستهزئين وأحاط بهم عقوبة استهزائهم وحلّ بهم وبال سخريتهم. ﴿مِنْهُم﴾ يعني: من الرسل.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء الكفّار عند ذلك: لو لا أنّ الله يحرسهم لما بقوا في السلامة و﴿مَن﴾ يحفظكم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ من بأس الرحمن وعذابه وعوارض الأوقات؟ وهذا الكلام كقول الرجل لمن حصل في قبضته ولا مخلص له منه: إلى أين مفرّك منّي؟ ولعلّ التخصيص هاهنا باسم الرحمن بالذكر تلقينا للجواب حتّى يقول العاقل: أنت الكالئ يا إلهنا لكلّ الخلائق برحمتك كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾[1] حتّى يقول: غرّني كرمك يا كريم.

﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: إنّهم مع إنعامه سبحانه عليهم عن ذكر ربّهم أي: القرآن أو معرفته سبحانه معرضون ولا يؤمنون به ولا يلتفتون إلى شيء من المواعظ والحجج.

ثمّ قال على وجه التوبيخ لهم: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم﴾ من عذابنا ودفع ما ينزل بهم، وتمّ الكلام ثمّ وصف آلهتهم بالعجز والضعف فقال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ وهذا خبر مبتدء محذوف والتقدير: هذه الآلهة لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي: ولا الكفّار يجارون

١ـ سورة الانفطار: ٦.

من عذابنا قال ابن قتيبة: أي: لا يجرهم أحد من عذابنا يقول: صحبك الله أي: أجارك وحفظك. وقيل: معناه: لا يصحبون من الله بخير.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ ثمّ بيّن تفضّله عليهم بأنا مع ذلك ما عذّبناهم وما عجّلنا العقوبة ومتّعناهم وآباءهم في الدنيا بنعمها إلى أن طالت أعمارهم فغرّهم طول العمر فنسوا وجهلوا مواقع نعمنا واغترّوا بذلك.

﴿أَفَلَا﴾ يرى هؤلاء المشركين بالله آثار قدرتنا في إتيان الأرض من جوانبها بأخذ الواحد بعد الواحد وبفتح البلاد والقرى حول مكّة ونزيدها في ملك محمّد ونميت رؤساء المشركين الممتّعين بالدنيا. وقيل: بموت العلماء نقصها وتخريبها، قال أبو عبد الله عليه السلام: «**نقصانها ذهاب عالمها**».[1] وقيل: معناه: ننقصها من أطرافها بظهور النبيّ على من قاتله أرضا فأرضا قوماً فقوما فيأخذ أراضيهم أو ننقصها من جانب المشركين ونزيدها في جانب المسلمين أفهؤلاء الغالبون أم نحن الغالبون؟

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُم﴾ من عذاب الله واخوّفكم بما أوحى الله إليّ، وشبّههم الله بالصمّ الّذين لا يسمعون النداء إذا نودوا لأنّهم لم ينتفعوا بالسمع أو أنّهم يشتغلون عن سماع القرآن فهم بمنزلة الأصمّ ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٨٩؛ وانظر: الكافي، ج ١، ص ٣٨.

﴿رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

المعنى: إنّ الكفّار المتصاممين عن آيات اللّه على هذه الصفة من الجرأة والجسارة يؤول أمرهم إلى أن إذا شاهدوا اليسير ممّا أنذروا به وأصابهم بعض قليل في نهاية القلّة ممّا يستحقّونه من العقوبة فيعترفون ويسمعون حينئذ ويقولون: الويل لنا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أنفسنا وأصل النفح من الريح النسيئة كأنّه سبحانه يقول: وإن مسّتهم رائحة من العذاب لتنادوا بالويل. قال صاحب «الكشّاف»: في المسّ والنفح ثلاث مبالغات لفظ المسّ وما في النفح من معنى القلّة والنزارة ولفظ المرّة.(١)

ثمّ بيّن سبحانه أنّ جميع ما ينزل بهم في الآخرة لا يكون إلّا عدلاً وهذا معنى ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ﴾ وصف اللّه الموازين بالقسط لأنّ الميزان قد يكون غير مستقيم وأكّد ذلك بقوله: ﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾ والقسط وإن كان صفة للموازين وموحّد فهو كقولك للقوم: أنتم عدل. وقال الزجّاج: أي: موازين ذوات العدل والقسط.

﴿لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: لأهل يوم القيامة. قيل: المراد بالموازين العدل بينهم في الأعمال فمن أحاطت حسناته بسيّئاته ثقلت موازينه يعني: أنّ حسناته تذهب بسيّئاته ومن أحاطت سيّئاته بحسناته فقد خفّت موازينه أي: إنّ سيّئاته تذهب بحسناته، حكاه ابن جرير هكذا عن ابن عبّاس، ولكن اتّفق الجمهور والأئمّة على أنّه سبحانه يضع الموازين الحقيقيّة فتوزن بها الأعمال وهو ميزان له كفّتان ولسان وهو بيد جبرئيل.

وروي أنّ داود عليه السلام سأل ربّه أن يريه الميزان فلمّا رآه غشي عليه فلمّا

١ـ الكشاف، ج ٢، ص ٥٧٤؛ وتفسير النسفي، ج ٣، ص ٨٢.

أفاق قال: «**يا إلهي من الّذي يقدر أن يملأ كفّته حسنات؟ فقال: يا داود إنّي إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة**».[1]

قال الرازيّ: إنّ حمل الميزان على مجرّد العدل مجاز وصرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز غير جائز لا سيّما قد جاءت الأحاديث الكثيرة بالأسانيد الصحيحة في هذا الباب.[2]

فلو قيل: هذه الآية يناقضها قوله: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[3].

فالجواب أنّه لا يكرمهم ولا يعظّمهم. وفي «الكافي» عن السجّاد عليه السلام في كلامه في وعظه من جملة له: «**اعلموا عباد الله أنّ أهل الشرك لا ينصب لهم الموازين ولا ينشر لهم الدواوين وإنّما يحشرون إلى جهنّم زمراً وإنّما ينصب الموازين وينشر الدواوين لأهل الإسلام فاتّقوا عباد الله**».[4]

فإن قيل: أهل القيامة إمّا أن يكونوا عالمين بكونه عادلاً غير ظالم أو لا يعلمون فإن علموا ذلك كان مجرّد حكمه كافياً في معرفة أنّ الغالب هو الحسنات أو السيّئات فلا يكون في وضع الميزان فائدة وإن لم يعلموا لم تحصل الفائدة في وزن الصحائف فما الفائدة؟

الجواب: لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون وفيه ظهور حال الوليّ من العدوّ والمطيع من العاصي في مجمع الخلائق فيكون لأحد القبيلتين في ذلك أعظم السرور وللآخر أعظم الغمّ.

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ أي: إنّه لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد في إساءة مسيء، وكان تامّة، وإنّما أنّث ضمير المثقال لإضافته إلى

١ـ بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٤٧؛ وفيض القدير، ج ٢، ص ٢٥٦.

٢ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١٧٧.

٣ـ سورة الكهف: ١٠٥.

٤ـ الكافي، ج ٨، ص ٧٥. تحف العقول، ص ٢٥١.

الحبّة كقولهم: ذهبت بعض أصابعه.

فإن قيل: الحبّة أعظم من الخردلة، فالوجه فيه أن إذا فرضت الخردلة مثلاً دخنة فالحبّة دانق من تلك الدخنة.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ ولا يشتبه علينا شيء في الحساب، قيل: رؤي في الرؤيا بعض الأخيار من الأموات فسئل عنه: ما فعل بك؟ قال:

حاسبونا فدقّقوا ثمّ منّوا فأعتقوا

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ وأعطيناهما التوراة لأنّها تفرق بين الحقّ والباطل. وقيل: المراد: الّذي فرّق به بين حقّ موسى وباطل فرعون.

والنظم في الآية أنّه كما استهزئ بك كذلك استهزئ بمن قبلك وكما أنزلنا عليك القرآن كذلك أنزلنا على موسى الفرقان وليس هذا الأمر ببدع فلم ينكرون قومك؟

﴿وَضِيَآءً﴾ أي: آتيناهما بسبب التوراة نوراً وهدى استضاءوا بها حتّى اهتدى واهتدوا في دينهم ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يذكرونه ويعملون بما فيه ويتّعظون بمواعظه. ثمّ وصف المتّقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ في حال الخلوة والغيبة عن الناس في سرائرهم من غير رياء ﴿وَهُم مِّنَ﴾ من القيامة وأهوالها خائفون.

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ أي: القرآن ذكر مبارك ثابت نافع دائم نفعه إلى يوم القيامة وسمّي مباركاً لوفور فوائده من المواعظ الداعية إلى مكارم الأخلاق والأفعال ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ بم تنكرونه وتجحدونه؟

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا

عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ
أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي
فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم
بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ
يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ
سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾

المعنى: ثمّ عطف على قصّة موسى فقال: ﴿وَلَقَدْ﴾ أعطينا ﴿إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ يعني: الحجج الّتي توصّل بها إلى معرفة الله أو المراد من الرشد النبوّة ﴿مِن قَبْلُ﴾ موسى وقبل محمّد وقيل: من قبل بلوغه ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ بأنّه أهل لإيتاء الرشد وصالح للنبوّة.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ حين رآهم يعبدون الأصنام: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ والعامل في «إذ» آتينا. والتمثال اسم للشيء المصنوع شبها بخلق من خلق الله وأصله من مثّلت الشيء بالشيء. قيل: إنّهم جعلوها أمثلة لعلمائهم الّذين انقرضوا. وقيل: جعلوها شبها للأجسام العلويّة. والمعنى: ما هذه الصور الّتي أنتم مقيمون على عبادتها.

روى العيّاشيّ بإسناده عن الأصبغ بن نباتة أنّ عليّاً عليه السلام مرّ بقوم يلعبون الشطرنج فقال: ما هذه التماثيل الّتي أنتم لها عاكفون؟ لقد عصيتم الله ورسوله. ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ فاقتدينا بهم فاعترفوا بالتقليد إذ لم يجدوا حجّة لعبادتهم إيّاها سوى اتّباع الآباء.[1]

فأجابهم إبراهيم بقوله: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٩٤.

وبيّن أنّ الباطل لا يصير حقّاً بسبب كثرة المتمسّكين به.

فعند ذلك ﴿قَالُوٓاْ﴾ له: ﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: هذا الكلام الّذي تقول جادّ وتقول على سبيل الحقيقة أم تمازحنا وتلعب بنا؟ وإنّما قالوا ذلك لاستبعاد إنكار عبادة الأصنام كأنّهم يقولون: هل يمكن أن لا يعبد الأصنام؟

فعند ذلك عدل إبراهيم عليه السلام إلى بيان التوحيد: ﴿قَالَ بَل﴾ إلهكم الّذي يكون تعبدوه ﴿رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ وهو الّذي يحسن أن يعبد لأنّه الّذي يضرّ وينفع. والضمير في «خلقهن» راجع إلى السماوات أو إلى الأصنام. وإلى الأصنام أدخل في طريق الاحتجاج.

﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ والمقصود المبالغة في التأكيد والتحقيق كقول الرجل إذا بالغ في إثبات أمر يقول: أشهد أنّه كذلك وأنا لست مثلكم وشهدت هذا الأمر أو أنتم جاهلون وأنا شاهد وعالم به.

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن﴾ تتعطّلوا ذاهبين، ولمّا علم إبراهيم بأنّ الحجّة القوليّة لا تنفعهم عدل إلى الطريقة الفعليّة فقال: لأكيدنّ أي: لأدبّرنّ في بابهم تدبيراً خفيّاً يسؤكم، والكيد الاحتيال على الغير في ضرر لا يشعر به وهم كانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثمّ عادوا إلى منازلهم فلمّا كان هذا الوقت قال: آزر لإبراهيم: لو خرجت معنا، فخرج معهم فلمّا كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال: إنّي سقيم أشتكي رجلي، فلمّا مضوا وبقي ضعفاء الناس نادى وقال: تالله لأكيدنّ أصنامكم.

قال الكلبيّ: كان إبراهيم من أهل بيت ينظرون في النجوم وكانوا إذا خرجوا إلى عيدهم لم يتركوا إلّا مريضاً، فلمّا همّ إبراهيم بالّذي همّ من كسر الأصنام نظر قبل يوم العيد إلى السماء وقال لأصحابه: أراني أشتكي غدا

فذلك قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[1] وأصبح من الغد معصوبا رأسه فخرج القوم لعيدهم ولم يتخلّف غيره أحد فقال: أما والله لأكيدنّ أصنامكم! فسمع رجل منهم هذا القول منه فحفظه عليه. ثمّ إنّ ذلك الرجل أخبر غيره فانتشر الخبر فلذلك قالوا: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾.[2]

وبالجملة إنّ إبراهيم دخل بيت الأصنام وجد سبعين صنماً مصفّفة وثمّ صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وكان في عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسّرها كلّها بالفأس حتّى لم يبق إلّا الكبير وعلّق الفأس في عنقه.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ قطعاً قطعاً وحطاماً ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ فتركه على حاله وخرج إبراهيم من بيت الأصنام ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ إلى إبراهيم فيسألونه عن حال الأصنام فيحتجّ عليهم بعجز الأصنام فيعلمون جهلهم باتّخاذ هم الأصنام آلهة وأنّها عجزة ولا تقدر أن تدفع عن أنفسها الضرّ، أو الضمير في إليه راجع إلى كبير الأصنام ويقولون: ما لهؤلاء الأصنام مكسورة ومالك صحيحاً والفأس على عاتقك؟

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ وفي الكلام حذف وتقديره: فلمّا رجع قومه من عيدهم فوجدوا أصنامهم مكسورة قالوا: من فعل هذا الصنع بآلهتنا؟ ومن فعله كان من الظالمين وفعل ما لم يكن له أن يفعل.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُ﴾ الآلهة بسوء ويعيب عليها ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ لأنّهم كانوا سامعين من إبراهيم عيب الآلهة وهو كان القائل: لأكيدنّ أصنامكم.

١ـ سورة الصافات: ٨٩.

٢ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١٨٢.

فإن قيل: إمّا أنّ القوم عقلاء أو ما كانوا عقلاء فإن كانوا عقلاء وجب أن يكونوا عالمين بالضرورة أنّ الخشبة المنحوتة في النهار أو من قبل بسنة أو أكثر غير قابلة للعبادة وأنّها لا تضرّ ولا تنفع. وإن قلنا: أنّهم ما كانوا عقلاء فحينئذ لا يقتضي بعثة الرسل إليهم.

فالجواب: أنّهم كانوا عقلاء وعالمين بأنّها جمادات ولكن كانوا يعتقدون فيها أنّها تماثيل الكواكب وأنّها طلسمات موضوعة بحيث إنّ كلّ من عبدها انتفع بها وكلّ من استخفّ بها ناله منها ضرر شديد، فكسّرها إبراهيم حتّى يندفع هذا الظنّ عنهم لأنّه أصابها بسوء وما ناله مكروه. وبالجملة فغلب على عقلهم أنّه عليه السلام هو الفاعل بالأصنام هذا الكسر.

قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

اعلم أنّ القوم لمّا شاهدوا كسر الأصنام وقيل: إنّ فاعله إبراهيم ﴿قَالُوا۟﴾ فيما بينهم: ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بمرأى منهم، ومعنى الاستعلاء في «على» أي: ثبت إتيانه في الأعين ثبات الراكب على المركوب

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي: يشهدون الناس بأنّه فعل هذا الفعل وأيضاً يشهدون عذابه وينظرون ما يصنع به فيكون ذلك زاجراً لهم عن الإقدام على مثل فعله.

﴿ءَأَنتَ﴾ وفي الكلام حذف وتقديره: فأتوا به وقالوا: أأنت ﴿فَعَلْتَ هَٰذَا﴾ طلبوا منه الاعتراف بذلك ليقدموا على إيذائه. فـ ﴿قَالَ﴾ إبراهيمعليه السلام: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ مشيراً إلى الصنم الكبير علّق على رقبته الفأس، سلكعليه السلام مسلكاً يؤدّيه إلى مقصده وهو إلزامهم الحجّة على ألطف وجه يحملهم على التأمّل في شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقّي من الكذب.

وقد أسند إليه بطريق التسبيب حيث كان غيظهعليه السلام على الصنم الكبير أعظم وأكثر لشدّة تعظيمهم للكبير أكثر فأسند الفعل إليه باعتبار أنّه الحامل والداعي إلى الكسر، والفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه. وقيل: إنّ في الكلام تقديم وتأخير. «في العيون» عن الصادق المعنى إن كانوا ينطقون فكبيرهم فعل وإن لم ينطقوا فلم يفعل كبيرهم شيئاً فما نطقوا وما كذب إبراهيمعليه السلام. وقيل: الضمير في «فعله» كناية عن غير مذكور أي: فعله من فعله وقوله: ﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ ابتداء الكلام والكسائيّ كان يقف عند قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ﴾ ثمّ يبتدئ: كبيرهم هذا.

قال الرازيّ: أمّا ما روي من بعض عن النبيصلى الله عليه وآله أنّ إبراهيم لم يكذب إلّا ثلاث كذبات كلّها في ذات الله: قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾[1] وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[2] وقوله لسارة: «إنّها اختي». وقرّروا هذا القول من جهة العقل وقالوا: إنّ النبيّ مثلاً إذا هرب من ظالم واختفى في دار إنسان وجاء

١ـ سورة الصافات: ٨٩.

٢ـ سورة الأنبياء: ٦٣.

الظالم وسأل عن حاله فإنّه يجب الكذب فيه وإذا كان كذلك فأيّ بعد في أن يأذن اللّه في ذلك لمصلحة.

واعلم أنّ هذا القول مرغوب عنه فلأن يضاف الكذب إلى الرواة أولى من يضاف إلى الأنبياء والدليل القاطع عليه أنّه لو جاز أن يكذبوا لمصلحة ويأذن اللّه فيه فيجوز هذا الاحتمال في كلّ ما أخبروا عنه وذلك يبطل الوثوق بالشرائع وتتطرّق التهمة إلى كلّها.

ولم لا يحمل قوله عليه السلام: «إنّي سَقِيمٌ» على أن كان به سقم قليل، وأمّا قوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ فقد قيل الجواب عنه، وأمّا قوله عليه السلام: لسارة «إنّها اختي» فالمراد أنّها أخته في الدين فمتى ما أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب إلى الأنبياء، فحينئذ لا يحكم بنسبة الكذب إليهم إلّا زنديق.[1]

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ فلمّا نبّههم إبراهيم بما أورده عليهم على قبح طريقتهم تنبّهوا وعلموا أنّهم على غرور وجهل في ذلك، أو المعنى: رجعوا إلى أنفسهم فلاموها ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لإبراهيم مع أنّ الفأس معلّق بين يدي الصنم الكبير، أو المعنى: أنتم الظالمون لأنفسكم حيث سألتم من إبراهيم هذا السؤال حتّى أخذ يستهزئ بكم في الجواب.

﴿ثُمَّ نُكِسُوا﴾ من إفحامهم ﴿عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ وعلموا أنّها لا تنطق فاعترفوا بما هو حجّة عليهم لا لهم فقالوا ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا إبراهيم أنّ هؤلاء الأصنام لا ﴿يَنطِقُونَ﴾ فكيف نسألهم؟

فأجابهم إبراهيم: أفتوجّهون عبادتكم إلى الأصنام الّتي لا ينفعكم شيئاً إن عبدتموها ولا يضرّكم إن تركتموها لأنّها لو قدرت على نفعكم وضرّكم

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١٨٦.

لدفعت عن أنفسها ومن لم يقدر على النفع والضرّ كيف استحقّ العبادة؟

ثمّ قال عليه السلام مهجنا لأفعالهم مستقذرا لأصنامهم: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ أي: تبّاً لكم ولأفعالكم و«أف» صوت إذا صوّت به علم أنّ صاحبه متضجّر وقد انضجر إبراهيم من ثباتهم على هذا الأمر الباطل بعد وضوح الحقّ ﴿أَفَلَا﴾ تتدبّرون و﴿تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ وليس في القرآن من القائل لذلك؟ والمشهور أنّه نمروذ بن كنعان بن سنجاريب بن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح. قال مجاهد: سمعت ابن عمر يقول: إنّما أشار بتحريق إبراهيم عليه السلام رجل من الكرد من أعراب فارس.

وقيل: إنّ الّذي أشار إلى هذا الأمر رجل اسمه هبرين فخسف اللّه به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

ولمّا اجتمعوا لإحراق إبراهيم عليه السلام حبسوه في بيت وبنوا بنياناً كالحظيرة وذلك قوله: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾[1] ثمّ جمعوا له الحطب الكثير حتّى أنّ المرأة لو مرضت قالت: لو أنّ اللّه عافاني لأجمعنّ حطباً لإبراهيم، ونقلوا له الحطب على الدوابّ أربعين يوماً وأنّ الرجل منهم ليمرض فيوصي بكذا وكذا من ماله فيشتري له حطب وحتّى أنّ المرأة لتغزل فتشتري به حطبا.

فلمّا أرادوا أن يلقوا إبراهيم في النار لم يدروا كيف يلقونه فجاء إبليس فعلّمهم صنعة المنجنيق فوضعوه فيها ثمّ رموه بعد أن رفعوه عن رأس البنيان وقيّدوه ووضعوه في المنجنيق مغلولاً فصاحت السماء والأرض ومن فيها من الملائكة أجمعون إلّا الثقلين صيحة واحدة: أي: ربّ! ليس في أرضك من

١ـ سورة الصافات: ٩٧.

يعبدك غير إبراهيم وإنّه يحرق فيك فأذن لنا في نصرته فقال سبحانه: إن استغاث بأحد منكم فأغيثوه وإن لم يدع غيري فخلّوا بيني وبينه فأنا أعلم به وأنا وليّه، فلمّا أرادوا إلقاءه في النار أتاه خازن الرياح فقال: يا إبراهيم إن شئت طيّرت النار في الهواء فقال إبراهيم: لا حاجة بي إليكم، ثمّ رفع رأسه إلى السماء وقال: اللّهمّ أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الأرض ليس في الأرض أحد يعبدك غيري حسبنا اللّه ونعم الوكيل. وقيل: إنّه حين ألقي في النار قال: لا إله إلّا أنت سبحانك ربّ العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك، ثمّ رموا به النار فأتاه جبرئيل وقال: يا إبراهيم هل لك حاجة؟ قال: أمّا إليك فلا. قال: فاسأل ربّك قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي.

فقال اللّه: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ولو لم يتبع سلاماً عقيب قوله: «برداً» لمات إبراهيم من بردها ولم يبق يومئذ في الدنيا ناراً إلّا طفئت قال السدّيّ: فأخذت الملائكة بضبعي إبراهيم وأقعدوه في الأرض فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس ولم تحرق النار إلّا وثاقه.

وروى الواحديّ بالإسناد مرفوعاً إلى أنس بن مالك قال: لمّا ألقي إبراهيم عليه السلام في النار نزل عليه جبرئيل بقميص من الجنّة وطنفسة من الجنّة فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة وقعد معه يحدّثه. وقيل: ألقي إبراهيم عليه السلام في النار وهو ابن ستّة عشر سنة.[1]

وقيل: إنّ إبراهيم عليه السلام لمّا ألقي في النار كان فيها إمّا أربعين يوماً أو خمسين يوماً وقال عليه السلام: ما كنت أيّاما أطيب عيشاً منّي إذ كنت فيها.

وقال ابن إسحاق: بعث اللّه ملك الظلّ فقعده في صورة إبراهيم عليه السلام إلى جنب إبراهيم عليه السلام يؤنسه، وأتاه جبرئيل أيضاً بقميص من حرير الجنّة وقال:

١ـ بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٤.

يا إبراهيم إنّ ربّك يقول: أما علمت أنّ النار لا تضرّ أحبّائي. ثمّ نظر نمروذ من صرح له أشرف على إبراهيم فرآه جالساً في روضة ورأى الملك قاعداً إلى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب فناداه نمروذ: يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال: نعم، قال: قم فاخرج، فقام يمشي حتّى خرج منها فلمّا خرج قال له نمروذ: من الرجل الّذي رأيته معك بصورتك؟ قال: ذاك ملك الظلّ أرسلني ربّي ليؤنسني فيها فقال نمروذ: إنّي مقرّب إلى ربّك قرباناً لما رأيت من عزّته وقدرته فيما صنع بك فإنّي ذابح له أربعة آلاف بقرة فقال إبراهيم عليه السلام: لا يقبل اللّه منك ما دمت على دينك فقال نمروذ: لا أستطيع ترك ملكي ولكن سوف أذبحها له، ثمّ ذبحها له وكفّ عن إبراهيم عليه السلام.

﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أي: وأراد الكفّار بإبراهيم شرّاً وتدبيراً في إهلاكه فجعلنا هم الأخسرين قال ابن عبّاس: هو أن سلّط اللّه على نمروذ وخيله البعوض حتّى أخذت لحومهم وشربت دماء هم ووقعت واحدة في دماغ نمروذ حتّى أهلكته.

والمعنى: أرادوا أن يكيدوا إبراهيم فانقلب عليهم وأتمّ النعمة على إبراهيم بأن نجّاه ونجا ابن أخيه من أمّه وهو لوط بن هاران إلى الأرض الّتي بارك فيها للعالمين وإنّ هذه الواقعة كانت على إبراهيم ببابل وقيل: الأرض المباركة مكّة. وقيل: أرض الشام لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[1] والسبب في بركتها أمّا في الدين فلأنّ أكثر الأنبياء بعثوا منها وانتشرت شرائعهم فيها وأمّا في الدنيا فلأنّ اللّه بارك فيها بكثرة الماء والشجر والثمر وطيب العيش. وقيل: ما من ماء عذب إلّا وينبع أصله من تحت الصخرة الّتي ببيت المقدس.

١ـ سورة الإسراء: ١.

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾

المعنى: شرح سبحانه نعمه على إبراهيم فقال: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ من نمرود وكيده ورفعناه ﴿وَلُوطًا﴾ عن الهلكة وهو ابن أخي إبراهيم ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ وقد ذكرنا الاختلاف في تلك الأرض قبل هذا.

﴿وَوَهَبۡنَا﴾ لإبراهيم إسحاق لمّا سأل الله ولداً [و] أجابه أعطاه ﴿يَعۡقُوبَ نَافِلَةٗ﴾ وعطيّة خاصّة، ويسمّى الرجل الكثير العطاء نوفلا كما يقال للصلاة الزائدة على الواجب نافلة، وعلى هذا يعقوب كان نافلة خاصّة.

﴿وَكُلّٗا﴾ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ﴾ أنبياء مرسلين عاملين بطاعة الله ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾ يدعون الناس إلى دين الله ﴿بِأَمۡرِنَا﴾ والمراد بهذه الإمامة النبوّة ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي: شرائع النبوّة وأعمال الخير وإقامة الصلاة، وحذف التاء من «إقامة» لأنّ الإضافة عوض عنه وقيل: الإقام والإقامة مصدر. ولمّا بيّن أنّ الصلاح الّذي هو العصمة أوّل مراتب النبوّة دلّ ذلك على أنّ الأنبياء معصومون، وإعطاء ﴿ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ﴾ مخلصين ﴿لَنَا﴾ والعبادة.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ بعد بيان نعمه على إبراهيم أتبعه بذكر نعمه على لوط عليه السلام والواو عطف على قوله: ﴿ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ أي: وآتينا لوط الحكمة والّتي يجب فعله أو النبوّة. والثاني: العلم، وإدخال التنوين على

الحكم والعلم للدلالة على علوّ شأن ذلك الحكم وذلك العلم. والثالث: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ أي: أهلها.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ خارجين عن الدين والطاعة والقرية سدوم، وإنّهم كانوا يأتون الذكران في أدبارهم ويتظارطون في أنديتهم وقد حكى الله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾[1] ﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى﴾ نعمتنا ومننا بسبب أنه من الّذين أصلح أفعاله وعلم ما هو الحسن وما هو القبيح.

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾

المعنى: عطف سبحانه قصّة نوح وداود على قصّة إبراهيم ولوط: ﴿وَنُوحًا﴾ أي: وأعطينا نوحاً ﴿إِذْ﴾ دعا ربّه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[2] وقال: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾[3] وكان نوح من قبل إبراهيم والمراد من هذا الدعاء الدعاء على قومه لأنّه دعا مرّة على الإجمال فقال: إنّي مغلوب فانتصر، ومرّة على التفصيل فقال: ربّ لا تذر على الأرض.

١ـ سورة العنكبوت: ٢٩؛ و« نادي » المجلس العام وجمعه « أندية».

٢ـ سورة نوح: ٢٦.

٣ـ سورة القمر: ١٠.

والكرب العظيم الغمّ الّذي يصل حرّه إلى القلب وهو ما كان يلقاه من أذى قومه طول تلك المدّة وتحمّل الاستخفاف من السقاط، أو الطوفان، وأكثر المحقّقين على أنّ ذلك النداء كان بأمر اللّه، وقال آخرون: لم يكن بالأمر والإذن، وقال أبو أمامة: لم يتحسّر أحد من خلق اللّه كحسرة آدم ونوح فحسرة آدم على قبول وسوسة إبليس وحسرة نوح على دعائه على قومه فأوحى اللّه إليه أن لا تتحسّر فإنّ دعوتك وافقت قدري.

أمّا قوله: ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ فالمراد من الأهل هاهنا أهل دينه، وقيل في تفسير الكرب: الطوفان والعذاب، وقيل: تكذيب وأذى قومه إيّاه.

﴿وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ و«من» هنا بمعنى «على» أي: نصرناه على القوم أو المعنى: منعناه منهم بالنصرة، قال الزمخشريّ: إنّ «نصر» في الآية مطاوعة «انتصر» وسمعت هذليًا يدعو على سارق: اللّهم انصرهم منه، أي: أجعلهم منتصرين منه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ لأجل ردّهم وتكذيبهم ﴿فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ صغارهم وكبارهم وذكورهم وإناثهم.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ تقدير الآية: واذكر داود وسليمان يعني: أعطيناهما حكماً وعلماً أيضاً ﴿إِذْ﴾ حين ﴿يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ والزرع ﴿إِذْ﴾ في الوقت الّذي ﴿نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ وتفرّقت الغنم فيه ليلاً. وقيل: المراد من الحرث الكرم.

وأصل القصّة أنّه دخل رجلان على داود عليه السلام أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الحرث: إنّ غنم هذا دخلت حرثي وما أبقت منه شيئاً فقال داود عليه السلام: اذهب فإنّ الغنم لك، فخرجا فمرّا على سليمان عليه السلام فقال سليمان عليه السلام: كيف قضى بينكما؟ فأخبراه فقال: لو كنت

قاضياً لقضيت بغير هذا فأخبر داودعليه السلام بذلك فدعاه وقال: كيف كنت تقضي بينهما؟ قال: أدفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له منافعها من الدرّ والنسل والوبر حتّى إذا كان الحرث من العام المستقبل كهيئته يوم أكل دفعت الغنم إلى أهلها وقبض صاحب الحرث حرثه.

وقال ابن مسعود وشريح ومقاتل: إنّ راعياً نزل ذات ليلة بجنب كرم فدخلت الأغنام الكرم وهو لا يشعر فأكلت القضبان وأفسدت الكرم فذهب صاحب الكرم من الغد إلى داودعليه السلام فقضى له بالغنم لأنّه لم يكن بين ثمن الكرم وثمن الغنم تفاوت فخرجوا ومرّوا بسليمانعليه السلام فقال لهم: كيف قضى داود بينكما؟ فأخبراه به فقال: غير هذا أرفق بالفريقين، فأخبر داودعليه السلام بذلك فدعا سليمانعليه السلام وقال له: بحقّ الأبوّة والبنوّة إلّا أخبرتني بالأرفق فقال: تسلم الغنم إلى صاحب الكرم حتّى يرتفق بمنافعها ويعمل الراعي في إصلاح الكرم حتّى يصير كما كان ثمّ تردّ الغنم إلى صاحبها، فقال داودعليه السلام: إنّما القضاء ما قضيت، وحكم بذلك.[1]

قال ابن عبّاس: (حكم سليمان بذلك وهو ابن إحدى عشرة سنة).

وفي «الكافي» عن الصادقعليه السلام في هذه الآية قال: «إنّه كان أوحى الله إلى النبيّين قبل داودعليه السلام إلى أن بعث الله داودعليه السلام: **«أي غنم نفشت في الحرث فلصاحب الحرث رقاب الغنم، ولا يكون النفش إلّا بالليل فإنّ على صاحب الزرع أن يحفظ زرعه بالنهار وعلى صاحب الغنم حفظ الغنم بالليل، فحكم داودعليه السلام بما حكم به الأنبياء من قبله فأوحى الله إلى سليمانعليه السلام: «أي غنم نفشت في زرع فليس لصاحب الزرع إلّا ما خرج من بطونها، وكذلك جرت السنّة بعد سليمان وهو قول الله:**

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ١٩٥.

﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فحكم كلّ واحد منهما بحكم الله».[1]

وعنه عليه السلام: «أوحى الله إلى داود عليه السلام أن اتّخذ وصيّاً من أهلك فإنّه قد سبق في علمي أن لا أبعث نبيّاً إلّا وله وصيّ من أهله وكان لداود عليه السلام عدّة أولاد وفيهم غلام كانت أمّه عند داود عليه السلام وكان لها محبّا فدخل داود عليه السلام عليها حتّى أتاه الوحي فقال لها: إنّ الله أوحى إليّ يأمرني أن أتّخذ وصيّا من أهلي فقالت له امرأته: فليكن ابني، قال داود عليه السلام: ذاك أريد، وكان السابق في علم الله المحتوم أنّه يكون سليمان عليه السلام فأوحى الله إلى داود عليه السلام: أن لا تعجل دون أن يأتيك أمري، فلم يلبث داود عليه السلام أن ورد عليه رجلان يختصمان في الغنم والكرم فأوحى الله إلى داود عليه السلام: أن اجمع ولدك فمن قضى بهذه القضيّة فأصاب فهو وصيّك من بعدك. فجمع داود عليه السلام فلمّا أن قصّ الخصمان قال سليمان عليه السلام: يا صاحب الكرم متى دخلت غنم هذا الرجل كرمك؟ قال: دخلته ليلاً قال: قد قضيت عليك يا صاحب الغنم بأولاد غنمك وأصوافها في عامك هذا. ثمّ قال له داود عليه السلام: فكيف لم تقض الغنم برقاب وقد قوّم علماء بني إسرائيل فكان ثمن الكرم ثمن الغنم؟ فقال سليمان عليه السلام: إنّ الكرم لم يجتثّ من أصله وإنّما أكل حمله وهو عائد في قابل. فأوحى الله إلى داود عليه السلام أنّ القضاء ما قضى سليمان به يا داود أردت أمراً وأردنا أمراً غيره فدخل داود عليه السلام على امرأته فقال: أردنا أمراً وأراد الله أمراً غيره ولم يكن إلّا ما أراد الله فقد رضينا بأمر الله وسلّمنا. وكذلك الأوصياء ليس لهم أن يتعهّدوا بهذا الأمر إلّا من عند الله. وإنّما أراد الله أن يعرّف بني إسرائيل أنّ الوصيّ سليمان عليه السلام بعده».[2]

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ أي: بحكمهم عالمين لم يغب عنّا منه شيء. وإنّما جمع في موضع التثنية لإضافة الحكم إلى الحاكم وإلى المحكوم لهم، أو لأنّ

١ـ الكافي، ج ٥، ص ٣٠٢؛ وتهذيب الأحكام، ج ٧، ص ٢٢٥.

٢ـ الكافي، ج ١، ص ٢٧٨؛ والصافي، ج ٣، ص ٣٤٨.

الجمع يطلق على الاثنين مثل: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾[1] وهو يريد أخوين.

وقد أوحى الله إلى سليمان هذا الحكم ونسخ به حكم داود عليه السلام وكان حكم داود عليه السلام قبل ذلك أيضاً بوحي من الله لا اجتهاد لأنّه لا يجوز للأنبياء أن يحكموا بالرأي والاجتهاد وهذا هو الصحيح المعوّل عندنا، وقال غيرنا كالبلخيّ وعليّ بن عيسى: يجوز أن يكون ذلك عن اجتهاد لأنّ رأي النبيّ أفضل من غيره فإذا جاز التعبّد بالتزام حكم غير النبيّ من طريق الاجتهاد فكيف يمنع من حكم النبيّ على هذا الوجه؟ وهذا الكلام غير تامّ لأنّ النبيّ إذا كان يوحى إليه وله طريق إلى العلم بالحكم فلا يجوز أن يحكم بالظنّ والاجتهاد والقياس وقد قال الله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ * إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾.[2]

وكذلك: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾[3] ولو جاز الاجتهاد لما كان صلى الله عليه وآله يقف في مسألة الظهار واللعان إلى ورود الوحي.

﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ أي: علّمناه الحكومة في ذلك الأمر ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ أي: وكلّ واحد من داود وسليمان عليهما السلام أعطيناه الحكمة والنبوّة وعلم الدين.

﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ قيل: معناه سيّرنا الجبال مع داود حيث سار فعبّر عن ذلك بالتسبيح. في «الإكمال» عن الصادق: «أنّ داود عليه السلام خرج يقرء الزبور، وكان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر إلّا جاوبت».[4]

١ـ سورة النساء: ١١.

٢ـ سورة النجم: ٣ و٤.

٣ـ سورة يونس: ١٥.

٤ـ كمال الدين، ص ٥٢٤؛ وبحار الأنوار، ج ١٤، ص ٢٢.

وفي «الاحتجاج» عن أمير المؤمنين: «**إنّ يهوديا قال له: هذا داود بكى على خطيئته حتّى سارت الجبال معه لخوفه فقال**عليه السلام**: إنّه كان كذلك**»[1]، الحديث.

وفي «المناقب» عن السجّاد عليه السلام: «**أنّ داود**عليه السلام **صلّى ركعتين فسبّح في سجوده فلم يبق شجر ولا مدر إلّا سبّحوا معه**».[2]

وقيل: إنّ الجبال كانت تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير تسبّح معه بالغداة والعشيّ معجزة له.

﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي: قادرين على فعل هذه الأشياء دلالة على نبوّته. وقال بعض أصحاب المعاني: إنّه يحتمل أن يكون تسبيح الجبال بمثابة قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[3] وتخصيص داود عليه السلام بذلك إنّما كان بسبب أنّه عليه السلام كان يعرف ذلك ضرورة فيزداد يقيناً وتعظيماً. وهذا القول فيه تكلّف ولا ضرورة في صرف اللفظ عن ظاهره بل إنّها تسبّح معه تسبيحاً ظاهراً وتجاوبه وتسير معه بقدرة من الله وليست البنية شرطاً في حصول الأمر مع القدرة والإرادة من الله سبحانه.

الأنعام الثالث: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ اللبوس واللباس واحد، قال الشاعر:

البس لكلّ حالة لبوسها ... إمّا نعيمها وإمّا بوسها

أي: علّمناه كيف يصنع الدرع، وهو أوّل من صنع الدرع وإنّما كانت الدروع صفائح، جعل الله الحديد في يده كالعجين وهو أوّل من بردها[4]

١ـ الاحتجاج، ج ١، ص ٣٢٦، والخرائج والجرائح، ج ٢، ص ٩١٦.

٢ـ المناقب، ج ٣، ص ٢٧٩ وتفسير نورالثقلين، ج ٤، ص ٣١٥.

٣ـ سورة الإسراء: ٤٤.

٤ـ برد الحديد: أخذ منه بالمبرد.

وحلقها فجمعت الخفّة والتحصين ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي: ليحرزكم ويمنعكم من وقع السلاح فيكم من السيف والسنان وغيره.

ولمّا تعلّم الناس منه فتوارثوا منه فعمّت النعمة كلّ الحاربين يلزمهم الشكر من الله فقال سبحانه: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ وهذا تقرير وتأديب للخلق على الشكر بمقابلة كلّ نعمة.

روي في «الكافي» عن الصادق عليه السلام أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: **«أوحى الله إلى داود عليه السلام: إنّك نعم العبد إلّا أنّك تأكل من بيت المال ولا تعمل بيدك شيئاً قال: فبكى داود عليه السلام أربعين صباحاً فأوحى الله إلى الحديد أن لن لعبدي داود فلان، فكان يعمل في كلّ يوم درعاً فيبيعها بألف درهم واستغنى عن بيت المال».**[1] وقيل: إنّ سبب إلانة الحديد لداود عليه السلام أنّه كان ملكاً ونبيّاً وكان يطوف في ولايته متنكراً يتعرّف أعمال عمّاله ومتصرّفيه فاستقبله جبرئيل ذات يوم بصورة آدميّ فسلّم عليه فردّ عليه السلام فقال: ما سيرة داود؟ فقال جبرئيل: نعمت السيرة لو لا خصلة فيه، قال: وما هي؟ قال: إنّه يأكل من بيت مال المسلمين فتنكّره وأثنى عليه وقال: لقد أقسم داود إنّه لا يأكل من بيت مال المسلمين، فعلم الله صدقه فألان له الحديد كما قال: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾[2].

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ

١ـ الكافي، ج ٥، ص ٧٤؛ وانظر: من لايحضره الفقيه، ج ٣، ص ١٦٣.

٢ـ سورة سبأ: ١٠.

وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

المعنى: عطف على «سخّرنا» أي: سخّرنا لداود الجبال [و] وسخّرنا ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ إن أرادها عاصفة وإن أرادها ليّنة رخاء حيث أصاب أي: الريح مسخّرة له في الحالتين إن أراد السرعة في الحركة تهبّ عاصفة وإن أراد أن يتحرك بطيئا تهبّ رخيئة طيّبة كالنسيم فإذا مرّت بكرسيّه أبعدت به في مدّة يسرة مسافة كثيرة كما قال تعالى ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[1] أي: يقطع الريح بكرسيّ سليمان عليه السلام في الغداة مسيرة شهر وكذلك في العشاء مسافة شهر وهبوبها على حسب إرادته معجزة إلى معجزة.

وأمّا قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ لِلْعالَمِينَ أي: إلى المضيّ إلى البيت المقدّس قال الكلبيّ: تسير الريح به من إصطخر فارس إلى الشام وسليمان عليه السلام على كرسيّه قاعد والريح تسير به وكان عليه السلام يسكن بعلبك ويبنى له بيت المقدس ويحتاج الخروج إليها وإلى غيرها وكان سليمان إذا أراد أن يخرج إلى مجلسه يتعكّف الطير عليه ويقوم له الجنّ والإنس حتّى يجلس على سريره وتجتمع معه جنوده ثمّ تحمله الريح إلى حيث أراد. ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ وأعطيناه ما أعطيناه لما علمناه من المصلحة.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ أي: وسخّرنا له من الشياطين من يغوصون له في البحر فيخرجون الجواهر واللآلي. والغوص النزول إلى ما تحت الماء.

﴿وَيَعْمَلُونَ﴾ له ﴿عَمَلًا﴾ غير ﴿ذَٰلِكَ﴾ وسوى ذلك من الأعمال

١ـ سورة سبأ: ١٢.

الشاقّة وبناء المدن والاختراعات العجيبة من الأبنية كما قال سبحانه ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ ﴾[1] أي: أبنية العبادة والغرف والمساجد وكاسات كبار وإمّا الصناعات كاتّخاذ الحمّام والنورة والطواحين وأمثالها والقوارير والصابون ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ لئلّا يهربوا منه، وقيل: معناه: لئلّا يفسدوا ما عملوه لأنّهم كانوا يفسدون بالليل ما أصلحوا في نهارهم فمنعهم الله عن ذلك وإنّما سخّر الله له الشياطين والكفرة من الجنّ دون المؤمنين.

فإن قيل: كيف يتهيّأ لهم هذه الأعمال الشاقّة وأجسامهم رقيقة لا يقدرون على العمل الثقيل؟

فالجواب بأنّه سبحانه كثّف أجسامهم وقواهم خاصّة وزاد في عظمهم ليكون ذلك معجزاً لسليمان فلمّا مات سليمان ردّهم الله إلى الخلقة الأولى وما أبقاهم على الخلقة الثانية للفساد والشبهات على الناس لأنّه لو ادّعى متنبئ النبوّة وجعل آثارهم دلالة على نبوّته لاشتبه الأمر ولذلك ردّهم إلى الأوّل. وقيل: ليس الأمر على ما قلتم بل يجوز حصول القدرة على هذه الأعمال الشاقّة في الجسم اللطيف والبنية ليست شرطاً في القدرة ويكون هذا أيضاً معجزة لسليمان عليه السلام كما أنّ أصلب الأجسام الحديد وقد جعله الله في إصبع داود عليه السلام ـ أبيه ـ كالعجين وإذا قدر الله أن يجعل في إصبع داود عليه السلام قوّة النار مع كون الإصبع في نهاية اللطافة فأيّ بعد في أن يجعل التراب اليابس جسماً حيوانيّاً آدميّاً فيبعثه كما كان.

ثمّ إنّ ألطف الأشياء وأمنعها في هذا العالم الهواء والنار وقد جعلهما معجزة لسليمان أمّا الهواء فقوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ وهل الريح إلّا هواء متموّج.

١ـ سورة سبأ: ١٣.

وأمّا النار فلأنّ الشياطين مخلوقون منها وقد سخّرهم اللّه له فكان يأمرهم بالغوص في المياه والنار تنطفئ بالماء وهم ما كان يضرّهم الماء وذلك يدلّ بقدرته على إظهار الضدّ من الضدّ فاعتبروا يا أولي الأبصار!!

القصّة السادسة: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ واذكر يا محمّد أيّوب لمّا امتدّت المحنة به فدعا ربّه وقال: إنّي نالني ﴿الضُّرُّ﴾ وأصابني الجهد ولا أحد أرحم منك وهذا تعرّض منه بالدعاء لإزالة ما به من البلاء وهو من لطيف الكنايات في طلب الحاجة ومثله قول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[1] والضرّ بالفتح شامل وشائع في كلّ ضرر، وبالضمّ خاصّ بما في النفس كمرض أو هزال ومثله.

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّٰحِمِينَ﴾ وصف ربّه بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها واكتفى بذلك عن تعرّض المطلوب لطفاً في السؤال.

وفي «المفاتيح» و«الصافي»[2] في قضيّة أيّوب عن وهب بن منبّه: كان أيّوب عليه السلام روميّاً وهو أيّوب بن أنوص وكان من ولد عيص بن إسحاق وكانت أمّه من ولد لوط وكان اللّه قد اصطفاه وجعله نبيّاً وكان مع ذلك قد أعطاه اللّه من الدنيا حظّاً وافراً من النعم والدوابّ والملك وأعطاه أهلاً وولداً من رجال ونساء وكان رحيماً بالمساكين ويكفل الأيتام والأرامل ويكرم الضيف وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وعرفوا فضله، وإنّ لجبرئيل عليه السلام بين يدي اللّه مقاماً ليس لأحد من الملائكة مثله في القرب والفضيلة وهو الّذي يتلقّى الكلام فإذا ذكر اللّه عبداً بخير تلقّاه جبرئيل أوّلا ثمّ تلقّاه ميكائيل ثمّ من حوله من الملائكة المقرّبين فإذا افتهموا وشاع ذلك الخبر بأنّ اللّه ذكر عبداً من عباده

١ـ سورة القصص: ٢٤.

٢ـ الصافي، ج ٢، ص ٣٥١.

بالخير فهم يصلّون عليه ثمّ صلّت الملائكة في السماوات عليه ثمّ صلّت ملائكة الأرض.

وكان إبليس يومئذ لم يحجب عن شيء من السماوات وكان يقف فيهنّ حيثما أراد ومن هناك وصل إلى آدمعليه السلام حتى أخرجه من الجنّة ولم يزل إبليس على ذلك حتّى رفع عيسىعليه السلام فحجب عن أربع فكان يصعد اللعين بعد ذلك إلى ثلاث إلى زمان محمّدصلى الله عليه وآله فحجب عند ذلك عن جميع السماوات إلّا من استرق السمع.

قال: فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيّوبعليه السلام فأدركه الحسد فصعد سريعاً حتّى وقف من السماء موقفا كان يقفه دون العرش فقال: يا ربّ إنّك أنعمت على عبدك أيّوب فشكرك وعافيته فحمدك ثمّ لم تجرّبه بشدّة ولا بلاء وأنا لك زعيم لئن ضربته بالبلاء ليكفرنّ بك فقال اللّه: انطلق فقد سلّطتك على بدنه ما عدا عينيه وقلبه وسمعه وعقله.

فانفضّ عدوّ اللّه سريعاً خوفاً من أن تداركه رحمة فتمنعه من سلطته فوجد أيّوب ساجداً للّه فأتاه من قبل الأرض فنفخ في منخره نفخة من نار السموم اشتعل منها جسدهعليه السلام وخرج به من فرقه إلى قدمه ثآليل وقد وقعت فيه حكّة لا يملكها وكان يحكّ بأظفاره حتّى سقطت أظفاره ثمّ حكّها بالمسوح الخشنة ثمّ حكّها بالفخّار والحجارة ولم يزل يحكّها حتّى تقطّع لحمه وتغيّر، وعلى قول دود ونتن.

ثمّ جاء إبليس إلى أهل البلد وقال: إنّ هذا الرجل ترون ما به من المرض وسيؤدّي المرض إليكم فأخرجوه من بلدتكم فأخرجه أهل القرية وجعلوه على كناسة في المزبلة[1] وجعلوا له عريشاً ورفضه الناس كلّهم غير

١ـ وهذا مخالف للعقل السليم، ولا يستصو به طبع مستقيم؛ فإن فيه هتك حرمة النبي الذي أمر

امرأته «رحمة» بنت إفرائيم ابن يوسفعليه السلام فكانت تصلح أموره.

وكان تسليط إبليس على بدن أيّوب بعد أن استرخص من اللّه على ماشيته وماله وولده وزرعه. وذلك أنّ اللعين بعد أن انفضّ إلى الأرض جمع عفاريت الشياطين وقال لهم: ماذا عندكم من القوّة فإنّي قد سلّطت على مال أيّوب؟ قال عفريت: أعطيت من القوّة ما إذا شئت تحوّلت إعصاراً من نار فأحرقت كلّ شيء أتى أيّوب عليه، فقال إبليس: فأت الإبل ورعاءها، فذهب ولم يشعر الناس حتّى ثار من تحت الأرض إعصار من نار لا يدنو إليها شيء إلّا احترق فلم تزل تحرقها ورعاءها حتّى أتى على آخرها، فذهب إبليس على شكل بعض أولئك الرعاة إلى أيّوبعليه السلام فوجده قائماً يصلّي فلمّا فرغ من الصلاة قال: يا أيّوب هل تدري ما صنع ربّك الّذي اخترته بإبلك ورعائها؟ فقال أيّوبعليه السلام: إنّها ماله أعارنيه وهو أولى به إذا نزعه قال إبليس: فإنّ ربّك أرسل عليها ناراً من السماء فاحترقت ورعاءها كلّها وتركت الناس مبهوتين متعجّبين منها فمن قائل يقول: ما كان أيّوب يعبد شيئاً وما كان إلّا في غرور. ومن قائل يقول: لو كان إله أيّوب يقدر على شيء يمنع من وليّه. ومن قائل كذا وكذا، فقال أيّوبعليه السلام: الحمد للّه الّذي حين أعطاني وحين نزع منّي وأنا خرجت من بطن أمّي عرياناً، وعرياناً أعود في التراب وعرياناً احشر إلى اللّه ولو علم اللّه فيك أيّها الرجل خيراً لنقل روحك مع تلك الأرواح وصرت شهيداً وآجرني فيك ولكنّ اللّه علم فيك شرّاً فأخّرك فرجع إبليس

←

بتبليغ دين الله إلى خلقه، وتأليف القلوب إلى أحكامه وشرائعه. وهل يمكن التأليف مع تنفر الناس عنه؟ ولا يعتقد به إلّا الذي في قلبه مرض، الذي لا يرجو لله ولرسله وقاراً. ولم يكن ابتلاؤهعليه السلام إلّا لأن يشاهد الناس عظيم صبره في الله، وانه بنيان مرصوص لاتذروه الرياح العاصفة صبور عند الهزاهز، شكور لدى البلايا، وقور في المصائب. وسيوافيك روايات عن أئمة الدينعليهم السلام فيما قلنا.

إلى أصحابه خاسئاً مغموماً ولم يقدر شيئاً يتصرّف في شكر أيّوب عليه السلام.

فقال عفريت آخر: عندي من القوّة ما إذا لو شئت صحت صوتاً لا يسمعه ذو روح إلّا خرجت روحه فقال إبليس: فأت الغنم، فانطلق فصاح بها فماتت ومات رعاؤها فخرج إبليس متمثلاً بقهرمان الرعاة إلى أيّوب عليه السلام فقال له القول الأوّل وردّ عليه أيّوب عليه السلام الردّ الأوّل فرجع إبليس ساغراً.

فقال عفريت آخر: عندي من القوّة ما إذا لو شئت تحوّلت ريحاً عاصفة أقلع كلّ شيء أتيت عليه، قال: فاذهب إلى الحرث والثيران[1] فأتاهم وأهلكهم ثمّ رجع إبليس متمثلاً حتّى جاء إلى أيّوب عليه السلام وهو يصلّي فقال مثل قوله الأوّل فسمع مثل جوابه الأوّل فجعل إبليس يصيب أمواله شيئاً فشيئاً حتّى أتى آخرها.

فأتى على ولد أيّوب عليه السلام فإنّها الفتنة المضلّة وجاء إبليس إلى قصرهم فلم يزل يزلزله بهم من قواعده حتّى قلّب القصر عليهم. ثمّ جاء إلى أيّوب عليه السلام متمثلاً بصورة المعلّم وهو جريح مشدوخ الرأس يسيل دمه ودماغه فقال: لو رأيت بنيك كيف انقلبوا منكوسين على رؤوسهم تسيل أدمغتهم من أنوفهم لتقطّع قلبك فلم يزل يرقّقه حتّى رقّ أيّوب عليه السلام وبكى وقبض قبضة من التراب ووضعها على رأسه فاغتنم ذلك إبليس ثمّ لم يلبث أيّوب عليه السلام حتّى استغفر واسترجع.

وعن الكاظم عليه السلام: **«لمّا اشتدّ به البلاء في جسده وكان في اخرياته جاءه أصحابه وقالوا: يا أيّوب ما نعلم أحداً ابتلي بمثل هذه البليّة إلّا لسريرة شرّ فلعلّك أسررت سوءاً فأبد لنا. فعند ذلك ناجى أيّوب عليه السلام ربّه عزّ وجلّ فقال: يا ربّ ابتليتني بهذه البليّة وأنت تعلم أنّه لم يعرض لي أمران قطّ إلّا التزمت أخشنهما على بدني ولم آكل أكلة قطّ**

١ـ جمع الثور: ذكر البقر.

إلّا وعلى خواني يتيم فلو أنّ لي منك مقعداً نخصم لأدليت بحجّتي قال: فعرضت له سحابة فنطق فيها ناطق: يا أيّوب أدل بحجّتك، قال: فشدّ عليه منزره وجثا على ركبته فقال: ابتليتني بهذه البليّة وأنت تعلم أنّه لم يعرض لي أمران قطّ إلّا التزمت أخشنهما على نفسي ولم آكل أكلة إلّا وعلى خواني يتيم قال: فقيل له: يا أيّوب من حبّب إليك الطاعة؟ وفي رواية: نودي من الغمامة بعشر آلاف لسان: يا أيّوب من صيّرك تعبد الله والناس عنه غافلون؟ أتمنّ على الله بما لله فيه المنّة عليك؟ قال: فأخذ عليه السلام كفّاً من التراب ووضعه في فيه ثمّ قال: أنت يا ربّ».[1]

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ الله عزّ وجلّ ابتلى أيّوب بلا ذنب فصبر حتّى عيّروه إنّ الأنبياء لا يصبرون على التعيير».[2]

وفي «الكافي» عنه عليه السلام: «إنّ الله يبتلي المؤمن بكلّ بليّة ويميته بكلّ ميتة ولا يبتليه بذهاب عقله أما ترى أيّوب كيف سلّط إبليس على ماله وأهله وعلى كلّ شيء منه وبدنه ولم يسلّط على عقله ليوحّد الله؟»[3]

وفي رواية: «سلّط على أيّوب فشوّه خلقه ولم يسلّط على دينه».[4]

وفي «الخصال» عنه عن أبيه عليهما السلام قال: «إن أيّوب عليه السلام ابتلي سبع سنين بغير ذنب وإنّ الأنبياء معصومون لا يذنبون ولا يزيغون ولا يرتكبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً».[5]

وقال عليه السلام: «إنّ أيوب مع جميع ما ابتلي به لم ينتن له رائحة ولا قبحت له صورة ولا خرجت منه مدّة من دم وقيح ولا استقذره أحد رآه ولا استوحش منه أحد

١ـ علل الشرايع، ج ١، ص ٧٦؛ والبحار، ج ١٢، ص ٣٤٣.

٢ـ علل الشرايع، ج ١، ص ٧٦؛ والبحار، ج ١٢، ص ٣٤٧؛ وقصص الأنبياء، الراوندي، ص ١٤٢.

٣ـ الكافي، ج ٢، ص ٢٥٦.

٤ـ الكافي، ج ٨، ص ٢٨٨؛ وتفسير العياشي. ج ٢، ص ٢٦٩؛ والبحار، ج ٦٠، ص ٢٥٥.

٥ـ الخصال، ص ٣٩٩؛ والبحار، ج ١٢، ص ٣٤٨.

شاهده ولا تدوّد شيء من جسده وإنّما اجتنبه الناس لفقره وضعفه في ظاهر أمره لجهلهم بماله عند ربّه».[١]

وقد قال النبي ﷺ: «أعظم الناس بلاء الأنبياء ثمّ الأولياء ثمّ الأمثل فالأمثل، وإنّما ابتلاء العظيم الّذي يهون معه على جميع الناس لئلا يدّعوا له معه الربوبيّة إذا شاهدوا ما أراد الله ذكره أن يوصله إليه من عظائم نعمه متى شاهدوه ليستدلّوا بذلك على أنّ الثواب من الله على ضربين: استحقاق واختصاص، ولئلا يحقروا ضعيفاً لضعفه ولا فقيرا لفقره وليعلموا أنّه يسقم من يشاء ويشفي من يشاء متى شاء كيف يشاء بأيّ وجه شاء ويجعل ذلك عبرة لمن يشاء وشقاوة لمن يشاء باستحقاقه وسوء اختياره وسعادة لمن يشاء بحسن اختياره وصنيعه وهو عزّ وجلّ عدل في قضائه حكيم في أفعاله لا يفعل بعباده إلّا الأصلح لهم ولا قوّة إلّا بالله».[٢]

وفي هذا الأمر أنّ بدن أيّوب نتن وتدوّد اختلاف شديد في الأخبار. والفيض قدّس سرّه قال في «الصافي»[٣]: لعلّ المراد ببدنه الّذي قيل في الرواية الأولى أنّه لم ينتن رائحته ولم يتدوّد بدنه الأصليّ الّذي يرفع من الأنبياء والأوصياء إلى السماء وببدنه الّذي قيل في هذه الرواية: إنّه أنتن وتدوّد بدنه العنصريّ الّذي هو كالغلاف لذلك ولا مبالاة للخواصّ به فلا تنافي بين الروايتين[٤]. وبالجملة اختلف العلماء في لبث مرض أيّوب: المشهور سبع سنين وأشهراً.

وروى ابن شهاب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «بقي أيّوب في البلاء

١ـ بحار الأنوار، ج ١٢ ص ٣٤٨؛ والصافي، ج ٤، ص ٣٠٣.

٢ـ الخصال، ص ٤٠٠؛ وبحار الأنوار، ج ١٢، ص ٣٤٨.

٣ـ تفسير الصافي، ج ٤، ص ٣٠٥.

٤ـ فيه تعسف وتكلف، وعويصة تنفر الناس عن الرسول الذي أرسل إليهم وتحمل أعباء الرسالة لهدايتهم باقية على حالها. وليت شعري! ما يمنع من ضرب أمثال هذه الروايات على الجدار؟

ثماني عشر سنة».[1]

وبالجملة لمّا أخرجوه من القرية قال الحسن: مكث أيّوب بعد ما القي على الكناسة سبع سنين وأشهراً ولم يبق له ولد ولا مال ولا صديق غير امرأته «رحمة» بنت إفرائيم بن يوسف الصدّيق وكانت تأتيه بالطعام وتحمد اللّه مع أيّوب وكان مواظباً لحمد اللّه والثناء عليه والصبر على البلاء فصرخ إبليس صرخة جزعاً من صبر أيّوب فاجتمع جنوده من أقطار الأرض وقالوا له: ما جزعك؟ قال: أعياني هذا العبد وما أبقيت له شيئاً ولم يزدد بذلك إلّا صبراً وحمدا وهو مع صنيعي به كما ترون لا يفتر عن ذكر اللّه فاستعنت بكم لتعينوني عليه فقالوا له: أين مكرك؟ أين عملك الّذي أهلكت به من مضى؟ قال: بطل ذلك كلّه في أيّوب فأشيروا عليّ قالوا: إن آدم حين خرجته من الجنّة من أين أتيته؟ قال: من قبل امرأته. قالوا: فشأنك بأيّوب من قبل امرائة فإنّه لا يستطيع أن يعصيها لأنّه لا يقربه أحد غيرها قال: أصبتم، فانطلق حتّى أتى امرأته فتمثّل لها في صورة رجل فقال: أين بعلك يا أمة اللّه؟ قالت: هو هذا يحكّ قروحه ويتردّد الديدان في جسده فلمّا سمعها طمع أن يكون ذلك جزعاً فوسوس إليها وذكّرها ما كان لها من النعم والمال وما كان من شباب أيّوب وجماله.

قال الحسن: فصرخت رحمة فعلم إبليس أنّها جزعت فأتاها بسخلة وقال: ليذبح هذه لي أيّوب ويبرأ، قال: فجاءت إلى أيّوب تصرخ وقالت: يا أيّوب حتّى متى يعذّبك ربّك ألّا يرحمك؟ اذبح هذه السخلة واسترح فقال أيّوب: أتاكِ عدوّ اللّه ونفث فيكِ فاجتنبيه ويلك أترين ما تبكين عليه من ذهاب المال والولد والصحّة من أعطانا ذلك؟ قالت اللّه: قال: فكم متّعنا به؟

۱ـ تفسير الرازي، ج ٢٦، ص ٢١٣؛ وبحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٩٧.

قالت: ثمانين سنة، قال: منذ كم ابتلانا اللّه بهذا البلاء؟ قالت: سبع سنين وأشهر، قال: ويلك ما أنصفت ربّك إلّا صبرت في البلاء ثمانين سنة كما كنّا في الرخاء ثمانين سنة؟ واللّه لئن شفاني اللّه لأجلدنّك جلدة أمرتني أن أذبح لغير اللّه وحرام عليّ أن أذوق بعد هذا شيئاً من طعامك وشرابك الّذي تأتيني به فطردها فذهبت فلمّا نظر أيّوب عليه السلام في شأنه وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق وقد ذهبت امرأته خرّ ساجداً وقال: ربّ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فقال: ارفع رأسك فقد استجبت لك، اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل منها فلم يبق في ظاهر بدنه دابّة إلّا سقطت منه ثمّ ضرب رجله مرّة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق في جوفه داء إلّا خرج وقام صحيحاً وعاد شبابه وجماله حتّى صار أحسن ما كان ثمّ كسي حلّة فلمّا قام جعل يلتفت فلا يرى شيئاً ممّا كان له من الأهل والولد والمال إلّا وقد ضعّفه اللّه تعالى حتّى صار أحسن ممّا كان حتّى ذكر أنّ الماء الّذي اغتسل منه تطاير على صدره جراداً من ذهب فجعل يضمّه بيده فأوحى اللّه إليه: يا أيّوب ألم أغنيك؟ قال: بلى ولكنّها بركتك فمن يشبع منها؟ قال: فخرج أيّوب عليه السلام حتّى جلس على مكان مشرف. ثمّ إنّ امرأته قالت: هب إنّه طردني أفأتركه حتّى يموت جوعا وتأكله السباع؟ لأرجعنّ إليه فلمّا رجعت ما رأت تلك الكناسة ولا تلك الحال وإذا بالأمور تغيّرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وذلك بعين أيّوب عليه السلام فأرسل إليها أيّوب عليه السلام ودعاها وقال: ما تريدين يا أمة اللّه؟ فبكت وقالت: أردت ذلك المبتلى الملقى على الكناسة، فقال أيّوب: ما كان منك؟ فبكت وقالت: بعلي، فقال: أتعرفينه إذا رأيته؟ قالت: وهل يخفى على أحد يراه؟ فتبسّم وقال: أنا هو فعرفته بضحكه فاعتنقته ثمّ قال: إنّك أمرتني أن أذبح سخلة لإبليس وإنّي

أطعت اللّه وعصيت الشيطان ودعوت إليه فردّ عليّ ما ترين. وقال وهب: كانت امرأة أيّوب تعمل للنّاس وتأتيه بقوته فلمّا طال عليه البلاء سئمها الناس فلم يستعملوها فالتمست ذات يوم شيئاً من الطعام فلم تجد شيئاً فجزّت قرناً من رأسها فباعته برغيف أو أخذوا في عرس لعروس منها وأعطوها شيئاً من طعام فأتته به فقال لها: أين قرنك فأخبرته فحينئذ قال: رب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

واعلم أنّ المعتزلة قد طعنوا في هذه القصّة بهذا الترتيب كالجبّائيّ وأمثاله من وجوه:

أحدها: قال الجبّائيّ: ذهب بعض الناس إلى أنّ ما كان به من المرض كان فعلاً للشيطان سلّطه اللّه عليه لقوله تعالى حكاية عنه: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[1] أمّا أولا لأنه لو قدر على إحداث الأمراض والأسقام وضدّهما من العافية لتهيّأ له فعل خلق الأجسام ومن كان هذا فعله وحاله يكون إلهاً. وأمّا ثانياً فلأنّ اللّه أخبر عنه وعن جنوده بأنّه قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾[2]. وأمّا ثالثاً: قالوا: انتهاء ذلك المرض إلى حدّ التنفّر عنه غير جائز لأنّ الأمراض المنفّرة من القبول غير جائزة على الأنبياء.

وأجيب عن الأوّل والثاني أن لو فرضنا حصول استرخاص إبليس من اللّه فحينئذ إيقاع السقم والسلطة ليس من إبليس بل من اللّه.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه، وقلنا: ارفع رأسك واركض برجلك إلى الأرض وأزلنا ما به من الأوجاع ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ قال ابن مسعود وابن عبّاس: ردّ اللّه عليه أهله الّذين هلكوا بأعيانهم وأعطاه مثلهم معهم ولذلك ردّ

١ـ سورة ص: ٤١.

٢ـ سورة إبراهيم: ٢٢.

للّه عليه أمواله ومواشيه بأعيانها وأعطاه مثلها معها وهو المرويّ عن أبي عبد اللّه عليه السلام.[1] وقيل: إنّه خيّر أيّوب عليه السلام فاختار إحياء أهله في الآخرة ومثلهم في الدنيا فاوتي على ما اختار وكان له سبع بنات وثلاث بنين.

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: نعمة منّا عليه ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ وموعظة لهم في الصبر والتوكّل عليه لأنّه لم يكن في عصر أيّوب عليه السلام أحد أكرم منه عند اللّه فابتلاه اللّه بهذه المحن العظيمة فأحسن الصبر عليها فينبغي لكلّ عاقل إذا أصابته مصيبة أن يصبر عليها ولا يجزع ويعلم أنّ عاقبة الصبر محمودة.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ أي: واذكر هؤلاء الأنبياء وما أنعمت عليهم من فنون النعمة بأنّهم كانوا من الصابرين على الشدائد والمحن والعبادة.

أمّا إسماعيل فلأنّه صبر على الانقياد للذبح والإقامة ببلد لا زرع فيه ولا ضرع ولا بناء، وصبر على بناء البيت فأكرمه اللّه تعالى وأخرج من صلبه خاتم النبيّين صلى الله عليه وآله وسلم.

وأمّا إدريس عليه السلام فقد تقدّمت قصّته في سورة مريم، بعث إلى قومه داعيا لهم إلى اللّه فأبوا فأهلكهم اللّه ورفع إدريس إلى السماء الرابعة.

وأما ذو الكفل وقيل: في تسميته بهذا الاسم وجوه: أحدها: أنّه كان ضعّف عمل الأنبياء في زمانه وضعّف ثوابهم.[2] وثانيها عن ابن عبّاس: (إنّ نبيّاً من أبناء بني إسرائيل آتاه اللّه الملك والنبوّة ثمّ أوحى اللّه إليه: إنّي أريد قبض روحك فاعرض ملكك على بني إسرائيل فمن تكفّل لك أنّه يصلّي

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ١٠٦ ، والبحار، ج ١٢، ص ٣٤٦.

٢ـ زبدة البيان، ص ٣٥٤؛ والكشاف، ج ٢، ش ص٥٨١.

باللّيل حتّى يصبح ويصوم بالنهار فلا يفطر ويقضي بين النّاس فلا يغضب فادفع ملكك إليه، فقام ذلك النبيّ في بني إسرائيل وأخبرهم بذلك فقام شابّ وقال: أنا أتكفّل لك بهذا فقال: في القوم من هو أكبر منك فاقعد، ثمّ صاح الثانية والثالثة فقام الشابّ وقال: أنا أتكفّل لك بهذه الثلاث فدفع إليه ملكه ووفى بما ضمن فحسده إبليس فأتاه وقت ما يريد أن يقيل[1] فقال: إنّ لي غريماً قد مطلني حقّي وقد دعوته إليك فأبى فأرسل معي من يأتيك به فأرسل معه وقعد حتّى فاتته القيلولة وعاد إلى صلاته وصلّى ليله إلى الصباح ثمّ أتاه من الغد عند القيلولة وقال: إنّ الرجل الّذي استأذنتك له هو في موضع كذا فلا تبرح من مكانك حتّى آتيك به فذهب وبقي هو منتظرا حتى فاتته القيلولة ثمّ أتاه فقال له: هرب منّي فمضى ذو الكفل إلى صلاته فصلّى ليلة حتّى أصبح فأتاه إبليس وعرّفه نفسه وقال له: حسدتك على عصمة اللّه إيّاك فأردت أن أخرجك حتّى لا تفي بما تكفّلت به، فشكره اللّه سعيه على ذلك الأمر ونبّأه فسمّي ذا الكفل وعلى هذا فالمراد بالكفل هنا الكفالة).

قال الرازيّ: وكذلك ذكر عليّ أمير المؤمنين أيضاً كما ذكر ابن عبّاس لكن زاد: إنّ ذا الكفل قال للبوّاب في اليوم الثالث وقد غلب عليه النعاس: لا تدعنّ أحداً يقرب هذا الباب حتّى أنام فإنّي قد شقّ عليّ النعاس، فجاء إبليس فلم يأذن له البوّاب فدخل من كوّة في البيت وتسوّر فإذا هو يدقّ الباب فاستيقظ الرجل وعاتب البوّاب فقال: أما من قبلي فلم يؤت فقام إلى الباب فإذا هو مغلق وإبليس على صورة شيخ معه في البيت فقال له: أتنام والخصوم على الباب؟ فعرفه وقال: أنت إبليس؟ قال: نعم أعييتني في كلّ شيء فعلت، وفعلت هذه الأفعال لأغضبنّك فعصمك اللّه منّي، فسمّي ذا

١ـ وقت نوم القيلولة.

الكفل لأنّه وفى بما تكفّل.

وقيل: إنّه لم يكن نبيّاً ولكن كان عبداً صالحاً. وهذا القول بمعزل عنه وضعيف لأنّه في الآية في عداد الأنبياء والقول كقائله وهو أبو موسى الأشعريّ.[١]

وذو الكفل إمّا اسم أو لقب والكفل معناه النصيب وإنّما ذكرنا أنّه كان عمله مضاعفاً وثوابه ضعف ثواب غيره فعلى هذا التقدير يكون نبيّاً لأنّه كان في زمنه أنبياء على ما روي ومن ليس بنبيّ لا يكون عمله أفضل من الأنبياء على أنّ السورة ملقّبة بالأنبياء فكلّ من ذكره اللّه فيها نبيّ.

وقيل: إنّ ذا الكفل زكريّا، وقيل: يوشع، وقيل: إلياس، ثمّ قالوا: خمسة من الأنبياء سمّاهم اللّه باسمين: إسرائيل ويعقوب، إلياس وذو الكفل، عيسى والمسيح، يونس وذو النّون، محمّد وأحمد عليهم السّلام و﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

وفي كتاب النبوّة بالإسناد عن عبد العظيم بن عبد اللّه الحسنيّ قال: كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام أسأله عن ذي الكفل ما اسمه؟ وهل كان من المرسلين؟ فكتب: إنّ اللّه بعث مائة ألف نبيّ وأربعة وعشرين ألف نبيّ، المرسلين منهم ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلاً وإنّ ذا الكفل كان منهم وكان بعد سليمان بن داود وكان يقضي بين الناس كما يقضي داود ولم يغضب قطّ إلّا للّه وكان اسمه عدويا بن أدار بن إلي.[٢] ﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ﴾ المذكورين من الأنبياء ﴿فِى رَحْمَتِنَآ﴾ وغمرناهم في نعمنا لأنّهم صلحت أعمالهم وكانوا من الصالحين.

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ٢١١.

٢ـ تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ١٠٧؛ وقصص الأنبياء، الراوندي، ص ٢١٥.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾

المعنى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ صاحب الحوت الَّذي حبس في بطنه وهو يونس بن متّى ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ لقومه لمّا برم وأصرّ في إيمانهم وطال دعوته لهم وشدّ شكيمتهم وطغيانهم ولم يقبلوا أمره فهاجرهم قبل أن يؤمر بالهجرة ﴿فَظَنَّ أَن لَّن﴾ نضيق عليه أو أن لن نقضي عليه بالعقوبة من القدر لا من القدرة أو المعنى ظنّ أن لن نعمل قدرتنا أو المعنى: هو تمثيل لحاله بحال من ظنّ أن لن نقدر عليه في إعراضه قومه من غير أمرنا وانتظاراً لإذن منّا، أو سبقت خطرة شيطانيّة إلى وهمه فسمّي ظنّا للمبالغة، والقدر بمعنى القضاء.

ومن فسّر الآية بأنّه خرج مغاضباً لربّه وأنّه ظنّ أن لن يقدر اللّه على أخذه فقد أساء الثناء على الأنبياء وأنّه نسب إليهم الكفر فضلاً عن الكبيرة لأنّه نسب العجز إلى اللّه تعالى اللّه عن العجز وتعالى الأنبياء عن هذه النسبة.

وقيل: إنّه استفهام معناه التوبيخ وحذف حرف الاستفهام وتقديره: أفظنّ أن لن نقدر عليه، وقد جاء في كلام العرب حذفه كقول عمر بن أبي ربيعة:

ثمّ قالوا تحبّها قلت بهرا　　　عدد القطر والحصى والرمال

وأصله: أتحبّها، وأنكر جماعة هذا التأويل مثل عليّ بن عيسى وغيره.

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت وقيل: كان في بطن الحوت والحوت في بطن حوت. وبالجملة فاختلفوا في أنّ وقوعه في بطن السمكة كان قبل اشتغاله بأداء الرسالة أو بعده: أمّا القول الأوّل فقال ابن عبّاس: كان يونس عليه السلام وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً وبقي سبطان ونصف فأوحى اللّه إلى شعيب النبيّ عليه السلام أن أذهب إلى حزقيل الملك وقل له حتّى يوجّه نبيّاً قويّاً أميناً فإنّي ألقي في قلوب أولئك أن يرسلوا معه بني إسرائيل فقال له الملك: فمن ترى؟ ـ وكان في مملكته خمسة من الأنبياء ـ فقال: يونس بن متّى فإنّه قويّ أمين فدعا الملك وهو حزقيل يونس وأمره أن يخرج فقال يونس: هل أمرك اللّه بإخراجي؟ قال: لا، قال: فهل سمّاني لك؟ قال: لا، قال: فههنا أنبياء غيري فألحّ عليه فخرج مغاضباً للملك ولقومه.

فأتى بحر الروم فوجد قوماً هيّئوا سفينة فركب معهم فتلجلجت السفينة وكادوا أن يغرقوا فقال الملّاحون: هاهنا رجل عاص أو عبد آبق لأنّ السفينة لا تفعل هذا من غير ريح إلّا وفيها رجل عاص ومن رسمنا أنّنا إذا ابتلينا بمثل هذا البلاء أن نقترع فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر ولأن يغرق واحد خير من أن تغرق السفينة فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة فيها كلّها على يونس فقال: أنا الرجل العاصي والعبد الآبق وألقى نفسه في البحر فجاء حوت فابتلعه فأوحى اللّه إلى الحوت: لا تؤذ منه شعرة فإنّي جعلت بطنك سجناً له ولم أجعله طعاماً لك.

ثمّ لمّا نجّاه اللّه من بطن الحوت نبذه بالعراء كالفرخ المنتوف فأنبت اللّه عليه شجرة من يقطين يستظلّ بها ويأكل من ثمرها حتّى اشتدّ فلمّا يبست الشجرة حزن عليها يونس فقيل له: أتحزن على شجرة ولم تحزن على

مائة ألف أو يزيدون؟ حيث لم تذهب إليهم ولم تطلب راحتهم.

ثمّ أوحى اللّه إليه وأمره أن يذهب إليهم فتوجّه يونس عليه السلام نحوهم حتّى دخل أرضهم وهم منه غير بعيد فأتاهم يونس وقال لملكهم: إنّ اللّه أرسلني إليك لترسل معي بني إسرائيل فقالوا: ما نعرف ما تقول، ولو علمنا أنّك صادق لفعلنا ولقد أتيناكم في دياركم وسبيناكم فلو كان كما تقول لمنعنا اللّه عنكم، فطاف ثلاثة أيام يدعوهم إلى ذلك فأبوا عليه فأوحى اللّه إليه: قل لهم: إن لم تؤمنوا جاءكم العذاب، فأبلغهم فأبوا فخرج من عندهم فلمّا فقدوه ندموا على فعلهم فانطلقوا يطلبونه فلم يقدروا عليه. ثمّ ذكروا أمرهم وأمر يونس للعلماء الّذين كانوا في دينهم فقالوا: انظروا واطلبوه في المدينة فإن كان فيها فليس ممّا ذكر من نزول العذاب وإن كان قد خرج فهو كما قال فطلبوه فقيل لهم: إنّه خرج العشيّ فلمّا أيسوا أغلقوا باب مدينتهم فلم يدخلها بقرهم ولا غنمهم وعزلوا الوالدة عن ولدها وكذا الصبيان والأمّهات ثمّ قاموا ينتظرون الصبح فلمّا انشقّ الصبح رأوا العذاب ينزل من السماء فشقّوا جيوبهم ووضعت الحوامل ما في بطونها وصاح الصبيان وثغت الأغنام والبقر فرفع اللّه العذاب عنهم فبعثوا إلى يونس فآمنوا به وبعثوا معه بني إسرائيل.

فعلى هذا القول كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت وفي هذا القول رواية أخرى وهي أنّ جبرئيل قال ليونس عليه السلام: **«انطلق إلى أهل نينوى وأنذرهم أنّ العذاب قد حضرهم»**، فقال يونس عليه السلام: التمس لي دابّة، فقال: **«الأمر أعجل من ذلك»**، فغضب وانطلق إلى السفينة وباقي الحكاية كما مرّت إلى أن التقمه الحوت فانطلق إلى أن وصل نينوى فألقاه هناك.

واحتجّ القائلون بجواز الذنب على الأنبياء بهذه الآية من وجوه وانتهزوا فرصة في الأمر:

أحدها: أنّهم فسّروا أنّه ذهب مغاضباً لربّه وهذا من أعظم الذنوب.

والجواب أنّ المغاضبة لم تكن مع الله لأنّه ليس في الآية أنّ يونس من غاضب لكنّا نقطع أنّه لا يجوز على نبيّ الله أن يغاضب ربّه بل للمؤمن لا يجوز هذا الأمر فضلاً من أن يكون نبيّاً لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[١] فحينئذ لا يجوز صرف هذه المغاضبة إلى الله فوجب أن يكون المراد أنّه خرج مغاضباً لمن يعصيه فيحتمل قومه أو الملك أو هما جميعاً.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾.

وقد أجبنا عن هذه الشبهة وغيرها في أوّل تفسير الآية حيث فسّر القدر بالتقدير لا بالقدرة كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[٢] أي: يضيق ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾[٣] أي: ضيّق وعلى قول من يقول: إنّه خطرة بوسوسة الشيطان سبقت إلى وهمه وكان ذلك قبل رسالته فردّها بالحجّة فحينئذ لا يقع إلّا ترك الأولى.

وأمّا إقراره بالظلم فلا شكّ أنّه كان تاركاً للأفضل مع القدرة على تحصيل الأفضل فكان ذلك ظلماً بالنسبة إليه. وأمّا حبسه في بطن الحوت لا نسلّم أنّه عقوبة إذ الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا بل للمحنة والامتحان. وأمّا قوله: وهو مليم والمليم أي: ذو الملامة وليس ملازمة بين الملامة ووجود الذنب وإنّما يحصل بسبب ترك الأفضل.

وممّا يدلّ على أنّ مراد يونس في قوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أنّه

١ـ سورة الأحزاب: ٣٦.

٢ـ سورة الرعد: ٢٦.

٣ـ سورة الطلاق: ٧.

ما ظنّ العجز بالنسبة إلى الله قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ وتقديره: انزّهك أن تفعل ذلك جوراً وشهوة وعجزاً بل فعلته بمقتضى الإلهيّة والحكمة.

وأمّا قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالمعنى: ظلمت نفسي بفراري من قومي بغير إذنك وما كان لي أن أفعل ذلك من عند نفسي وأنا الآن من النادمين على هذا الفعل وليس المعنى أنّه فعل كبيرة وأقرّ بها كما زعمه القائلون بصدور الذنب عنه فوصف ربّه بكمال الربوبيّة بقوله «لا إلهَ إلّا أنتَ» ووصف نفسه بقوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالقصور عن أداء حقّ الربوبيّة.

فاستجاب الله دعاءه ونجّاه الله برحمته. وكما أنجينا يونس من كرب الحبس في بطن الحوت إذ دعانا ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من كربهم إذا استغاثوا بنا، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: **«ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلّا استجيب له»**.[1] وعن الحسن ما نجّاه الله إلّا بإقراره على نفسه بالظلم.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ﴾ القصّة التاسعة قصّة زكريّا وكان سنّه مائة سنة وزوجته تسع وتسعون أو ثمان وتسعون سنة لمّا دعا بهذا الدعاء ومسّه الضرّ بتفرّده وأحبّ أن يعطيه الله ولداً يقوّيه على أمر دينه ويكون قائماً مقامه، وكان دعاؤه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ بغير ولد يعينني في حياتي ويرثني في مماتي ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ وفعلنا ما أراده لأجل سؤاله وفي ذلك البيان إعظام له ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ فهو كالتفسير للاستجابة ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ بأن كانت عقيمة فجعلناها ولودا، وكانت هرمة فعاد عليها شبابها: وقيل: كانت سيّئة الخلق فصارت حسنة الخلق.

١ـ زبدة البيان، ص ٣٥٣؛ والصافي، ج ٣، ص ٣٥٣.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ﴾ إنّ الأنبياء الّذين تقدّم ذكرهم كانوا يبادرون في الطاعات والعبادات ﴿وَيَدْعُونَنَا﴾ ويعبدونا رغبة في الثواب ورهبة وخوفاً من العقاب لوقوع التقصير. ولعلّ المراد رغبتهم في الطاعة ورهبتهم من المعصية لا أنّهم يعبدون رغبة للثواب ورهبة من العقاب لارتفاع مقام الأنبياء عن ذلك.

قال أمير المؤمنين: **«ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً لجنّتك بل وجدتك أهلاً للعبادة»**. وهذا مدح لهم في حرصهم على العبوديّة والطاعة.

﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ والخاشع هو الحذر الّذي لا يبسط في الأمور خوفاً من الإثم

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١) إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥)

هذه القصّة العاشرة. التقدير: واذكر ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ إحصاناً كلّيّاً من الحلال والحرام جميعاً كما قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[1] حتّى من نفخ جبرئيل قبل أن تعرفه حيث منعته من جيب درعها وبعد أن نفخ جبرئيل في جيب درعها وصل النفخ في جوفها وهذا معنى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾.

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أمّا آيات عيسى فمعلومة

١ـ سورة مريم: ٢٠.

وليست واحدة وعشرة بل أكثر وأمّا آيات مريم أيضاً كثيرة: أحدها ظهور الحبل فيها بنفخ جبرئيل من غير ذكر. وأنّ رزقها كان يأتيها به الملائكة من الجنّة وهو قوله: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ﴾[١] وقيل: إنّها لم تلتقم ثدياً يوماً قطّ وتكلّمت هي أيضاً في صباها كما تكلّم عيسى وإنّما قال «آية» ولم يقل «آيتين» لأنّه في موضع دلالة فلا يحتاج أن يثنّى في الآية وهاهنا آخر القصص.

﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الأمّة الملّة وهو إشارة إلى دين الإسلام أي: إنّ ملّة الإسلام هي ملّتكم الّتي يجب أن تكونوا عليها يشار إليها بملّة واحدة غير مختلفة ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ وإلهكم واحد ﴿فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم﴾ والأصل وتقطّعتم إلّا أنّ الكلام صرف إلى الغيبة للالتفات كأنّه ينقل عنهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ويقول: ألا ترون إلى عظم ما ارتكبوا هؤلاء.

وحاصل المعنى: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما تتوزّع الجماعة الشيء ويقسّمونه فيصير لهذا نصيب ولذلك نصيب تمثيلا لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتّى ويلعن بعضهم بعضاً ويتبرّأ بعضهم بعضاً فهذا الوضع بمنزلة التقطيع.

ثمّ قال: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ على سبيل التهديد أي: اجتمعتم إذا فرقتم راجعون إلى حكمنا في الوقت الّذي لا يقدر على الحكم سوانا فنجازيهم بأعمالهم.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ شيئاً مثل صلة الرحم ومعونة الضعيف ونصر المظلوم والتنفيس عن المكروب وغير ذلك من أنواع الطاعات بشرط

١ـ سورة آل عمران: ٣٧.

أن يكون مؤمناً بالله ومصدقاً برسوله ﴿فَلَا كُفْرَانَ﴾ وبطلان لثواب عمله وليس هو محروماً عنه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي: نأمر ملائكتنا أن يكتبوه ولا نضيع من عمله شيئاً وضامنون لجزائه ونكتب عمله إمّا في اللوح المحفوظ أو في الصحف الّتي تعرض يوم القيامة.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ وحرام خبر والمبتدء إمّا قوله: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أو شيء آخر على اختلاف المعنى «ولا» مزيدة مثل ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾[١] فحينئذ تقدير الآية: حرام وممتنع رجوعهم إلى الدنيا أو إلى التوبة وقيل: إنّ «لا» غير زائدة ومعناها أي: حرام وممتنع عدم رجوعهم للجزاء. وقال أمير المؤمنين في خطبة الجمعة: **«ألم تروا الماضين منكم لا يرجعون وإلى الخلف الباقين منكم لا يبقون»**. قال الله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وهذا المعنى يؤيّد المعنى الأوّل لا الثاني وقيل: معناه: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ أن يتقبّل منهم عمل لأنّهم لا يرجعون أي: لا يتوبون أبداً.

وقرئ: «وحرم على قرية» أي: كتب على من أهلك أن لا يرجع إلى الدنيا قضاء من الله حتماً وفي ذلك تخويف لكفّار مكّة بأنّهم لو عذّبوا وأهلكوا لم يرجعوا إلى الدنيا كغيرهم من الأمم المهلكة وقد جاء الحرام بمعنى الواجب في الاستعمال قالت الخنساء:

وإنّ حراماً لا أرى الدهر باكيا ... على شجوة إلّا بكيت على عمرو

وأمّا الاستعمال فلأنّ تسمية أحد الضدّين باسم الآخر مجاز مشهور فإذن وإنّ حراماً أي: وإنّ واجباً مثل: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾[٢].

١ـ سورة الأعراف: ١٢.

٢ـ سورة الشورى: ٤٠.

وبالجملة إنّ الاختلاف في المعنى بسبب اختلاف كون «لا» مزيدة وغير مزيدة وإنّهم بالكسر وأنّهم بالفتح فتأمّل.

قال أبو مسلم بن بحر: تقدير الآية أنّ عدم رجوع الهالكين ممتنع فيكون حينئذ رجوعهم واجباً في الآخرة والغرض من البيان إبطال قول من ينكر البعث ويكون الحضور بعد فتح يأجوج.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

المعنى: على قول أبي مسلم أنّهم يرجعون أحياء بعد الممات للمجازاة وذلك الرجوع يكون وقت فتح سدّ يأجوج ومأجوج بسقوط أو كسر أو هدم أو غير ذلك وذلك من أشراط الساعة وتأنيث «فتحت» لأنّ يأجوج ومأجوج بمنزلة القبيلتين أو المراد جهة يأجوج ومأجوج وحذف المضاف وهو سدّ يأجوج قيل: السدّ يفتحه الله ابتداء، وقيل: بل إذا جعل الله الأرض دكّاً زالت الصلابة عن أجزاء الأرض فحينئذ ينفتح السدّ.

﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ قيل: والمراد من الضمير في قوله

«وهم» كناية عن يأجوج ومأجوج من كلّ نشزة وارتفاع وعلوّ يسرعون إلى الورود والمحابطة في الناس ويتفرّقون في الأرض فلا ترى واديا إلّا وقوم منهم يهبطون فيها مسرعين وقيل: الضمير كناية عن الخلق يخرجون من قبورهم إلى الحشر فعلى هذا المعنى الثاني تكون الآية على قراءة ابن عبّاس: وهم من كلّ حدب ينسلون أي: القبر ويؤيّده قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾[1].

﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ ولا شبهة أنّ الوعد الحقّ يوم القيامة واقترب قيام الساعة فتشخص أبصار الكفّار من شدّة أهوال ذلك اليوم يقولون: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ والويل لنا ﴿قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ﴾ في الدنيا ﴿مِّنۡ هَٰذَا﴾ الأمر حيث كذّبناه وقلنا: إنّه غير كائن بل ظلمنا أنفسنا بتلك الغفلة وبتكذيب الرسل وعبادة الأوثان وبمخالفة ما أمرنا.

﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الخطاب لمشركي قريش. روي أنّهﷺ دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلاث مائة وستّون صنماً فجلس إليهم فعرض له النضر بن الحارث فكلّمه رسول الله فأفحمه ثمّ تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وقرئ «حطب جهنّم» والمراد من الحصب الرمي والمراد أنّهم يرمون في جهنّم كما ترمى بالحصباء.

فإن قيل: أي: فائدة في إدخال الأصنام النار؟ فالفائدة: يعذّب بها المشركون الّذين عبدوها خصوصاً.

وبالجملة فلمّا تلا رسول اللهﷺ الآية وأفحم نضراً أقبل عبد الله بن الزبعرى فرآهم يتهامسون فقال: فيم خوضكم؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول

١ـ سورة يس: ٥١.

رسول اللهﷺ فقال عبد الله: أما والله لو وجدته لخصمته فدعوه، فقال ابن الزبعرى: أأنت قلت ذلك؟ قالﷺ: «نعم». قال: قد خصمتك وربّ الكعبة، أليس اليهود عبدوا عزيراً، والنصارى عبدوا المسيح، وبنو فليح عبدوا الملائكة؟ فأجابﷺ: «بل هم عبدوا الشياطين الّتي أمرتهم بذلك» فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ الآية، يعني: عزيراً والمسيح والملائكة.[1]

وإنّما كان مقصود ابن الزبعرى أن يفحم النبيﷺ بأنّ لازم هذه الآية أنّ عزيراً وعيسىعليه السلام والملائكة حينئذ حصب جهنّم عنادا بالله فأجابهمﷺ بأنّ معبودهم الشياطين ثمّ نزلت الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ فنزّهتهم الآية.

واعلم أنّ كلام ابن الزبعرى ساقط بالكلّيّة من وجوه: الأوّل أنّ الخطاب لقريش ومشركي مكّة وهم كانوا يعبدون الأصنام فقط. والثاني أنّه تعالى لم يقل: ومن تعبدون بل قال: و﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ وكلمة «ما» لا تتناول العقلاء أمّا قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾[2] وقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[3] محمول ومفسّر بشيء والشيء لا يفيد العموم فلا يتوجّه سؤال ابن الزبعرى، ولو أفاد الشيء معنى العموم فخصّ بالدلائل العقليّة والسمعيّة في حقّ الملائكة والمسيح وعزير فوعدهم الله إيّاهم بكلّ مكرمة فعلى الفرض فخرجوا بدليل منفصل فحينئذ لا يرد إيراد اللعين.

والحكمة في أنّهم قرنوا بآلهتهم أنّهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غمّ

١ـ انظر: تفسير ابن كثير، ج ٤، ص ١٤١؛ وج ٣، ص ٢٠٨.

٢ـ سورة الشمس: ٥.

٣ـ سورة الكافرون: ٢.

وحسرة لأنّهم ما وقعوا في ذلك العذاب إلّا بسببهم والمقارنة إلى العدوّ والنظر إلى وجه العدوّ باب من العذاب قيل: وما كان حديداً منها أو حجراً يحمى ويلتزق بعبّادها، وما كان خشباً يجعل جمرة يعذّب بها صاحبها استهزاء، ومعنى حصب جهنّم المراد: يقذفون في النّار فلمّا رمي بهم كرمي الحصباء جعلهم «حصب» تشبيها.

واللّام في قوله: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ معوّضة من «على» للدلالة على الاختصاص، ولبيان أنّ ورودهم لأجلها والخطاب لهم ويشمل الأصنام تغليباً.

فإن قيل: الشياطين عقلاء ولفظ «ما» لا يتناولهم فكيف قال الرسول ذلك؟

قلنا: وما تعبدون بالأصنام أليق لكلمة «ما» وقوله: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً﴾ بالشياطين أليق لكلمة هؤلاء فيعمّ الشياطين والأصنام.

وفي الآية بيان أنّ من يرمى في النار لا يمكن أن يكون إلهاً فقال تعالى في مقام الاستدلال: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ وما دخل عابدوها في النار لكنّهم وردوها فهم ليسوا آلهة.

ثمّ وصف سبحانه عذاب العابد والمعبود بأمور ثلاثة: أحدها: الخلود فقال: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يعني: العابدين والمعبودين وهو تفسير لقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

وثانيها: قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ الزفير هو اللهيب أي: يرتفعون بسبب لهب النار حتّى إذا ارتفعوا ورجوا الخروج ضربوا بمقامع الحديد فهووا إلى أسفلها سبعين خريفاً قال الخليل: الزفير أن يملأ الرجل صدره غمّا ثمّ يتنفّس.[1]

وثالثها: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ والضمير فيه قيل: راجع إلى

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٢، ص ٢٢٥.

الأصنام والمعبودين أي: لا يسمعون صراخ المعذّبين وشكواهم أي: ولا يغيثونهم. وقيل: إنّ الكفّار المعذّبين لا يسمعون ما يسرّهم وينفعهم ولا يستمعون ما ينتفعون به وإنّما يسمعون صوت المعذّبين وصوت الملائكة الّذين يعذّبونهم ويسمعون ما يسوؤهم. وقيل: يجعلون في توابيت من نار فلا يسمعون شيئاً ولا يرى أحد منهم أنّ في النار أحداً يعذّب غيره وعن عبد الله بن مسعود قال: ولمّا نزلت هذه الآية وتلاها الرسول ﷺ أتى عبد الله بن الزبعرى رسول الله فقال: ألست تزعم أن عزيرا رجل صالح وأنّ مريم امرأة صالحة؟ قال: «بلى» قال: فإنّ هؤلاء يعبدون من دون الله فهم في النار؟ فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

فعلى فرض أن يكون إيراد ابن الزبعرى واردا فهذه الآية جواب عن إيراد اللعين. المعنى: قد جرت عادة الله أنّه متى شرح عقاب الكفّار أردفه بشرح ثواب الأبرار.

و﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ تأنيث الأحسن أي: البشرى بالسعادات والخصلة المفضّلة وهي الإيمان الكامل بالله وقد سبق في علمنا بحسن صنيعهم الموعدة بالجنّة والسعادة، أولئك عن النار مبعدون ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ بحيث لا يسمعون صوتها الّذي يحسّ منها وهم فيما اشتهت أنفسهم وفيما تطلب أنفسهم من اللذائذ ونعيم الجنّة خالدون ودائمون.

وقيل: إنّ المراد من الّذين سبقت لهم الحسنى عيسى ومريم وعزير والملائكة الّذين عبدوا من دون الله وهم كارهون استثناهم الله من المعبودين إذا أطبقت على أهلها وهذا المعنى على فرض كون العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، وعلى كون العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالآية

عامّة لهم ولغيرهم ممّن كان مؤمناً، لا يحزنهم الفزع الأكبر والخوف العظيم. وقيل: المراد من الفزع الأكبر النفخة الأخيرة حيث يقول: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[1] ولا يلزم من نفي الفزع الأكبر نفي الفزع في النار وأهوال القيامة وقيل: هو حين يؤمر بالعبد إلى النار أو حين يذبح الموت.

وروى أبو سعيد الخدريّ عن النبيّ ﷺ: **«ثلاثة على كثبان من مسك لا يحزنهم الفزع الأكبر ولا يكترثون للحساب: رجل قرأ القرآن محتسباً ثمّ أمّ به قوماً محتسباً، ورجل أذّن محتسباً، ومملوك أدّى حقّ الله وحقّ مواليه».**[2]

﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وتستقبلهم بالتهنئة قيل: هم الملائكة الّذين كتبوا أعمالهم في الدنيا ويقولون لهم ويبشّرونهم بأنّ ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا، في «المجالس» عن النبيّ ﷺ أنّه قال لعليّ عليه السلام: **«يا عليّ أنت وشيعتك على الحوض تسقون من أحببتم وتمنعون من كرهتم وأنتم الآمنون يوم الفزع الأكبر في ظلّ العرش، يفزع الناس ولا تفزعون، ويحزن الناس ولا تحزنون وفيكم نزلت هذه الآية».**[3]

وأيضاً في «المجالس» عن الصادق عليه السلام قال: **«إنّ الله يبعث شيعتنا يوم القيامة على ما فيهم من الذنوب أو غيره مبيضّة وجوههم مستورة عوراتهم آمنة روعتهم قد سهلت لهم الموارد وذهبت عنهم الشدائد يركبون نوقاً من ياقوت فلا يزالون يدورون خلال الجنّة عليهم برد من نور يتلألأ يوضع لهم الموائد فلا يزالون يطعمون والناس في الحساب وهو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم...﴾ ».**[4]

١ـ سورة النمل: ٨٧.

٢ـ بحار الأنوار، ج ٧، ص ١٤٩؛ ومستدرك سفينة البحار، ج ٨، ص ١٩٤.

٣ـ الأمالي، للصدوق، ص ٦٥٧؛ وبحار الأنوار، ج ٧، ص ١٧٩ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٣٥٦.

٤ـ بحار الأنوار، ج ٧، ص ١٨٤؛ والمحاسن، ج ١، ص ١٧٩.

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ
نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ
بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا
لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا
يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ
تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا
تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا
تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ
احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

﴿يَوْمَ﴾ ظرف منصوب على البدليّة من هاء محذوفة من «توعدونه» أو من «نعيده» في الآية والمعنى: إنّ في ذلك اليوم ﴿نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ مثل طيّ الصحيفة ﴿لِلْكُتُبِ﴾ فيكون معنى طيّ السجلّ للكتاب كون السجلّ ساتراً لتلك الكتابة ومخفياً لها لأنّ الطيّ ضدّ النشر والكشف والمعنى: نطوي السماء كما يطوي الطومار الّذي يكتب فيه ويجوز أن يكون المراد بالكتاب المكتوب من أعمال الناس.

والسجلّ اسم ملك يكتب أعمال العباد. وقيل: السجلّ هو اسم ملك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه من الأرض وقيل: اسم كاتب للنبيّ ﷺ. وقيل: السجلّ بلغة الحبشة معناه الرجل فحينئذ معناه: نطوي السماء كناية، واللّام في ﴿لِلْكُتُبِ﴾ زائدة مثل قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾[1] أو المعنى: كطيّ الطاوي السجلّ وهذا قول أكثر المفسّرين.

١ـ سورة النمل: ٧٢.

القمي: ومعنى نطويها أي: نفنيها فتحول دخاناً والأرض نيرناً. ثمّ ابتدأ سبحانه فقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ أي: نعيد أوّل الخلق كما بدأناه.

وقيل: معناه كما بدأناهم في بطون أمّهاتهم حفاة عراة كذلك نعيدهم. وقيل: معناه نبعث الخلق كما ابتدأنا أي: قدرتنا على الإعادة كقدرتنا على الابتداء.

واختلفوا في كيفيّة الإعادة فمنهم من قال: إنّ اللّه يفرّق أجزاء الأجسام ولا يعدمها ثمّ إنّه يعيد تركيبها فذلك هو الإعادة ومنهم من قال: إنّه تعالى يعدمها بالكلّيّة ثمّ إنّه سبحانه يوجدها بعينها مرّة أخرى وهذه الآية دالّة على هذا الوجه لأنّه شبّه الإعادة بالابتداء ولمّا كان الابتداء ليس عبارة عن تركيب الأجزاء المتفرّقة بل عن الوجود بعد العدم وجب أن يكون الحال في الإعادة كذلك.

واحتجّ القائلون بالقول الأوّل بقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[1] فدلّ هذا على أنّ السماوات حال كونها مطويّة تكون موجودة. وبقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾[2] وهذا يدلّ على أنّ أجزاء الأرض باقية لكنّها جعلت غير الأرض. ﴿وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي: وعدناكم ذلك وعداً ونحن فاعلون ما وعدناكم.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ وقرئ «زبور» بضمّ الزاي جمع زبر مثل قشر وقشور، والزبور بمعنى المزبور والمكتوب زبرت الكتاب أي: كتبته أي: ولقد كتبنا في الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء من بعد ما كتبناه في الذكر وهو امّ الكتاب واللوح المحفوظ الّذي في السماء وقيل: الزبور الكتب المنزلة بعد التوراة.

والذكر هو التوراة وقيل: الزبور كتاب داود عليه السلام والذكر توراة موسى عليه السلام

١ـ سورة الزمر: ٦٧.

٢ـ سورة إبراهيم: ٤٨.

وقيل: المراد من الذكر القرآن و«بعد» بمعنى قبل في الآية وقيل: المعنى المراد بالذكر العلم أي: كتبنا ذلك في الزبور بعد أن كنّا عالمين علماً لا يجوز عليه السهو والنسيان علينا أي: مع أنّه لا يجوز علينا السهو والنسيان كتبنا أنّ هذا الأمر واجب الوقوع وهو ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾.

واختلف في الأرض قيل: الأرض أرض الجنّة والعباد الصالحون هم المؤمنون العاملون بطاعة الله وهذا القول لعكرمة والسدّيّ وسعيد بن جبير وأبي العالية وقالوا: إنّها الأرض الّتي تختصّ بها الصالحون لأنّها لهم خلقت وغيرهم إذا حصل معهم في الجنّة على وجه التبع. وقيل: المراد أرض الدنيا فإنّها للصالح والطالح.

والقول الأوّل بأنّ المراد أرض الجنّة فيه تعسّف لأنّ إطلاق الأرض إلى أرض الدنيا أقرب وأوجه من أرض الجنّة وسيورثها المؤمنين في الدنيا كما وردت روايات كثيرة بهذا المعنى وقد نطق به الكتاب الكريم قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ـ إلى قوله ـ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1] ولا يستخلفون إلّا في الدنيا وقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾[3] أي: في آخر الأمر نورثها أمّة محمّد.

القمّيّ: قال: يرثها القائم عليه السلام وأصحابه.[4] وفي «المجمع» هم أصحاب

١ـ سورة النور: ٥٥.

٢ـ سورة الأعراف: ١٢٨.

٣ـ سورة الأعراف: ١٣٧.

٤ـ انظر: تفسير القمي، ج ٢، ص ٧٧؛ وج ١، ص ١٤.

المهديّ ﷺ في آخر الزمان.[1] ويدلّ على ذلك ما رواه الخاصّ والعامّ عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتّى يبعث رجلاً من أهل بيتي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً**»[2]، وقال ﷺ: «**زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمّتي ما زوي لي منها**».[3]

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي: إنّ في هذا القرآن وفي الّذي أخبرنا من الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين للكفاية ووصلة إلى البغية والبلاغ سبب الوصول إلى الحقّ لقوم عابدين للّه مخلصين له قال كعب: هم أمّة محمّد ﷺ الّذين يصلّون الصلوات الخمس ويصومون رمضان بما هم عابدين. وقيل: معناه قوم هممهم العبادة لا العادة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ كان ﷺ رحمة في الدين والدنيا:

أمّا في الدين فلأنّه ﷺ بعث والناس في جاهليّة وضلالة وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لبعض التحريفات وانقطاع تواترهم واختلافات وقعت في كتبهم وعلمائهم فبعث اللّه محمّداً ﷺ فدعاهم إلى الحقّ وشرّع لهم الأحكام وميّز الحلال عن الحرام ثمّ إنّما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همّته طلب الحقّ ولا يرغب به العناد والحسد والاستكبار وكان التوفيق له قرينا قال اللّه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾[4].

وأمّا في الدنيا فلأنّهم تخلّصوا بسببه من كثير من الذلّ والحروب ونصروا ببركة دينه.

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ١٢٠؛ وبحار الأنوار، ج ٩، ص ١٢٦.

٢ـ انظر: كمال الدين، ص ٢٨٥؛ والغيبة، للطوسي، ص ١٨٠.

٣ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ١١٩. وتفسير القرطبي، ج ١٢، ص ٢٩٨.

٤ـ سورة فصلت: ٤٤.

فإن قيل: كيف كان رحمة وقد جاء بالسيف واستباحة الأموال؟

فالجواب أنّه إنّما جاء بالسيف لمن يقدّم ضرّه على نفعه ولا يعرف خيره من شرّه واستكبر وعاند في الدين ولم يتفكّر ولم يتدبّر ومن أوصاف اللّه الرحمن الرحيم العطوف الرءوف ثمّ هو سبحانه ينتقم من العصاة وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾(١).

ثمّ قد يكون سبباً لعدم البركة ثمّ إنّ كلّ نبيّ قبل نبيّنا كان إذا كذّبه قومه أهلك اللّه المكذّبين بالخسف والمسخ والغرق والحرق وإنّه تعالى أخّر عذاب من كذّب رسولنا إلى الموت أو إلى القيامة قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾(٢).

ثمّ إنّه كان ﷺ في نهاية حسن الخلق، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٣) وفي الحديث، قيل لرسول اللّه ﷺ: ادع على المشركين قال: «**إنّما بعثت رحمة ولم أبعث عذاباً**». وقال عبد الرحمن بن زيد: إلّا رحمة للعالمين يعني: المؤمنين خاصّة، والقولان يرجعان إلى معنى واحد لأنّ من أعرض عنه إنّما وقع في المحنة من قبل نفسه(٤) كما قال: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾(٥).

قالت المعتزلة: لو كان اللّه أراد من الكافرين الكفر ولم يرد من الكفّار الإيمان بالرسول كما يقوله أهل السنّة بأن خلق ذلك الكفر فيهم لوجب أن يكون إرساله نقمة وعذاباً عليهم لا رحمة وذلك على خلاف النصّ.

واستدلّوا أيضاً بهذه الآية في أنّه أفضل من الملائكة قالوا: لأنّ الملائكة

١ـ سورة ق: ٩.

٢ـ سورة الأنفال: ٣٣.

٣ـ سورة القلم: ٤.

٤ـ الدر المنثور، ج ٤، ص ٣٤٢؛ وتفسير الرازي، ج ٢٢، ص ٢٣١.

٥ـ سورة فصلت: ٤٤.

من العالمين فوجب بحكم هذه الآية أن يكون ﷺ رحمة للملائكة فوجب أن يكون أفضل منهم.

وروي أنّ النبي ﷺ قال لجبرئيل: «لمّا نزلت هذه الآية: فهل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم إنّي كنت أخشى العاقبة فأمنت بك لمّا أثنى الله عليّ بقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[1]»[2] وقد قال ﷺ: «إنّما أنا رحمة مهداة»[3] ومعلوم أنّ الوجه في أنّه رحمة على الكافر أنّه عرضه للإيمان والثواب الدائم وهذا وإن لم يهتد كمن قدّم طعاماً إلى جائع فلم يأكل فإنّه منعم عليه وإن لم يقبل.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

أي: مستسلمون ومنقادون لذلك أن تتركوا عبادة غير الله وحاصله أن أسلموا إلى هذا الأمر.

وفي «المناقب»: «فهل أنتم مسلّمون الوصيّة بعدي» ـ بالتشديد ـ والمراد من الوصيّة الخلافة فإنّ قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[4] أي: انتهوا.

قال صاحب «الكشّاف»: كلمة «إنّما» يقصّر الحكم على شيء أو يقصّر الشيء على حكم كقولك: إنّما زيد قائم أو إنّما يقوم زيد وقد اجتمع المثالان في هذه الآية لأنّ ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ مع فاعله بمنزلة إنّما يقوم زيد و﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ بمنزلة إنّما زيد قائم وفائدة اجتماعهما الدلالة على أنّ الوحي إلى رسول الله مقصور على إثبات التوحيد فلزم أن يقال: لم يوح إلى رسول الله شيء غير التوحيد ومعلوم أنّ ذلك فاسد والمقصود من هذا الحصر المبالغة في هذا الأمر فكأنّه هذا الوحي أصل ومقدّم على الكلّ ولولاه

١ـ سورة التكوير: ٢٠.

٢ـ سبل الهدي والرشاد، ج ١٠، ص ٣٠٧؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ١٢١.

٣ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ١٢١؛ وبحار، ج ١٦، ص ٣٠٦.

٤ـ سورة المائدة: ٩١.

لم يتحقّق امتثال في أمر من أمور الوحي وهو أصل أصيل.[1]

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ آذن منقول من أذن أي: علم ولكنّه كثر استعماله في الجري مجرى الإنذار ومنه قوله: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ والإيذان على السواء معناه الدعاء إلى الحرب مجاهرة.

والمقصود لعلّ أنّ قريشاً يزعمون أنّ حالهم مخالف لسائر الكفّار في الأمور فعرّفهم ﷺ بذلك وأعلمهم بما أمر به على السواء من غير فرق وبيّن لهم ما هو الواجب عليهم من التوحيد وكلّ الأمور على سواء فلم افرّق في الإبلاغ والبيان، والغرض إزاحة العذر لئلّا يقولوا: ربّنا لو لا أرسلت إلينا رسولاً وقيل: المعنى في قوله: ﴿ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلمتكم بالحرب الّذي يقع بيني وبينكم كأنّه أمره اللّه بأن ينذرهم بالجهاد معهم الّذي يوحى إليه أن يأتيه من بعد ولم يعرّفه الوقت فلذلك أمره أن يقول: إنّه لا يعلم قربه أم بعده لأنّ السورة مكّيّة وكان الأمر بالجهاد بعد الهجرة أو المعنى: أنّ ما يوعدون به من غلبة المسلمين عليهم كائن لا محالة ولابدّ أن يلحقهم الذلّ والصغار وإن كنت لا أدري متى يكون ذلك وذلك لأنّ اللّه لم يطّلعني عليه.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ والمراد من الآية ترك النفاق والنهي عنه والأمر بالإخلاص لأنّهم كانوا يجاهرون في الطعن بالإسلام وتكذيب الآيات وبعض يضمرون الأحقاد فنبّههم اللّه بأنّه يعلم ويجازيهم عليه إمّا بالغلبة من المسلمين عليهم وإذلالهم وإمّا بعذاب القيامة.

﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: وما أدري لعلّ تأخير جزائكم استدراج وزيادة في افتتانكم أو امتحانكم وتمتّع لكم إلى أجل مقدّر يقتضيه المشيّة المبنيّة على الحكم البالغة ليكون ذلك حجّة عليكم إن لم تؤمنوا.

١ـ الكشّاف، ج ٢، شرح ٥٨٦.

﴿قَالَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ وقرئ «قل رب احكم بالحق» على الالتقاء بالكسرة وقرئ «أحكم» على أفعل التفضيل أي: وربّي أحكم. وعلى قراءة «قال» حكاية لدعائه ﷺ وعلى قراءة صيغة الأمر كما هو المشهور أي: اقض بيننا وبين أهل مكّة بالعدل المقتضي لغلبتنا والتشديد عليهم، وقد استجيب دعاؤه ببدر وغيره.

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مبتدأ وخبر أي: كثير الرحمة على عباده وهو «المستعان» ويطلب منه المعونة خبر ثان على ما تصفون من الحال فإنّهم كانوا يقولون: إنّ الشوكة تكون لنا وإنّ راية الإسلام تخفق وهذا الأمر يبطل ويضمحلّ فخيّب الله آمالهم ونصر محمّداً وأولياءه، أو معنى ما تصفون أي: من الشرك وما تعارضون به دعوتي من الأباطيل.

تمّت السورة بحمد الله.

سورة الحج

مكية إلّا آيات نزلت في السفر.

عن أبيّ بن كعب قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: **«من قرأ سورة الحجّ أعطي من الأجر كحجّة حجّها وعمرة اعتمرها بعدد من حجّ واعتمر في ما مضى وفي ما بقي».**[1]

وقال أبو عبد الله عليه السلام: **«من قرأها في كلّ ثلاثة أيام لم يخرج من سنته حتّى يخرج إلى بيت الله الحرام وإن مات في سفره دخل الجنّة».**[2]

لمّا ختم الله سورة الأنبياء بالدعوة إلى التوحيد افتتح هذه السورة بالاتّقاء من الشرك فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

أمر الله الناس بالتقوى فدخل فيه أن يتّقي كلّ محرّم ويتّقي ترك كلّ

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ١٢٣؛ ونور الثقلين، ج ٣، ص ٤٦٩.

٢ـ مجمع البيان، ج٧، ص١٢٣؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٣٩٢.

واجب لأنّ المتّقي إنّما يتّقي كلّ محرّم ويتّقي ترك كلّ واجب وإنّ المتّقي إنّما يتّقي ما يخافه من عذاب اللّه فيدع لأجله المحرّم ويفعل لأجله الواجب ولا يدخل فيه النوافل لأنّ المكلّف لا يخاف بتركها العذاب وإنّما يرجو بفعلها الثواب فإذا قال: اتّقوا ربّكم فالمراد اتّقوا عذاب ربّكم.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ الزلزلة شدّة حركة الشيء كأنّ الساعة الفاعلة للزلزلة وتزلزل الأشياء على المجاز الحكميّ فحينئذ تكون الزلزلة مصدراً مضافا إلى فاعله أو على تقدير المفعول فيها على طريق الاتّساع في الظرف يعني: إنّ الزلزلة تقع في الساعة، وإجراؤه مجرى المفعول به مثل: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وهي الزلزلة المذكورة في قوله ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾[١] اختلفوا في وقتها، قيل عن الشعبيّ وعلقمة: إنّ هذه الزلزلة تكون في الدنيا وهي الّتي يكون معها طلوع الشمس من مغربها. وقيل: هي الّتي تكون معها الساعة.

وروي[٢] عن رسول اللّه ﷺ في حديث الصور: «**أنّه قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات: نفخة الفزع ونفخة الصعقة ونفخة للقيام لربّ العالمين وأنّ عند نفخة الفزع يسيّر الله الجبال وترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة، وتكون الأرض كالسفينة تضربها الأمواج أو كالقنديل المعلّق يزجرجها الرياح**». وقيل: هذا في أوّل يوم الآخرة ويمكن أن يكون الزلزلة من أماراتها وأشراطها الّتي فيها دفعها.

سبب النزول: قال عمران بن الحصين وأبو سعيد الخدريّ: نزلت الآيتان الأوليان ليلاً في غزاة بني المصطلق وهم حيّ من خزاعة والناس راكبين يسيرون فنادى رسول اللّه فحثّوا المطيّ حتّى أتوا حول رسول اللّه

١ـ سورة الزلزال: ١.

٢ـ انظر: مجمع البيان، ج ٧، ص ٤٠٩؛ والتبيان، ج ٨، ص ٤٦٤.

فقرأهما عليهم فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة فلمّا أصبحوا لم يحطّوا السرج عن الدوابّ ولم يضربوا الخيام والناس بين باك أو جالس حزين متفكّر فقال رسول اللّه ﷺ: «أتدرون أي: يوم ذاك؟» قالوا: اللّه ورسوله أعلم، قال: «ذاك يوم يقول الله تعالى لآدم: ابعث بعث النار من ولدك فيقول آدم: من كم كم؟ فيقول الله: عزّوجلّ من كلّ ألف تسع مائة وتسع وتسعين إلى النار وواحدة إلى الجنّة» فكبر ذلك على المسلمين وبكوا وقالوا: فمن ينجو يا رسول اللّه؟ فقال: «ابشروا فإنّ معكم خليقتين يأجوج ومأجوج ما كان في شيء إلّا كثّرتاه ما أنتم إلّا كشعرة بيضاء في الثور الأسود أو كرقم في ذراع البكر أو كشامة في جنب البعير» ثمّ قال: «إنّي لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنّة» فكبّروا ثمّ قال: إنّي لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنّة فكبّروا ثم قال: «إنّي لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنّة وإنّ أهل الجنّة مائة وعشرون صفّاً ثمانون منها أمّتي».

ثمّ قال: «ويدخل من أمّتي سبعون ألفاً الجنّة بغير حساب». وفي بعض الروايات أنّ عمر بن الخطّاب قال: يا رسول اللّه سبعون ألفاً؟ قال: «نعم ومع كلّ واحد سبعون ألفاً» فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول اللّه ادع اللّه أن يجعلني منهم فقال: «اللّهمّ اجعله منهم»، فقام رجل من الأنصار فقال: ادع اللّه أن يجعلني منهم فقال ﷺ: «سبقك بها عكاشة» قال ابن عبّاس: (كان الأنصاريّ منافقاً فلذا لم يدع له).(١)

المعنى: خاطب اللّه سبحانه جميع المكلّفين فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ العقلاء المكلّفون ﴿ٱتَّقُواْ﴾ عذاب ﴿رَبَّكُمْ﴾ واخشوا معصيته ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ﴾ الأرض يوم القيامة أمر ﴿عَظِيمٌ﴾ هائل لا يطاق وشدّة يوم القيامة أمر صعب.

﴿يَوْمَ﴾ ترون الزلزلة أو الساعة ﴿تَذْهَلُ﴾ وتشغل ﴿كُلُّ

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ١٢٦؛ والصافي، ج ٣، ص ٣٦٢.

مُرْضِعَةٍ﴾ عن ولدها وتنساه وتسلو عن ولده ووصف الله الزلزلة بالعظيم ولا عظيم أعظم ممّا عظّمه الله. فإن قيل: لم قال مرضعة دون مرضع؟ قلنا: المرضعة هي الّتي في حال الإرضاع وهي ملقمة ثديها الصبيّ والمرضع مَن من شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع فقيل: مرضعة ليدلّ على أنّ ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت ثديها الرضيع نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: عن إرضاعها أو عن الطفل فتكون «ما» بمعنى «من» على التأويل الثاني. ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ من الفزع ويمكن أن يكون المراد من ذهول المرضعة ووضع الحمل على قول من قال: المراد به يوم القيامة فيكون على جهة المثل لشدّة ذلك اليوم أي: شأن فزع ذلك اليوم شأن لو كانت مرضعة تذهل عن إرضاعها ولو كانت حامل تضع من غير تمام حملها. ومن قال: إنّ الزلزلة المذكورة في الدنيا قبل القيامة فالمعنى على سبيل الحقيقة كما قال بعض: إنّ الزلزلة يكون في الدنيا آخر زمانها لأنّ الرضاع ووضع الحمل إنّما يتصوّر في الدنيا. ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ وقرئ «سكرى» أي: من شدّة الفزع حالهم حال السكرى واضطراب السكران ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ من الشراب بل عقولهم ذاهبة من شدّة الفزع.

ثمّ علّل سبحانه ذلك فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ومن شدّته يصيبهم ما يصيبهم وقرئ «ترى» بضمّ التاء من باب الإفعال تقول: أريتك قائماً ورأيتك قائماً و«الناس» قرئ بالنصب على المفعوليّة وبالرفع اسم ما لم يسمّ فاعله فيكون «ترى» بالضمّ مجولاً.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾
كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ هذا إخبار عن المشركين الّذين يخاصمون في توحيد الله ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ منهم بل للجهل المحض. وقيل: نزلت في النضر بن الحارث فإنّه كان كثير الجدال وكان يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأوّلين وكان ما يأتيكم به محمّد كما كنت أحدّثكم به عن القرون الماضية لأنّه كان يسافر إلى فارس ويتعلّم منهم القصص القديمة مثل حكايات رستم وإسفنديار ويأتي به العرب ويقول: ما يقول محمّد كذلك وينكر البعث.

﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ يغويه عن الهدى ويدعوه إلى الضلال. وفي قوله: ﴿شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ قولان: يجوز أن يكون المراد شياطين الإنس مثل النضر بن الحارث فإنّه كان كثير الجدال وأمثاله والمريد والمارد المرتفع الأملس، ويجوز أن يكون المراد إبليس وجنوده، والمريد والمارد يستعمل في الإنسان وغير الشيطان إذا جاوز حدّ مثله.

﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ واختلفوا في رجوع ضمير الهاء من «عليه» قيل: كتب الله على ذلك الشيطان في اللوح المحفوظ أنّه يضل من تولّاه فكيف يتّبع مثله، وقيل: كتب على المجادل بالباطل أنّ من اتّبعه ووالاه يضلّه عن الدين ﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾. ثمّ ذكر سبحانه الحجّة في

البعث لأنّ أكثر الجدال كان فيه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ﴾ وشكّ ﴿مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ والنشور والريب أقبح الشكّ فالدليل على صحّة البعث ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم﴾ أصلكم آدم ﴿مِّن تُرَابٖ﴾ فمن قدر على أن يصيّر التراب بشراً سويّاً حيّاً في الابتداء قدر على أن يحيي العظام والتراب المتبدّل من العظام ويعيد الأموات.

﴿ثُمَّ﴾ خلقنا أولاده ونسله ﴿مِن نُّطۡفَةٖ﴾ في أرحام الأمّهات وهي الماء القليل يكون من الذكر والأنثى، وكلّ ماء صاف فهو نطفة قلّ أم كثر ﴿ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ بأن تصير النطفة علقة وهي القطعة من الدم الجامد ﴿ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ﴾ أي: شبه قطعة لحم ممضوغة فإنّ معنى المضغة مقدار ما يمضغ من اللحم ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ أي: تامّ الخلقة وغير تامّ الخلقة أو المعنى: مصوّرة وغير مصوّرة هي ما كان لا تخطيط فيه ولا تصوير كأنّه قسّم سبحانه المضغة على قسمين: منها ما خلقه إنساناً تامّاً بلا نقص ومنها ما ليس كذلك أي: يخلق المضغ متفاوتة فيتفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم والّذي يخرج حيّاً والّذي يخرج ميّتاً وسقطا لهذه الجهة.

روى علقمة عن عبد الله بن عمر قال: إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً وقال: يا ربّ مخلّقة أو غير مخلّقة؟ فإن قال: غير مخلّقة مجّتها الأرحام دما وإن قال: مخلّقة قال: يا ربّ ما صفتها أذكر أم أنثى؟ ما رزقها؟ ما أجلها؟ أشقيّ أم سعيد؟ فيقول الله سبحانه: **«انطلق إلى أمّ الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة»** فينطلق الملك فينسخها فلا يزال معها حتّى يأتي على آخر صفتها.[1]

١ـ انظر: معاني القرآن، ج ٤، ص ٣٧٩.

﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ أي: لندلّكم ونوضح لكم مقدوراتنا بتصريفكم في ضروب الخلق أنّ من قدر على البدء قدر على الإعادة حتّى يزول ريبكم والمفعول محذوف. ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ﴾ أي: نبقي في الأرحام ما نشاء إلى وقت تمامه وما لا نقرّ في أرحام الأمّهات فيقع بالسقط ونقص خلقة البعض. ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ بعد التكميل من بطون امّهاتكم وأنتم أطفال والمراد بالطفل الصغير من الناس وإنّما وحّد مع أنّ المراد الجمع لأنّه بمعنى المصدر وإذا كان بمعنى المصدر فيستوي فيه الجمع والمفرد تقول: رجل عدل ورجال عدل أو المراد ثمّ نخرج كلّ واحد منكم ﴿طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي: ثمّ سهّل عليكم في تربيتكم وأغذيتكم أموراً لتبلغوا أنتم حال بلوغ الأشدّ وهو حال اجتماع القوّة والعقل وتماميّة الصورة والمعنى والأشدّ من ألفاظ الجموع الّتي لم يستعمل لها واحد.

وفي الآية دلالة على أنّ هذه الأمور باختيار الفاعل القادر المختار ولولاه لما صار بعضه مخلّقاً وبعضه غير مخلّق وكان كلّه مخلّقاً أو كان كلّه غير مخلّق.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ قبل بلوغ الأشدّ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي: أسوء العمر وأهونه وأحقره وهي حال الخرف ولأنّه لا يرجو الإنسان بعد هذا الوقت صحّة وقوّة بل يترقّب الموت بخلاف حال الطفوليّة والشباب الّذي يرجى له الكمال والقوّة بعدها ﴿لِكَيْلَا﴾ يستفيد علماً وينسى ما كان عالماً به ويصير إلى حال ينعدم عقله ويذهب عنه علومه فلا يعلم شيئاً ممّا كان علمه وإذا ذهب أكثر علومه جاز أن يطلق ذهاب الجميع للمبالغة.

قال عكرمة: من قرأ القرآن لم يصر بهذه الحالة واحتجّ بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[1] أي: قرءوا القرآن ولا شكّ أنّ قراءة القرآن من

١ـ سورة التين: ٥ و٦.

الأعمال الصالحة هذا تمام الاستدلال بخلقة الحيوان على صحّة البعث.

ثمّ استدلّ بأحوال النبات سبحانه على صحّة البعث فقال: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي: هالكة يابسة دارسة من أثر النبات ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ وهو المطر ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ وتحرّكت بالنبات بسبب المطر والمراد بالاهتزاز شدّة حركة الزرع في الجهات ونموّ الأزهار وظهور تجديد الحياة في الأرض بزينتها في الجهات وانتفخت الأرض لنباتها ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: من كلّ صنف وشكل من الزروع مبتهج حسن الرونق واللون والصفة والنضرة.

ولمّا قرّر سبحانه هذين البيانين من صفة الحيوان والنبات بطريق الدليل رتّب عليهما ما هو المطلوب فقال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠)﴾

المعنى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الّذي سبق ذكره من تصريف الإنسان على هذه الأحوال وإخراج النبات والدلائل الدالّة على وجود القادر الصانع ليعلموا ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ الّذي تحقّ له العبادة دون غيره أي: هو الّذي يستحقّ صفات التعظيم ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي﴾ الأموات يعني: أنّ الّذي يصحّ منه إيجاد هذه الأشياء قادر على إعادة الأموات ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قدير على إفنائها وإيجادها.

﴿وَأَنَّ﴾ القيامة ﴿آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ﴾ في وقوعها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ يجمع

الناس ويحييهم للجزاء. وعن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله لجبرئيل: يا جبرئيل أرني كيف يبعث الله العباد يوم القيامة؟ قال: نعم فخرج إلى مقبرة بني ساعدة فأتى قبرا فقال له: اخرج بإذن الله فخرج رجل ينفض رأسه من التراب وهو يقول: والهفاه! ووا ثبوراه! ثمّ قال: ادخل فدخل ثمّ قصد إلى قبر آخر فقال: اخرج بإذن الله فخرج شابّ ينفض رأسه من التراب وهو يقول: أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله وأشهد أنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور، ثمّ قال جبرئيل: هكذا يبعثون يوم القيامة».[1]

القميّ عن الصادق عليه السلام قال: «إذا أراد الله أن يبعث الخلق أمطر السماء على الأرض أربعين صباحاً فاجتمعت الأوصال ونبتت اللحوم».[2]

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ سبق تفسيره والحاصل أنّ بعض الناس مثل النضر بن الحارث وأتباعه لا يراجع فيما يقوله إلى علم ولا إلى دليل وأصل ثابت وكتاب واضح مضيء له نور يبيّن له الهدى من الضلال ولا يتّبع أدلّة العقل ولا السمع وإنّما يتّبع الهوى والتقليد.

﴿ثَانِيَ﴾ أي: متكبّراً في نفسه تقول العرب: ثنى فلان عطفه إذا تكبّر وتجبّر وعطفا الرجل جانباه أي: عن يمين أو شمال وهو الموضع الّذي يلويه الإنسان عند الإعراض عن الشيء مثل ليّ العنق وتسعّر الخدّ للتكبّر وأمثاله.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليضلّ الناس عن الحقّ. ومن قرأ «ليضلّ» بفتح الياء أي: ليضلّ هو عن طريق الحقّ المؤدي إلى توحيد اللّه أي: جدله من غير العلم والدليل صار سبباً لضلالته عن توحيد اللّه.

﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٌ﴾ وهوان وذلّ وفضيحة بما يجري عليهم كما جرى

١ـ قرب الأسناد، ص ٥٨، ح ١٨٧؛ والبحار، ج ٧، ص ٤٠.

٢ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٥٣؛ وبحار الأنوار، ج ٧، ص ٣٣.

على أبي جهل ونضر وأمثاله يوم البدر من القتل والذمّ ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ﴾ النّار الّتي تحرقهم. ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ فيقال له: ذلك العذاب المؤجّل بما كسبت يداك ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ في تعذيبه لأنّ اللّه لا يظلم ولا يعاقب من غير معصية ولا يزيد في العقوبة.

وفي هذه الآية دلالة واضحة على بطلان قول الجبريّة الّذين ينسبون كلّ ظلم في العالم إلى اللّه ثمّ يعتذرون بقول هو أوهن من نسج العنكبوت، وهو أنّه لأجل أنّ اللّه يفعله ليس بظلم. ولو تأمّلت في هذا القول لعرفت الشعوذة.

قالت المعتزلة: الآية تدلّ على أنّه إنّما وقع العذاب بسبب كسب يده وفعله فلو كان فعله خلقا للّه تعالى لكان حين ما خلقه اللّه سبحانه استحال منه أن ينفكّ عنه وحين ما لم يخلق اللّه استحال أن يتّصف العبد به فلا يكون ذلك العقاب بسبب العبد فإذا عاقبه عليه كان ذلك محض الظلم وذلك خلاف نصّ الآية.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

وقرئ «خاسر الدنيا» على الحاليّة وقرئ «من ضره» بدون الّلام.

سبب النزول: نزلت في جماعة كانوا يقدمون على رسول اللّه المدينة فكان أحدهم إذا صحّ جسمه وولدت امرأته غلاماً ونتجت فرسه وكثرت ماشيته وماله رضي به واطمأنّ إليه وإن أصابه وجع المدينة أو ولدت امرأته

جارية قال: ما أصبت في هذا الدين إلّا شراً، عن ابن عبّاس.

وبالجملة بيّن سبحانه في هذه الآية حال مقلّدة الضلال والدعاة إلى الضلال فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ﴾ ضعف في العبوديّة كضعف القائم على ﴿حَرْفٍ﴾ الجبل أو على طرف الجيش إن كان على ظفر قرّ وإلّا فرّ وذلك من اضطرابه في طريق العلم إذ لم يسع في طريق العلم والدلائل المؤدّية إلى الحقّ فينقاد لأدنى شبهة لا يمكنه حلّها وقيل: يعني ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي: على شكّ أو يعبد بلسانه دون قلبه قال: الدين حرفان: اللسان والثاني القلب.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ﴾ رخاء وخصب وعافية اطمأنّ على عبادة الله بذلك الخير ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ﴾ اختبار بجدب وقلّة مال وشدّة ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ ورجع عن دينه إلى الكفر وانصرف على وجهه الّذي توجّه منه وهو الكفر ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا﴾ بفراقه عن الدين ﴿وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ بنفاقه وحرمانه عن السعادات ﴿ذَٰلِكَ﴾ من موجبات الخسران الظاهر لفساد العاجلة والآجلة وقيل: المراد من خسران الدنيا الحرمان من الغنيمة والعزّ وفي الآخرة الثواب والجنّة.

﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: يدعو سوى الله ويعبد ﴿مَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ وإن ترك عبادته له لا يضرّه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الّذي فعل ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ واستعير الضلال البعيد من ضلال من أبعد في التيه وطالت وبعدت مسافة ضلاله مثلاً كالقارظين العنزيّين. ﴿يَدْعُوا۟﴾ الّذي هو في الضلال البعيد والمراد رؤساؤهم هذا إذا كان الضمير في «يدعو» إلى الرئيس المضلّ وأمّا إذا رجع الضمير إلى العابد المقلّد التابع أي: يعبد من الأحجار وغيرها لو فرضنا بزعمهم النفع لهم في دنياهم بمتابعة بعضهم بعضاً فضرّه في الآخرة بسبب العذاب أقرب وكائن لا محالة لأنّ الكائن قريب. ﴿لَبِئْسَ﴾ الناصر ﴿وَلَبِئْسَ﴾ المصاحب والصاحب والمخالط، والمراد به الأوثان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ (١٥)﴾

لمّا ذكر حال المنكر والشاكّ في الدين بالخسران ذكر ثواب المؤمنين على الإيمان فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وصدقوا رسله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ بأوليائه وأهل طاعته من الكرامة وبأهل معصيته وأعدائه من الإهانة لا يمنعه مانع.

ثمّ قال سبحانه: ﴿مَن كَانَ﴾ يحسب ﴿أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ والضمير في «ينصره» راجع إلى محمّد ﷺ يريد أنّ من يظنّ أن لن ينصر الله محمّداً في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه وفي الآخرة بإعلاء درجته والانتقام ممّن كذّبه والرسول وإن لم يجر له ذكر في الآية ففيها ما يدلّ عليه وهو ذكر الإيمان لأنّ الإيمان لا يتمّ ولا يحصل إلّا بالله ورسوله، وهذا قول ابن عبّاس والكلبيّ وجماعة كثيرة من المفسّرين.

وقيل: إنّ الضمير في «ينصره» راجع إلى «من» فالمعنى: من كان يظنّ من الناس أنّ الله لا ينصره فليجهد جهده وليصعد السماء ثمّ ليقطع المسافة فلينظر هل ينفعه كيده في إزالة غيظه فإنّ الّذي حكم الله به لا يبطل بكيد الكائد. وهذا المعنى مثل معنى قوله: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[1].

وحاصل المعنى إذا رجعت الضمير إلى النبيّ ﷺ أنه فليطلب حبلاً يصل به إلى السماء ويقطع نصر الله لنبيّه ﷺ ولينظر هل يتهيّأ له هذا الأمر؟ فإذا كان ذلك ممتنعاً كان غيظه عديم الفائدة.

١ـ سورة الأنعام: ٣٥.

وقيل: المراد بالنصر الرزق أرض منصورة أي: ممطورة أي: من ظنّ أنّ الله لا يرزقه في الدنيا والآخرة فليختنق نفسه فلينظر بهذا الكيد هل يذهب غيظه؟

وفي «الصافي» قال: معناه: أنّ الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة فمن كان يظنّ خلاف ذلك ويتوقّعه من غيظه فليتقصّ في إزالة غيظه بأن يفعل كلّ ما يفعله الممتلئ غيظاً حتّى يمدّ حبلاً إلى سماء بيته فيختنق، وقطع أي: خنق فإنّ المختنق يقطع نفسه.

أو إلى السماء الدنيا ليقطع به المسافة ويجتهد في دفع نصره.[1]

وقال القميّ: الظنّ هاهنا بمعنى الشكّ، أي: من شكّ أنّ الله يصيبه وينصره في الدنيا والآخرة فليمدد دليلاً إلى السماء أي: يجعل بينه وبين الله دليلاً حتّى يميّز الحقّ من الباطل وجاء السبب بمعنى الدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾[2] أي: دليلاً ومعنى «فليقطع» أي: يميّز قوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾[3] أي: ميّزناهم والكيد بمعنى الحيلة كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾[4] أي: احتلنا له حتّى حبس أخاه وكذلك قول فرعون: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾[5] أي: حيلتكم وحاصل المعنى: إذا وضع لنفسه دليلاً وميّز ثبت له الحقّ بأنّ الله ينصره.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ (١٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا

١ـ الصافي، ج ٣، ص ٣٦٧؛ وبحار الأنوار، ج ٦٨، ص ١١٧.

٢ـ سورة الكهف: ٨٤ و٨٥.

٣ـ سورة الأعراف: ١٦٠.

٤ـ سورة يوسف: ٧٦.

٥ـ سورة طه: ٦٤.

إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾

ومثل ما تقدّم من آيات القرآن [أنزلنا] القرآن ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ وحججاً واضحات على التوحيد والشرائع والعدل وأنزلنا إليك هذا البيان ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾ إلى الدين ﴿مَن﴾ يهتدي بهداه ويقبل هدايته فيريد سبحانه أو إلى الثواب أو إلى النبوّة وحاصل المعنى: أنّ الآيات بيّنات ودلائل للمعرفة بالتوحيد والتكليف لمن يهتدي ويقبل الحجج.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ اعلم أنه تعالى لمّا قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ شرح في هذه الآيتين من يهديه ومن لا يهديه ومن المعلوم أنّ الاختلاف الواقعة في أصول الأديان محصورة في هذه الأقسام الثلاثة الّتي سنذكر من طبقات ثلاثة: فقسم مشارك في نبوّة النبيّ مع المسلمين إلّا أنّهم مختلفين في بعض المسائل كمثبتي الرؤية ومنكريها والجبريّة والعدليّة وأمثالها.

وثانيها: الّذين يخالفون في النبوّة ولكن يشاركون في الاعتراف بالفاعل المختار كالاختلاف بين المسلمين واليهود والنصارى في نبوّة محمّد وموسى وعيسى عليهم السلام.

وثالثها: الّذين يخالفون في الإله مع المسلمين، وهؤلاء هم السوفسطائيّة المتوقّفون في الحقائق والدهريّة الّذين لا يعترفون بوجود مؤثّر في العالم والفلاسفة الّذين يثبتون موجباً مؤثراً لا مختاراً فصارت هذه ثلاث طبقات.

ولا شكّ أنّ القسم الثالث أعظم جهات الخلاف من القسمين الأوّلين وهذا القسم الثالث بأقسامه الثلاثة ليسوا في العالم متظاهرين بعقائدهم

ومذاهبهم بل مستترين كانوا إلى زمان قبيل زماننا وليس للإنسان أن يضيع القلم والقرطاس بذكر هؤلاء الأرجاس.

وأمّا القسم الثاني وهو الاختلاف الحاصل بسبب الأنبياء عليهم السلام فتقسيمه أن يقال: القائلون بالفاعل المختار إمّا أن يكونوا معترفين بوجود الأنبياء أو لا يكونوا معترفين بذلك، أمّا المعترفون بذلك فإمّا أن يكونوا أتباعاً لمن كان نبيّاً في الحقيقة أو لمن كان متنبّئاً أمّا أتباع الأنبياء عليهم السّلام فهم المسلمون واليهود والنصارى وفرقة أخرى بين اليهود والنصارى وهم الصابئون وأمّا أتباع المتنبّئ فهم المجوس، وأمّا المنكرون للأنبياء على الإطلاق فهم عبدة الأصنام والأوثان وهم المسمّون بالمشركين ويدخل فيهم البراهمة على اختلاف طبقاتهم فالأديان الحاصلة بسبب الاختلافات هي هذه الستّة الّتي ذكرها اللّه في الآية وهذه الستّة تتشعّب شعباً كثيرة واحدة للّه وهو الإسلام والباقي للشيطان.

وبالجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ويبيّن المحقّ من المبطل فيبيّض وجه المحقّ ويسوّد وجه المبطل والفصل يمكن أن يقع بأمور متعدّدة في الأحوال والأماكن والعلائم غير البياض والسواد ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ عليم مطّلع على ما من شأنه أن يشاهد بعلمه قبل أن يكون لأنّه علّام الغيوب.

ثمّ خاطب النبيّ والمكلّفين فقال: ﴿أَلَمْ﴾ تعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من العقلاء.

فلو قيل: إنّ جميع من في الأرض لا يسجدون للّه.

فالجواب من وجهين: الأوّل: لو لا قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ ـ خبره «متأب» محذوف بقرينة حقّ عليه العذاب ـ لكان الإيراد واردا لكنّه

بقوله: وكثير يبيّن أنّ البعض يسجدون والبعض لا يسجدون. هذا إذا كان المراد بالسجود هذا الفعل المخصوص وأمّا إذا كان المراد من معنى السجود الانقياد والذلّة لخالقها فالكلّ من الموجودات مشترك وداخل في السجود وليس شيء إلّا يسبّح بحمده وبيانه أنّ كلّ ما سوى الله تعالى مفتقر ممكن لذاته والممكن لذاته لا يترجّح وجوده على عدمه إلّا عند الانتهاء إلى الواجب لذاته كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[1] وكما أنّ الإمكان لازم للممكن حال حدوثه وحال بقائه فافتقاره إلى الواجب حاصل حال حدوثه وحال بقائه وهذا الافتقار الذاتيّ اللازم للماهيّة أدلّ على الذلّة والخضوع من وضع الجبهة على الأرض وإنّ وضع الجبهة على الأرض علامة وضعيّة للدلالة على الذلّة والانقياد والافتقار الذاتيّ وقد يتطرّق إليه الكذب أمّا نفس الافتقار الذاتيّ فممتنع التغيّر فجميع الممكنات ساجدة وخاضعة متذلّلة لله بهذا المعنى أو المراد سجود ظلّها كقوله: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾[2].

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ وانقطع ذكر الساجدين ثمّ ابتدأ فقال: وكثير حقّ عليه العذاب أي: ممّن أبى السجود ولا يوحّده.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ أي: من يهينه الله ويشقيه ويدخله جهنّم فماله من مكرم بالسعادة ولا يملك العقوبة والمثوبة سواه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ من الأنعام والانتقام بالفريقين من المؤمن والكافر.

وفي «التوحيد» عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قيل له: «إنّ رجلاً يتكلّم في المشيئة فقال: ادعه لي قال: فدعي له فقال له: يا عبد الله خلقك

١ـ سورة النجم: ٤٢.

٢ـ سورة النحل: ٤٨.

الله لما شاء أو لما شئت؟ قال: لما شاء قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: إذا شاء قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: إذا شاء قال: فيدخلك حيث يشاء أو حيث تشاء؟ قال: حيث يشاء قال: فقال عليّ عليه السلام: لو قلت غير هذا لضربت الّذي فيه عيناك».[1]

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

سبب النزول: نزلت في ستّة نفر من المؤمنين والكفّار تبارزوا يوم بدر: حمزة بن عبد المطّلب قتل عتبة بن ربيعة، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام قتل الوليد بن عتبة، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطّلب قتل شيبة بن ربيعة، عن أبي ذرّ الغفاريّ وعطاء، وكان أبو ذرّ يقسم بالله أنّها لنزلت فيهم، ورواه البخاريّ في الصحيح أيضاً. وقيل: نزلت في أهل القرآن وأهل الكتاب. وقيل: في المؤمنين والكافرين.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر المؤمنين والكافرين شرح في هذه ما أعدّ الله لهما فقال: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا﴾ الخصم يستوي فيه الواحد والجمع والمذكّر والمؤنّث يقال رجل خصم ورجلان خصم ورجال خصم فيجوز في

١ـ التوحيد، ص ٣٣٧؛ وبحار الأنوار، ج ٥، ص ١٠٦.

الكلام أن يقال: هذان خصمان اختصموا وهؤلاء خصم اختصموا قال: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾[1] وهكذا حكم المصادر لو أخبر بها نحو عدل وصوم وفطر وإنّما قال في الآية: «خَصمان» تثنية الجمعين وليس المراد برجلين مثل قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وبالجملة هذان خصمان أي: جمعان، فالفرق الخمسة الكافرة خصم والمؤمنون خصم وقد ذكرهم اللّه في الآية السابقة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾[3] اختصموا ﴿فِى﴾ دين ﴿رَبِّهِمْ﴾ فقالت اليهود والنصارى للمسلمين: نحن أولى باللّه منكم لأنّ نبيّنا قبل نبيّكم وديننا قبل دينكم وقال المسلمون: بل نحن أحقّ باللّه منكم آمنّا بكتابنا وبكتابكم ونبيّنا ونبيّكم وكفرتم أنتم بنبيّنا حسداً فهذا خصومتهم وقيل: خصومتهم يوم بدر فبيّن اللّه ما أعدّ للخصمين وقوله «هذان» أتى بالتثنية باعتبار اللفظ و«اختصموا» باعتبار المعنى.

قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: **«أنا أوّل من يجثو للخصومة بين يدي اللّه»**[4] القميّ قال: **«نحن وبنو أميّة نحن قلنا صدق اللّه ورسوله وقالت بنو أميّة كذب اللّه ورسوله»**، وفي «الخصال» مثله وزاد: **«فنحن الخصمان يوم القيامة»**.

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فصّلت و﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ﴾ على قدر جثثهم الخبيثة ثياب ﴿مِّن نَّارٍ﴾ ولعلّ المراد بالثياب إحاطة النار بهم كقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[5] ولكن هذا المعنى خلاف الظاهر والأولى

١ـ سورة ص: ٢١.

٢ـ سورة الحجرات: ٩.

٣ـ سورة الحج: ١٧.

٤ـ الصراط المستقيم، ج ٣، ص ٤٢؛ والبحار، ج ٣٦، ص ١٢٨.

٥ـ سورة الأعراف: ٤١.

قول سعيد بن جبير: ثياب من نحاس أذيب بالنار يلبسونها نحو قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾[1] وأخرج الكلام بلفظ الماضي كقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لأنّ ما كان من أمر الآخرة فهو كالواقع.

و﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ﴾ الماء المغليّ الحارّ ﴿يُصْهَرُ بِهِ﴾ ويذاب بسبب ذلك الماء ﴿مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ فيذاب أحشاؤهم كما يذاب به جلودهم قال ابن عبّاس: لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[2] بل أبلغ.

﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ﴾ المقامع السياط وما يضرب به في الحديث: **«لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما نقلوها وما أقلّوها من الأرض»**.

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ من الغمّ والكرب الّذي يأخذ بأنفاسهم أعيدوا فيها أي: كلّما حاولوا الخروج من النار ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ قهراً وذلك أنّ النار ترميهم بلهبها حتّى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بمقامع وأعمدة من حديد فهووا فيها سبعين خريفاً فإذا انتهوا إلى أسفلها ضربهم زفير لهبها فلا يستقرّون ساعة.

ويقال لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ والذوق: طلب إدراك الطعم، والحريق: الغليظ من النار، العظيم الإهلاك.

وهذا الترتيب لأحد الخصمين وللخصم الآخر الّذين هم المؤمنون فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وأقرّوا وحدانيّته ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فذكر سبحانه حكمه في المؤمنين بأربعة أوجه: المسكن بقوله «جنّات».

١ـ سورة إبراهيم: ٥٠.

٢ـ سورة محمد: ١٥.

والثاني: الحلية والزينة أي: يلبسون افتخارا الحليّ والحلل يحلّون في الآخره والجنّة من أساور وهي حليّ اليد من ذهب ولؤلؤ.

والثالث: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي: ديباج حرّم سبحانه في الدنيا على الرجال لبس الحرير وشوّقهم في الآخرة بعوضها فبيّن أنّ ما حرمتم في الدنيا تستدركون في الآخرة ولو قلت: إن النساء شاركتهم في الآخرة مع أنّها ليست بمحرّمة عليهنّ في الدنيا وذلك المحلّل لهنّ في الدنيا بالنسبة إلى الآخرة ليس بشيء وهو يسير.

والرابع: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وفيه وجوه ارشدوا وخوطبوا في الجنّة بالتحيّات الحسنة يحيّي بعضهم بعضاً ويحيّيهم الله وملائكته. وقيل: ارشدوا إلى شهادة أن لا إله إلّا الله والحمد لله والله أكبر. وقيل: إلى القرآن. وقيل: إلى القول الّذي يلتذّونه ويشتهونه ويطيب به نفوسهم ويمكن أن يؤوّل بوجه آخر وهو أنّ العلاقة البدنيّة جارية مجرى الحجاب للأرواح البشريّة في الاتّصال بعالم القدس فإذا فارقت أبدانها انكشف الغطاء ولاحت الأنوار الإلهيّة فظهور تلك الأنوار الهداية ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ

﴿الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾

سبب النزول: قال ابن عبّاس: نزلت الآية في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدّوا رسول اللهﷺ عام الحديبية عن المسجد الحرام عن أن يحجّوا ويعتمروا وينحروا الهدي فكره رسول اللهﷺ قتالهم وكان محرما بعمرة ثمّ صالحوه على أن يعود في العام القابل.

وبالجملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن﴾ طاعته وعطف المضارع لعلّ المراد بالمضارع الماضي ويؤيّده قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1] ويمكن أن يكون المراد كفروا فيما مضى وهم الآن يصدّون ويمنعونهم عن عبادة الله [وَ] عن ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الّذي جعلناه للنّاس مستقرّاً ومنسكاً ومتعبّداً. أو المعنى أنّه جعلناه للنّاس وقفا لم يخصّ به بعض دون بعض. ثمّ قال: ﴿سَوَاءً﴾ أي: جعلنا المقيم والغريب فيه سواء. وكلمة «سواء» مفعول ثان لجعلناه. وقيل: معنى العاكف الغريب إذا جاوره ولزمه للتعبّد وإن لم يكن من أهله.

واختلفوا في معنى التسوية قال ابن عبّاس: (يستويان في سكنى مكّة والنزول بها فليس أحدهما أحقّ بالمنزل من الآخر إلّا أن يكون واحد أسبق في النّزول من الآخر وعلى هذا كراء دور[2] مكّة وبيعها حرام فسبيلها سبيل

١ـ سورة محمد: ١.

٢ـ جمع الدار.

المساجد للامّة). والخبر قالﷺ: «مكّة مباح لمن سبق إليها».[١]

والقول الثاني: أنّ المراد من التسوية أن جعل اللّه الناس في العبادة في المسجد سواء ليس للمقيم أن يمنع البادي وبالعكس. والمراد من المسجد الحرام قيل: عين المسجد الّذى يصلّى فيه. وقيل: المراد الحرم كلّه لقوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[٢] وهوﷺ ما كان في نفس المسجد بل عرج من بيت أمّ هاني.

والحاصل: جعلناه للنّاس قبلة لصلاتهم ومنسكاً لحجّهم فالعاكف والباد سواء في حكم النسك وذلك لأنّ المشركين كانوا يمنعون المسلمين عن الصلاة في المسجد الحرام والطواف به ويدّعون أنّهم أربابه وولاته في الحديث: قال النبيﷺ: «يا بني عبد مناف من ولّى منكم من أمور الناس شيئاً فلا يمنعنّ عن أحد أطاف بهذا البيت لو صلّى أيّة ساعة من ليل أو نهار».[٣]

أمّا قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ بفتح الياء أيضاً قرئ من الورود، ومعناه: ومن يرد أن يميل فيه عن الحقّ إلى الباطل ظالماً. قيل: هو الشرك وعبادة غير اللّه فيه. وقيل: كلّ شيء نهي عنه حتّى شتم الخادم ولو دخول مكّة من غير إحرام لأنّ الذنوب هناك أعظم.

قال ابن عبّاس: (نزلت في عبد اللّه بن سعد حيث استسلمه النبيّﷺ فارتدّ مشركاًإ أو في عبد اللّه بن قطل حين قتل الأنصاريّ وهرب إلى مكّة كافراً فأمر النبيّﷺ بقتله يوم الفتح كافراً). وقيل: المراد قتل ما نهى اللّه عنه من الصيد وارتكاب ما لا يحلّ للمحرم. وقيل: إنّه الاحتكار. وقيل: المنع عن

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ٢٤.

٢ـ سورة الإسراء: ١.

٣ـ عوالي اللئالي، ج ١، ص ٢٠١؛ والميزان، ج ١٤، ص ٣٧٩.

عمارته. وقيل: قول الرجل في المبايعة لا والله وبلى والله. وقول المحقّقين: أنّ الإلحاد بظلم عامّ في كلّ المعاصي.

قال ابن مسعود: (لو أنّ رجلاً بعدن همّ بأن يعمل سيّئة عند البيت أذاقه الله عذاباً أليماً).

وفي «نهج البلاغة» في كتاب كتبه أمير المؤمنين عليه السلام إلى قثم بن العبّاس بن عبد المطّلب وهو عامله على مكّة وأمر أهل مكّة أن لا يأخذوا من ساكن أجرا فإنّ الله سبحانه يقول: ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ والعاكف المقيم به والبادي الّذي يحجّ إليه من غير أهله.[1]

وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام: «إنّ معاوية أوّل من علّق على بابه مصراعين بمكّة فمنع حاجّ بيت الله مع ما قال الله عزّ وجلّ: ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ كان الناس إذا قدموا مكّة نزل البادي على الحاضر حتّى يقضي حجّه وكان معاوية صاحب السلسلة الّتي قال الله سبحانه: ﴿فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾[2] وكان فرعون هذه الأمّة».[3]

وفي «التهذيب» عنه عليه السلام: «كانت دور مكّة ليس على شيء منها باب وكان أوّل من علّق على بابه المصراعين معاوية بن أبي سفيان وليس ينبغي لأحد أن يمنع الحاجّ شيئاً من دور مكّة ومنازلها».[4]

وفي «العلل» عنه عليه السلام في هذه الآية قال: «لم يكن ينبغي أن يوضع على دور مكّة أبواب لأنّ للحاجّ أن ينزلوا معهم في دورهم في ساحة الدار حتّى يقضوا مناسكهم

١ـ نهج البلاغة، الشيخ محمّد عبده، ج ٣، ص ١٢٧؛ وفقه القرآن، ج ١، ص ٣٢٧.

٢ـ سورة الحاقة: ٣٢.

٣ـ الكافي، ج ٤، ص ٢٤٣.

٤ـ التهذيب، ج ٥، ص ٤٢٠؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٣٧١.

وإنّ أوّل من جعل لدور مكّة أبواباً معاوية[١] وقد استحقّ ما أعدّ الله له من عذاب الحريق».

القميّ في تفسير العذاب الحريق عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام قال: قلت له: يا ابن رسول الله خوّفني فإنّ قلبي قسا فقال: «يا با محمّد استعدّ للحياة الطويلة فإنّ جبرئيل جاء إلى رسول الله وهو قاطب وقد كان قبل ذا يجيء متبسّماً فقال رسول الله: يا جبرئيل جئتني اليوم قاطباً؟ فقال: يا محمّد قد وضعت منافخ النار، فقال: وما منافخ النار يا جبرئيل؟ فقال: يا محمّد إنّ الله عزّ وجلّ أمر بالنار فنفخ عليها ألف عامّ حتّى ابيضّت ثمّ نفخ عليها ألف عام حتّى احمرّت ثمّ نفخ عليها ألف عام حتّى اسودّت فهي سوداء مظلمة لو أنّ قطرة من الضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها ولو أنّ حلقة واحدة من السلسلة الّتي طولها سبعون ذراعاً وضعت على جبال الدنيا لذابت من حرّها ولو أنّ سربالاً من سرابيل أهل النار علّق بين السماء والأرض لمات أهل الأرض من ريحه ووهجه قال: فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وبكى جبرئيل فبعث الله إليهما ملكاً فقال لهما: ربّكما يقرؤكما السلام ويقول: قد أمنتكما أن تذنبا ذنباً أعذّبكما عليه» فقال أبو عبد الله عليه السلام: «فما رئي رسول الله صلى الله عليه وآله ضاحكاً بعد ذلك». فقال: أبو عبد الله عليه السلام: «حسبك يا أبا محمّد؟» قلت: حسبي حسبي.[٢]

وبالجملة قال الصادق عليه السلام: «كلّ ظلم إلحاد»[٣] وسئل عن أدنى الإلحاد فقال: «إنّ الكبر أدناه»[٤] حتّى أنّ في «العلل» عنه عليه السلام: أنّه قيل له: إنّ سبعاً من سباع الطير على الكعبة ليس يمرّ به شيء من حمام الحرم إلّا ضربه فقال:

١ـ علل الشرايع، ج ٢، ص ٣٩٧؛ ووسائل الشيعة (آل بيت)، ج ١٣، ص ٢٦٨.

٢ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ٨١؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٣٦٩.

٣ـ الكافي، ج ٤، ص ٢٢٧؛ ومن لايحضره الفقيه، ج ٢، ص ٢٥٢.

٤ـ الكافي، ج ٢، ص ٣٠٩؛ وو سائل الشيعة، ج ١١، ص ٢٩٨. الإسلاميّة.

«انصبوا له واقتلوه فإنّه قد ألحد في الحرم».[١]

وفي «الكافي» عنه عليه السلام في هذه الآية قال: «نزلت فيهم حيث دخلوا الكعبة فتعاهدوا وتعاقدوا على كفرهم وجحودهم بما نزل في أمير المؤمنين عليه السلام فألحدوا في البيت بظلمهم الرسول ووليّه فبعدا للقوم الظالمين».[٢]

والقميّ قال: نزلت فيمن يلحد في أمير المؤمنين عليه السلام ويظلمه.[٣]

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: واذكر حين جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة ومرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة. وكان قد رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فأعلم اللّه سبحانه إبراهيم مكانه بريح أرسلها فكشفت ما حوله فبناه على وضعه الأول، وقيل: أمر إبراهيم بأن يأتي موضع البيت ويبني فخفي عليه مكان البيت فبعث اللّه على قدر البيت الحرام في العرض والطول غمامة وفيها رأس يتكلّم وله لسان وعينان فقال: يا إبراهيم ابن على قدري وحيالي فأخذ في البناء وذهبت السحابة.

﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ وحاصل معنى التبوئة لإبراهيم وجعله مسكناً له لأن يكون بقلبه موحداً لربّ البيت عن الشريك ويكون مكلّفاً بتطهير البيت وتنظيفه عن الأوثان والشرك وعبادة الأصنام ومعنى ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ والحالة أنّ إبراهيم لم يشرك باللّه أنّه لا تشرك بي غرضا آخراً في بناء البيت وكذلك لا تشرك في العبادة غيري.

فلو قيل: إنّ البيت ما كان معمورا في زمن إبراهيم فكيف قال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾؟ يمكن أن يكون ذلك المكان كان صحراء وكانوا يرمون

١ـ علل الشرايع، ج ٢، ص ٤٥٣؛ وبحار الأنوار، ج ٩٦، ص ١٥٣.

٢ـ الكافي، ج ١، ص ٤٢١؛ وبحارالأنوار، ج ٢٣، ص ٣٧٦.

٣ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ٨٣؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٣٧٢

إليها الأقذار فأمر بتطهيره أو كانوا قد وضعوا فيها أصناما لمّا قد سمعوا أنّ قبلهم كانوا جماعة يعبدون الأصنام فأمر بتخريب ذلك البناء ووضع بناء جديد وذلك هو التطهير عن الأوثان، أو المراد أنّك بعد أن تبنيه فطهّره عمّا لا ينبغي من الشرك وقول الزور.

وأمّا قوله: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ﴾ أي: للطائفين بالبيت من غير أهل مكّة والقائمين أي: المقيمين بها والركّع ﴿السُّجُودِ﴾ أي: من المصلّين والجامعين بين الركوع والسجود. قوله ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ﴾ أي: وناد يا إبراهيم في الناس وأعلمهم بوجوب الحجّ.

واختلف في المخاطب به على قولين[1]:

أحدهما: أنّه إبراهيم عليه السلام عن عليّ عليه السلام وابن عبّاس واختاره أبو مسلم قال ابن عبّاس: (قام إبراهيم عليه السلام في المقام فنادى: يا أيّها الناس إنّ اللّه دعاكم إلى الحجّ فأجابوا بلبّيك اللهمّ لبّيك).

والثاني أنّ المخاطب به محمّد صلى الله عليه وآله فأذّن في حجّة الوداع أي: أعلمهم بوجوب الحجّ.

ولكن جمهور المفسّرين على القول الأوّل وقالوا: قد أسمع اللّه تعالى قول إبراهيم كلّ من سبق علمه بأنّه يحجّ إلى يوم القيامة كما أسمع سليمان مع ارتفاع منزلته وكثرة جنوده حوله صوت النملة مع خفضه وسكونه. وفي رواية عطا عن ابن عبّاس قال: لمّا أمر اللّه سبحانه إبراهيم أن ينادي في الناس بالحجّ صعد أبا قبيس ووضع إصبعيه في أذنيه وقال: أيّها الناس أجيبوا ربّكم فأجابوه بالتلبية في أصلاب الرجال وأوّل من أجابه أهل اليمن.

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي: مشاة على أرجلهم ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي:

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ١٤٥؛ وبحار الأنوار، ج ١٢، ص ٩١.

ركباناً يريد الإبل ولا يدخل بعير ولا غيره الحرم إلّا وقد هزل. وروى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس أنّه قال لبنيه: يا بنيّ حجّوا إليها مشاة فإنّي سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول: **«للحاجّ الراكب بكلّ خطوة يخطوها راحلته سبعون حسنة وللحاجّ الماشي بكلّ خطوة يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم قيل: وما حسنات الحرم؟» قال: «الحسنة بمائة ألف».**[1]

﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ الضمير راجع إلى جماعة الإبل الضامرة وقرئ «يأتون» صفة للرجال. وقرئ «الرجال» كنيام جمع نائم وقرئ «رجالا» بضمّ الراء محفّف الجيم ومثقّله، و«رجّال» مشدّدة كعجّال. وبدأ اللّه بذكر المشاة تشريفاً لهم. وإنّما قال في الآية «يأتوك» لأنّ إبراهيم عليه السلام هو الّذي نادى الناس فكأنّه هو المأتيّ من كلّ طريق بعيد.

وروي مرفوعاً عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول: **«إنّ الله تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة يقول: انظروا إلى عبادي شعثا غبراً أقبلوا يضربون[2] إليّ من كلّ فجّ عميق فاشهدكم أنّي قد أجبت دعاءهم وشفعت رغبتهم ووهبت مسيئهم لمحسنهم وأعطيت محسنهم جميع ما سألوني غير التبعات الّتي بينهم فإذا أفاض القوم إلى جمع ووقفوا وعادوا في الرغبة والطلب إلى الله يقول: يا ملائكتي عبادي وقفوا وعادوا في الرغبة والطلب فاشهدكم أنّي قد أجبت دعاءهم وشفعت رغبتهم ووهبت مسيئهم لمحسنهم وأعطيت محسنهم جميع ما سألني وكفّلت عنهم بالتبعات الّتي بينهم».**[3]

وفي «الكافي» و«التهذيب» عن الصادق عليه السلام قال: **«إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أقام**

١ـ مستدرك الوسائل، ج ٨، ص ٣٠؛ وعوالي اللئالي، ج ٢، ص ٨٦.

٢ـ من الضرب في الأرض بمعنى السفر.

٣ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ١٤٥؛ وانظر: المستدرك، الحاكم نيشابوري، ج ١، ص ٤٦٥.

بالمدينة عشر سنين لم يحجّ ثمّ أنزل الله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ الآية، فأمر المؤذّنين أن يؤذّنوا بأعلى أصواتهم: إنّ رسول الله يحجّ في عامه هذا فعلم به من حضر بالمدينة وأهل العوالي والأعراب واجتمعوا بحجّ رسول الله صلى الله عليه وآله وإنّما كانوا تابعين ينظرون ما يؤمرون به فيتّبعونه أو يصنع شيئاً فيصنعونه» الحديث.(۱)

أمّا قوله: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ قيل: المراد المنافع للتجارات في الدنيا والثواب في الآخرة. وقيل: المراد منافع الآخرة وهي العفو والمغفرة وهو المرويّ عن الباقر عليه السلام أي: ليحضروا ما ندبهم الله إليه من النفع وإنّما نكّر المنافع لأنّه أراد منافع راجعة مختصّة بهذه العبادة دينيّة ودنيويّة لا توجد في غيرها.

﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ واختلف في هذه «الأيّام» وفي «الذكر» فيها، فقيل: أيام العشر وإنّما قيل لها «معلومات» للحرص على علمها من أجل أنّ وقت الحجّ في آخرها ومنافع عملها معروفة كيوم عرفة والمشعر الحرام وكذلك يوم النحر فالمعلومات عشر ذي الحجّة والمعدودات أيام التشريق. وقيل: بالعكس.

والمراد بالذكر قيل: التسمية على ما ينحر لأنّ المسلم إذا ذبح ونحر يذكر اسم الله لأنّ الغرض الأصليّ فيما يتقرّب به أن يذكر اسم الله وأن يخالف المشركين حيث إنّهم يذكرون اسم آلهتهم وقت الذبح والنحر وإنّ المسلم إذا ذبح يتصوّر بإراقة دمها بصورة من يفدي نفسه فكأنّه يبذل تلك الذبيحة عوض مهجته طلباً لمرضاة الله. وقيل: إنّ الذكر كناية عن الذبح ولمّا كان صحّة الذبح بالتسمية سمّي ما سمّي الذبح بالذكر توسّعاً. وقيل: هو التكبير قال أبو عبد الله عليه السلام: «التكبير بمنى عقيب خمس عشر صلوات أوّلها لصلاة الظهر من يوم النحر يقول: الله أكبر الله أكبر لا إله إلّا الله والله أكبر الله أكبر الله

۱ــ الكافي، ج ٤، ص ٢٤٥؛ والتهذيب، ج ٥، ص ٤٥٤.

أكبر لله الحمد الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أبلانا والله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام»[1] أصلها من الإبهام وذلك أنّها لا تفصح كما يفصح الحيوان الناطق والأنعام الإبل واشتقاقها من النعومة وهي اللين سمّيت بذلك للين أخفافها وقد يجتمع معها الغنم والبقر فيسمّى الجميع أنعاماً اتّساعاً وان انفردا لم يسمّيا أنعاماً.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ أي: فكلوا من بهيمة الأنعام الّتي تذبحونها وهذا إباحة وندب وليس بواجب وقيل: بوجوب الأكل لأنّ أهل الجاهليّة ما كانوا يأكلونها ترفّعا على الفقراء وأطعموا منها الّذي ظهر عليه أثر البؤس من الجوع والعرى وقيل: البائس الّذي يمدّ يده بالسؤال ويتكفّف للطلب أمر سبحانه أن يعطي هؤلاء من الهدي ثمّ بعد الهدي ﴿لْيَقْضُوا﴾ ليزيلوا ﴿تَفَثَهُمْ﴾ والتفث كلّ كراهة تلحق الإنسان فحينئذ يدفعون عن أنفسهم كقصّ الشارب وتقليم الأظافير وإزالة شعر العانة وغسل واستعمال طيب وأمثالها. قال المبرّد: أو نطفوا به سألت أعرابياً ما معنى التفث؟ قال: ما افسّر القرآن لكنّا نقول للرجل: ما أتفثك أي: ما أدرنك.

﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وقرئ بتشديد الفاء في «يوفوا» أي: وليتمّوا نذورهم الّتي نذروها من أعمال البرّ في أيام الحجّ. ولم يقل: «بنذورهم» لأنّ المراد بالإيفاء الإتمام. قال ابن عبّاس: هو نحر ما نذروا من البدن أو المراد الإيفاء بما نذر الإنسان أن يتصدّق إن رزقه اللّه الحجّ. قال الطبرسيّ: وإن كان على الرجل نذور مطلقة الأولى والأفضل أن يفي بها هناك.

وفي «الكافي» عن الباقر عليه السلام: «وليوفوا نذورهم فيمرّوا بنا فيخبروا بولايتهم

١ـ الكافي، ج ٤، ص ٥١٦؛ والخصال، ص ٥٠٢.

ويعرضون علينا نصرتهم وليطّوّفوا بالبيت العتيق».[1]

في «الكافي» عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عنه فقال: «هو طواف النساء الّذي يستباح به وطء النساء وذلك بعد طواف الزيارة».[2] فإنّه إذا طاف طواف الزيارة حلّ له كلّ شيء إلّا النساء وسمّي عتيقاً لأنّه أعتق من أن يملكه العبيد أو لأنّه أعتق من الطوفان وغرقت الأرض كلّها إلّا موضع البيت أو معنى العتيق القديم وهو أوّل بيت وضع للنّاس بناه آدم وجدّده إبراهيم.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: أمر الحجّ والمناسك ذلك والتعظيم وحرمة ما لا يحلّ انتهاكه وتفخيم مناسكها خير عند اللّه في الآخرة وقيل: المراد بالحرمات هاهنا البيت الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ثمّ عاد إلى بيان حكم فقال: واحلّت فقد كان يجوز أن يظنّ أنّ الإحرام إذا حرّم الصيد وغيره فالأنعام أيضاً تحرم عليه فبيّن اللّه أنّ الإحرام لا يؤثّر فيها فهي محلّلة واستثني منها ما يتلى في كتاب اللّه من المحرّمات في سورة المائدة مثل ما لم يذكر اسم اللّه عليه والموقوذة والمنخنقة والميتة وأشباهها.

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ أي: اجتنبوا الرجس الّذي هو الأوثان وروى أصحابنا أنّ اللعب بالشطرنج والنرد وأنواع القمار من ذلك وقيل: إنّهم كانوا يلطّخون الأوثان بدماء قرابينهم فسمّي ذلك رجساً.

﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ يعني: الكذب. وقيل: المراد هو تلبية المشركين: لبّيك لا شريك لك إلّا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. وروى

١ـ انظر: الكافي، ج ١، ص ٣٩٢.

٢ـ التبيان، ج ٧، ص ٣١١؛ وأيضاً جوامع الجامع، ج ٢، ص ٥٥٧.

أصحابنا أنّه يدخل فيه الغناء وسائر الأقوال الملهية. وروى أيمن بن خريم عن رسول اللهﷺ أنّه قام خطيباً فقال: «**أيها الناس عدلت شهادة الزور بالشرك بالله**» ثمّ قرأ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[1] يريد أنّه سبحانه قد جمع في النهي بين عبادة الوثن وشهادة الزور.

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥)

أي: كونوا مستقيمي الطريقة على أمر الله ومائلين إلى دين الله ومخلصين إليه، و«حنفاء» منصوب على الحال، أي: تمسّكوا بهذه الأمور الّتي أمرتم على وجه العبادة لله وحده لا على وجه إشراك غير الله به ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ﴾ بالله.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ وسقط من السماء فتأخذه الطير بسرعة أي: بعد الانخرار والسقوط تخطّف الطير لحمه ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ وتسقطه ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ مفرط في البعد كبعض المهاوي المهلكة المتلفة وأصل «تخطفه» تختطفه فشبّه سبحانه من أشرك حاله بحال من خرّ من السماء واختطفته الطير فتفرّقت أجزاؤه في حواصلها أو بحال من عصفت

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ١٤٨؛ وانظر: مستدرك الوسائل، ج ١٧، ص ٤١٦.

به الريح حتّى هوت به وأسقطته في المهالك البعيدة فشبّه الإيمان في علوّ مقامه بالسماء وشبّه الشرك بالساقط والمهويّ المجتذبة للطيور السباع الغائبة في حواصلها والشيطان الّذي يطرحه في ذلك الضلال بتلك الريح الّتي أهوته فهو هالك لا محالة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك الّذي ذكرنا ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: الأعلام الّتي نصبها اللّه لطاعته. ثمّ اختلف في ذلك فقيل: هي مناسك الحجّ كلّها. وقيل: هي البدن وتعظيمها استسمانها وعن ابن عبّاس في رواية مقسم: والشعائر جمع شعيرة وهي البدن إذا أشعرت وأعلمت عليها بأن يشقّ سنامها من الجانب الأيمن ليعلم أنّها هدي فالّذي يهدي مندوب إلي طلب الأثمن والأغلى ويختارها عظام الأجسام سمانا غالية الأثمان وترك المكاس في شرائها وقد كانوا يتغالون في ثلاثة ويكرهون المكاس في الثلاثة: الهدي والاضحية والرقبة. ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ فإنّ تعظيمها من تقوى القلوب، حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مكانه وأضاف التقوى إلى القلوب لأنّ حقيقة التقوى تقوى القلوب وصدق النيّة.

القميّ قال: المراد تعظيم البدن وجودتها. وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام: **«إنّما يكون الجزاء مضاعفة في ما دون البدنة فإذا بلغ البدنة فلا تضاعف لأنّه أعظم ما يكون قال اللّه: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾»**[1] وعن الصادق عليه السلام في قصّة حجّة الوداع: **«وكان الهدي الّذي جاء به رسول اللّه صلى الله عليه وآله أربعة وستّين أو ستّة وستّين بدنة وجاء عليّ عليه السلام بأربعة وثلاثين أو ستّة وثلاثين»**.[2] وروي عن طريق العامّة أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في

١ـ الكافي، ج ٤، ص ٣٩٥؛ ووسائل الشيعة الإسلامية، ج ٩، ص ٢٤٣.

٢ـ الكافي، ج ٤، ص ٢٤٧؛ والتهذيب، ج، ص ٤٥٧.

أنفه برة من ذهب.[1]

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ اعلم أنّ قوله: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ لا يليق إلّا بأن تحمل الشعائر على الهدي الّذي فيه منافع من ركوبها ونسلها وأصوافها وأوبارها وألبانها، إلى أجل مسمّى أي: وقت النحر ومن قال: إنّ الشعائر مناسك الحجّ ودين اللّه فالمراد من المنافع الأجر والثواب والأجل المسمّى القيامة. ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ أي: محلّ الهدي والنحر ووجوب نحرها منتهية إلى البيت كقوله: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾[2] يعني: حيث يحلّ نحرها. وأمّا البيت العتيق قيل: محلّه الحرم كلّه ودليله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾[3] أي: الحرم كلّه فالمنحر على هذا القول كلّ مكّة ولكنّها تنزّهت عن الدماء إلى منى ومنى من مكّة. وقال أصحابنا: إن كان الهدي للحجّ فمحلّه منى وإن كان للعمرة المفردة فمحلّه مكّة قبالة الكعبة بالجزورة، ومحلّها حيث يحلّ نحرها.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ وقرئ «منسكاً» بكسر السين وبالفتح أمّا الفتح فمعناه نسكاً وعبادة مصدر ميميّ وبالكسر بمعنى الموضع والمعنى: إنّا شرعنا لكلّ أمّة من الأمم السالفة من عهد إبراهيم إلى من بعده ضرباً من القربان، وجعل العلّة في ذلك أن يذكروا اسم اللّه عليها والعرب كانت تذبح للصنم فسمّي العتير والعتيرة كالذبيح والذبيحة.

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ وكيفيّة النظم على وجهين:

١ـ السنن الكبري، ج ٥، ص ٢٣٠؛ والمعجم الكبير، ج ١١، ص ٢٩٩.

٢ـ سورة المائدة: ٩٥.

٣ـ سورة التوبة: ٢٨.

أحدهما: أنّ الإله واحد وإنّما اختلفت الشرائع باختلاف الأزمنة والمصالح بحسب حال المكلّف.

الثاني: فإلهكم إله واحد فلا تذكروا على ذبائحكم غير اسم اللّه فله أسلموا وأخلصوا له الذكر خاصّة بحيث لا يشوبه اشتراك البتّة فكونوا منقادا له، ومن كان كذلك كان مخبتا فلذلك قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ والمخبت المتواضع المخلص الخاشع أي: بشّر المطمئنّين إلى اللّه.

ثمّ وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: إذا خوّفوا باللّه خافوا، ولذلك الرجل أثران: أحدهما الصبر على المكاره وهو المراد بقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ وعلى ما يكون من قبل اللّه كالأمراض والمحن والمصائب وأمّا ما يصيبهم من قبل الظلمة أو من قبل أنفسهم فالصبر غير واجب بل إن أمكنه الدفع عن نفسه لزمه الدفع ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: الخدمة بنفسه وماله أمّا الخدمة بالنفس إقامة الصلاة والخدمة بالمال وهو المراد من قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وهذان القسمان من الخدمة.

الأثر الثاني في حصول الوجل:

وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ
عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ
كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا
وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا
هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ
ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن

﴿يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)﴾

«البدن» جمع بدنة سمّيت بذلك لعظم بدنها وجثّتها وهي الإبل لكن رسول اللهﷺ ألحق البقر بالإبل، وقال قوم: البدن الإبل والبقر الّتي يتقرّب بها إلى الله في الحجّ والعمرة لأنّه إنّما سمّي بذلك لعظم البدن فالأولى دخولها فيه، أمّا الشاة فلا تدخل وإن كانت تجوز في النسك لأنّها صغيرة الجسم فلا تسمّى بدنة وكلّ ضخم بدن.

﴿وَالْبُدْنَ﴾ أي: جعلنا البدن ﴿لَكُم﴾ من أعلام دينه وعلائم مناسك الحج أي: سوقها إلى البيت وتقليدها عبادة الله و﴿فِيهَا خَيْرٌ﴾ كثير لكم في الدنيا والآخرة من الثواب. وقيل: المراد خير الآخرة لأنّه الغرض المطلوب.

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ في حال نحرها وهو أن يقول: **«الله أكبر لا إله إلّا الله والله أكبر اللّهمّ منك ولك»**، صوافّ أي: قياماً مقيّدة على سنّة محمّدﷺ. وقيل: المعنى: يكن البدن قائمات قد صففن أيديهنّ وأرجلهنّ وقرئ صوافن من صفون الفرس وهو أن تقوم على ثلاث وتنصب الرابعة على طرف سنبكه لأنّ البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث. وقرئ «صوافي» أي: خوالص لوجه الله ولا تشركوا بالله في التسمية على نحرها أحداً كما كان يفعله المشركون ولا يبعد أن يكون الحكمة في إصفافها ظهور كثرتها للناظرين فتقوى النفوس ويكون التقرّب بنحرها عند ذلك مزيد الأجر ويوجب التشويق للنحر وظهور كثرة التكبير وإعلاء اسم الله.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ والمراد من وجوب الجنوب سقوطها إلى الأرض عبّر بذلك عن تمام خروج الروح منها من وجب الحائط إذا سقط ووجبت

الشمس إذا غربت ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ قيل: القانع السائل والمعترّ الّذي يتعرّض للسؤال ولا يسأل. وقيل: بالعكس. والأمر في «كلوا» للإباحة والإذن، وقيل: للوجوب لأنّ أهل الجاهليّة كانوا يستنكفون من أكلها ولهذا قيل: الأكل واجب إذا تطوّع، قال أبو عبد الله عليه السلام في معنى القانع والمعترّ: **«القانع الّذي يقنع بما أعطيته ولا يسخط ولا يكلح ولا يلوي شدقه غضباً والقانع المارّ بك تطعمه يعتري عليك ولا يسأل»**. قال زهير الشاعر المشهور:

على مكثريهم حقّ من يعتريهم ... وعند المقلّين السماحة والبذل

وروي عنهم عليهم السلام: **«أنّه ينبغي أن يطعم ثلثه ويعطي القانع والمعترّ ثلثه ويهدي لأصدقائه ثلثه»**.(١)

﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ يعني: مثل ما وصفنا ذلّلناها لكم حتّى لا تمتنع عمّا تريدون منها من النحر والذبح بخلاف السباع الممتنعة، ولتنتفعوا بركوبها ونتاجها نعمة منّا عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ذلك قالت المعتزلة: هذا يدلّ على أنّ الله سبحانه أراد من الجميع أن يشكروا فدلّ هذا على أنّه يريد كلّ ما أمر به من من عصى وأطاع لا كما يقوله أهل السنّة من أنّه تعالى لم يرد ذلك إلّا من المعلوم أنّه يطيع.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ لمّا كانت عادة الجاهليّة في القربان أنّهم يلوّثون بدمائها ولحومها الوثن وحيطان الكعبة بيّن في الآية أنّ القصد من النحر حصول التقوى بسبب هذا الأمر منكم وليس المراد حصول الدم واللحم نحو قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾(٢) وهو سبحانه غنيّ عن أن ينتفع بالأجسام الّتي هي اللحوم والدماء، وهذا كناية عن

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ١٥٥؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٣٧٩.

٢ـ سورة فاطر: ١٠.

القبول وكلّها يقبله الإنسان فيناله ويصل إليه.

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ تقدّم ذكره ﴿لِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ وهو أن يقول: اللّه أكبر على ما هدانا، في مقابلة هدايته لمعالم ديننا ومناسك حجّنا ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الموحّدين والّذين يعملون الأعمال الحسنة ويحسنون إلى غيرهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بشّر اللّه سبحانه المؤمنين بالنصرة والغلبة على المشركين ودفع غائلتهم بأن يمنعهم عن أذى المؤمنين وينصرهم عليهم.

ثمّ شرح حال المشركين بأنّهم خونة وكفرة لأنّهم خانوا اللّه وجعلوا له شريكاً وكفروا نعمته وذكروا غير اسم اللّه وتقرّبوا إلى الأصنام بالذبائح فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ وهاهنا حذف كلمة «في القتال» وحذف المأذون فيه لدلالة كلمة «يقاتلون» بسبب كونهم مظلومين ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ والمأذون فيه القتال والمأذون له أصحاب الرسول والظالمون المشركون أخرجوهم من ديارهم حتّى لحق طائفة منهم بالحبشة ثمّ هاجروا إلى المدينة.

وسبب نزول الآية: كان المشركون لا زال يؤذون المسلمين ولا يزال يجيء مشجوج ومضروب إلى رسول اللّه ﷺ ويشكون عنده من أذى المشركين لهم فيأمرهم بالصبر ويقول: «**إنّي لم أومر بالقتال**» ؛ حتّى هاجر إلى المدينة ثمّ أنزل اللّه هذه الآية بالمدينة وهي أوّل آية نزلت في القتال.

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ المعنى: إنّ المسلمين اضطرّوا إلى الخروج من غير استحقاق للخروج ولم يخرجوا

من ديارهم إلّا لقولهم: ربّنا اللّه وحده. قال أبو جعفرعليه السلام: **«نزلت في المهاجرين وجرت في آل محمّدعليهم السلام الّذين اخرجوا من ديارهم وأخيفوا».**[1] وإذا كان المراد من الآية المهاجرين إلى الحبشة فالآية مكّيّة.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ والمراد بهذا الدفاع الّذي أضافه إلى نفسه الإذن في جهادهم والنصرة للمؤمنين على المشركين يعني: ولو لا دفاع اللّه أهل الشرك بالمؤمنين لمنع المشركون المؤمنين من العبادة وخربوا ما يبنونه من مواضع العبادة لكن دفع عن هؤلاء بأن أمرهم بقتال أهل الشرك ليفرغ أهل الدين للعبادة وبناء المعابد لها كالصوامع والبيع والصلوات وإن كانت لغير أهل الإسلام، ولهدّمت المواضع المعدّة للعبادة في شرع كلّ نبيّ مثلاً لكان هدّم في زمن موسى البيع لليهود وفي زمن عيسى الصوامع للنصارى. وقيل: البيع للنصارى في القرى والصومعة في الجبال والبراريّ والصلوات كنائس اليهود. وقرئ «وصلوات» بضمّ الصاد واللّام معرّب صلوتاً. وقيل: المراد عين الصلاة. وقيل: المراد المصلّيات وأماكن الصلاة كما قال: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾[2] وأراد بالصلاة المساجد. وقيل: الصلوات معبد الصابئين والمساجد معبد المسلمين.

وبالجملة فحاصل المعنى أنّه لو لا ذلك الدفع لانقطعت الصلوات ولخربت المساجد.

﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ يعني: يذكر في المساجد أو في هذه الأمكنة المذكورة اسم اللّه كثيراً لأنّ الغالب فيها ذكر اسم اللّه.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ هذا وعداً من اللّه بأنّه سبحانه سينصر

۱ـ مجمع البيان، ج ۷، ص ۱٥٦؛ وبحار، ج ۲٤، ص ۲۲۷.

۲ـ سورة النساء: ٤۳.

دينه وشريعته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: قادر قاهر.

ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ
فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾
وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ
خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾

ثمّ وصف سبحانه «من» في قوله: «من ينصره». وقال أبو جعفر عليه السلام «نحن هم والله».[1] القمي عن الباقر عليه السلام: **«هذه الآية لآل محمّد والمهدي عليه السلام وأصحابه يملكهم مشارق الأرض ومغاربها ويظهر الدين ويميت الله به وبأصحابه البدع والباطل وكلّ ضلالة».**[2] وفي «المناقب» عن الكاظم وجدّه سيّد الشهداء عليهما السلام: **«هذه فينا أهل البيت».**[3]

والحاصل: فالمعنى أنّ الموصوفين هم الّذين إن أعطيناهم ما به يصحّ الفعل منهم ويتمكّنون في الأرض ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أدّوا بحقوقها وأعطوا ما افترض الله عليهم من الزكاة ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ وهو كقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[4] والمعنى أنّه يبطل كلّ ملك سوى ملكه فتصير الأمور إليه بلا مانع.

ثمّ عزّى نبيّه صلى الله عليه وآله عن تكذيبهم إيّاه وخوّف مكذّبيه بذكر من كذّبوا

١ـ بحار، ج ٦٦، ص ٢٥٧ ومجمع البيان، ج ٧، ص ١٥٨.

٢ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ٨٧.

٣ـ المناقب، ج ٣، ص ٢٠٧؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٣٨٢.

٤ـ سورة البقرة: ٢١٠.

أنبياءهم فاهلكوا فقال سبحانه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ أي: كلّ أمّة من هؤلاء الأمم فقد كذّبت نبيّها. وأجرى الكلام مجرى التسلية لنبيّه ﷺ في الصبر على ما هم كانوا عليه من أذى قومهم فقال: وإن يكذّبوك قومك فكذلك فعلوا سائر الأمم أنبياءهم وذكر الله بعض أسمائهم.

فإن قيل: ولم قال: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ ولم يقل: قوم موسى؟ لأنّ موسى ما كذّبه قومه بنو إسرائيل وإنّما كذّبه غير قومه وهم القبط أو إشعار بمبالغة بيان هذا الأمر يعني: أنّ موسى أيضاً مع وضوح آياته وعظم معجزاته كذّبوه فما ظنّك بغيره؟ ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ وأمهلتهم إلى الوقت المعلوم عندي ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بالعقوبة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ استفهام تقرير أي: كيف إنكاري وغضبي عليهم بالعذاب أليس ابدلّهم بالنعمة نقمة وبالكثرة قلّة وبالحياة موتا وبالعزّة ذلّة وبالعمارة خراباً؟ ألست أعطيت الأنبياء ما وعدتهم من النصرة على أعدائهم والتمكين لهم في الأرض؟ فينبغي أن يكون عادتك يا محمّد الصبر عليهم فإنّه تعالى يمهل للمصلحة فلابدّ من الرضا والتسليم وإن شقّ ذلك على القلب.

واعلم أنّه بدون ذلك البيان يحصل التسلية لمن حاله دون حال الرسول من المؤمنين فكيف بذلك مع منزلته؟ لأنّه ﷺ في كلّ وقت يصل إليه من جهتهم ما يزيده غمّا كما يفصح عن هذا المعنى قوله ﷺ: «ما أوذي نبيّ مثل ما أوذيت».(۱) فصبّره الله حالاً بعد حال إكراماً له وقد تقدّم ذكر المكذّبين ووصف وبالغ عذابهم بالإنكار بحصول الأخذ والأخذ كاشف عن حقيقة الإنكار.

۱ـ المناقب، ج ۳، ص ٤۲؛ وبحار، ج ۲۹، ص ٥٦.

قال بعض علماء العامّة: إنّ السبب في تأخير عذاب الاستئصال عن هذه الأمّة أنّ ذلك العذاب مشروط بأمرين: أحدهما أنّ عند اللّه حدّ من الكفر من بلغه عذّبه ومن لم يبلغه لم يعذّبه. والثاني أنّ اللّه سبحانه لا يعذّب قوماً حتّى يعلم أنّ أحداً منهم لا يؤمن، فأمّا إذا حصل الشرطان فحينئذ يأمر الأنبياء فيدعون على أممهم فيعذّبهم بعذاب الاستيصال وهو المراد بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾[1] أي: من إجابة القوم وقوله لنوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[2] وإذا عذّبهم اللّه فإنّه ينجي المؤمنين لقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ـ بالعذاب ـ نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾[3].

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ وقرئ «أهلكتها» بالتاء بمناسبة «فأمليت» قال بعضهم: «كأيّن» المراد من معناه «كم» للتكثير وقيل: معناه «ربّ» والأوّل أنسب في معنى الزجر من الثاني أي: وكم من أهل قرى أهلكناها وأهلها ظالمون بالتكذيب والكفر فالقرى خالية من أهلها وساقطة على سقوفها ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ وكم من بئر باد أهلها وغار ماؤها وتعطّلت من دلائها فلا مستقى منها ولا وارد لها وكم من قصر مجصّص خالياً عن السكنة للعبرة.

وفي تفسير أهل البيت: أي: وكم من عالم لا يرجع إليه ولا ينتفع بعلمه. وفي «الإكمال» و«المعاني» عن الصادق وفي «الكافي» عن الكاظم عليه السلام: «البئر المعطّلة الإمام الصامت والقصر المشيد الإمام الناطق».[4] وإنّما كنّي عن الإمام الصامت بالبئر لأنّ الإمام منبع العلم الّذي هو سبب حياة الأرواح إلّا

١ـ سورة يوسف: ١١٠.

٢ـ سورة هود: ٣٦.

٣ـ سورة هود: ٥٨.

٤ـ الكافي، ج ١، ص ٤٢٧؛ وكمال الدين، ص ٤١٧؛ ومعاني الأخبار، ص ١١١.

على من أتاه كما أنّ البئر منبع الماء الّذي هو سبب حياة الأبدان مع خفائها إلّا على من أتاها وكنّي عن صمته بالتعطيل لعدم الانتفاع بعلمه وكنّي عن الإمام الناطق بالقصر المشيد لظهوره وعلوّ منصبه. وفي «المعاني» مقطوعاً عن أمير المؤمنين عليه السلام: **«هو القصر المشيد والبئر المعطّلة فاطمة عليها السلام وولدها معطّلين من الملك والقصر مجدهم الّذي لا يرتقى والبئر علمهم الّذي لا ينزف».**[1]

قال الضحّاك: هذه البئر كانت بحضرموت في بلدة يقال لها «حاضوراً» نزل بها أربعة آلاف ممّن آمن بصالح ومعهم صالح فلمّا حضروا مات صالح فسمّي المكان حضرموت ثمّ إنّهم كثروا فكفروا وعبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نبيّاً يقال له حنظلة فقتلوه بالسوق فأهلكهم الله فماتوا عن آخرهم وعطّلت بئرهم وخرب قصر ملكهم[2] وكان نبيّهم اسمه سنجاريب، أو سجاريب كان وزيرهم وكان ملكهم جابر.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

ثمّ شرح سبحانه بما يزيد الاعتبار أيضاً فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾

١ـ معاني الأخبار، ص ١١٢؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٣٨٣.

٢ـ بحار الأنوار، ج ١٤، ص ١٦٠؛ وأيضاً مجمع البيان، ج ٧، ص ١٥٩.

والاعتبار والتنبّه يحصل بالرؤية والسماع ولذلك قال: أفلم يسيروا ويسافروا ليروا مصارع من أهلكهم بكفرهم ويشاهدوا ما وقع عليهم ويتعقّلوا في قلوبهم وأذهانهم ويستمعون أخبارهم ويعتبروا بمن مضى قبلهم والمراد أنّ قومك يا محمّد لم يسيروا في أرض اليمن والشام.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ والضمير في «إنها» للشأن والقصّة وقوله: ﴿ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ من التأكيد الّذي يؤتى في الكلام كقوله: ﴿عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾[1] ومثل قوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾[2] و﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[3] والمعنى أنّه لا عمى في أبصارهم فإنّهم يرون بها لكنّ العمى في قلوبهم حيث لم ينتفعوا بما أبصروا، والإبصار يحصل وإن كانت العين عمياء بسبب البصيرة إذا كان أصحابها عارفين بالحقّ وإنّما يكون العمى عمى القلب الّذي يقع معه الجحود بوحدانيّة الله.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ ويستعجلونك يا محمّد بالعذاب المتوعّد به ويستبطئونه، وفي ذلك دليل على أنهﷺ كان يخوّفهم بالعذاب إن استبقوا على كفرهم ولن يخلف الله وعده في إنزال العذاب بهم. ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ واختلف في معناه على وجوه:

أحدها: أنّ يوماً من أيام الآخرة يكون كألف سنة من أيام الدنيا، عن جماعة مثل ابن عبّاس وعكرمة ومجاهد وجماعة. وفي رواية أخرى عن ابن عبّاس أنّه أراد أنّ يوماً من الأيّام الّتي خلق الله فيها السماوات والأرض كألف سنة، ويدلّ عليه ما روي أنّ الفقراء يدخلون الجنّة قبل الأغنياء بنصف يوم

١ـ سورة البقرة: ١٩٦.

٢ـ سورة آل عمران: ١٦٧.

٣ـ سورة الأنعام: ٣٨.

خمس مائة عام ويكون المعنى على هذا أنّهم يستعجلون العذاب وأنّ يوماً من أيام عذابهم في الآخرة كألف سنة.

وثانيها: أنّ المعنى: وإنّ يوماً عند ربّك وألف سنة في قدرته واحد فلا فرق بين وقوع ما يستعجلون به من العذاب وبين تأخّره في القدرة إلّا أنّه تفضّل بالإمهال إذ لا يفوته شيء.

وثالثها: أنّ يوماً واحداً كألف سنة في مقدار العذاب[1] أي: إنّه لشدّته وعظمته كمقدار عذاب ألف سنة من أيام الدنيا على الحقيقة وكذلك نعيم الجنّة لأنّ يوماً من أيام نعيم الآخرة وسرورها مثل ما يكون في ألف سنة من أيام الدنيا ثمّ الكافر مع هذا يستعجل ذلك العذاب لجهله وهذا كقوله: أيام السرور قصار وأيام الهموم طوال.[2] قال الشاعر:

يطول اليوم لا ألقاك فيه ... وحول نلتقي فيه قصير

وفي «إرشاد المفيد» عن الباقر عليه السلام قال: **«إذا قام القائم سار إلى الكوفة فهدم فيها أربعة مساجد ولم يبق على وجه الأرض مسجد له شرفة إلّا هدمها وجعلها جماء ووسّع الطريق الأعظم وكسر كلّ جناح خارج في الطريق وأبطل الكنيف والميازيب إلى الطرقات ولا ترك بدعة إلّا أزالها ولا سنّة إلّا أقامها ويفتح قسطنطنيّة والصين وجبال ديلم فيمكث على ذلك سبع سنين مقدار كلّ سنة منها عشر سنين من سنيكم هذه ثمّ يفعل الله ما يشاء».**

قيل: فكيف يطول السنين؟ قال: **«يأمر الله الفلك باللبوث وقلّة الحركة فتطول الأيّام كذلك والسنون»**، قيل له: إنّهم يقولون: إنّ الفلك إن تغيّر فسد، قال: **«ذلك قول الزنادقة فأمّا المسلمون فلا سبيل لهم إلى ذلك وقد شقّ الله القمر لنبيّه صلى الله عليه وآله**

١ـ بحار الأنوار، ج ٧، ص ١٢٢؛ والكشاف، ج ٣، ص١٨.

٢ـ مجمع البيان، ج ٧، ج ١٦١؛ وبحار الأنوار، ج ٧، ص ١٢٢.

ومن قبله ﷺ ردّ الشمس ليوشع بن نون في قتال الجبابرة وأخبر بطول يوم القيامة وأنّه كألف سنة ممّا تعدّون».[١]

وفي «الكافي» عنهم عليهم السلام قال: **«فيما وعظ الله عيسى عليه السلام: واعبدني ليوم كألف سنة ممّا تعدّون».**[٢]

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مرّ تفسيره أي: كم من أهل قرية أمهلتها وأخّرت عذابها ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ﴾ مصير كلّ واحد.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قل يا محمّد لهم: إنّي مخوّف عن معاصي الله مبيّن لكم ما يجب عليكم فعله وما يجب عليكم تجنّبه ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من الله لمعاصيهم لمّا تقدّم في الآية السابقة الوعيد وبيان عذابهم أردفها بهذه الآية بالوعد للمؤمنين فقال: والّذين آمنوا وعملوا الصالحات. لمّا بيّن الله للرسول الله ﷺ أنّه يجب أن يقول لهم: أنا نذير مبين، أردف ذلك بأن أمره بوعدهم ووعيدهم فقال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلخ، فجمع بين الوصفين في الآيتين: الوعد والوعيد.

قال الرازيّ وهذا دليل على أنّ العمل الصالح خارج عن مسمّى الإيمان وبه يبطل قول المعتزلة ويدخل في الإيمان كلّما يجب من الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان ويدخل في العمل الصالح أداء كلّ واجب وترك كلّ محظور، ثمّ بيّن سبحانه أنّ من جمع بينهما فالله يجمع له بين المغفرة والرزق الكريم أمّا المغفرة فإمّا أن تكون عبارة عن غفران الصغائر أو عن غفران الكبائر بعد التوبة أو عن غفرانهما قبل التوبة والأوّلان واجبان عند المعتزلة وأداء الواجب لا يسمّى غفرانا فيبقى الثالث وهو الدلالة على العفو

١ـ الإرشاد، ج ٢، ص ٣٨٥؛ وبحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٣٣٩.

٢ـ الكافي، ج ٨، ص ١٣٤؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٥١٠.

عن أصحاب الكبائر من أهل القبلة.[١]

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: نعيم الجنّة فإنّه أكرم نعيم في أكرم دار.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ أي: بذلوا الجهد في إبطال آياتنا، وأصل السعي الإسراع في المشي معاجزين مغالبين أن يعجزوا اللّه، والمعاجزة المسابقة أي: يفوتوه بالمكر والحيل، ومن قرأ «معجزين» معناه مثبّطين لمن أراد اتّباع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وقاصدين تعجيز رسولنا أو ناسبين من تبع النبيّ إلى العجز ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وملازموا النار.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

في «الكافي» عنهما عليهما السلام في هذه الآية أنّهما (زادا «ولا محدَّث» بفتح الدال، فقال: «الرسول» الّذي يظهر له الملك فيكلّمه و«النبيّ» هو الّذي يرى في منامه وربّما اجتمعت النبوّة والرسالة لواحد، والمحدَّث الّذي يسمع الصوت ولا يرى الصورة، قيل: كيف يعلم أنّ الّذي يراه في النوم حقّ وأنّه من الملك؟ قال: يوفّق لذلك حتّى يعرفه لقد ختم اللّه بكتابكم الكتب وختم

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ٤٧.

بنبيّكم الأنبياء).[1] وفي معناه أخبار أخر فيه وفي «البصائر»[2] وغيرهما.

وفي «الكافي» عن السجّاد: **«إنّ في القرآن آية كان عليّ بن أبي طالب يعرف قاتله بها ويعرف بها الأمور العظام الّتي كان يحدّث بها الناس»** ثمّ قال بعد ما سئل عنها: «**هو والله قول الله: ﴿و ما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ ولا محدّث﴾ وكان عليّ بن أبي طالب محدثاً**».[3] وفي «البصائر» ما يقرب منه، وفيه أنّه سئل: من يحدّثه؟ قال: «**ملك يحدّثه**». قيل له: إنّه نبيّ أو رسول قال: «**لا ولكن مثله مثل صاحب سليمان ومثل صاحب موسى ومثل ذي القرنين وأريد بصاحب سليمان آصف بن برخيا وبصاحب موسى يوشع بن نون**».[4] وفي «الكافي» في عدّة روايات أنّ الأئمّة كانوا محدّثين كانوا يسمعون الصوت ولا يرون الملك. وكان من ألقاب فاطمة عليها السلام محدّثة.[5]

وقالت المعتزلة: كلّ رسول نبيّ وكلّ نبيّ رسول ولا فرق بينهما. وقيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: كم المرسلون؟ فقال: «**ثلاثمائة وثلاثة عشر**»، فقيل: وكم الأنبياء؟ فقال: «**مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً**» وعلى هذا يفرق بين الرسول والنبيّ.

وفرّقوا بين الرسول والنبيّ بأمور: أحدها: أنّ الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه والنبيّ غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب وإنّما أمر أن يدعو إلى كتاب من قبله. والثاني: أنّ من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونسخ شرع من قبله فهو الرسول ومن لم يكن

١ـ الكافي، ج ١، ص ١٧٧؛ وبحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٧٧؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٣٨٥.

٢ـ تفسير الصافي، ج ٣، ص ٣٨٥.

٣ـ الكافي، ج ١، ص ٢٧٠؛ وبصائر الدرجات، ص ٣٤٠.

٤ـ بصائر الدرجات، ص ٣٤١؛ والكافي، ج ١، ص ٢٦٨.

٥ـ راجع: الكافي، ج ١، ص ١٧٠ ـ ١٧١.

مستجمعاً لهذه الخصال فهو النبيّ غير الرسول، والقائلين بهذا الكلام يلزمهم أن لا يجعلوا إسحاق ويعقوب وأيوب ويونس وهارون وداود وسليمان رسلاً لأنّهم ما جاءوا بكتاب ناسخ.(١)

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ ذكر بعض المفسّرين من العامّة من طريقهم في سبب نزول الآية أنّ الرسول لمّا رأى إعراض قومه عنه وشقّ عليه مباعدتهم عمّا جاءهم به تمنّى في نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه على إيمانهم فجلس ذات يوم في ناد من قريش كثير أهله وأحبّ يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء ينفروا عنه وتمنّى ذلك فأنزل الله سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ فقرأها رسول الله صلى الله عليه وآله في صلاته حتّى بلغ قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾(٢) ألقى الشيطان على لسانه:

تلك الغرانيق العلى   منها الشفاعة ترتجى

ومعنى الغرنوق: الحسن الجميل، فلمّا سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله في قراءته فقرأ السورة كلّها فسجد وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلّا سجد سوى الوليد بن المغيرة وابن احيحة سعيد بن العاصي فإنّهما أخذا حفنة من التراب من البطحاء ورفعاها إلى جبهتهما وسجدا عليها لأنّهما كانا شيخين كبيرين ولم يستطيعا السجود وتفرّقت قريش وقد سرّهم ما سمعوا وقالوا: قد ذكر محمّد آلهتنا بأحسن الذكر.

فلمّا أمسى رسول الله صلى الله عليه وآله أتاه جبرئيل فقال: «**ماذا صنعت؟ تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله، وقلت ما لم أقل لك؟**» فحزن رسول الله حزناً شديداً

١ـ انظر: تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ٤٩.

٢ـ سورة النجم: ١٩ و ٢٠.

وخاف من الله خوفاً عظيماً حتّى نزل قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ إلخ، وهذا القول السخيف رواية بعض المفسّرين الظاهرين.

قال الرازيّ: أمّا أهل التحقيق فقد قالوا: هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجّوا عليه بالقرآن والسنّة والمعقول. أمّا القرآن فوجوه:

أحدهما: قوله: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ * لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾[1].

وثانيها: قوله: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾[2].

وثالثها: قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ * إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[3] فلو أنّه ﷺ قرأ عقيب هذه الآية: تلك الغرانيق العلى، لكان قد ظهر كذب الله تعالى في الحال وذلك لا يقوله مسلم.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾[4] وكلمة «كاد» معناه قرب أن يكون الأمر كذلك مع أنّه لم يحصل.

وخامسها: قوله: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾[5] وكلمة «لو لا» تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره فدلّ على أنّ ذلك الركون القليل لم يحصل.

وسادسها: قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[6].

١ـ سورة الحاقة: ٤٤ و٤٥ و٤٦.

٢ـ سورة يونس: ١٥.

٣ـ سورة النجم: ٣ و٤.

٤ـ سورة الإسراء: ٧٣.

٥ـ سورة الإسراء: ٧٤.

٦ـ سورة الفرقان: ٣٢.

وسابعها: قوله: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[1]. وأمّا السنّة فهي ما روى محمّد بن إسحاق بن خزيمة أنّه سئل عن هذه القصّة فقال: هذا من موضوعات الزنادقة وصنّف فيه كاباً. وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ: هذه القصّة غير ثابتة من جهة النقل ثمّ أخذ يتكلّم في أنّ رواة هذه القصّة مطعون فيهم وأيضاً روى البخاريّ في صحيحه أنّ النبيّ‌ﷺ قرأ سورة والنجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجنّ وليس فيه حديث الغرانيق[2] وروي هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها البتّة حديث الغرانيق.

وأمّا المعقول فمن وجوه:

أحدها: أنّه غلط من جوّز على الرسولﷺ تعظيم الأوثان لأنّ من المعلوم أنّ أعظم سعيه كان في نفي الأوثان.

وثانيها: أنّهﷺ ما كان يمكنه في أوّل الأمر أن يصلّي ويقرأ القرآن عند الكعبة أمنا من أذى المشركين له حتّى كانوا ربّما مدّوا أيديهم إليه وإنّما كان يصلّيﷺ إذا لم يحضروها ليلاً أو في أوقات خلوة فكيف يقع هذا الأمر؟

وثالثها: أنّ معاداة قريش له كانت أعظم من أن يقنعوا بهذا القدر من القراءة دون أن يقفوا على حقيقة الأمر فكيف أجمعوا على أنّه عظّم آلهتهم حتّى خرّوا سجّداً مع تلك المخالفة الدائمة منهﷺ؟

ورابعها: قوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وذلك لأنّ إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان أقوى من نسخه بهذه الآيات الّتي تبقى الشبهة معها فإذا أراد اللّه إحكام الآيات لئلّا يلتبس ما ليس بقرآن قرآناً فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلاً أولى.

۱ـ سورة الأعلى: ٦.

۲ـ صحيح البخاري، ج ٦، ص ٥٢؛ وبحار الأنوار، ج ١٧، ص ٥٨.

وخامسها ـ وهو أقوى الوجوه ـ أنّا لو جوزناً ذلك ارتفع الأمان عن شرعه وجوزناً في كلّ واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ويبطل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[1] فإنّه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي والزيادة فيه.

فبهذه الوجوه عرفنا أنّ هذه القصّة مجعولة موضوعة أكثر ما في الباب أنّ جمعاً من المفسّرين ذكروها وما بلغوا حدّ التواتر وخبر الواحد لا يعارض النصّ والدلائل النقليّة والعقليّة.[2]

قال المرتضى رحمه الله: لا يخلو التمنّي في الآية من أن يكون معناه القراءة والتلاوة، كما قال حسّان بن ثابت:

تمنّى كتاب اللّه أوّل ليلة وآخره لاقى حمام المقادر

أو يكون من تمنّي القلب فإن كان المراد التلاوة فالمعنى: أنّ من أرسل قبلك من الرسل كان إذا تلا ما يؤدّيه إلى قومه حرّفوا عليه وزادوا فيما يقوله ونقصوا كما فعلت اليهود وأضاف ذلك إلى الشيطان لأنّه يقع بغروره فينسخ اللّه ما يلقي الشيطان ويدحضه بظهور حججه وخرج هذا على وجه التسلية للنبيّ لمّا كذب المشركون عليه وأضافوا إلى تلاوته من مدح آلهتهم ما لم يكن فيها.

وإن كان المراد تمنّي القلب فالوجه أنّ الرسول متى تمنّى بقلبه بعض ما يتمنّاه من الأمور وسوس إليه الشيطان ويدعوه بالباطل وينسخ اللّه ذلك ويبطله بما يرشد إليه من مخالفة الشيطان ويحفظه من وساوسه.[3]

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ٥٠.

٢ـ سورة المائدة: ٦٧.

٣ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ١٦٣؛ وانظر: تنزيه الأنبياء، ص ١٥٣.

قال السيّد: وأمّا الأحاديث المرويّة في هذا الباب فهي مجعولة مطعونة عند أصحاب الحديث. قال السيّد: وإن حمل ذلك على السهو فالساهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السورة ونظمها لأنّا نعلم ضرورة أنّ الساهي لو أنشد قصيدة لم يجز أن يسهو حتّى يتّفق منه بيت شعر في وزنها خصوصاً على الوجه الّذي يقتضيه فائدته لمرام المشركين في البين.

وقيل: إنّهﷺ كان إذا تلا القرآن على قريش توقّف في فصول الآيات وأتى بكلام على سبيل الحجاج لهم فلمّا تلا الآيات قال: «**تلك الغرانيق العلى؟**» على سبيل الإنكار عليهم أي: الأمر بخلاف ما قالوه وظنّوه وليس يمتنع أن يكون هذا في الصلاة لأنّ الكلام في الصلاة حينئذ كان مباحاً وإنّما نسخ من بعد.

وقيل: إنّ المراد بالغرانيق الملائكة وقد جاء في بعض الحديث فتوهّم المشركون أنّه يريد آلهتهم. وقال البلخيّ: ويجوز أن يكون النبيّ سمع هاتين الكلمتين من قومه فلمّا قرأ القرآن ألقاها الشيطان في ذكره أن يقوله فعصمه اللّه ونسخ وسواس الشيطان عنه وأحكام آياته بأن قرأها محكمة سليمة.

ويجوز أن يكون النبيﷺ لمّا قرأ سورة النجم وانتهى إلى ذكر اللّات والعزّى قال الشيطان هاتين الكلمتين رافعا بهما صوته فألقاهما في تلاوته في غمار الناس فظنّ أنّ ذلك من قول النبيﷺ فسجدوا عند ذلك. وهذا القول الآخر في غاية الوهن لأنّ الشيطان لو قدر على ذلك في حقّ النبيﷺ لكان اقتداره على الناس أكثر فهب أن يزيل جميع الناس عن الدين وقال اللّه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[١] وهوﷺ سيّد المخلصين والمؤمنين.[٢]

﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ودلالاته حتّى لا يقع فيها غلط ولا سهو

١ـ تنزيه الأنبياء، ص ١٥٣.

٢ـ سورة النحل: ٩٩.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكلّ شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله.

تذييل: في «الاحتجاج» عن أمير المؤمنين عليه السلام من بعض الحديث: «يذكر الله لنبيّه ما يحدّث عدوّه في كتابه من بعده بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ الآية يعني: إنّه ما من نبيّ تمنّى مفارقة ما يقاسيه من نفاق قومه وعقوقهم والاشتغال عنهم إلى دار الإقامة إلّا ألقى الشيطان المعترض بعداوته عند فقده في الكتاب الّذي أنزل عليه ذمّ ذلك النبيّ والقدح فيه والطعن عليه فينسخ الله ذلك من قلوب المؤمنين فلا يقبلوه ولا تقبله ولا تصغى إليه غير قلوب المنافقين والجاهلين ويحكم الله آياته بأن يحمي أولياءه من الضلال والعدوان وشايعه أهل الكفر والطغيان».[1]

في «الصافي» روي عن أبي عبد الله عليه السلام: «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أصابه خصاصة فجاء إلى رجل من الأنصار فقال له: هل عندك من طعام؟ قال: نعم يا رسول الله، وذبح له عناقاً وشواه فلمّا أدناه منه تمنّى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكون معه عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السّلام فجاء فلان وفلان ثمّ جاء بعدهما عليّ أمير المؤمنين عليه السلام فنزلت الآية في ذلك: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ يعني: زيد وعمرو فينسخ ما يلقي الشيطان يعني: لمّا جاء عليّ عليه السلام بعدهما ثمّ يحكم الله آياته بنصر الله لأمير المؤمنين».[2]

﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ فشرح أثر تلك الوسوسة في حقّ الكفّار أوّلاً فقال: ليجعل ذلك تشديداً في الاختبار والتكليف على الّذين في قلوبهم مرض الجهل ومرض الشكّ والريب والنفاق وهم المنافقون وأمّا القاسية قلوبهم فهم المشركون المصرّون على جهلهم ظاهراً وباطناً لتلزمهم الدلالة والحجّة على الفرق بين ما يحكمه

١ـ الاحتجاج، ج ١، ص ٣٨٣؛ وبحار الأنوار، ج ٩٠، ص ١٢٧.

٢ـ الصافي، ج ٣، ص ٣٨٦؛ وانظر: تفسير القمي، ج ٢، ص ٨٥

الله وبين ما يلقيه الشيطان.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أصله على القاعدة أن يؤتى بالضمير ويقول: إنّهم فوضع الظاهر موضع الضمير قضاء عليهم بالظلم والمشاقّة والمباعدة على السويّة.

وأمّا في حقّ المؤمنين فهو قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وفي الضمير في «أنّه» ثلاثة أوجه: أحدها أنّها عائدة إلى نسخ ما ألقاه الشيطان. وثانيها إلى القرآن. وثالثها تمكّن الشيطان من الإلقاء[1] والوسوسة أي: ليعلم الّذين أوتوا العلم بالله وبتوحيده وبحكمته أنّ القرآن حقّ لا يجوز عليه التبديل والتغيّر ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ ويثبتوا ويزدادوا إيماناً إلى إيمانهم ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ وتخشع وتتواضع لقوّة إيمانهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق واضح لا عوج فيه ويهديهم ربّهم بإيمانهم وبسبب ولاية عليّ عليه السلام طريق الجنّة.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: لا يزال الكفّار في شكّ من القرآن أو من الرسول وهذا خاصّ فيمن علم الله أنّهم لا يؤمنون من الكفّار حتّى تأتيهم الساعة فجأة من دون أن يشعروا وجعل سبحانه الساعة غاية لكفرهم لأنّهم يؤمنون عند أشراط الساعة على وجه الإلجاء وذلك لا ينفعهم.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قيل: إنّه يوم بدر، وسمّي عقيماً ذلك اليوم لأنّه لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه ومثله قول الشاعر:

عقم النساء فلا يلدن بمثله ... إنّ النســاء بمثلــه لعقــيم

ولم يكن في ذلك اليوم للكفّار خير فهو كالريح العقيم الّذي لا تأتي

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ٥٥.

بخير. وقيل: المراد به يوم القيامة وسمّي عقيما لأنّه لا ليلة له.

وقيل في نظم الآية الأولى ممّا قبلها من الكفّار وما متّعوا به من نعيم الدنيا: ولمّا رأي النبيﷺ ما منيوا به من الإقتار تمنّى لهم الدنيا فبيّن سبحانه أنّ ذلك التمنّي من وساوس الشيطان وأنّ ما أعدّ لهم من نعيم الآخرة خير.

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

لمّا تقدّم ذكر القيامة بيّن صفتها فقال سبحانه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ لا يملك أحد سواه شيئاً بخلاف الدنيا ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ يفصل بين الكافرين والمؤمنين، والتنوين في يومئذ عوض عن الجملة تقديره: يوم يؤمنون ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ينعمون فيها ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يهينهم ويذلّهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لمّا ذكر أنّ الملك له يوم القيامة ويدخل المؤمنين الجنّات أفرد المهاجرين بالذكر تفخيما لشأنهم فقال: والّذين فارقوا أوطانهم ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟﴾ في الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا۟﴾ في الغربة ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ وهو رزق في الجنّة والرزق الحسن ما إذا رآه لا يمتدّ عينه إلى غيره وهذا لا يقدر عليه غير الله ولذلك قال سبحانه:

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ولا شكّ أنّ الرازق هو ولا غيره فما معنى خير الرازقين؟ لأنّ من أعطى مؤونة أو شيئاً لأحد فتشبّه بالرازق ولو أنّ الشيء في الحقيقة من الله وهو خير الرازقين لأنّ إعطاءه من غير عوض ورزقه سبحانه ليس مسبوقا بشيء آخر مثلاً السيّد إذا أعطى نفقة لعبده فالعبد يكون مسبوقا بإعطاء السلامة والصحّة والقدرة بذلك الانتفاع وإلّا لما أمكنه الانتفاع من رزق مولاه وأمّا رزق الله فإنّه لا حاجة به إلى رزق غيره فثبت أنّه خير الرازقين.

واختلفوا في المهاجرين فقيل: من هاجر إلى المدينة طالباً لنصرة الرسول تقرّبا إلى الله.

وقال آخرون: بل المراد من جاهد فخرج مع الرسول أو في سراياه لنصرة الدين ولذلك ذكر القتل بعده، ومنهم من حمله على الأمرين.

واختلفوا من وجه آخر فقال بعضهم: المراد من الآية قوم مخصوصون خرجوا من مكّة إلى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون وقاتلوهم وظاهر الكلام للعموم. في الجوامع: روي أنّ المهاجرين قالوا: يا رسول الله هؤلاء الّذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك؟ فأنزل الله هاتين الآيتين.[1]

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ وسوى الوعد بينهما واستفادوا التسوية في الحكم بين من مات على فراشه منهم والمقتول منهم روى أنس أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: **«المقتول في سبيل الله والمتوفّى في سبيل الله بغير قتل هما في الأجر والخير شريكان ولفظ الشركة مشعر بالتسوية وإلّا فلا يبقى لتخصيصهما بالذكر فائدة والحاصل: أنّ الله وعدهم بالرزق الحسن».**

١ـ تفسير جوامع الجامع، ج ٢، ص ٥٦٨؛ وتفسير الأصفى، ج ٢، ص ٨١٣.

ثمّ عيّن وشرح مسكنهم فقال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ فمن قرأ «مدخلاً» بضمّ الميم فهو من الإدخال. ومن قرأ بفتحها فالمراد الموضع أي: في المدخل الّذين يرضونه إنّه خيمة من درّة بيضاء لا فصم ولا وصم[1] لها سبعون ألف مصراع ويرون ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيرضونه ولا يبغون عنها حولا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾[2] وقوله: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[3] وقوله: ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[4].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحقّ هذا الإكرام فيعطيهم وحليم لا يعجّل العقوبة فيمن يقدم على المعصية بل يمهل لتقع منه التوبة فيستحقّ منه الجنّة.

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ أي: الأمر ذلك الّذي قصصنا عليك في أحوال المهاجرين ومثوباتهم ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ القمّي: هو رسول الله ﷺ لمّا أخرجته قريش من مكّة وهرب منهم إلى الغار وطلبوا ليقتلوه فعاقبهم الله يوم بدر وقتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن المغيرة وأبو جهل وحنظلة بن أبي سفيان وغيرهم فلمّا قبض وتوفّي رسول الله ﷺ طلب بدمائهم فقتل الحسين وآل محمّد ﷺ بغياً وعدواناً وهو قول يزيد اللعين حتّى تمثّل بهذا الشعر:

ليت أشياخي ببدر شهدوا   وقعة الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلّوا فرحاً   ثمّ قالوا: يا يزيد لا تشل

١ـ أي: من غير كسر وعقدة.

٢ـ سورة التوبة: ٢٤.

٣ـ سورة الحاقة: ٢١؛ وسورة القارعة: ٧.

٤ـ سورة الفجر: ٢٨.

لست من خندف إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعل

قد قتلنا القوم من ساداتهم ... وعدلناه ببدر فاعتدل

وكذاك الشيخ أوصاني به ... فاتّبعت الشيخ فيما قد سأل

فقال اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾ يعني: رسول اللّه ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ يعني: حين أرادوا أن يقتلوه ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ بالقائم عليه السلام من ولده وحاصل المعنى في الآية: ذلك أي: الأمر ذلك الّذي قصصنا ومن عاقب بمثل ما عوقب به وجازى الظالم بمثل ما ظلمه يعني: قاتل المشركين كما قاتلوه والأوّل لم يكن عقوبة ولكنّه الجزاء بالجزاء لازدواج الكلام ثمّ بغي عليه وظلم بإخراجه من منزله وما فعله المشركون من البغي على المسلمين حتّى أخرجوهم من ديارهم لينصرنّه اللّه أي: المظلوم الّذي بغي عليه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ إشعار في حسن العفو روي أنّ الآية نزلت في قوم من مشركي مكّة نفوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرّم فقالوا: إنّ أصحاب محمّد لا يقاتلون في هذا الشهر فحملوا عليهم فناشدهم المسلمون أن لا يقاتلوهم في الشهر الحرام فأبوا فأظفر اللّه المسلمين بهم.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ
وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا
يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ
اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ
لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ

تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥)

أي: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ النصر الّذي فعل بالمؤمنين المتأذّين من الكفّار بسبب أنّه قادر على كلّ ما أراد واقتضت حكمته ويقدر أن ينصر الضعيف ويقوّيه على القويّ على خلاف العادة كما أنّه يلج الضياء في الظلمة وبالعكس كما يضيء البيت بالسراج ويظلم بفقده ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ وفي الآية تحذير عن الإقدام على ما لا يجوز في المسموع والمبصر. ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: ذلك الّذي فعل من نصر المؤمنين ويفعل ما يشاء بأنّ الله هو الحقّ الموجود الواجب لذاته ويمتنع عليه الزوال والعجز وما يفعل من عبادته هو الحقّ وما يفعل من عبادة غيره فهو الباطل فيستحقّون الوعد والوعيد فقال: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ العليّ عن الأشياء الكبير الّذي كلّ شيء سواه يصغر مقداره، العظيم في قدرته فليس قادر على النفع والضرر غيره وهذا المعنى يكون مرغّباً في عبادته وزاجراً عن عبادة غيره.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ لمّا ذكر سبحانه قدرته في الآية السابقة قدرته بولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل نبّه على نعمه بأنواع أخر فقال: «ألم تر» بمعنى الرؤية الحقيقيّة لأنّ الماء النازل من السماء واخضرار النبات على الأرض مرئيّ بالعين، أو معنى الرؤية العلم أي: ألم تعلم أنّه سبحانه أنزل بقدرته وخلقه من السماء المطر فتصبح الأرض بسبب الماء ذات خضرة وقال: «فتصبح» ولم يقل بلفظ الماضي لإفادة أثر الماء زمانا بعد زمان.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ ذو لطف بارزاق عباده من حيث لا يحتسبون

ومحيط بتدبير دقائق الأمور الّتي يتعذّر على غيره ويمتنع تدبيره لغيره ولا يتعذّر عليه كإنزال الماء من السماء وإنبات البقل وأمثاله ﴿خَبِيرٌ﴾ بنيّاتهم.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ الدلالة الثانية المعنى أنّ كلّ ذلك ينقاد له غير ممتنع عن التصرّف فيه في كلّ آن من الآنات غنيّ عن الأشياء وعن حمد الحامدين لأنّه كامل لذاته وأعجبني قول أعرابيّ حين ضلّ بعيره وهو يصيح: يا من رأى ضالّتي فلم يجده إلى أن طلع القمر فلمّا أن طلع القمر وجده فخاطب القمر وقال: الحمد للّه رفعك وبالبروج قدّرك ونوّرك فإن قلت: جعلك اللّه رفيعا فقد جعلك اللّه رفيعا، وإن قلت: نوّرك اللّه فأنت منير. وبالجملة فاللّه سبحانه غنيّ عن وصف الواصفين ومن يقدر أن يبلغ وصفه؟

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: ذلّل لكم ما فيها فلا أصلب من الحجر ولا أحدّ من الحديد ولا أكثر هيبة وسلطة من النار وقد سخّرها لكم وذلّل الحيوانات أيضاً حتّى ينتفع الإنسان بها من حيث الأكل والركوب والحمل عليها والانتفاع بالنظر إليها فلو لا أن سخّر اللّه الإبل والبقر مع قوّتهما حتّى يذلّلهما الضعيف من الناس ويتمكّن منها لما كان ذلك نعمة وكذلك السفن تجري في البحر بأمره وكيفيّة تسخير الفلك من حيث سخّر الماء والرياح لجريها فلو لا صفتهما على ما هما عليه لما جرت بل كانت تغوص أو تقف بل استدراك الإنسان بصناعة السفن حتّى تعمل وتجري فذلك التسخّر لها. وإنّما قال: «بأمره» لأنّه سبحانه لمّا كان هو المرسل لها بالرياح نسب ذلك بأمره توسّعاً.

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذه دلالة أخرى على قدرته مبيّنة على ظاهر الأوهام ومعنى ﴿أَن

تَقَعَ﴾ أي: كيلاً تقع وكراهية أن تقع وهذه السماوات مع هذه الأجرام الفلكيّة مع أنّها مسكن الملائكة ولابدّ لها من الهويّ لو لا مانع يمنعه إنّ اللّه بالنّاس بهذه النعم الجامعة لرءوف ذو رأفة ورحمة.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴿٦٦﴾

ثمّ ذكر دلالة أخرى على وحدانيّته فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾ بعد أن كنتم نطفا ميتة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ عند آجالكم ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ للبعث والحساب، وفيه بيان أنّ من قدر على البدء قدر على الإعادة فنبّه بالإحياء الأوّل على إنعام نعمة الوجود والدنيا علينا ونبّه بالإماتة والإحياء الثاني على نعم الدين علينا فإنّه سبحانه خلق الدنيا بأسرها للآخرة لأنّه لو لا أمر الآخرة لم تكن للزراعات وتكلّفها ولا لركوب الحيوان وذبحها إلى غير ذلك معنى بل كان يخلقه ابتداء من غير تكلّف الزرع والسقي وإنّما أجرى اللّه هذه الأمور على هذه العادة في الدنيا ليتبيّن المطيع عن العاصي ويعتبر به في باب الدين والامتحان.

ولمّا فصّل النعم قال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾ أي: الإنسان مع هذه النعم وهذه الآيات يجحد الخالق ويكفر به مع أنّ هذه النعم تقتضي الشكر فهم عكسوا القضيّة وكفروا كما قال: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[1] قال ابن عبّاس: (الإنسان هاهنا الكافر وقال أيضاً: هو الأسود بن عبد الأسد وأبو جهل والعاصي وأبيّ بن خلف والأولى تعميمه في كلّ المنكرين).[2]

١ـ سورة سبأ: ١٣.

٢ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ٦٣.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾﴾

لما بيّن بعض نعمه على الإنسان وأظهر رأفته وذكر أنّهم لا يشكرون نعمته أتبعه بذكر نعمه بما كلّف فقال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا﴾ أي: لكلّ قرن مضى جعلنا شريعة عاملون بها أو مكاناً وموضعاً يعتادونه لعبادة اللّه ومناسك الحجّ من هذا المعنى لأنّها مواضع العبادة فيه. وقيل: المعنى عيدا وموضع قربان ومتعبّداً لإراقة الدماء مثل منى وغيره.

ولأجل أنّه لا تعلّق لقوله: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ﴾ بما قبلها حذف العاطف ومنشأ الاختلاف في معنى النسك لاختلاف معنى الزمانيّة أو المكانيّة وقيل: المعنى المنهاج والشرعة ويصلح الكلام أن يحمل على مطلق العبادة لأنّ ما يفعل بالحجّ من العبادة يوصف ويسمّى بالمناسك ولهذا قالﷺ: **«خذوا عنّي مناسككم»**.[1]

﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ هذا نهي من اللّه في منازعة المشركين والكفّار للنبيّﷺ في عبادته ومنازعتهم له قولهم: أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله اللّه؟

يعنون الميتة بأنّها حلال لأنّها قتلها اللّه وليس لهم أن ينازعوك في شريعتهم وقد نسخت شريعتك الشرائع المتقدّمة فادعهم إلى دينك ولا

١ـ الصراط المستقيم، ج ٣، ص ١٨٨؛ وعوالي اللئالي، ج ١، ص ٢١٥.

تخصّ بالدعاء أمّة دون أمّة فكلّهم أمّتك.

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: ما تكلّفهم هداية مستقيمة ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ أي: إن عدلوا عن النظر إلى هدايتك وطريقك وجادلوك وخاصموك ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فقد بيّنت وأوضحت وأظهرت ما يلزمك وهذا الكلام يجري مجرى الوعيد والتحذير أي: لا تجادلهم بعد إلزام الحجّة وإيضاح الطريقة وادفعهم بهذا القول وحاكمهم بعلم الله وإلى الله.

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الذبائح وغيره فتعرفون حينئذ الحقّ من الباطل.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد جميع المكلّفين يعلم من كثير وقليل لا يخفى عليه شيء من ذلك الأمور ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ المعلوم ثبت ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: اللوح المحفوظ من الخطأ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الكتابة في اللوح ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لا يحتاج إلى معالجة خطوط وحروف وإنّما يقول: كن فيكون وقيل: المراد أنّ الحكم في مختلفاتهم بينهم يسير على الله.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

أخبر عن حال الكفّار فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ وحجّة ودليلاً على إلهيته ويعبدون ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم﴾ علم بأنّها آلهة لأنّ الإنسان قد يعلم أشياء من غير دليل وحجّة كالضروريّات والمعنى أنّ

الكفّار ما علموا إلهيّة آلهتهم لا بحكم الضرورة ولا بحكم الاستدلال والنظر بل مجرّد التقليد أو العناد.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: ليس للمشركين الّذين أشركوا مع اللّه إلهاً آخر وظلموا أنفسهم بهذا الظلم القبيح من مانع من العذاب.

ثمّ أخبر سبحانه عن شدّة عنادهم فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ من القرآن وغيره من الدلائل وهي ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ لمن تفكّر فيها ﴿تَعْرِفُ﴾ يا محمّد ﴿فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ﴾ يريد أثر الإنكار من الكراهية والعبوس ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ ويبطشون من الغيظ ويبسطون إليهم أيديهم بالسوء ﴿بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ أي: أخبركم بشيء أكره إليكم من هذا القرآن الّذي تكرهون من استماعه وأشدّ عليكم منه ثمّ فسّر ذلك فقال: ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي: هو النار ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: وعدكم اللّه النار وبئس المرجع والمأوى.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾

سبب النزول: في الكافي عن الصادق عليه السلام: «كانت قريش تلطخ الأصنام الّتي حول الكعبة بالمسك والعنبر وكان يغوث قبال الباب ويعوق عن يمين الكعبة ونسر عن يسار الكعبة وكان في ثلاثمائة وستّين صنماً وكانوا إذا دخلوا خرّوا سجّداً ليغوث ولا ينحرفون ويستدبرون بحيالهم إلى يعوق ثمّ يستدبرون عن يسار الكعبة

بحيالهم إلى نسر ثمّ يلبّون فيقولون: لبّيك اللّهم لبّيك لبّيك لا شريك لك إلّا شريك هو لك تملكه وما ملك. قال: فبعث الله ذباباً أخضر له أربعة أجنحة فلم يبق من ذلك المسك والعنبر شيئاً إلّا أكله فأنزل الله الآية».[1]

قال الأخفش: إن قيل: فأين المثل الّذي ذكره اللّه من قوله: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾؟ قيل: ليس هاهنا مثل[2] ولمّا كان المثل في الكلام نكتة غريبة أو شباهة عجيبة جاز أن يسمّى مثل ما كان كذلك مثلاً. فإن قيل: إنّ القائل هو سبحانه ابتداء وضرب يفيد فيما مضى فكيف التطبيق في الكلام؟ فالجواب: إذا كان ما يورد في الكلام من الوصف معلوماً قبل الكلام جاز ذلك فيه ويكون ذكره بمنزلة إعادة ذكر قد تقدّم ولو لم يذكر قبل ذلك. وبالجملة المعنى: إنّ اللّه قال: ﴿ضُرِبَ﴾ لي ﴿مَثَلٌ﴾ أي: شبهة في الأوثان ثمّ قال: ﴿فَاسْتَمِعُوا﴾ لهذا المثل الّذي جعلوه مثلي وقال بعضهم كالقتيبي: هاهنا مثل لأنّه سبحانه ضرب مثل هؤلاء الّذين يعبدون الأصنام بمن عبد من لا يخلق ذبابا بل الذباب يضرّه فاستمعوا له لتقفوا على جهل المشركين ومعنى ضرب مثل من قولك: ضربت خيمة أي: أثبتّها ونصبتها كالشيء الثابت اللّازم من قولك: ضرب السلطان الجزية على أهل الذمّة.

والحاصل ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ هؤلاء أي: الأصنام ويزعمونها أنّها آلهة ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ في صغره وقلّته ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا﴾ ممّا عليهم ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: لا يقدرون على استنقاذه من الذباب ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ أي: السالب والمسلوب يعني: الذباب والصنم والعابد والمعبود، وروي على العكس من هذا وهو الطالب

١ـ الكافي، ج ٤، ص ٥٤٢؛ وبحارالأنوار، ج ٣، ص ٢٥٣.

٢ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ١٧٠.

الصنم والمطلوب الذباب قال السدّيّ: الطالب العابد الّذي يعبد هذا الصنم بالتقرّب إليه والصنم المطلوب إليه.

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما عظّموا الله حقّ عظمته حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له على ضعفها وعجزها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ لا يقدر أحد على مغالبة عزيز الوصف والأوهام لا تدركه والأفكار لا تقدّره والعقول لا تمثّله والأزمنة لا تحويه والجهات لا تحيطه صمديّ الذات سرمديّ الصفات.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ لمّا ذكر سبحانه ما يتعلّق بالإلهيّات ذكر في هذه الآية ما يتعلّق بالنبوّات قال الوليد بن المغيرة: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾[1] فأنزل الله هذه الآية: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ أي: يختار من بعضهم رسلاً إلى بني آدم والأنبياء مثل جبرئيل وعزرائيل وإسرافيل والحفظة وهم أكابر الملائكة وبعضهم رسلاً إلى بعضهم حتّى يصحّ قوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾[2].

﴿وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: ويصطفى من النّاس والبشر رسلاً يعني: النبيّين. وفي الآية تبكيت لمن عبد الملائكة بأنّهم خدمة فمن جعل الملائكة والأنبياء أولاداً فإنّه ما عظّم الله إذ جعل من يعبده معبوداً فوبّخ سبحانه في الآية السابقة عبدة الأوثان وفي هذه الآية عبدة الملائكة الّذين يقولون: الملائكة بنات الله.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

أي: سميع بصير يعلم ما تقدّم من الخلائق من أحوالهم وما هم عليه

١ـ سورة ص: ٨.

٢ـ سورة فاطر: ١.

وما يكون في مستقبل أحوالهم وحاصل المعنى: يعلم سبحانه أوّل أعمالهم وآخر أعمالهم وقيل: يعلم ما كان قبل خلق الملائكة والأنبياء وما يكون بعد خلقهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ يوم القيامة ولا يكون لأحد أمر ولا نهي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ (٧٨)﴾

لمّا تكلّم في الإلهيّات ثمّ في النبوّات أتبعه الكلام في الشرائع من أربعة أوجه:

أوّلها: تعيّن المأمور ولا شكّ أنّ المكلّف كلّ المكلّفين سواء كان مؤمناً أو كان كافراً لدلالة سائر الآيات على كون الكلّ مكلّفاً بهذه الأشياء فتخصيص الخطاب بالمؤمنين مع أنّ الكلّ مشترك في الحكم للتحريض لهم على المواظبة على قبوله والتشريف لهم بالتخصيص.

والأمور الّتي ذكرها الله سبحانه وتعالى فقدّم الصلاة، وهو المراد من قوله: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ والصلاة هي المختصّة بهذين الركنين فكان ذكرهما جارياً مجرى الصلاة قال ابن عبّاس: كان الناس في أوّل إسلامهم كانوا يركعون ولا يسجدون حتّى نزلت الآية.

ثمّ قال: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ ولا تعبدوا غيره ولا تشركوا به في العبادة شيئاً ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ قال ابن عبّاس: يريد به صلة الرحم ووجوه البرّ

ومكارم الأخلاق ويدخل فيه كلّ معروف مثل الصدقة وحسن القول للنّاس ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتظفرون بنعيم الآخرة. ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ وحملوا الجهاد في الآية على إتيان أعمال الطاعة وقال المفسّرون: حقّ الجهاد أن يكون بنيّة صادقة خالصة وأن يطاع فلا يعصى وقيل: معناه: جاهدوا بالسيف من كفر بالله وإن كانوا الآباء والأبناء. وروي عن عبد الله بن المبارك أنّه مجاهدة الهوى والنفس.

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ اصطفاكم ربّكم لدينه وما جعل عليكم في الدين من ضيق لا مخرج منه ولا مخلص من عذابه وعقابه بل جعل التوبة والكفّارات وردّ المظالم مخلصاً من الذنوب فليس في دين الإسلام ما لا سبيل إلى الخلاص من العقاب به فلا عذر لأحد في ترك الاستعداد للقيامة.

وقيل: معناه: إنّ الله لم يضيّق عليكم أمر الدين فلن يكلّفكم ما لا تطيقون بل كلّف دون الوسع فلا عذر لكم في تركه.

وقيل: إنّه يعني: الرخص عند الضرورات كالقصر والتيمّم وأكل الميتة وأمثالها والحرج في الحديث معناه الضيق فالحاصل من معنى الحرج هو الإتيان بالرخص مثلاً كمن لم يقدر أن يصلّي قائماً فليصلّ جالساً ومن لم يستطع فليؤم والإفطار للمريض فإنّه سبحانه لم يبتلي العبد بشيء من الذنوب إلّا وجعل له مخرجا منها إمّا بالتوبة أو بالكفّارة.

وفي الحديث عن طرق العامّة: **«من جاءته رخصة فرغب عنها كلّف يوم القيامة أن يحمل ثبير حتّى يقضي بين الناس».**[1] وأيضاً عن النبي صلى الله عليه وآله: **«إذا اجتمع**

۱ـ تفسير الرازي، ج ۲۳، ص ۷۳.

أمران فأحبّهما إلى الله أيسرهما».(١)

وعن كعب الأحبار: أعطى الله هذه الأمّة ثلاثاً لم يعطهنّ إلّا للأنبياء، جعلهم شهداء على الناس وما جعل عليهم في الدين من حرج(٢) وقال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾(٣).

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ وفي نصب «ملّة» وجهان أي: وسّع لكم دينكم توسعة ملّة إبراهيم وأقام المضاف إليه مقام المضاف أو بتقدير أعني ملّة أبيكم ولأجل أنّ أكثرهم كالرسول ورهطه وجميع العرب من ولد إبراهيم أضاف إليهم أو جعل حرمة إبراهيم على المسلمين كحرمة الوالد على ولده كما أنّه تعالى قال: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾(٤) وجعله أولى من أنفسهم وجعل حرمة نسائه كحرمة الوالدة على ما قال: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾(٥).

فإن قيل: إنّ هذا البيان يقتضي أن تكون ملّة محمّد ﷺ كملّة إبراهيم عليه السلام فيكون الرسول معه سواء وليس له شرع مخصوص ويؤكّده قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾(٦).

فالجواب أنّ التساوي في الإلهيّات حاصل لعبادة الله وترك الأوثان وأمّا تفاصيل الشرائع فلا تعلّق لها بهذا الموضع.

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ الضمير راجع إلى إبراهيم عليه السلام فإنّ

١ـ المصدر السابق نفسه.

٢ـ تفسير الرازي، ج٢٣، ٧٣؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ج ١٠، ص ٣٢٦٨.

٣ـ سورة غافر: ٦٠.

٤ـ سورة الأحزاب: ٦.

٥ـ سورة الأحزاب: ٦.

٦ـ سورة النحل: ١٢٣.

لكلّ نبيّ دعوة مستجابة وهو قول إبراهيمعليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾[1] فاستجاب الله دعاءه فجعلها أمّة محمّدصلى الله عليه وآله. وقيل: الضمير راجع إلى الله في قوله: ﴿اجْتَبَاكُمْ﴾ فروي عن عطا عن ابن عبّاس أنّه قال: إنّ الله سمّاكم المسلمين من قبل في الكتب وفي القرآن أي: من قبل إنزال القرآن.

﴿وَفِي هَٰذَا﴾ أي: وفي القرآن ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: ليكون محمّد شاهداً عليكم بالطاعة والقبول فإذا شهد لكم به صرتم عدولاً وتشهدون على الأمم الماضية بأنّ الرسل بلّغوهم رسالات ربّهم وأنّهم قبلوا أولم يقبلوا فيوجب لكافرهم النار ولمؤمنهم الجنّة بشهادتكم وهذا من أشرف المراتب وهو مثل قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[2] ولمّا شرّفكم بهذا التشريف العظيم وسمّاكم بهذا الاسم المبارك فاعبدوه ولا تردّوا تكاليفه لأنّ الكرامة والمنّة موجبة لقبول التكليف.

﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ هما فريضتان واجبتان عليكم فأدّوهما إلى الله، وعن النبيصلى الله عليه وآله قال: **«لا تقبل الصلاة إلّا بأداء الزكاة»**. ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ وتمسّكوا بدين الله وامتنعوا بطاعته عن معصيته واجعلوها عصمة لكم من أعدائكم وتوكّلوا عليه ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ وناصركم والمتولّي لأموركم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ﴾ هو لمن تولّاه ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ لمن استنصره إذ لم يمنعكم الرزق حين عصيتموه.[3]

١ـ سورة البقرة: ١٢٨.

٢ـ سورة البقرة: ١٤٣.

٣ـ انظر: مجمع البيان، ج ٧، ص ١٧٣.

اعلم أنّ المعتزلة احتجّوا بهذه الآيات على أهل السنّة من وجوه:

أحدها: أنّ قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يدلّ على أنه سبحانه أراد الإيمان من الكلّ لأنه لا يجعل الشهيد على العباد إلّا من كان مرضيّاً عدلاً فإذا أراد أن تكونوا شهداء فقد أراد أن تكونوا جميعاً صالحين عدولاً وقد علمنا أنّ منهم فاسقا فدلّ على أنّه تعالى أراد من الفاسق كونه عدلاً.

والثاني: قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ وكيف يمكن الاعتصام به وإنّ الشرّ لا يوجد إلّا منه؟

والثالث: قوله: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لأنّه لو كان كما يقوله أهل السنّة من أنّه خلق أكثر عباده ليخلق فيهم الكفر والفساد ثمّ يعذّبهم لما كان نعم المولى بل كان لا يوجد من شرار الموالي أحد إلّا وهو شرّ منه فكان يجب أن يوصف بأنّه بئس المولى وذلك باطل فدلّ على أنّه سبحانه ما أراد من جميعهم إلّا الصلاح[1]

تمّت السورة.

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ٧٥.

سورة المؤمنون

مائة وثمانية عشرة آية، مكية. فضلها: أبيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله: **«من قرأ سورة المؤمنين بشّرته الملائكة يوم القيامة بالروح والريحان وبما تقرّ به عينه عند نزول ملك الموت»**.[1]

وقال أبو عبد الله عليه السلام: **«من قرأ سورة المؤمنين ختم الله له بالسعادة إذا كان يدمن على قراءتها في كلّ جمعة وكان منزله في الفردوس الأعلى مع النبيّين والمرسلين»**.[2]

تفسيرها: ختم الله سورة الحجّ بأمر المكلّفين في العبادة وأفعال الخير على طريق الإجمال افتتح هذه السورة بتفصيل تلك الجملة وبيانها فابتدأ سبحانه بالبشارة للمتّبعين بأوامره والطاعات وفاعلي الخيرات بقوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ١٧٥؛ ونور الثقلين، ج ٣، ص ٥٢٧.

٢ـ ثواب الأعمال، ص ١٠٨؛ والبحار، ج ٨٦، ص ٣٥٠.

﴿غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾

المعنى: فاز بثواب الله الّذين صدقوا بوحدانيّة الله وبرسله، وقيل: معنى «أفلح» بقي أي: قد بقيت أعمالهم الصالحة. وقيل: سعد المؤمنون. وكلمة «قد» تكون لتقريب الماضي من الحال في الآية ألا ترى يقولون: قد قامت الصلاة قبل حال قيام الصلاة، أو معناه التحقيقيّ.

ثمّ وصف المؤمنين بصفات فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ خاضعون متذلّلون لا يرفعون أبصارهم من مواضع سجودهم ولا يلتفتون يميناً وشمالاً، روي أنّ النبيّ ﷺ رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال: «أما إنّه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه».[1] فالخشوع في الصلاة لابدّ وأن يكون بالقلب والجوارح فأمّا القلب هو أن يفرغ قلبه المصلّي بجمع الهمّة والرهبة والتوجّه لها والإعراض عمّا سواها فلا يكون في القلب غير العبادة والمعبود وأمّا الجوارح فهو غضّ البصر والإقبال عليها وترك الالتفات وسكون البدن حتّى قيل في معنى الخشوع: أن لا يعرف من على يمينه ولا من على يساره. وروي أنّ رسول الله ﷺ كان يرفع بصره إلى السماء في صلاته فلمّا نزلت الآية طأطأ رأسه ورمى ببصره إلى الأرض.[2]

وهاهنا مسألة قال الرازيّ: فإن قيل: إنّ الخشوع بهذا المعنى واجب في الصلاة أم لا؟ قلنا: إنّه عندنا واجب ويدلّ عليه أمور:

١ـ مستدرك الوسائل، ج ٥، ص ٤١٧؛ والبحار، ج ٨١، ص ٢٢٨.

٢ـ مستدرك الوسائل، ج ٤، ص ١٢٦؛ والتبيان، ج ٧، ص ٣٤٨.

أحدها: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1] والتدبّر لا يتصوّر بدون الوقوف على المعنى وكذا قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾[2] معناه قف على عجائبه ومعانيه.

وثانيها: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[3] وظاهر الأمر للوجوب والغفلة تضادّ الذكر فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقيماً للصلاة لذكره.

وثالثها: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾[4] وظاهر النهي للتحريم.

ورابعها: قوله: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[5] تعليل لنهي السكران وهو المستعمل في الغافل المستغرق المهتمّ بالدنيا.

وخامسها: قوله ﷺ: **«إنّما الخشوع لمن تمسكن وتواضع»**، وكلمة «إنّما» للحصر وقوله ﷺ: **«من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلّا بعداً»**[6]، وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء، وقال ﷺ: **«كم من قائم حظّه من قيامه التعب والنصب»**. وقال ﷺ: **«ليس للعبد من صلاته إلّا ما عقل»**.

وسادسها: قال الغزاليّ: المصلّي يناجي ربّه كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة وبيانه أنّ الإنسان إذا أدّى الزكاة حال الغفلة فقد حصل المقصود منها وهو كسر الحرص وإغناء الفقر وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى الّتي هي عدوّة الله ويحصل هذه الأمور المقصودة من الصوم مع الغفلة سواء كان القلب حاضراً أو لم يكن وأمّا الصلاة فليس فيها

١ـ سورة محمد: ٢٤.

٢ـ سورة المزمل: ٤.

٣ـ سورة طه: ١٤.

٤ـ سورة الأعراف: ٢٠٥.

٥ـ سورة النساء: ٤٣.

٦ـ بحارالأنوار، ج ٧٩، ص ١٩٨؛ ومجمع البيان، ج٨، ص ٢٩.

إلّا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود.

أمّا الذكر فإنّه مناجاة مع الله فإمّا أن يكون المقصود منه مناجاة أو المقصود مجرّد الحروف والأصوات ولا شكّ في فساد هذا القسم فإنّ تحريك اللسان بالهذيان ليس فيه غرض صحيح فثبت أنّ المقصود المناجاة مع الله بهذه الكيفيّة الواردة وذلك لا يتحقّق إلّا إذا كان اللسان معبراً عمّا في الضمير والقلب من التضرّعات فأيّ سؤال في قوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وكان القلب غافلاً عنه؟[1]

بل يمكن أن يقال: إنّه إذا كان القلب محجوباً بحجاب الغفلة وكان غافلاً عن جلال الله ولسانه يتحرك بحكم العادة ما أبعدها عن القبول كما لو حلف إنسان وقال: والله لأشكرنّ فلاناً وأسأله حاجة ثمّ جرت الألفاظ الدالّة على هذه المعاني على لسانه وذلك الإنسان الفلانيّ حاضر إلّا أنّ المتكلّم غافل لكونه مستغرق الهمّ بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد بتوجيه عليه عند نطقه لم يصر باراً في يمينه.

وكذلك لا شكّ أنّ المقصود من القراءة والأذكار الحمد والثناء والدعاء والمخاطب هو الله والمتكلّم غافل وذاهل عن نطقه فحينئذ وقع الكلام من غير قصد وأنّ الركوع والسجود المقصود منهما التعظيم لله تعالى وإذا لم يحصل التعظيم بسبب عدم القصد ويكون مجرّد حركة الظهر والرأس وهذا لا يوجب أن يكون عماد الدين وفاصلاً بين الكفر والإيمان ويقدّم على الحجّ والزكاة والجهاد وسائر الطاعات الشاقّة ويجب بسبب تركه القتل على الخصوص بكلّ عاقل يقطع بأنّ مشاهدة الخواصّ العظيمة ليس مجرّد أعمالها الظاهرة إلّا أن يضاف إليها مقصود هذه المناجاة فدلّت هذه الاعتبارات على أنّ الصلاة لابدّ فيها من الحضور.

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ٧٧.

ثمّ هاهنا بيان آخر وهو أنّه ما ذكرنا من شرط الخضوع على خلاف إجماع الفقهاء ولا ينافي هذا البيان مع إجماعهم لأنّ الحضور ليس شرطاً للإجزاء بلى شرط للقبول والمراد من الإجزاء أن لا يجب القضاء على من ليس له حضور والمراد من القبول حكم الثواب والأثر وهذا لا يحصل إلّا بشرائط ما ذكرنا والفقهاء إنّما يبحثون من حكم الإجزاء لا عن حكم الثواب وغرضنا في هذا المقام بيان هذا الأمر.

مثاله: من استعار منك ثوبا ثمّ ردّه على الوجه الأحسن فقد خرج عن العهدة واستحقّ المدح ومن رماه إليك على وجه الاستخفاف خرج عن العهدة ولكنّه استحقّ الذمّ كذلك من عظّم اللّه حال أدائه العبادة صار مقيماً للفرض مستحقّاً للثواب ومن غفل عن التعظيم واستهان بها في كمالها صار مقيماً للفرض لكنّه استحقّ الذمّ.

وأمّا المتكلّمون فقد اتّفقوا على أنّه لابدّ من الحضور والخشوع وقالوا: إنّ القصد منوع والمراد من القصد إيقاع تلك الأفعال لداعية الامتثال وهذه الداعية لا يمكن حصولها إلّا عند الحضور فلهذا اتّفقوا على أنّه لابدّ من الحضور.

أمّا الفقهاء فقد ذكر الفقيه أبو الليث في تنبيه الغافلين أنّ تمام القراءة أن يقرأ بغير لحن وأن يقرأ بالتفكّر وأمّا الغزاليّ فإنّه نقل عن أبي طالب المكّيّ عن بشر الحافي أنّه قال: من لم يخشع فسدت صلاته وعن الحسن: كلّ صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع، وروي مسندا قال ﷺ: **«إنّ العبد ليصلّي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها وإنّما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها»**[1] وقال عبد الواحد بن زيد: أجمعت العلماء على أنّه ليس

١ـ عوالي اللئالي، ج ١، ص ٣٢٥؛ والمستدرك الوسائل، ج ٣، ص ٥٧.

للعبد من صلاته إلّا ما عقل وادّعى الإجماع في المسألة.

قال الرازيّ: إذا ثبت هذا فنقول: هب إنّ الفقهاء بأسرهم حكموا بالجواز أليس المتكلّمون وأهل الورع ضيّقوا الأمر فهلّا أخذت بالاحتياط فإنّ بعض العلماء من أهل السنّة اختار الإمامة فقيل له في ذلك فقال: أخاف إن تركت الفاتحة أن يعاتبني الشافعيّ وإن قرأتها مع الإمام أن يعاتبني أبو حنيفة فاخترت الإمامة طلباً للخلاص عن الاختلاف.[١]

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ واختلف في معنى اللغو اختلافا كثيراً: قيل: يدخل فيه ما كان حراماً أو مكروهاً أو كان مباحاً ولكن لا يكون للمرء إليه حاجة وقيل: إنّه عبارة عن كلّ ما كان حراماً فقط والقائل بهذا ابن عبّاس وقيل: إنّه عبارة عن المعصية في القول والكلام خاصّة وقيل: إنّه المباح الّذي لا حاجة إليه.

واحتجّ هذا القائل بقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾[٢] فكيف يحمل ذلك على المعاصي الّتي لابدّ فيها من المؤاخذة. واحتجّ الأوّلون بأنّ اللغو إنّما سمّي لغواً بسبب أنّه يلغى وكلّ ما اقتضى الشرع إلغاءه كالحرام كان أولى باسم اللغو فكلّ حرام لغو وحينئذ قد يكون اللغو كفراً لقوله تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾[٣] وقد يكون كذبا لقوله: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾[٤] وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾[٥].

وبالجملة فكلّ قول وفعل لا فائدة شرعيّة فيها قبيح ممنوع يجب

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ٧٨.

٢ـ سورة البقرة: ٨٩.

٣ـ سورة فصلت: ٢٦.

٤ـ سورة الغاشية: ١١.

٥ـ سورة الواقعة: ٢٥.

الإعراض عنه.

وروي عن الصادقعليه السلام قال: «**هو أن يتقوّل الرجل عليك بالباطل أو يأتيك بما ليس فيك فتعرض عنه لله وفي رواية أنّه الغناء والملاهي**».[١]

الصفة الرابعة قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ أي: مؤدّون فعبّر عن التأدية بالفعل لأنّه فعل. قال صاحب «الكشّاف»: اسم مشترك بين عين ومعنى فالعين القدر الّذي يخرجه المزكّي من النصاب إلى الفقير والمعنى فعل المزكّي الّذي هو التزكية وهو الّذي أراده اللّه فجعل المزكّين فاعلين له والمصدر يعبّر عن معناه بالفعل ويقال لمحدثه فاعل يقال للضارب فاعل الضرب وللقاتل فاعل القتل وللمزكّي فاعل الزكاة.[٢]

والحاصل أنّ في الزكاة قولان: أحدهما أنّ فعل الزكاة يقع على كلّ فعل محمود ومرضيّ كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[٣] وقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ﴾[٤] وعلى هذا المعنى فمن جملته ما يخرج من حقّ المال وإنّما سمّي بذلك لأنّها تطهر من الذنوب لقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[٥] وهو قول أبي مسلم وجماعة.

وقال الأكثرون: إنّه الحقّ الواجب في الأموال خاصّة والمراد في الآية هذا الأمر وهذا هو الأقرب لأنّ المتبادر من هذه اللفظة هذا المعنى والتبادر علامة الحقيقة.

فإن قيل: إنّ اللّه لم يفصل بين الصلاة والزكاة فلم فصّل في هذه الآية

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ١٧٧؛ والبحار، ج ٦٦، ص ٤٥.

٢ـ الكشاف، ج ٣، شرح ص ٢٦؛ وتفسير الرازي، ج ٢٣، ص ٨٠.

٣ـ سورة الأعلى: ١٤.

٤ـ سورة النجم: ٣٢.

٥ـ سورة التوبة: ١٠٣.

بينهما بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾؟

والجواب أنّه ما فصّل أيضاً في هذه الآية لأنّ الإعراض عن اللغو من متمّمات الصلاة.

الصفة الخامسة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ الفرج؟ اسم لجميع سوأة الرجال والنساء والمراد هاهنا فروج الرجال بدلالة قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ المعنى: أنّهم يلامون في إطلاق ما حظر عليهم وممنوعين وأمروا بحفظه إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ودلّ على المحذوف ذكر اللوم في قوله فإنّهم غير ملومين وملك اليمين المراد الإماء لأنّ الذكور من المماليك لا خلاف بين الأمّة في وجوب حفظ الفرج منهم.

وإنّما أطلق سبحانه إباحة وطء الأزواج والإماء وإن كانت لهنّ أحوال يحرم وطؤهنّ كحال الحيض والعدّة وأمثالها لأنّ الغرض بالآية بيان جنس من يحلّ وطئها دون الأحوال الّتي لا يحلّ فيها الوطء.

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: طلب سوى الأزواج والإماء المملوكة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ الظالمون المتعدّون إلى ما لا يحلّ لهم وقال: ﴿عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ والمعنى من أزواجهم لأنّهم قوّامون عليهنّ كما يقال: فلان على البصرة، أي: واليا عليها وهلّا قيل: «من ملكت» والموضع موضع من؟ لأنّه اجتمع في التنزيه وصفان الأنوثة وهي مظنّة نقصان العقل والآخر كونها تباع وتشترى كسائر السلع والجمادات الغير العاقلة فجعلت في عداد من لا يعقل.

القمّيّ: المتعة حدّها حدّ الإماء[1] وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن المتعة فقال: «**حلال فلا تزوّج إلّا عفيفة إنّ الله يقول:** ﴿وَالَّذِينَ هُمْ

١ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ٨٩؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٥٢٩.

لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾»، وعنه عليه السلام: «تحلّ الفروج بثلاثة وجوه: نكاح بميراث ونكاح بلا ميراث ونكاح ملك يمين»[1] وعن أبيه عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ الله أحلّ لكم الفروج على ثلاثة معان: فرج مورّث والبتات وفرج غير مورّث وهي المتعة وملك أيمانكم».[2]

الصفة السادسة: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ الشيء المؤمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهد ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾[3] وإنّما تؤدّي العيون دون المعاني والمؤتمن عليه الأمانة في نفسها والعهد ما عقده على نفسه فيما يقرّبه إلى ربّه والعبادات كلّ مكلّف مؤتمن عليها ولا يجوز الخيانة فيها وداخلة في عنوان الأمانات قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا أَمَٰنَٰتِكُمْ ﴾[4] وإنّ العبادات إمّا أن تخفى أصلاً كالصوم وغسل الجنابة وإسباغ الوضوء أو تخفى كيفيّة إتيان شروطها قال صلى الله عليه وآله: «أعظم الناس خيانة من لم يتمّ صلاته».[5]

والأمانات ضربان: أمانات الله تعالى وأمانات العباد فأمانات الله العبادات كالصلاة والصيام، وأمانات العباد مثل الودائع والعواري والبياعات والشهادات وغيرها.

والعهد أيضاً على ضربين: عهد بين الله وعهد بين الخلق فالأوّل مثل النذور والعهود المأخوذ منه في التكليف من أوامر الله وعهود بين الخلق مثل العقود الجارية في الخلق مثل البيع والصلح وأمثاله فيجب على الإنسان الوفاء بجميع ضروب الأمانات وجميع ضروب العهود المشروعة.

١ـ الخصال، ص ١١٩؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٣٨٢.

٢ـ انظر: من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٤٦٦؛ والتهذيب، ج ٧، ص ٢٤١.

٣ـ سورة النساء: ٥٨.

٤ـ سورة الأنفال: ٢٧.

٥ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ٨١.

الصفة السابعة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يقيمونها في أوقاتها ولا يضيّعونها وإنّما أعاد ذكر الصلاة تنبيهاً على عظم قدرها وعلوّ رتبتها ولأنّ المحافظة التعهّد لشروطها المجموعة والخشوع غير المحافظة والمراد من المحافظة التعهّد لشروط الصلاة من الأوقات والأركان والطهارة وأمثالها.

قيل: وكان في القرن الأوّل سحرا وبعد الفجر الطرقات مملوءة من النّاس يمشون في السرج إلى الجامع خصوصاً ليلة الجمعة حتّى اندرس ذلك وأوّل ضعف وقع في عبادات النّاس في الإسلام ترك البكور في المساجد.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ أي: إنّ من كانوا بهذه الصفات واجتمعت فيهم هذه الخصال هم الوارثون يوم القيامة منازل أهل النار من الجنّة روي عن النبيﷺ أنه قال: **«ما منكم من أحد إلّا له منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله»**.[1]

وقيل: معنى الميراث أنّه ينتهي أمورهم إلى الجنّة كالميراث الّذي يستحقّ الوارث إليه ولأنّ انتقال الجنّة إليهم بدون محاسبة ومعرفة بمقاديره يشبه انتقال المال إلى الوارث أو لأنّ الجنّة كانت مسكن أبينا آدم فإذا انتقلت بسبب الطاعة إلى أولاده صار ذلك شبيهاً بالميراث، والفردوس مقصورة الرحمن وأعلى الجنان وإنّ أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش.

روي أنّهﷺ قال: **«لمّا خلق الله جنة عدن قال لها: تكلّمي فقالت: قد أفلح المؤمنون»**.[2] قال كعب الأحبار: خلق الله آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده ثمّ قال لها: تكلّمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون.

قال النبيﷺ: **«إذا أحسن العبد الوضوء وصلّى الصلاة لوقتها وحافظ على**

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص ١٧٨؛ والبحار، ج ٨، ص ٩١.

٢ـ المستدرك، الحاكم نيشابوري، ج ٢، ص ٣٩٢؛ ومجمع الزوائد، ج ١٠، ص ٣٩٧.

ركوعها وسجودها ومواقيتها قالت: حفظك الله كما حافظت عليّ وشفعت لصاحبها وإذا أضاعها قالت: أضاعك الله كما ضيعتني وتلفّ كما يلفّ الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها».[1]

ويمكن أن يكون المراد من كلام الجنّة أنّها اعدّت للمؤمنين فصار ذلك الاستعداد كالقول منها وهو كقوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾[2] وأمّا أنّه تعالى خلق الجنّة بيده فالمراد تولّي خلقها لا أنّه وكّله إلى غيره وأمّا أنّ الصلاة تثني على صاحبها الّذي قام بحقّها كقول القائل: إحسانك إليّ ينطق بالشكر، والفردوس مؤنّث باعتبار الجنّة ولذا قال: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مؤبّدون.

وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۢ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿١٩﴾

لمّا أمر الناس بعبادته عرّف نفسه لهم بالوحدانيّة والخالقيّة لأنّ العبادة لا تصحّ إلّا بعد المعرفة فذكر من الدلائل أنواعاً فاستدلّ بتقلّب الإنسان في أدوار الخلقة وأكوان الفطرة.

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ٨٣؛ وانظر: المحاسن، ج ١، ص ١٢٥.

٢ـ سورة فصلت: ١١.

المرتبة الأولى قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ والسلالة فعالة وهو بناء يدلّ على القلّة كالقلامة والقمامة من السلّ اسم لما يسلّ من الشيء لأنّ آدم سلّ من الطين وأديم الأرض أو سلّ أولاده من الأصلاب فسلّ آدم من طين وأولاده من ماء مهين والإنسان شامل لآدم وولده وهذا المعنى مطابق لقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ ـ وخلاصة ـ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾[1].

ويمكن أن يحمل أنّ أولاده أيضاً خلقوا أصلاً من طين أيضاً وهو أنّ الإنسان إنّما يتولّد من النطفة وهي تتولّد من فضل الهضم وذلك إنّما يتولّد من الأغذية وهي إمّا حيوانيّة كاللحوم أو نباتيّة كالبقول وهي تتولّد من الأرض والماء ثمّ إنّ تلك السلالة بعد أن تواردت على أطوار الخلقة صارت منيّاً ثمّ إلى أن يصير إنساناً فهذه مرتبة أولى من مراتب الإنسانيّة.

المرتبة الثانية قوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ أي: جعل وخلق جوهر الإنسان الّذي كان نطفة وماء قليلاً وكان منيّاً في الأصلاب قذفه الصلب بالجماع إلى رحم المرأة فصار الرحم قراراً مكيناً لهذه النطفة وصار موضع القرار والمستقرّ لها.

المرتبة الثالثة: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ أي: حوّلنا النطفة عن صفاتها إلى صفات العلقة وصورة العلقة وهي الدم الجامد.

المرتبة الرابعة: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ أي: جعلنا ذلك الدم الجامد قطعة لحم كأنّها مقدار ما يمضغ كاللقمة مقدار ما يلتقم وسمّي التحويل خلقاً لأنّه تعالى يفني بعض أعراضها ويخلق أعراضا غيرها ويخلق فيها أجزاء زائدة على الأوّل.

١ـ سورة السجدة: ٧ و٨.

المرتبة الخامسة قوله: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ أي: صيّرناها عظماً.

المرتبة السادسة: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ وذلك لأنّ اللحم للعظم كالكساء يستره.

المرتبة السابعة: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أي: نفخنا فيه الروح غير خلق الأول لما فيه من المباءنة فجعله حيواناً وكان جماداً وناطقاً وكان أبكم وسميعاً وكان أصمّ وبصيراً وكان أكمه وو أودع كلّ جزء من أجزائه غرائب حكمته وعجائب صنعه لا يحيط بها وصف الواصفين وتصريف اللّه إيّاه من قبل الولاد إلى أن يموت حاصل للإنسان.

وفي الآية دلالة على بطلان قول من يعتقد أنّ الإنسان هو الروح لا البدن كالنظام وعلى بطلان قول الفلاسفة الّذين يقولون: إنّ الإنسان شيء لا ينقسم وأنّه ليس بجسم.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ والبركة معناه الدوام والثبوت مأخوذ من بروك الإبل ومعناه أنّ العلوّ والدوام والثبوت منه وله خاصّة بالذات وهو أحسن المقدّرين والخلق في اللغة كلّ فعل وجد من فاعله مقدراً على سبيل الإرادة لا على سبيل السهو والغفلة والعباد قد يفعلونه.

قالت المعتزلة: لو لا أنّ غير اللّه قد يكون خالقاً لفعله إذا قدّره لما جاز القول بأنّه أحسن الخالقين كما لو لم يكن في عباده من يحكم ويرحم لم يجز أن يقال فيه: أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.

قال بعض العلماء: هذه الآية وإن دلّت على أنّ العبد خالق إلّا أنّ اسم الخالق لا يطلق على العبد إلّا مع القيد والإضافة كما أنّه يجوز أن يقال: ربّ الدار، ولا يجوز أن يقال: ربّ، بلا إضافة. وقيل: معنى: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ في

اعتقادكم في ظنّكم واعتقادكم.

قالت المعتزلة: الآية تدلّ على أن كلّ ما خلقه حسن وحكمة وصواب وإلّا لما جاز وصفه بأنّه أحسن الخالقين وإذا كان كذلك وجب أن لا يكون خالقاً للكفر والمعصية فوجب أن يكون العبد هو الموجد لهما.(١)

المرتبة الثامنة: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ وقرئ «لمائتون» والفرق أنّ «ميّت» صفة ثابتة و«المائت» يدلّ على التجدّد والحدوث تقول: زيد ميّت الآن ومائت غداً.

المرتبة التاسعة: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ فالله سبحانه جعل الإماتة وإعدام الحياة وجعل البعث وإعادة ما يفنيه دليلين عظيمين في القدرة والغرض من هذا البيان الإنشاء والإماتة والإعادة ولم يذكر في الآية ما يحصل من الإعادة لأنّه داخل في الإعادة.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ هذا نوع آخر من الدلائل على القدرة الكاملة فقوله: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ أي: سبع سماوات كلّ سماء طريقة وسمّيت بذلك لتطارقها ووضع بعضها فوق بعض أو أنّها طرائق الملائكة وكلّ طبقة طريقة وما بين كلّ طريقين وسماءين مسيرة خمسمائة عام وكذلك ما بين السماء والأرض.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ إذ بنينا فوقهم سبع سماوات وعالمين بأعمالهم وأحوالهم.

وفي الآية زجر عن السيّئات وترغيب في الطاعات وبيان إنعامه علينا بخلق السماوات حيث جعلها موضعاً لأرزاقنا بإنزال الماء منها وجعلها مقرّاً للملائكة وهم يدبّرون أمورنا ولأنّها موضع الثواب لأعمالنا ومكان إنزال

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ٨٥.

الوحي، والبركات والأرزاق منها تنزل إلينا.

ثمّ في الآية دلالة على فساد القول بالطبيعة فإنّ شيئاً من تلك الصفات لو حصل بالطبيعة من غير قاهر على الطبيعة لوجب بقاؤها وعدم تغييرها ولو قلت: إنّما تغيّرت تلك الصفات لتغيّر تلك الطبيعة فافتقرت تلك الطبيعة إلى خالق وموجد.

وبالجملة فبعد ذكر النوع الأوّل من الاستدلال وهو كيفيّة خلق الإنسان والنوع الثاني من الاستدلال وهو كيفيّة خلق السماوات، ذكر سبحانه النوع الثالث من الاستدلال بذكر قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ اعلم أنّ الماء في نفسه نعمة فذكره الله أولا وهو موجب للنعم الكثيرة فقال: وأنزلنا من السماء مطراً واختلفوا في السماء فقال الأكثرون: المراد من السماء في الحقيقة السماء ويؤيّده ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1] وقال بعض المنطبعين: المراد من السماء السحب لعلوّه قالوا: إنّ الله أصعد الأجزاء من قعر الأرض ومن البحار إلى السماء وصارت بسبب ذلك التصعيد عذبة صافية ثمّ إنّ تلك الذرّات تأتلف وتتكوّن فينزلها الله على قدر الحاجة ولو لا ذلك لم ينتفع بتلك المياه لتفرّقها في قعر الأرض ولا بماء البحار لملوحته ولأنّه لا حيلة في إجراء مياه البحار على وجه الأرض لأنّ البحار هي الغاية في العمق ولكنّ هذه الوجوه إنّما يتحمّلها من ينكر الفاعل المختار وأمّا من أقرّ به فلا حاجة به إلى شيء منها.

﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: بتقدير يسلمون معه من المضرّة ويصلون به إلى المنفعة في الزرع والغرس والشرب وبمقدار ما علمنا من حاجاتهم ومصالحهم.

﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا له الأرض مسكناً وأثبتناه في الأرض

١ـ سورة الذاريات: ٢٢.

وجمعناه في الأرض ينتفع به من له الحاجة يريد به ما في المستنقعات وعن ابن عبّاس عن النبي ﷺ قال: «إنّ الله أنزل من الجنّة خمسة أنهار: سيحون وهو نهر الهند، وجيحون وهو نهر بلخ، ودجلة والفرات وهما نهرا العراق، والنيل وهو نهر مصر أنزل الله من عين واحدة وأجراها في الأرض وجعل فيها منافع للناس في أصناف معايشهم وذلك قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ....﴾»[1]

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أي: نحن على إذهابه قادرون ولو فعلناه لهلك جميع الحيوانات وفي تنكير «ذهاب» إشارة إلى كثرة طرقه ومبالغة في الإيعاد به.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ وأحدثنا لنفعكم بسبب الماء يا معشر الخلائق بساتين من النخيل والكروم وإنّما خصّ النخيل والأعناب لأنّها ثمار الحجاز من المدينة والطائف فذكّرهم بالنعم الّتي عرفوها ولكثرة منافع هذين النوعين للنّاس فإنّها يقومان مقام الطعام والإدام ومقام الفواكه رطباً ويابساً.

﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ﴾ لكم في الجنّات من أصناف الفواكه أي: وجوه أرزاقكم في هذه الجنّات وأكلكم ومعاشكم منها.

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ١٢٨؛ وبحار الأنوار، ج ٥٧، ص ٤٦.

لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ
جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾

وأنشأنا لكم ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ﴾ الشجرة بسبب الماء أي: شجرة الزيتون وخصّت بالذكر لما فيها من العبرة بأنّه لا يتعاهدها إنسان بالسقي مع هذا هي عظيم المنفعة بسبب الدهن الحاصل منها وسيناء وسينين واحد اسم للجبل قيل: هو جبل فلسطين وقيل: بين مصر وأيلة ومنه نودي موسى عليه السلام.

﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ أي: تنبت ثمرها بالدهن وفيها الدهن كما يقال: ركب الأمير بجنده أي: ومعه الجند وحاصل المعنى: ينبت زيتونها وفيها الزيت قال المفسّرون: وإنّما أضاف الله سبحانه هذه الشجرة إلى طور سيناء لأنّ منها تشعّبت في البلاد وانتشرت ومعظمها كان هناك.

﴿وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ﴾ أي: أدام للآكلين لأنّه يؤتدم به والخبز يصبغ ويتلوّن بالإدام الخبز إذا غمسته باللبن فلابدّ وأن ينصبغ كذلك ينصبغ بالزيت والاصطباغ بالزيت الغمس فيه للائتدام يجعل الله في هذه الشجرة أداما ودهنا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**الزيت شجرة مباركة فائتدموا به وادّهنوا**».[1]

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ أي: دلالة تستدلّون بها على قدرة الله ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ وقرئ تسقيكم ـ بالتاء ـ أي: تسقيكم الأنعام من الألبان الّتي تخرج من بطونها إلى ضروعها شراباً طيّباً حليباً لذيذاً ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من بيعها والانتفاع بأثمانها ولحومها وركوبها وحمولتها وما يجري منها من المنافع العظيمة ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ بعد الذبح وبالجملة لكم منها وجوه المنافع قبل الذبح وبعد الذبح وهذه وجوه إنعامه سبحانه لكم لكي تشكروا وتستدلّوا بقدرته.

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ١٨٤؛ والصافي، ج ٣، ص ٣٩٧.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ ووجه الانتفاع بالإبل في المحمولات على الحيوان بمنزلة الانتفاع بالفلك على البحر فجمع بين الحملين من البرّ والبحر والإنعامين من الإبل والفلك ولذا قيل: الإبل سفائن البرّ وهذا كقوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[1].

ولمّا كان البيان في ذكر شمول نعمته على الخلق أتبعه بذكر عمدة أنعامه عليهم بإرسال السل فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ومن الأنبياء المرسلين نوح عليه السلام وهو آدم الثاني لأنّ الناس بعد الغرق من أولاده وإنّما سمّي نوحاً لنوحه وكثرة بكائه على نفسه وكان سبب نوحه أنّه كان يدعو على قومه بالهلاك وقيل: السبب مراجعة ربّه في شأن ابنه للغرق وقيل. مرّ بكلب مجذوم فقال له: اخسأ يا قبيح! فعوتب على ذلك فقال الله له: أعيّبتني إذ خلقته أم عيّبت الكلب. وهذه الوجوه على فرض كون الأعلام تفيد صفة في المسمّى والمحقّقون لم يثبتوا هذه الإفادة وقالوا: إنّ الأعلام لا تفيد صفة في المسمّيات.

وبعد إرسال نوح إلى قومه ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ﴾ وحّدوا الله وأطيعوه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله في ترك الإيمان وعبادة غيره لأنّ العبادة تحسن لمن أنعم بالخلق والإيجاد فكيف يعبد ما لا يضرّ ولا ينفع؟

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ وأمّته أي: الأشراف الكفرة من قومه أوردوا شبهات لتكذيب نوح:

الشبهة الأولى قولهم: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: إنّه مساو لسائر الناس في البشريّة والفهم والغنى والفقر والصحّة والمرض وهذا يمتنع أن يكون رسولاً وهو مشارك لكم في جميع الأمور ولكنّه أحبّ الرياسة

١ـ سورة الإسراء: ٧٠.

والمتبوعيّة فلم يجد إليها سبيلا فادّعى النبوّة فبهذه الشبهة قدحوا في نبوّته ويؤيّد هذا المعنى بعده قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ ويترأّس ويطلب الفضيلة عليكم.

الشبهة الثانية قولهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: إنّ اللّه لو شاء إرسال الرسول وإرشاد الخلق ولا يعبد غيره لوجب أن يسلك الطريق الّذي أقرب إلى المقصود ومعلوم أن بعثة الملائكة أشدّ إفضاء من المقصود من بعثة البشر لعلوّ شأن الملائكة وشدّة سطوتهم وكثرة علومهم فالخلق ينقادون إليهم ولا يشكّون في رسالتهم فلمّا لم يفعل ذلك علمنا أنّه ما أرسل رسولاً البتّة.

الشبهة الثالثة: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما سمعنا بهذا الكلام الّذي يقوله نوح من آبائنا القديمة لأنّهم كانوا لا يعولون في شيء من المذهب إلّا على التقليد والرجوع إلى قول الآباء، فلمّا لم يجدوا في نبوّة نوح هذه الطريقة حكموا بفسادها، ويمكن أن يكون زمانهم زمان فترة أو ما كانوا سامعين إلى عبادة اللّه وحده لأنّهم كانوا على عبادة الأصنام.

الشبهة الرابعة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ والجنّة الجنون أو الجنّ فإنّ جهّال الناس يقولون في المجنون أصابه الجنّ وزال عقله بعمل الجنّ وهذه الشبهة من باب التمويه على العوامّ والضعفاء لأنّه كانﷺ يفعل أموراً في العبادة على خلاف عاداتهم فنسبوا إليه الجنون ومن كان مجنوناً فكيف يكون رسولاً؟

الشبهة الخامسة قولهم: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: انتظروا إلى زمان حتّى يظهر عاقبة أمره فإن أفاق وإلّا قتلتموه أو المعنى قالوا للعوامّ: اصبروا ولا تؤمنوا به فإن كان نبيّاً فاللّه ينصره فحينئذ نتبعه وإن كان كاذباً يبطل أمره فحينئذ نستريح منه بعد موته.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ﴿٣٠﴾

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾ أي: أهلكهم بسبب تكذيبهم إيّاي أو انصرني بدل ما كذّبوني كما تقول: هذا بذاك أي: بدل ذاك أو المعنى: انصرني بانجاز ما وعدتهم من العذاب.

ولمّا أجاب الله دعاءه قال: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ أي: عيننا وحفظنا عليك: ومنه عليه من الله عين كالئة أي: حافظة ـ وفي الآية دلالة على فساد قول المشبّهة في تمسّكهم بقوله ﷺ: «إنّ الله خلق آدم على صورته»[1] لأنّ ثبوت الأعين يمنع ذلك ـ أو بنصرة أوليائنا وأعيننا وهم الملائكة والمؤمنون فإنّهم يمنعون من كلّ من يمنعك منه. ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ أي: إعلامنا إيّاك كيفيّة صنعة السفينة واختلفوا كيف صنع الفلك فقيل: إنّه كان نجّاراً وقيل: إنّ جبرئيل علّمه ووصف له كيفيّة صنعتها وهو الأقرب لقوله تعالى: ﴿بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ اعلم أنّ لفظ الأمر كما هو حقيقة في طلب الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء قيل: فكذا هو حقيقة في الشأن العظيم والدليل عليه أنّك إذا قلت: هذا أمر بقي الذهن يتردّد بين المفهومين

١ـ الكافي، ج ١، ص ١٣٤. والتوحيد، ص ١٠٣ وص ١٥٢.

وذلك يدلّ على كونه حقيقة فيهما.

وبالجملة فإذا جاء أمرنا واقتضى العذاب وبانت علامته ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ والأكثرون على أنّه هو التنوّر المعروف فقيل لنوح: إذا رأيت الماء يفور من التنوّر فاركب أنت ومن معك من أهل دينك في السفينة فلمّا نبع الماء من التنوّر أخبرته امرأته فركب، وقيل في التنوّر: كان تنّور آدم وكان من حجارة فصار إلى نوح.

واختلف في مكانه فما عليه الأكثرون أنّه في مسجد الكوفة عن يمين الداخل ممّا يلي باب كندة وكان نوح عمل السفينة في المسجد وقيل: التنوّر بالشام بموضع يقال له «عين وردة» وقيل: بالهند.

وعن ابن عبّاس: (أنّ التنوّر وجه الأرض)، وقيل: أشرف وأعلا موضع في الأرض وقال عليّ عليه السلام: «﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي طلع الفجر»[1]، وقيل: فوران التنوّر كان عند طلوع الفجر وقيل: معناه مثل قولهم: «حمى الوطيس» وقيل: إنّه الموضع المنخفض من السفينة الّذي يسيل إليه الماء.

وبالجملة جعل اللّه فوران التنوّر علامة لنوح عليه السلام حتّى يركب عنده السفينة طلباً لنجاته ونجاة من آمن به من قومه.

﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي: فأدخل في السفينة يقال سلك فيه أي: دخل فيه واسلك فيها ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ من الحيوان الّذي يحضره في الوقت ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ الذكر والأنثى لكي لا ينقطع نسل ذلك الحيوان وكلّ واحد منهما زوج لا كما تقوله العامّة من أنّ الزوج هو الاثنان وروي أنّه لم يحمل إلّا ما يلد ويبيض وقرئ «من كلّ» منوّناً أي: من كلّ أمّة زوجين فحينئذ اثنين تأكيد لزوجين وزيادة بيان ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي: أولادك أو المراد من الأهل من آمن

١ـ تفسير العياشي، ج ٢، ص١٤٧ ومجمع البيان، ج ٥، ص ٢٧٨.

بك لكن هذا المعنى ينافي الاستثناء والصحيح أنّ المراد من الأهل الأولاد ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ وكان كنعان ممّن سبق عليه القول وكان من المغرقين.

﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾ في السفينة قال ابن عبّاس: (كان في السفينة ثمانون إنساناً نوح وامرأته وثلاثة بنين سام وحام ويافث وثلاث نسوة لهم واثنان وسبعون إنساناً وهم عقلاء الدنيا)، ﴿فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وإنّما قال: «فقل» ولم يقل: «فقولوا» لرتبة النبوّة وتخصيص الخطاب إشعارا لكبرياء الربوبيّة وإنّ رتبة تلك المخاطبة لا يترقّى إليها إلّا ملك أو نبيّ أي: فاستحمدوا اللّه على ما خلصكم من النفوس الظالمة لأنفسهم بجحدهم عن توحيد اللّه.

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ لأنّه لا يقدر أحد أن يصون غيره من الآفات إذا أنزله منزلا ويكفيه جميع ما يحتاج إليه إلّا أنت.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ في أمر نوح والسفينة وهلاك القوم بالغرق دلالات للعقلاء يستدلّون بها على الإله القادر القاهر ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ﴾ أي: وإن كنّا مختبرين إيّاهم بإرسال نوح ووعظه وتذكيره ومصيبين الكفّار بهذا العذاب العظيم ومختبرين عبادنا ليتذكّرون ويعتبرون عبرة كاملة و«إن» في الآية مخفّفة من المثقّلة وضمير الشأن محذوف واللّام في «لمبتلين» لام الفارقة بين النافية والمخفّفة وتمام القصّة قد مرّ شرحها في سورة هود.

ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا

مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ
إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى
اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا
قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾

القصّة الثانية قصّة هود أو صالح ومنشأ الاختلاف قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فيقتضي أن يكون قوم هود لأنّه هو المبعوث بعد نوح وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ يقتضي قوم صالح لأنّ ثمود اهلكوا بالصيحة.

وعلى التقديرين ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: أحدثنا من بعد قوم نوح ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ جماعة من الناس والقرآن أهل العصر على مقارنة بعضهم لبعض ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي: من جملة نسبهم ونشأ بين أظهرهم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ﴾ مفسّرة لأرسلنا أي: قلنا لهم على لسان الرسول: اعبدوا الله «وما لكم من إله غيره» تعليل للعبادة ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذابه بعبادة غيره.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ حكاية لقولهم الباطل من أشرافهم أي: قال الأشراف من قومه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وعبدوا غير الله ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ ويوم المعاد والجزاء ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وكنّا منعمين عليهم بضروب الملاذ والنعمة مقول قولهم كان إيراد الشبهات: ﴿مَا هَـٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ وليس من هو كذلك أولى بالرسالة منّا وهو حكمه مثل حكمنا فمن أين له الرسالة؟ ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ فجعلوا اتّباع الرسول الّذي من نوعهم خسراناً ولم يجعلوا عبادة الأصنام والجماد خسراناً.

ثمّ القوم طعنوا في صحّة الحشر بقولهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ أي: يخوّفكم أنّكم تخرجون تعادون أحياء للمجازاة ثمّ

لم يقتصروا على هذا القدر وقرنوا قولهم بالاستبعاد العظيم بقولهم: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أي: بعد بعد ما يخوّفكم به قرئ «هيهات» بكسر التاء وبفتح التاء وبالتنوين والكسر وبالتنوين والرفع وبسكون التاء وهي كلمة اسم فعل ومعناه بعدا بعدا وقيل: «هيهات» أصلها هيهئات والحاصل: قالوا: هذا الوعيد الّذي يعدكم بعيد بعيد. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ ولم يريدوا الشخص الواحد يموت ويحيا بل مرادهم يموت بعض ويحيا بعض ضمير «هي» مفسّرها ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ يعني: ليس الحياة إلّا حياتنا الدنيا أي: لا حياة إلّا هذه الحياة فوازنت «إن» النافية «أذلاء» الّتي لنفي الجنس ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ فأنكروا البعث بهذه البيانات الواهية.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليس هو إلّا رجل اختلق كذبا على الله وما نحن له بمصدّقين فيما يقوله قال الرسول بعد ما سمع منهم هذه البيانات والإنكارات.

﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فبعد أن يئس هود من إيمانهم بعد ما سلك في دعوتهم بأقسام المسالك تضرّع إلى الله بقوله: ربّ انصرني عليهم وانتقم لي منهم بسبب تكذيبهم إيّاي. فقال الله تعالى إجابة لمسئوله: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أي: عن قليل من الزمان والوقت ليصبحنّ ـ واللّام لام القسم وما في «عمّا» زائدة للتأكيد ـ نادمين إمّا عند نزول العذاب أو نزول الموت يكونون نادمين ولمّا ينفع الندم.

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا

مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا
عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ
رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ في الصيحة وجوه: أحدها: أنّ جبرئيل عليه السلام صاح بهم وكانت الصيحة عظيمة فماتوا عندها. الثاني: الصيحة الرجفة عن ابن عبّاس. الثالث: الصيحة نفس العذاب والموت كما يقال فيمن يموت: دعي فأجاب ؛ قال الشاعر:

صاح الزمان بآل برمك صيحة ... خرّوا لشدّتها على الأذقان

فدمّرهم العذاب بالعدل والحقّ أي: حكم عليهم بالحقّ والاستحقاق.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ والغثاء حميل السيل ممّا يلي وقعت وأسود من الورق والعيدان أي: جعلناهم هلكى قد يبسوا كما يبس الغثاء ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المشركين المكذّبين أي: ألزمهم الله البعد من الرحمة.

القصّة الثالثة: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ المقصود من البيان أنّه ما أخلى الدنيا من مكلّفين أنشأهم وبلّغهم حدّ التكليف حتّى قاموا مقام من كان قبلهم في الدنيا.

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ هذا وعيد للمشركين. المعنى: ما يموت أمّة قبل أجلها المضروب لها ولا يتأخّر، وقيل: المراد بالأجل العذاب الموعود لهم على التكذيب أنّه لا يتقدّم على الوقت المضروب لذلك والأجل المضروب لحدوث أمر من الأمور.

قال الكعبيّ: المراد من قوله: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: لا يتقدّمون الوقت

لعذابهم إن لم يؤمنوا ولا يتأخّرون عنه ولا يستأصلهم إلّا إذا علم منهم أنّهم لا يزدادون إلّا عنادا وأنّهم لا يلدون مؤمناً ولا نفع لبقائهم لأحد ولا ضرر على أحد في هلاكهم، وبالجملة الأجل محتوم لا يتغيّر ولا يتقدّم ومشروط وهو بحسب الشرط، والمراد بالأجل في الآية الأجل المحتوم.(١)

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ وقرئ «تترى» بالتنوين ومن نوّن وقف بالألف وتترى فعلى من المواترة والمواترة أن يتبع الخبر الخبر والكتاب الكتاب فلا يكون بينهما فصل كثير والأقيس والأولى أن لا يصرف ولا ينوّن كالتقوى والدعوى والتاء بدل من الواو فإنّه مأخوذ من الوتر أي: أرسلنا أنبياءنا متواترة يتبع بعضهم بعضاً وأصل معناه الاتّصال ومنه الوتر لاتّصاله بمكانه من القوس ومنه الوتر وهو الفرد عن الجميع المتّصل.

﴿كُلَّ مَا﴾ أتى رسول أمّته ﴿كَذَّبُوهُ﴾ ولم يقرّوا بنبوّته ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أي: أهلكنا المكذّبين بعضهم في إثر بعض ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: يتحدّث بهم على طريق المثل من الشرّ وهو جمع احدوثة ولا يستعمل هذا في الخير ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ثمّ وبّخهم وذمّهم بقوله: بعدا من الرحمة الّذين لا يؤمنون بالله وفي الآية دلالة على تعذيبهم مؤبّدا آجلاً كما عذّبوا عاجلاً.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ودلائلنا الواضحة واختلفوا في الآيات: فقال ابن عبّاس: هي الآيات التسع وهي العصا واليد والجراد والقمّل والضفادع والدم وانفلاق البحر والسنون ونقص من الثمرات وقيل: بآياتنا أي: بديننا.

واحتجّوا بأنّه لو كان المراد بالآيات المعجزات والسلطان المبين أيضاً

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ١٠٠.

هو المعجز معناه فحينئذ يلزم عطف الشيء على نفسه.

وأجابوا بأنّ لفظ الآيات إذا ذكر في الرسل فالمراد منها المعجزات والسلطان المبين يجوز أن يكون أعظم معجزاته وهو العصا وقد تعلّقت بالعصا معجزات كثيرة شتّى من تلقّفها وانفجار العيون من الحجر بضربها وكونها حارساً وشمعة وتدفع العدوّ ودلوا ورشاء فلأجل انفراد العصا بهذه المزيّات أفردت بالذكر كقوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[1] ويمكن أن يكون المراد بالسلطان المبين استيلاء موسى عليهم بالنبوّة وأنّه كان مسلّطا عليهم ولا يقيم لهم وزناً ولا قدراً.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ خصّ الملأ وهم الأشراف بالذكر لأنّ الآخرين كانوا أتباع لهم ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ فتجبّروا وتعظّموا عن قبول الحقّ وكانوا قاهرين وعالين وذوي ثروة وكان قوم موسى وهارون عندهم كالخدم والعبيد لهم وقهروا أهل أرضهم.

﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ﴾ لرجلين بشرين ﴿مِثْلِنَا﴾ ونصدّق الإنسانين خلقهم مثل خلقنا ويسمّى الإنسان بشراً لانكشاف بشرته وجلدته حتّى احتاج إلى لباس يكنّه بخلاف الحيوان مغطّى البشرة بصوف أو بشعر وريش وغيره لطفاً من الله إذ لم يكن للحيوان عقل يدبّر أمره عند الحاجة إلى ما يكنّه والإنسان يهتدي إلى ما يستعين عند حاجته ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ﴾ أي: مطيعون طاعة العبد لمولاه وقيل: كان بنو إسرائيل يعبدون فرعون وفرعون يعبد الأوثان.

فكذّبوا موسى وهارون ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ وكان عاقبة تكذيبهم أن أهلكهم وغرقهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: التوراة لعلّهم يعملون بشرائعها ومواعظها

١ـ سورة البقرة: ٩٨.

فذكر موسى أي: آل موسى كما يقال هاشم وثقيف ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بعمل التوراة.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾

وجعلناه حجّة على قدرتنا على الاختراع بخلقته من غير أب وإنّ مريم عليها السّلام حملت من غير فحل وجعلنا مأواهما مكاناً مرتفعا مستوياً واسعا والربوة الّتي أويا إليها هي الرملة من فلسطين.

وقيل: نفس دمشق. وقيل: مصر. وقيل: بيت المقدس. وقيل: هي أقرب الأرض إلى السماء وقيل: هي حيرة الكوفة وسوادها والقرار مسجد الكوفة والمعين الفرات عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام[1] وقيل: معناه ذات موضع قرار أي: هي أرض مستوية يستقرّ عليها ساكنوها وقيل: ذات ثمار لأنّه لأجل الثمار يستقرّ فيها ساكنوها والمراد بالمعين ماء جار ظاهر العيون مفعول من عان يعين.

وبالجملة جعله الله وأمّه آية وظهر فيهما أمور عجيبة بأن أنطقه في المهد وأخرى على يده إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وتكلّمت مريم في صغرها وهو قولها: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2] ولم تلقم ثدياً قطّ. قال القاضي: إن ثبت ذلك فهو معجز لزكريّا لأنّها لم تكن نبيّاً. وإنّما قال القاضي هذا البيان لأنّ عنده الإرهاص غير جائز. والحاصل أنّ مريم وابنها بقيا إلى الربوة اثنتي عشرة سنة وإنّما ذهب بهما ابن عمّها يوسف ثمّ رجعت إلى أهلها بعد أن مات ملكهم.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥١)

١ـ بحار الأنوار، ج ٥٧، ص ٢٠٢؛ والصافي، ج ٣، ص ٤٠١.

٢ـ سورة آل عمران: ٣٧.

وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم
بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾
أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا
يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾

الخطاب إلى كلّ الرسل، والرسل إنّما أرسلوا متفرّقين في أزمنة مختلفة وبيان توجيه الخطاب إليهم أنّ المعنى إعلام بأنّ كلّ رسول في زمانه هذا الخطاب، ووصّي به ليعتقد السامع أنّ أمراً نودي له الرسل حقيق بأن يعمل به أو الخطاب إلى رسولنا. وإنّما ذكر على صيغة الجمع كما يقال للواحد: أيّها القوم كفّوا أذا كم عنّي كأنّه سبحانه لمّا خاطب محمّدﷺ بذلك بيّن أنّ الرسل عليهم السلام بأسرهم لو كانوا حاضرين لما خوطبوا إلّا بذلك ليعلم رسولنا أنّ هذا التثقيل ليس عليه فقط بل هو لازم على جميع الأنبياء.

والحاصل لمّا أمر الله الناس الاهتداء بكتبه والعمل بشرائعه في الآية السابقة أمر الرسل والمؤمنين بأن يأكلوا من الحلال ولا يتصدّون أكل الحرام ـ قال النبيّﷺ: «إنّ الله طيّب لا يقبل إلّا طيّباً»[1] ـ وأمر المؤمنين بما أمر الرسل فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾.[2] ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ أي: ما أمركم الله به ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ هذا بيان السبب الداعي إلى إصلاح العمل والإتيان بالعمل الصالح فإنّ العاقل إذا علم أنّ من يعلم عمله يجازيه على حسب ما يعمل أصلح العمل.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: إنّ ملّتكم ودينكم دين واحد

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ١٩٤؛ ونور الثقلين، ج ٣، ص ٥٤٥.

٢ـ سورة البقرة: ١٧٢.

ويعضد هذا المعنى ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾[1] أي: على دين. قال النابغة:

حلفت ولم أترك لنفسي ريبة   وهل يأثمن ذو أمّة وهو طائع

وقيل: المعنى: وإنّ جماعتكم وجماعة من قبلكم واحدة كلّكم عباد اللّه وخلقه ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ أي: لهذا فاتقّوا الشرك.

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: كما يجب عليكم أكل الحلال والاجتناب عن الحرام كذلك لابدّ أن تكونوا متّفقين ومجتمعين على التوحيد ولا يقع منكم في هذا الأمر اختلاف ويلزمكم كلّكم دين واحد ومع هذا الأمر فهم من شدّة اختلافهم جعلوا دينهم أدياناً وزبراً أي: قطعاً قطعاً استعيرت من زبر الحديد والقصّة يعني: بهم مشركي مكّة والمجوس واليهود والنصارى والصابئين.

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ وكلّ فريق منهم بما اتّخذ دينا لنفسه معجب به يرى نفسه أنّه المحقّ الرابح وغيره المبطل الخاسر.

فإن قيل: لمّا كانت شرائعهم مختلفة فكيف يكون دينهم واحد؟

قلنا: المراد من الدين أصوله من معرفة اللّه وأمّا الشرائع فإنّ الاختلاف فيها لا يسمّى اختلافاً في الدين بل الاختلاف في كيفيّة الأعمال بحسب الشريعة كما يقال: للحائض والطاهر من النساء: إنّ دينهنّ واحد وإن افترق تكليفها فكذا هاهنا.

ثمّ أتبع للمختلفين بالوعيد وقال: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: دع هؤلاء في جهلهم والغمرة الماء الّذي يغمر القامة وقرأ عليّ عليه السلام في غمراتهم[2] وذكروا في الحين وجوهاً: أحدها إلى الموت وقيل: إلى حين العذاب أو المراد به الحالة الّتي تقترن به الحسرة والندامة وذلك يحصل عند المحاسبة

١ـ سورة الزخرف: ٢٢.

٢ـ الكشاف، ج ٣، شرح ص ٣٥؛ وتفسير الرازي، ج ٢٣، ص ١٠٥.

والموت وعند عذاب القبر فيجب أن يحمل على كلّ ذلك.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ظنّ هؤلاء الكفّار أنّ ما نعطيهم ونزيدهم من أموالهم وأولادهم إنّما نعطيهم ثواباً ومجازاة لهم على أعمالهم ولرضائنا عنهم ولكرامتهم علينا ليس الأمر كما يظنّون بل ذلك إملاء لهم واستدراج لهوانهم علينا وللابتلاء في التعبّد لهم ونظيره قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾[1] وروى السكونيّ عن الصادق عن آبائه عليهم السّلام قال: «**قال رسول الله**صلى الله عليه وآله**: إنّ الله تعالى يقول: يحزن عبدي المؤمن إذا قترت عليه شيئاً من الدنيا وذلك أقرب له منّي ويفرح إذا بسطت له الدنيا وذلك أبعد له منّي ثمّ تلا هذه الآية إلى قوله: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ ثمّ قال: إنّ ذلك فتنة لهم**»[2].

﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ الشعور العلم الّذي يدقّ معلومه وفهمه على صاحبه ومعنى «نسارع» نتعجّل ونسرع وحاصل المعنى أنّ هذا الإمداد ليس إلّا استدراجا لهم في المعاصي وهم يحسبونه مسارعة في الخيرات وكلمة «بل» للاستدراك لقوله: «أ يحسبون» أي: بل هم أشباه البهائم لا شعور لهم حتّى يتفكّروا في ذلك أهو استدراج أم مسارعة في الخيرات؟

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾

لما ذمّ حال المستدرجين بيّن في هذه الآية صفة المسارعين في الخيرات.

الصفة الأولى: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ والإشفاق

١ـ سورة الفجر: ١٥.

٢ـ انظر: الكافي، ج ٢، ص ١٤١؛ ووسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٢٤٣.

يتضمّن الخشية مع زيادة رقّة وضعف، وقيل: جمع بينهما للتأكيد فإذن متساويان ومنهم من حمل الخشية على العذاب فالمعنى: الّذين هم من عذاب ربّهم مشفقون. وقيل: المعنى: الّذين هم من خشيته مشفقون أي: دائمون في طاعته جادّون في طلب مرضاته والتحقيق أنّ من بلغ في الخشية إلى حدّ الإشفاق وهو كمال الخشية كان في نهاية الخوف من سخط اللّه عاجلاً ومن عقابه آجلاً يكون في نهاية الاحتراز عن المعاصي.

الصفة الثانية: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ وآيات اللّه هي المخلوقات الدالّة على وجوده فيصدّقون بها ويقرّون ويعتقدون بحجج اللّه وكتبه ورسله.

والصفة الثالثة: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾ وليس المراد من الآية التوحيد ونفي الشريك للّه لأنّ ذلك داخل في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ بل المراد منه نفي الشرك الخفيّ وهو أن يكون مخلصاً في العمل والعبادة ولا يقدم عليها إلّا لوجه اللّه. الصفة الرابعة: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ معناه يعطون ما أعطوا فدخل فيه كلّ حقّ لزم إيتاؤه سواء كان ذلك الحقّ من حقوق اللّه كالزكاة والكفّارة وغيرهما أو من حقوق الآدميّين كالودائع والديون وأصناف العدل فبيّن أنّ ذلك إنّما ينفع إذا فعلوه وقلوبهم وجلة لأنّ من يقدم على العبادة وهو وجل من تقصيره وإخلاله بنقصان أو غيره فإنّه يكون لأجل ذلك الوجل مجتهدا في أدائها.

وفي الحديث: سئلت عائشة عن رسول اللّه ﷺ فقالت: والّذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أهو الّذي يزني ويشرب الخمر ويسرق وهو على ذلك يخاف اللّه؟ فقال النبي ﷺ: **«لا ولكن هو الرجل يصلّي ويصوم ويتصدّق وهو على**

ذلك يخاف الله تعالى».[1]

وقيل: في الكلام حذف وإضمار أي: وقلوبهم وجلة أن لا يقبل منهم كما فسّر أبو عبد الله عليه السلام قال: **«معناه: قلوبهم خائفة أن لا يقبل منهم وذلك لعلمهم ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ وموقنين بأنهم راجعون إلى الله ولعلّ أنّه لا يقبل وليسوا مأمونين من التفريط».**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي: الّذين جمعوا هذه الصفات يبادرون إلى الطاعات رغبة منهم فيها ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ وهم لأجل تلك الصفات والمسارعة إلى الخير سابقون إلى الجنّة وقيل: وهم سبقوا الأمم إلى الخيرات وقيل: سابقون أمثالهم من أهل البرّ والتقوى ويمكن أن يكون خبرا بعد خبر والمعنى: وهم لها كما يقال: أنت لها وهي لك ثمّ قال: سابقون أي: وهم سابقون.

وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلۡ
قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾
حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا
لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ
تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم
مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾
أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ
ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم
بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ١٠٧؛ وتفسير الثعلبي، ج ٧، ص ٥٠.

ثمّ بيّن سبحانه أنّه لا يكلّف أحداً إلّا دون الطاقة والوسع إنّما سمّي وسعاً لأنّه يتّسع عليه فعله وقيل: الوسع الطاقة ولكنّ المعتزلة قالوا: إنّه دون الطاقة، وهذه الآية صريحة على نفي تكليف ما لا يطاق بل كلّف دون الوسع والطاقة فمن لم يستطع أن يصلّي قائماً فليصلّ جالساً ومن لم يستطع جالساً فليؤم إيماء.

﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: وعند ملائكتنا المقرّبين كتاب ينطق ويشهد عليكم بالحقّ كتبه الملائكة بأمرنا في صحائف الأعمال وهم يوفون جزاء أعمالهم لا ينقص من ثواب أعمالهم ولا يزاد في عقابهم وشبّه الكتاب بمن ينطق ويصدر عنه البيان فإنّ الكتاب لا ينطق لكنّه يعرب[1] بما فيه كما ينطق ويعرب الناطق إذا كان محقّا وهذا الكلام مثل قوله: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2] والآية تدلّ على أنّ العبد موجد لفعله وإلّا لكان تعذيبه على العمل ظلماً.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي: قلوب الكفّار في غفلة شديدة من هذا الكتاب ومن هذا البيان الّذي بيّنّاه في القرآن من الوعد والوعيد وفي جهل وحيرة ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: ولهم أعمال رديئة خبيثة سوى ذلك الجهل ويعملون تلك الأعمال فيستحقّون بها وبالكفر العقوبة من اللّه وقيل: المراد: ولهم أعمال أصغر من الكفر وهم مشتغلون بها إلى أن يفني آجالهم.

وقيل: إنّ من قوله: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ إلى قوله: ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ في أوصاف المشفقين لا الكافرين وقد يكون المرء لشدّة فكره في الآخرة يستولي عليه الفكر في قبول عمله أو ردّه ويتحيّر وهو المراد بوقوع القلب

١ـ أعربه: أبانه.

٢ـ سورة الكهف: ٤٩.

في غمرة، ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ أي: من هذا الإشفاق والخوف ولهم أعمال من دون ذلك أي: من النوافل ووجوه البرّ سوى ما هم عليه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ قال صاحب «الكشّاف»: حتّى هذه هي الّتي يبتدأ بعدها الكلام أي: يكون دأبهم هذا ومشتغلون بأعمالهم القبيحة حتّى إذا نزل بهم العذاب وأخذنا متنعّميهم ورؤساءهم بعذاب الآخرة وقيل: عذاب الدنيا وهو عذاب السيف أو الجوع حين دعا النبيّ ﷺ عليهم فقال: **«اللّهمّ اشدد وطأتك على مضر واجعلها سنين كسني يوسف».**[1] فابتلاهم اللّه بالقحط حتّى أكلوا الكلاب والجيف أي: يضجّون لشدّة العذاب ويصرخون إلى اللّه بالتوبة فلا يقبل منهم ويقال لهم: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ ولا تضرّعوا اليوم ولا يدفع عنكم ما نزل بكم ولا يبلغكم نصرتنا وهذا الكلام إيئاس لهم من دفع العذاب.

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ لمّا بيّن في الآية السابقة أنّ الكفّار لا ينصرون أتبعه في هذه الآية ببيان السبب أنّه متى ما تليت آيات اللّه عليهم أتوا بأمور قبيحة: أحدها أنّهم كانوا على أعقابهم ينفرون وعن من يتلوها كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع إلى ورائه أي: يرجعون إلى القهقرى والثاني قوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي: متكبّرين على سائر الناس بالحرم وكانوا يقولون: إنّا أهل الحرم ولا يظهر علينا أحد لأنّهم القائمون بالبيت وولاته والّذي يسوّغ هذا الإضمار قبل الذكر شهرتهم بالاستكبار بسبب البيت أو البلد وقيل: الضمير راجع بمحمّد ﷺ أن يطيعوه واستكبروا بنبوّته أو بالقرآن استكبروا أن يقبلوه والضمير على جميع الصور رجع إلى غير مذكور. ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ قيل يتعلّق الباء في «به» بقوله سامرا

١ـ المناقب، ج ١، ص ٧٢؛ وبحار الأنوار، ج ٩، ص ١٢٨.

أي: يسمرون بالقرآن ويطعنون فيه وكانوا يجتمعون حول الكعبة بالليل وكانت عامّة سمرهم ذكر القرآن وتسميته شعراً وسحراً وسبّ رسول الله ويهجرون ويشتمون والسامر مثل الحاضر في الإطلاق على الجمع والهجر بالفتح الهذيان وبالضمّ الفحش ويمكن أنّ المراد تهجرون الحقّ وتعرضون عنه.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ أي: أفلم يتدبّروا القرآن فيعرفوا ما فيه من الدلالات والعبر ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أليس أرسلنا نوحاً وإبراهيم والنبيّين إلى قومهم كذلك أرسلناك ومجيء الرسل ليس أمراً على خلاف العادة وأنّهم قد عرفوا بالتواتر أنّ الرسل كانت تتواتر على الأمم وتظهر المعجزات عليهم وكانت الأمم بين مصدّق ناج ومكذّب هالك بعذاب الاستيصال أفهذا الأمر ما دعاهم إلى تصديق الرسول؟ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ أي: أليس هو محمّد الّذي عرفوه صغيراً وكبيراً بالأمانة والصدق بحيث عرّف بالأمين وافياً بالعهد فلم أعرضوا عنه بعد ما عرفوا أمانته وصدقه وشرف نسبه قبل الدعوة؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أو يعتقدون فيه الجنون فيقولون: إنّه حمله الجنون على ادّعاء الرسالة وهذا أيضاً فاسد لأنّ المجنون كيف يمكنه أن يأتي بما أعجز عقلاءهم عن الإتيان ببعضه على أنّ كتابه متضمّن من الدلائل والشرائع الكاملة وإنّما نسبوا إليه الجنون حيث كانﷺ يأمر صناديدهم وكبراءهم بانقياده وهذا كان عندهم من أبعد الأمور فأرادوا أن يوهموا لضعفائهم وعوامّهم لكي لا ينقادوا له فأوردوا ذلك مورد الاستحقار.

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان هذه الوجوه وفساد أقوالهم وأفعالهم قال: ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ بل جاءهم بالقرآن والدين الحقّ وليس به جنّة وأكثرهم يكرهون الحقّ لأنّهﷺ لم يوافق مرادهم.

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ ثمّ بيّن سبحانه أنّ الحقّ لا يتّبع الهوى ولو اتّبع لوقع الفساد في العالم واختلّ النظام لأنّ أهواءهم جعل الشريك لله وعبادة الأوثان وتكذيب محمّد ﷺ وهو منشأ المفسدة وكانوا يرون أنّ الحقّ في اتّخاذ آلهة مع الله فبيّن سبحانه أنّه لو صدر هذا الأمر على حسب ما يحبّون لفسدت السماوات والأرض ومن فيهنّ ووجه الفساد ما تقدّم في بيان دليل التمانع ولأنّ الحقّ يدعو إلى المصالح والمحاسن، والهوى يدعو إلى المفاسد والمقابح ولو اتّبع الحقّ وهو الله داعي الهوى لدعي إلى القبائح ولفسد التدبير.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ بل أتيناهم ـ وقرئ بذكراهم أي: مواعظهم بالقرآن لأنّهم قالوا: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[1] ـ بما فيه شرفهم وفخرهم لأنّ الرسول منهم والقرآن بلسانهم وهم عن شرفهم والأمور النافعة لهم معرضون وبالجهل والكفر راضون.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ
رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ
أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا
ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾
وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾

١ـ سورة الصافات: ١٦٨ و١٦٩.

ثمّ بيّن سبحانه أنّه ﷺ لا يطمع فيهم حتّى يكون ذلك سبباً للنفرة فقال: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ يا محمّد على ما جئتهم به من القرآن والإيمان أجرا فيوجب ذلك ثقلا عليهم والخرج ما تبرّعت به والخراج ما لزمك أداؤه والخراج أكثر من الخرج لأنّ زيادة المباني تدلّ على كثرة المعاني أي: كثير عطاء الله ورزقه خير فحينئذ لا يجوز أن ينفروا عنه بهذه التهمة فنبّه أنّه لا عذر لهم وأنّهم محجوجون من جميع الوجوه.

والآية تدلّ على أنّ أحداً من العباد لا يقدر على مثل نعمه ورزقه كما أنّه تدلّ على أنّ العباد قد يتسبّبون لرزق بعضهم بعضاً بأمره سبحانه لا على طريق الأصالة بل بالسببيّة ولهذا قال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ولو لا ذلك لما جاز أن يقول هو خير الرازقين.

قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لأنّ ما دلّ الدليل على صحّته فهو مستقيم وهو طريق الحقّ والعمل به على طريق العدل والاستقامة ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ولا يصدّقون بالمعاد والنشأة الآخرة ﴿عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ وعن دين الحقّ عادلون ومائلون، كذب العادلون بالله وضلّوا ضلالاً بعيداً وناكبون عن طريق الهداية والجنّة يؤخذ بهم يمنة ويسرة إلى النار.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ معناه مثل قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾[1] أي: ولو أنّا رحمناهم وكشفنا ما بهم من جوع وضرّ ونحوه لتمادوا في ضلالتهم وغوايتهم وكفرهم وأعمالهم القبيحة ويداومون عليها متجرّين.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ إنّا قد أخذنا هؤلاء الكفّار بالجدب والغلاء والمرض وضيق الرزق والقتل بالسيف فما

١ـ سورة الأنعام: ٢٨.

تواضعوا ولا انقادوا وما يرغبون إلى الله.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ أي: هذا دأبهم وعادتهم حتّى إذا فتحنا عليهم نوعاً آخر من العذاب وهو أشدّ من الأول إمّا باباً من عذاب جهنّم في الآخرة أو فتح مكّة وقال أبو جعفر عليه السلام: «وهو في الرجعة عند قيام قائمنا». أو المراد سني مضر فجاعوا حتّى أكلوا العلهز وهو الوبر بالدم المطبوخ ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أي: حينئذ آئسون من كلّ خير متحيّرون.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي: خلق هذه النعم الثلاثة العظيمة وأنعمكم بها وخصّها بالذكر لأنّ النظريّات والدلائل مبنيّة عليها وأنّ العاقل ينظر ويسمع ويتفكّر فحينئذ يعلم قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ وقليلاً منصوب على المصدريّة أي: تشكرون قليلاً لهذه النعم أو لا تشكرون ربّ هذه النعم فتوحّدونه.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي: خلقكم وأوجدكم في الأرض وقيل: بسطكم فيها ذريّة بعضكم من بعض حتّى كثرتم أي: هو الّذي جعلكم متناسلين في الأرض ويحشركم يوم القيامة إلى دار لا حاكم فيها سواه فجعل حشرهم إلى ذلك الموضع حشرا إليه لا بمعنى المكان.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ يحييكم في أرحام امّهاتكم ويميتكم عند انقضاء آجالكم أي: إنّ نعمة الحياة وإن كانت من أعظم النعم فهي منقطعة.

﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ وله تدبيرهما بالزيادة والنقصان وملازمة ذهاب أحدهما مجيء الآخر ووجه النعمة بهذا الاختلاف واضح لوضوح آثارهما من الفوائد ومع هذا لم تتركون النظر ولا تدبّرون؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أنّ لذلك صانعاً قادراً.

بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا

﴿وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾

لمّا ذكر سبحانه نعمه الدالّة على التوحيد عقّبه بذكر المعاد فقال: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ عطف على مضمر يقتضيه المقام أي: لم يعقلوا بل قالوا مثل ما قال آباؤهم وقلّدوهم في إنكار البعث وقالوا: أإذا متنا وصرنا تراباً وعظاماً كيف نبعث وأوردوا هذه الشبهة الفاسدة ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ الأمر من قديم الزمان من سائر الأنبياء ثمّ لم يوجد مع طول العهد ثمّ قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا إلّا ما كتبه الأوّلون ممّا لا حقيقة له.

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ المقصود من هذه الآيات الاستدلال على منكري الإعادة والردّ على عبدة الأوثان وذلك لأنّ القوم كانوا مقرّين بالله لكن كانوا يقولون: نعبد الأصنام لتقرّبنا إلى الله فاحتجّ الله عليهم بقوله: قل لمن الأرض ومن فيها ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ وإنّ من كان خالقاً للأرض ومن فيها وخالقاً لحياتهم وقادراً على إماتتهم وإفنائهم فعبادة من خلقكم وأنعم عليكم هي الواجبة دون عبادة ما لا يضرّ ولا ينفع ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لتعلموا بطلان ما أنتم عليه.

ثمّ زاد في الحجّة فقال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ

﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ووجه الاستدلال واضح فإذا كان هو المدبّر والخالق للسماوات والعرش مع عظمهما وهم معترفون بأنّ اللّه خلقها فلم لا يتّقون عذابه ويتركون عبادة غيره.

ثمّ زاد سبحانه في الحجّة فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الملكوت من صفات المبالغة في الملك كالجبروت والرهبوت وقيل: بيده ملكوت كلّ شيء معناه خزائن كلّ شيء وهو يمنع من يشاء ولا يمنع منه من أراده بسوء يقال: أجرت فلاناً إذا استغاث بك فحميته وأجرت عليه إذا حميت عنه وحاصل المعنى أنّ من قصد عبداً من عباده بسوء قدر على منعه ومن أراد اللّه بسوء لم يقدر على منعه أحد أو المراد من هذا الأمر في القيامة أي: يجير من العذاب ولا يجار عليه منه إن كنتم ذلك تعلمونه فأجيبوا أمره ولا تشركوا به شيئاً.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ يقولون في الجواب: للّه، قل يا محمّد لهم: فكيف يخيّل إليكم الحقّ باطلاً والصحيح فاسداً وتخدعون عن طاعته وتعمون؟ والخادع هو الشيطان والهوى قال امرؤ القيس:

«وتسحر بالطعام وبالتراب».

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ معناه أنّا جئناهم بالحقّ وبيّنّا لهم الحقّ الّذي يبيّن كذبهم ومع ذلك أنّهم أصرّوا على كذبهم وباطلهم.

مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن

نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا
يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ
رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾
لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ
إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

في الكلام تنبيه على نفي قول الكفّار فإنّ جمعاً منهم كانوا يقولون: الملائكة بنات الله وكالنصارى وكذلك نفى الشريك عنه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ والمراد الّذين اتّخذوا الأصنام آلهة وفيه إبطال قول الثنويّة.

ثمّ ذكر الدليل المعتمد بقوله: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: لو كان الأمر كذلك لا نفرد على كلّ واحد من الآلهة بخلقه الّذي خلقه واستبدّ واستقلّ به ولرأيتم ملك كلّ واحد منهم متميّزا عن ملك الآخر ولغلب بعضهم على بعض كما ترون حال الملوك في ممالكهم متميّزه كلّ ملك على ملكه وسلطانه وحيث لم تروا أثر التمايز في الممالك فاعلموا أنّه إله واحد بيده ملكوت كلّ شيء وقوله: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ﴾ جواب وجزاء لشرط محذوف تقديره: ولو كان معه آلهة إذا لذهب كلّ إله ويدلّ عليه قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ ثمّ نزّه سبحانه نفسه عن ما نسبوه إليه من اتّخاذ الولد والشريك.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: هو المختص بعلم الغيب والشهادة، فغيره وإن علم الشهادة فلن يعلم معها الغيب والشهادة الّتي يعلمها ولا يتكامل بها النفع إلّا مع العلم بالغيب ولو أنّ الّذي يعلم الشهادة أيضاً استفادته من الله ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ في علمه وقدرته وألوهيّته.

ثمّ أمر نبيّه بالانقطاع إليه وأن يدعوه بقوله: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا

يُوعَدُونَ﴾ أي: إن كان ولابدّ من أن تريَنّي ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة فلا تعذّبني وأخرجني من بينهم عند ما تريد إحلال العذاب بهم لئلّا يصيبني ما يصيبهم.

وإن قيل: كيف يجوز أن يجعل الله نبيّه المعصوم مع الظالمين حتّى يدعو ويطلب أن لا يجعله معهم؟

فالجواب يجوز أن يسأل العبد ربّه ما علم أنّه يفعله وأن يستعيذ به ممّا علم أنّه لا يفعله إظهاراً للعبوديّة وتواضعاً لربّه كما وقع من أكابر الأنبياء والأولياء في الأدعية لأنّ المؤمن يهضم نفسه.

وإنّما ذكر «رب» مرّتين مرّة قبل الشرط ومرّة قبل الجزاء مبالغة في التضرّع قال الزمخشريّ: «ما» في «إمّا» والنون في «تريَنّي» مؤكّدتان.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ وذلك في الرجعة إن شاء الله، هذا ابتداء كلام من الله أي: إنّا لا نعاجلهم بالعقوبة مع قدرتنا على ذلك ولكن ننظرهم لمصلحة يوجب ذلك التأخير مع أنّ الكفّار كانوا ينكرون الوعد بالعذاب ويضحكون منه ويحتمل أن يكون العذاب في الدنيا مؤخّرا عن آياته ﷺ.

ثمّ أمر نبيّه باحتمال ما يكون منهم من التكذيب وضروب الأذى بأن يدفعه بالكلام الجميل كالسلام وبيان الأدلّة على أحسن الوجوه فقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: ادفع السيّئة بالحسنة بالصفح عن إساءة المسيء وادفع باطلهم ببيان الحجج على ألطف الوجوه وأوضحها وألطفها إلى الإجابة والقبول نحن أعلم بما يكذّبون من الشرك والإنكار فيجازيهم بما يستحقّونه.

وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام: «أنّ التي هي أحسن التقيّة».[1] وبالجملة هذه الآية قيل: منسوخة بآية السيف وقيل: محكمة لأنّ المداراة مرغوب فيها ومحثوث عليها في كلّ الأوقات ما لم تؤدّ إلى نقصان دين.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ وقل: يا محمّد يا ربّ أعتصم بك من نزغاتهم ووساوسهم وشرورهم في كلّ شيء يخاف من ذلك وأعوذ بك يا ربّ أن يشهدوني ويصدّوني عن طاعتك وقيل: يحضرون في أوقات الصلاة عند تلاوة القرآن أو الأحوال كلّها حتّى لا يحوموا حولي فأكون متذكّراً والهمزات جمع الهمزة وهو الدفع والتحريك الشديد وهو كالهزّ والأزّ ومنه الهمزة للحرف المعروف لأنّه يخرج من أقصى الحلق بالشدّة والدفع.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ثمّ شرح سبحانه حال القائلين بقولهم: أإذا متنا وكنّا ترابا وعظاماً و«حتّى» متعلّق بيصفون أو بكلمة «قالوا أإذا» أي: الكفّار لا يزالون على سوء الذكر إلى أن يجيء أحدهم الموت سألوا الله الرجعة إلى دار التكليف فيقول أحدهم: ربّ ارجعوني على لفظ الجمع وفيه قولان: أحدهما: أنّهم أوّلا استغاثوا بالله ثمّ خاطبوا الملائكة ارجعوني إلى الدنيا والآخر على عادة العرب في تعظيم المخاطب كما قال: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾[2] وإذا كان المساءلة والخطاب إلى الملائكة فهم الملائكة الّذين يقبضون الأرواح لأنّ عند مشاهدة الموت لا يشاهدون الكفّار إلّا إيّاهم أو الخطاب والمسألة من الله والجمع للتعظيم، كقول الشاعر:

«فإن شئت حرّمت النساء سواكم»

۱ـ الكافي، ج ۲، ص ۲۱۸؛ وبحار الأنوار، ج ۷۲، ص ۳۹۸.

۲ـ سورة القصص: ۹.

وعلى القول الأوّل من الأقوال فكأنّه يجعل ذكر الربّ للقسم أي: بحقّ الربّ ارجعوني؟ فإن قيل: كيف يسألون الرجعة وقد علموا صحّة الدين بالضرورة من الدين أن لا رجعة. فالجواب أنّه وإن كان الأمر كذلك لكن لا يمتنع أن يسألوه لأنّ الاستغاثة تقع عند الشدّة ولو حال اليأس ولذلك أتوا مسؤولهم بكلمة الشكّ بقولهم «لعلّي» وأوردوا الكلام الّذي للترجّي مع كونهم جازمين بأنّهم يتدارسونه كون ولا يتداركون كما قال اللّه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[1].

والمراد من قوله: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي: فيما خلّفت من المال لأتدارك فيما تركت من أداء حقوقها الواجبة من اللّه ومن الناس وكذلك لأداء العبادات المتروكة الفائتة كأنّهم تمنّوا الرجعة لإصلاح ما أفسدوا ويطيعوا في كلّ ما عصوا.

قال الصادق عليه السلام في مانعي الزكاة: «يسأل الرجعة عند الموت».[2]

وهذا البيان على قول الأكثرين من أنّه راجع إلى حال الكفّار لكن قال الضحّاك: كنت جالساً عند ابن عبّاس فقال: ذلك قول من لم يزكّ ولم يحجّ يسأل الرجعة عند الموت فقال رجل: إنّما يسأل ذلك الكفّار فقال ابن عباس: أنا أقرأ عليك به قرآناً قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾[3] قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «إذا حضر الإنسان الموت جمع كلّ شيء كان يمنعه من حقّه بين يديه فيقول عنده: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ الآية».[4]

١ـ سورة الأنعام: ٢٨.

٢ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٠٨.

٣ـ سورة المنافقون: ١٠.

٤ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ١١٩؛ وانظر: تفسير الآلوسي، ج ١٨، ص ٦٤.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فيقول الله سبحانه في جوابهم كلمة المنع والردع بما طلبوا كما يقال لطالب الأمر المستبعد: هيهات، في الحديث إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعائشة: «إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا له: نرجعك إلى الدنيا فيقول المؤمن: إلى دار الهموم والأحزان؟ لا بل قدوما على الله وأمّا الكافر فيقال له: نرجعك فيقول: ارجعوني فيقال له: إلى أيّ شيء ترغب إلى جمع المال أو غرس الغراس أو بناء البنيان أو شقّ الأنهار؟ فيقول: لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت! فيقول الجبّار: كلّا».[1]

﴿هُوَ قَآئِلُهَا﴾ أي: إنّه قائلها ولا حقيقة لها فقط يقوله بلسانه وقيل: معناه: إنّه قائل وحده هذه الكلمة ولا يسمع منه ولا يجاب عنه وقيل: معناه: إنّه لا يسكت عن هذه الكلمة لاستيلاء الحسرة عليه ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ أي: ومن أمامهم مانع وحاجز إلى الرجوع ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ويوم يبعثون إلى القيامة لا إلى الدنيا فليس لهم رجوع والجمع باعتبار المعنى لأنّ الكلّ في هذا الحكم مشتركون كما أنّ الإفراد في الضمائر الأول باعتبار اللفظ وهذا الكلام إقناط كلّيّ عن الرجوع إلى الدنيا والوراء يطلق على الأمام لأنّ معناه ما ستر ووري عنك والأمام كذلك مستور عن الإنسان كما أنّ الخلف مستور.

القمي: البرزخ أمر بين أمرين وهو الثواب والعقاب بين الدنيا والآخرة وهو قول الصادق عليه السلام: «والله ما أخاف عليكم إلّا البرزخ وأمّا إذا صار الأمر إلينا فنحن أولى بكم»[2] وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام أنّه قيل له: إنّي سمعتك وأنت تقول: كلّ شيعتنا في الجنّة على ما كان منهم؟ قال عليه السلام: «صدقتك كلّهم والله في الجنّة»، قيل: إنّ الذنوب كثيرة كبار فقال عليه السلام: «أمّا في القيامة فكلّكم أجمعون

۱ـ تفسير الرازي، ج ۲۳، ص ۱۲۰؛ وانظر: تفسير الثعلبي، ج ٤، ص ١٦٢.

۲ـ تفسير القمي، ج ۲، ص ۹٤؛ وبحار الأنوار، ج ٦، ص ۲۱٤.

بشفاعة النبيّ المطاع أو وصي النبيّ ولكنّي والله أتخوف عليكم في البرزخ». قيل: وما البرزخ؟ فقال: «القبر منذ حين موته إلى يوم القيامة».[١] وفي «الخصال» عن السجادعليه السلام أنّه تلا هذه الآية وقال: «هو القبر وإنّ لهم معيشة ضنكاً والله إنّ القبر لروضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران».[٢]

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن
ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ
وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا
تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾
رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا
تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا
وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم
مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾

ثمّ بيّن سبحانه حال الفريقين وحال ذلك اليوم الّذي فيه يبعثون.

وفي الصور أقوال: أحدها: وهو الصحيح آلة إذا نفخ فيها يظهر صوت عظيم جعله الله لوقت إعادة الخلق وينفخ فيه إسرافيل وهو قول أكثر المفسّرين. وقيل: نفخ الصعق جعلها الله علامة لخراب الدنيا. وقيل: نفخة البعث فحينئذ النفخة نفختان وقرئ في الصور محرّكة جمع صورة أي: إذا نفخ فيه الأرواح وأعيدت أحياء.

١ـ الكافي، ج ٣، ص ٢٤٢ وبحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٦٧.

٢ـ الخصال، ص ١٢٠.

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: لا يتواصلون بالأنساب ولا يتعاطفون بها مع معرفة بعضهم بعضاً ولا يرحم قريب قريبه يشغله عنه من الخوف والدهشة وحاصل المعنى أنّه لا يفضّل بعضهم بعضاً يومئذ بنسب وإنّما يتفاضلون بأعمالهم قال النبيّ ﷺ: **«كلّ حسب ونسب منقطع يوم القيامة إلّا حسبي ونسبي»**.[١]

﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يسأل أحد عن حال أحد كما يسألون في الدنيا يشغل كلّ واحد بنفسه ولا تنافي بين هذا القول مع قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾[٢] لأنّ مواقف القيامة كثيرة ثمّ إنّ الّذين يتساءلون لعلّ بعض أهل الجنّة ويتساءلون عند دخولها فإنّهم لا يفزعون من أهوال يوم القيامة أو فرغوا من فزعها والمراد في الآية نفي آثار النسب وحكمه لا نفي النسب في الحقيقة وذلك بيان الخوف الشديد الطاري عليهم.

قال ابن مسعود: (يؤخذ العبد والأمّة يوم القيامة على رؤوس الأشهاد وينادي مناد: ألا إنّ هذا فلان فمن له حقّ عليه فليأت إلى حقّه فتفرح المرأة حينئذ أن يثبت لها حقّ على أمّها أو أختها أو أبيها أو أخيها أو ابنها أو زوجها فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ولا شيء أبغض إلى الإنسان يوم القيامة من أن يرى من يعرفه مخافة أن يثبت له عليه شيء ثمّ تلا: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾[٣])، قال ﷺ: **«ثلاث مواطن تذهل فيها كلّ نفس: حين يرمى إلى كلّ إنسان كتابه وعند الموازين وعلى جسر جهنّم»**.[٤]

ثمّ بيّن سبحانه أنّ بعد النفخ في الصور تكون المحاسبة فشرح أحوال

١ـ الخصال، ص ٥٥٩؛ وعوالي اللئالي، ج ١، ص ٣٠٢.

٢ـ سورة الصافات: ٢٧.

٣ـ سورة عبس: ٣٤ و٣٥.

٤ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ١٢٢.

السعداء والأشقياء ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بالطاعات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الناجون أي: من أتى بما له قدر وخطر فهو الفائز ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ ومن أتى بما لا وزن له كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[1] وهو خالد في جهنّم والموازين جمع موزون وهي الموزونات من الأعمال الصالحة الّتي لها وزن وقدر. وبالجملة من ثقلت حسناته فإلى الجنّة ومن ثقلت سيّئاته فإلى النار.

والأشقياء وصفهم الله بأمور أربعة: أحدها: أنّهم خسروا أنفسهم وغبنوها بأن صارت منازلهم للمؤمنين وامتنع انتفاعهم بأنفسهم لكونهم في العذاب. وثانيها: خالدون في جهنّم وثالثها: قوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تضرب وتأكل جلودهم ولحومهم واللفح والنفخ في المعنى واحد إلّا أنّ اللفح أشدّ تأثيراً من النفخ وهو ضرب من السموم للوجه ورابعها: قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ والكلوح تقلّص الشفتين عن الأسنان حتّى تبدو الأسنان كما ترى الرؤوس المشويّة وعن النبيّ ﷺ أنّه قال: **«تشويه النار فتتقلّص شفته العليا حتّى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتّى تبلغ سرّته».**[2] وقرئ كلحون.

ثمّ إنّه سبحانه لمّا شرح عذابهم حكى ما يقال لهم عند ذلك تقريعاً وتوبيخاً ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: أو لم يكن القرآن يقرأ عليكم أو حججي وبيّناتي تقرأ عليكم في دار الدنيا فكذّبتموها فلا جرم صرتم مستحقّين لما أنتم فيه من العذاب الأليم والآية صريحة دالّة على أنّهم إنّما وقعوا في ذلك العذاب بسوء أفعالهم ولو كان فعل العباد بخلق

١ـ سورة النور: ٣٩.

٢ـ الكشاف، ج ٣، شرح ص ٤٣؛ ومسند أحمد، ج ٣، ص ٨٨.

الله كما زعم الأشاعرة لما صحّ ذلك.

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ ثمّ اعتذروا وذكروا ما يجري مجرى الجواب عنه بأن غلبت الشقاوة وسوء العاقبة وحال الشقاء وطلبنا اللّذّات المحرّمة وحرصنا على الأعمال القبيحة فأطلق اسم المسبّب على السبب والمعنى استعلى علينا سيّئاتنا الّتي أوجبت لنا الشقاوة وكنّا قوماً ذاهبين عن الحقّ ومن أكثر الشقاوة أن يترك عبادة الله إلى عبادة غيره.

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: ابعدوا بعد الكلب وهذه الكلمة زجر وطرد للكلاب وهذه الكلمة بقولهم: ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ آخر كلام يتكلّم به أهل النار ثمّ بعد ذلك يكون لهم شهيق كشهيق الحمار ويقال لهم: اخسئوا ولا تكلّمون في دفع العذاب فإنّه لا يرفع عنكم ولا يخفّف ثمّ لا كلام بعد ذلك إلّا الشهيق والعواء كعواء الكلب و«لا تكلّمون» بصيغة النهي وليس بنهي لأنّ الأمر والنهي مرتفعان في الآخرة لارتفاع التكليف.

قال ابن عبّاس: (إنّ لأهل النار ستّ دعوات إذا دخلوا النار قالوا ألف سنة: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾[1] فيجابون: ﴿حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾[2] فينادون ألف سنة ثانية: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾[3] فيجابون: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾[4] فينادون ألف ثالثة: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[5] فيجابون ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾[6] فينادون ألفاً رابعة: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا

١ـ سورة السجدة: ١٢.

٢ـ سورة السجدة: ١٣.

٣ـ سورة غافر: ١١.

٤ـ سورة غافر: ١٢.

٥ـ سورة الزخرف: ٧٧.

٦ـ سورة الزخرف: ٧٧.

ظَٰلِمُونَ ﴾[1] فيجابون: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾[2] فينادون ألفاً خامسة: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾[3] فيجابون: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم ﴾ ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾[4] فينادون ألفاً سادسة: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾[5] فيجابون: فيجابون: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾)[6]

ثمّ وصف سبحانه ما لأجله حلّ بهم العذاب وعذّبوا وبعدوا من الخير ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى ﴾ أي: طائفة من عبادي وهم الأنبياء أو المؤمنون ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ أي: كانوا يدعون بهذه الدعوة في الدنيا طلباً لما عندي من ثواب الآخرة ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ ﴾ أنتم يا معشر الكفّار ﴿سِخْرِيًّا ﴾ كنتم تهزءون وتسخرون منهم.

﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى ﴾ بتشاغلكم بهم في الاستهزاء عن ذكري فنسب الإنساء إلى المؤمنين وإن لم يفعلوا لمّا كانوا السبب في ذلك ومن فرط اشتغالكم باستهزائهم حين ما يقول المؤمنون كلمة ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ﴾ نسيتم ذكري وكذّبتم هذا اليوم، وكانوا يؤذون المؤمنين مثل أصحاب الصفّة وقيل: يستعبدون الفقراء والضعفاء والصعاليك من المؤمنين مثل بلال وخباب وعمّار وصهيب ويصرفونهم في أعمالهم الشاقّة وحوائجهم كرها بغير أجر وكان رؤساء قريش مثل أبي جهل وعتبة وأبيّ بن خلف يقولون: انظروا إلى هؤلاء رضوا من الدنيا بالعيش الدنيء طمعاً في ثواب الآخرة وليس وراءهم آخرة

١ـ سورة المؤمنون: ١٠٧.

٢ـ سورة إبراهيم: ٤٤.

٣ـ سورة فاطر: ٣٧.

٤ـ سورة فاطر: ٣٧.

٥ـ سورة المؤمنون: ٩٩.

٦ـ سورة المؤمنون: ١٠٨.

ولا ثواب وهذا معنى النسيان من الذكر.

وأكّد سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ وهذا العذاب جزاء ضحككم وتكذيبكم يوم القيامة وأمّا جزاء المؤمنين:

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)﴾

ثمّ أخبر سبحانه حال المؤمنين الصابرين في استهزاء الكفّار في دار الدنيا فقال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ﴾ بصبرهم على أذاكم وسخريّتكم بهم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: الظافرون بما أرادوا والناجون في الآخرة والمراد بقوله ﴿الْيَوْمَ﴾ أيام الجزاء لا يوم بعينه.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى. للكفّار يوم البعث وهو سؤال توبيخ لمنكري البعث: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ أي: في الدنيا أو في القبور وقيل: الضمير في ﴿قَالَ﴾ راجع إلى الملك أو بعض رؤساء أهل النار لأنّهم كانوا ينكرون الآخرة ويقولون: اللبث في الدنيا ولا إعادة بعد الموت فلمّا حصلوا في النار وأيقنوا أنّها دائمة سألهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ تنبيهاً لهم على أنّ ما ظنّوه دائماً فهو يسير بالنسبة إلى ما أنكروه فحينئذ تزداد حسرتهم على ما كانوا يعتقدونه في الدنيا حيث أيقنوا خلافه.

فإن قيل: كيف يصحّ في جوابهم أن يقولوا ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ولا يقع من أهل النار الكذب؟ لأنهم نسوا من كثرة العذاب وقد اعترفوا بالنسيان حيث قالوا: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ وقيل: المراد من قولهم يوماً أو بعض يوم من أيام الآخرة والعادّين يعني: الملائكة الحفظة الّذين يحصون أعمال العباد وقيل: المراد أهل الحساب الملائكة الّذين يعدّون الأيّام وعدد تنفّس الخلائق.

﴿قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال الله: ما مكثتم إلّا يسيراً من الزمان لأنّ مكثهم في الدنيا أو في القبور وإن طال فإنّه قليل بالإضافة إلى طول مكثهم في عذاب جهنّم ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ صحّة ما أخبرناكم به أو المعنى: لو كنتم تعلمون قصر أعماركم وطول مكثهم في العذاب لما اشتغلتم بالكفر والمعاصي.

ثمّ قال سبحانه لهم: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ معاشر الجاحدين ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا﴾ أي: لعباً وباطلاً لا لغرض وحكمة مثل قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[1] ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ وزعمتم عدم رجوعكم إلينا وليس الأمر كما زعمتم.

ثمّ برّأ سبحانه نفسه عن العبث واللغو فقال: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ من أن يفعل شيئاً عبثاً والملك الحقّ الّذي يحقّ له الملك لأنّ كلّ مالك غيره فهو مستعير منه وهو صاحب الملك ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ وهو خالق السرير الأعظم والكريم هاهنا صفة العرش أي: كثير الخير وقد وصف العرش به لأنّ إتيان الخير من جهته ولكثرة ما فيه من الخير لمن حوله من الملائكة وخصّ بالذكر مع كونه ربّ كلّ شيء تعظيماً له

ـــــــــــــــ

١ـ سورة القيامة: ٣٦.

كقوله: «رَبُّ هذَا الْبَيْتِ»

قال أبو مسلم: والعرش هاهنا السماوات بما فيها مع العرش الّذي يطوف الملائكة حوله.

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ ﴾ لمّا بيّن أنّه سبحانه هو الملك الحقّ لا إله إلّا هو أتبعه بأنّ من ادّعى إلهاً آخر فقد ادّعى باطلاً من حيث لا برهان لهم فيه ونبّه بذلك على أنّ كلّ ما لا برهان فيه لا يجوز إثباته وذلك يوجب صحّة النظر وفساد التقليد.

ثمّ قال سبحانه: إنّ من كان كذلك وأشرك مع اللّه إلهاً آخر ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ فكأنّه قال: إنّ عقابه بلغ إلى حيث لا يقدر أحد على حسابه إلّا اللّه وحسابه عدم الفلاح كما أنّ للمؤمنين الفلاح، فشتّان بين فاتحة السورة وخاتمة السورة.

ثمّ بعد بيان حال المؤمنين والكافرين أمر نبيّه بالانقطاع إليه والطلب إلى غفرانه ورحمته فإنّهما العاصمان عن كلّ المخافات والآفات بقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ وروي أنّ أوّل السورة وآخرها من كنوز العرش من عمل بثلاث آيات من أوّلها واتّعظ بأربع من آخرها فقد نجا وأفلح.[1]

تمّت السورة بحمد اللّه.

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ١٢٨؛ وتفسير أبي السعود، ج ٦، ص ١٥٤.

سُورَةُ النُّورِ

مدنية، عن أبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: **«من قرأ سورة النور أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كلّ مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي»**.[1]

وروى الحاكم أبو عبد الله في الصحيح عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«لا تنزلوهنّ الغرف ولا تعلّموهنّ الكتابة وعلّموهنّ الغزل وسورة النور»**.[2]

وروى عبد الله بن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«حصّنوا أموالكم وفروجكم بتلاوة سورة النور وحصّنوا بها نساءكم فإنّ من أدمن في قراءتها في كلّ ليلة أو في كلّ يوم لم يزن أحد من أهل بيته أبداً حتّى يموت فإذا مات شيّعه إلى قبره سبعون ألف ملك يدعون ويستغفرون الله له حتّى يدخل إلى قبره»**.[3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢١٦. والكشاف، ج ٣، شرح ص ٨٠.

٢ـ انظر: مستدرك الوسائل، ج ١٤، ص ٢٥٩؛ ومستدرك سفينة البحار، ج ١٠، ص ٥٢.

٣ـ ثواب الأعمال، ص ١٠٩؛ ووسائل الشيعة، ج ٤، ص ٨٩٠.

أي: هذه سورة وقطعة من القرآن من السور. وقرئ «سورة» بالنصب و«فرضناها» قرئ بالتشديد أي: أوجبناها عليكم العمل بها وعلى من بعدكم إلى يوم القيامة وقدّرنا فيها الحدود.

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أنزلنا في هذه السورة دلالات واضحات على وحدانيّتنا وكمال قدرتنا لكي تتذكّرون وتعلموا بما فيها من الحدود والأحكام فابتدأ بحكم الزنا فقال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ مرفوعة على الابتداء والخبر ﴿فَٱجْلِدُوا﴾ أي: من زنت من النساء وزنى من الرجال فيفيد العموم في الجنس ﴿فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ وإنّما دخلت الفاء لكون الألف واللّام بمعنى الّذي وتضمّنه معنى الشرط كما يقول: من زنى فاجلدوه وقرئ «والزان» بلا ياء.

القميّ: هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾[1] وفي «الكافي» عن الباقر عليه السلام: **«وسورة النور أنزلت بعد سورة النساء وتصديق ذلك أنّ الله سبحانه بيّن في سورة النساء بقوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ والسبيل الّذي قال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا ـ إلى قوله ـ طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾».**[2]

وفي «التهذيب» عن الصادق عليه السلام: **«الحرّ والحرّة إذا زنيا جلد كلّ واحد منهما مائة جلدة فأمّا المحصن والمحصنة فعليهما الرجم».**[3] وبالجملة فالجلد إذا كانا حرّين بالغين غير محصنين وأمّا إذا كانا محصنين أو كان أحدهما محصنا كان

١ـ سورة النساء: ١٤.

٢ـ الكافي، ج ٢، ص ٣٣.

٣ـ التهذيب، ج ١٠، ص ٣؛ ووسائل الشيعة آل البيت ج، ٢٠، ص ٣١٦.

عليه الرجم بلا خلاف والإحصان هو أنّ له فرج يغدو إليه ويروح على وجه الدوام ويكون حرّاً فأمّا العبد فلا يكون محصناً وكذلك الأمّة لا تكون محصنة وإنّما عليها نصف الحدّ خمسون جلدة لقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾[1].

وعنه عليه السلام في «الكافي» سئل عن المحصن فقال: **«الّذي يزني وعنده ما يغنيه»**.[2] وعن الكاظم عليه السلام أنّه سئل عن الجارية أتحصن قال: **«نعم إنّما هو على وجه الاستغناء»**.[3] قيل: المتعة؟ قال: **«لا إنّما ذلك على الشيء الدائم»**.

وعن الصادق عليه السلام: **«لا يرجم الرجل ولا المرأة حتّى يشهد عليهما أربعة شهداء على الجماع والإيلاج كالميل في المكحلة»**.[4]

وعن الأصبغ بن نباتة إنّ عمر اتي بخمسة نفر أخذوا في الزنا فأمر أن يقام على كلّ واحد منهم وكان أمير المؤمنين عليه السلام حاضراً فقال: **«يا عمر ليس هذا حكمهم»**. قال عمر: فأقم أنت الحدّ عليهم، فقدّم عليه السلام واحداً منهم فضرب عنقه، وقدّم الآخر فرجمه، وقدّم الثالث فضرب الحدّ مائة جلدة، وقدّم الرابع فضربه نصف الحدّ، وقدّم الخامس فعزّره ؛ فتحيّر عمر وتعجّب الناس من فعله فقال له: يا أبا الحسن خمسة نفر في قضيّة واحدة أقمت عليهم خمسة حدود ليس شيء منها يشبه الآخر؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: **«أمّا الأوّل فكان ذمّياً فخرج عن ذمّته لم يكن له حدّ إلّا السيف، فأمّا الثاني فرجل محصن كان حدّه الرجم وأمّا الثالث فغير محصن فحدّه الجلد وأمّا الرابع فعبد ضربناه نصف الحدّ وأمّا**

١ـ سورة النساء: ٢٥.

٢ـ الكافي، ج ٧، ص ١٧٨؛ والاستبصار، ج ٤، ص ٢٠٤.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ انظر: الكافي، ج ٧، ص ١٨٤؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٢٤.

الخامس فمغلوب على عقله».[1]

والقميّ مثله إلّا أنّه قال: ستّة نفر قال: وأطلق السادس ثمّ قال: «**وأمّا الخامس فكان منه ذلك الفعل بالشبهة فعزّرناه والسادس مجنون فأطلقناه**».[2]

ويضرب الرجل الحدّ قائماً والمرأة قاعدة ويترك الرأس والمذاكير. وسئل عنه عليه السلام: كيف يجلد؟ قال عليه السلام: «**أشدّ الجلد**» فقيل له: فوق الثياب فقال: «**لا بل يجرّد**».[3] وباقي فروعات المسألة تطلب من الكتب الفقهيّة وإنّما قدّم ذكر الزانية على الزاني لأنّ الزنى منهنّ أشنع وأعير وهو لأجل الحبل أضرّ وأفسد. ﴿فَٱجْلِدُوا﴾ خطاب للأئمّة ومن يكون منصوباً من جهتهم للأمر لأنّه ليس لأحد أن يقيم الحدود إلّا للأئمّة ومن ناب عنهم فيشمل العلماء العاملين في زمان الغيبة لأنّ لهم التصرّف في الأمور.

واعلم أنّ الزنا حرام وهو من الكبائر ويدلّ عليه أمور:

أحدها: أنّ الله قرنه في الذكر بعد الشرك وقتل النفس في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[5].

وثانيها: أنّه تعالى أوجب المائة فيها بكمالها بخلاف حدّ القذف وشرب الخمر وشرع فيه الرجم ونهى المؤمنين عن الرأفة وأمر بشهود الطائفة للتشهير.

وثالثها: ما روى حذيفة عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**يا معشر الناس اتّقوا الزنى**

١ـ وسائل الشيعة، ج ٢٨، ص ٦٦؛ والصافي، ج ٣، ص ٤١٥.

٢ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ٩٦، تفسير الصافي، ج ٣، ص ٤١٥.

٣ـ الكافي، ج ٧، ص ١٨٣؛ والتهذيب، ج ١٠، ص ٣١.

٤ـ سورة الفرقان: ٦٨.

٥ـ سورة الإسراء: ٣٢.

فإنّ فيه ستّ خصال: ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة أمّا الّتي في الدنيا: فيذهب البهاء، ويورث الفقر، وينقص العمر وأمّا الّتي في الآخرة: فسخط الله وسوء الحساب وعذاب النار».[١]

وعن عبد الله ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله أيّ الذنب أعظم عند الله؟ قال ﷺ: **«أن تجعل لله ندّا وهو خلقك»**. قلت: ثمّ أي؟ قال ﷺ: **«وأن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك»**. قلت ثمّ أي؟ قال ﷺ: **«وأن تزني بحليلة جارك»** فأنزل الله تصديقها ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ...﴾[٢][٣].

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ المعنى: إن كنتم تصدّقون بالله وتقرّون بالبعث والنشور فلا تأخذكم بهما رأفة ورحمة تمنعكم إقامة الحدّ عليهما وقيل: معناه: لا تأخذكم بهما رأفة تمنع من الجلد الشديد وتضربون بحيث لا يوجع بل أوجعوها ولا تخفّفوا في الضرب كما يخفّف في حدّ الشارب. ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي: حكم الله وطاعته وهو كقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾[٤].

والغرض من هذا البيان من باب التهييج والغيرة لله تعالى ودينه وكفى برسول الله ﷺ أسوة في ذلك حيث قال ﷺ: **«لو سرقت فاطمة بنت محمّد لقطعت يدها»**.[٥]

وهذا يدلّ على أنّ الاشتغال بأداء الواجبات من الإيمان بخلاف ما تقوله المرجئة ولابدّ أن يكون المؤمن بطبعه راغباً إلى ما حكم الله به ولا

١ـ تفسير الثعلبي، ج ٧، ص ٦٤؛ وتفسير القرطبي، ج ١٢، ص ١٦٧.

٢ـ سورة الفرقان: ٦٨.

٣ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٣١٢؛ وانظر: مستدرك الوسائل، ج ١٤، ص ٣٣٢.

٤ـ سورة يوسف: ٧٦.

٥ـ سنن النسائي، ج ٨، ص ٧٤؛ والسنن الكبرى، ج ٤، ص ٣٣٤.

يكون مائلاً بأن لا يقام حدود الله فيكون حينئذ منكراً للدين فيخرج عن الإيمان. وفي الحديث: **«يؤتى بوالٍ نقص من الحدّ سوطاً فيقال له: لم فعلت ذاك؟ فيقول: رحمة لعبادك فيقال له: أنت أرحم لهم منّي؟ فيؤمر به إلى النار ويؤتى بمن زاد سوطاً فيقال له: لم فعلت ذاك؟ فيقول: لينتهوا عن معاصيك فيقول: أنت أحكم به منّي فيؤمر به إلى النار».**

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وليحضر حال إقامة الحدّ عليهما جماعة من المؤمنين وهم ثلاثة فصاعداً، وقيل: الطائفة رجلان فصاعداً، وقيل: أقلّه رجل واحد وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام.[1] ويدلّ على صحّة هذا القول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾[2] وهذا الحكم يثبت للواحد كما يثبت للجمع وقيل: أقلّها أربعة لأنّ أقلّ ما يثبت به الزنى أربعة. وقيل: ليس لهم عدد محصور بل هو موكول إلى رأى الإمام والمقصود حصول العبرة وانزجار الناس عن المعصية ورفع التهمة عمّن يجلد.

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ في «الصافي» القمّيّ: هو ردّ على من يستحلّ التمتّع بالزواني والتزويج بهنّ وهنّ المشهورات في الزنا لا يقدر الرجل على تحصينهنّ قال: ونزلت هذه الآية في نساءكنّ فاحشات مستعلنات بالزنا: سارة وخيثمة والرباب كنّ يغنّين بهجاء رسول الله صلى الله عليه وآله فحرّم الله نكاحهنّ وجرت بعدهنّ في النساء أمثالهنّ.[3]

وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال: «نساءكنّ

١ـ التبيان، ج ٧، ص ٤٠٦؛ ومجمع البيان، ج ٧، ص ٢٢٠.

٢ـ سورة الحجرات: ٩.

٣ـ الصافي، ج ٣، ص ٤١٦؛ وتفسير القمي، ج ٢، ص ٩٥.

مشهورات بالزنا ورجال مشهورون بالزنا شهروا وعرفوا به والناس اليوم بتلك المنزلة فمن أقيم عليه حدّ الزنا أو شهر به لم ينبغ لأحد أن يناكحه حتّى يعرف منه التوبة».[1]

وعنه عليه السلام: «إنّما ذلك في الجهر» ثمّ قال: «لو أنّ إنساناً زنى ثمّ تاب تزوّج حيث يشاء».[2]

وعن الباقر عليه السلام: «هم رجال ونساء كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مشهورين بالزنا فنهى الله عن أولئك الرجال والنساء والناس اليوم على تلك المنزلة من شهر شيئاً من ذلك أو أقيم عليه الحدّ فلا تزوّجوه حتّى تعرف توبته».[3] وعنه عليه السلام في حديث: «أنّها نزلت بالمدينة».[4]

وبالجملة في «المجمع»: اختلف في تفسيره على وجوه ـ وظاهر الآية خبر ولكنّ المراد النهي في الآية ـ :

الوجه الأوّل: أنّ المراد بالنكاح العقد ونزلت الآية على سبب وهو أنّ رجلاً من المسلمين استأذن النبي صلى الله عليه وآله في أن يتزوّج أمّ مهزول وهي امرأة كانت تسافح ولها راية على بابها تعرف بها فنزلت الآية. عن عبد الله بن عبّاس والزهريّ وجماعة ويؤيّده ما روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنّهما قالا: هم رجال ونساء كانوا على عهد رسول الله مشهورين بالزنى فنهى الله عن أولئك الرجال والنساء والناس اليوم على تلك المنزلة فمن شهر بشيء من ذلك فلا تزوّجوه حتّى تعرف توبته.

وثانيها: أنّ النكاح هنا الجماع والمعنى أنّهما اشتركا في الزنى أي:

١ـ الكافي، ج ٥، ص ٣٥٤ ومن لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٤٠٦.

٢ـ الكافي، ج ٥، ص ٣٥٥؛ ووسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٣٣٦.

٣ـ الكافي، ج ٥، ص ٣٥٥؛ ومجمع البيان، ج ٧، ص ٢٢٠.

٤ـ الصافي، ج ٣، ص ٤١٧.

الزانية مثل الزاني فيكون المعنى نظير قوله: ﴿ لْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ ﴾[١].

وثالثها: أنّ هذا الحكم كان في كلّ زان وزانية ثمّ نسخ بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ.... ﴾[٢].

ورابعها: أنّ المراد به العقد وذلك الحكم ثابت فمن زنى بامرأة فإنّه لا يجوز له أن يتزوّج بها.[٣]

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: حرّم نكاح الزانيات أو حرّم الزنى على المؤمنين فلا يتزوّج بهنّ أولا يطأهنّ إلّا زان أو مشرك وإنّما قرن سبحانه بين الزاني والمشرك تعظيماً لأمر الزنى وتفخيما لحرمته ولا يجوز أن يكون هذه الآية خبرا لأنّا نجد الزاني يتزوّج غير الزانية.

قال الرازيّ: وإنّما قال سبحانه: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ من وجهين:

أحدهما: أنّ نكاح المؤمن الممدوح عند الله الزانية ورغبته فيها وانخراطه بذلك في سلك الفسقة المتّسمين بالزنا محرّم عليه لما فيه من التشبّه بالفسّاق وحضور مواضع التهمة والتسبّب بسوء المقالة في حقّه والغيبة ومجالسة الخاطئين كم فيها من التعرّض لاقتراف الآثام فكيف بمزاوجة الزواني والفجّار.

الثاني: وهو أنّ صرف الرغبة بالكلّيّة إلى الزواني وترك الرغبة في الصالحات محرّم على المؤمنين لأنّ قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً ﴾ معناه أنّ الزاني لا يرغب إلّا في الزانية فهذا الحصر محرّم على المؤمنين ولا يلزم من حرمة هذا الحصر حرمة التزوّج بالزانية.

١ـ سورة النور: ٢٦.

٢ـ سورة النور: ٣٢.

٣ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٢٠.

ثمّ ذكر الرازيّ وجها آخر وهو أنّ الألف واللّام في قوله: ﴿ٱلزَّانِي﴾ وفي قوله ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وإن كان للعموم ظاهر لكنّه هاهنا مخصوص بالأقوام الّذين نزلت هذه الآية فيهم.[1]

قال مجاهد وعطا بن رياح وقتادة: قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء وليس لهم أموال ولا عشائر وبالمدينة نساء بغايا يكرين أنفسهنّ وهنّ يومئذ أخصب أهل المدينة ولكلّ واحدة منهنّ علامة على بابها كعلامة البيطار لتعرف أنّها زانية وكان لا يدخل عليها إلّا زان أو مشرك فرغب في كسبهنّ ناس من فقراء المسلمين وقالوا: نتزوّج بهنّ إلى أن يغنينا الله عنهنّ فاستأذنوا النبيﷺ فنزلت هذه الآية.

وتقدير الآية أولئك الزواني لا ينكحون إلّا تلك الزانيات وتلك الزانيات لا ينكحن إلّا أولئك الزواني وحرّم نكاحهنّ بأعيانهنّ على المؤمنين.

وقيل: إنّ قوله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ وإن كان في الظاهر خبراً لكنّ المراد النهي والمعنى أنّ كلّ من كان زانياً فلا ينبغي أن ينكح إلّا زانية وحرّم ذلك على المؤمنين وهكذا كان الحكم في ابتداء الإسلام ثمّ نسخ بعموم قوله: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[2] وقوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ﴾[3] واحتجّ الّذين يدّعون هذا النسخ عن النبيﷺ أنّه سئل عن ذلك فقال: «**أوّله سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرّم الحلال**».[4]

وإنّما قدّم الزانية على الزاني في الذكر في الآية الأولى وهاهنا بالعكس لأنّ الآية الأولى بيان العقوبة على الجناية والمرأة هي المادّة في الزنا وأمّا الآية

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ١٥٠.

٢ـ سورة النساء: ٣.

٣ـ سورة النور: ٣٢.

٤ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، ج٣، ص ٤٩.

الثانية بيان لذكر النكاح والرجل أصل فيه.

الحكم الثالث القذف:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾

لمّا تقدّم ذكر حدّ الزنى عقّبه بذكر حدّ القاذف بالزنى ولو أنّ ظاهر الآية لا يدلّ أي: شيء الّذي رموا به وذكر الرامي لا يدلّ على الزنى إذ قد يرميها بالسرقة أو بشرب الخمر أو بالكفر وقد أجمع العلماء على أنّ المراد الرمي بالزنا نعم في الآية بيان يدلّ عليه: أحدها تقدّم ذكر الزنا وكذلك ذكر المحصنات وهنّ العفائف فيدلّ ذلك على أنّ المراد بالرمي رميهنّ بضدّ العفاف، ثمّ قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ يعني: على صحّة ما رموهنّ به، ومعلوم أنّ هذا العدد من الشهود غير مشروط إلّا في الزنا على أنّ انعقد الإجماع بأنّه لا يجب الجلد بالرمي بغير الزنا فوجب أن يكون المراد هو الرمي بالزنى. وبالجملة فالآية تتعلّق بالرمي والراميّ والمرميّ.

وألفاظ القذف تنقسم إلى صريح وكناية وتعريض؛ أمّا القسم الأوّل وهو الصريح مثل أن يقول: يا زانية أو زنيت فلا شبهة بأنّه القذف ويردّ على القاذف أحكامه.

وأمّا الكناية فلا يكون قذفاً إلّا أن أراد به القذف. وأمّا التعريض بالقذف محتمل للقذف ولغيره فلا يجب الحدّ عليه لأنّ الأصل براءة الذمّة فلا يرجع عن الأصل بالشكّ والاحتمال ولقوله ﷺ: **«ادرءوا الحدود بالشبهات»**.[1]

١ـ من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٧٤؛ ووسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٣٣٦.

والحاصل: الّذين ينسبون العفائف من النساء بالزنى وحذف الدلالة الكلام عليه ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ على صحّة ما نسبوا إليهنّ يشهدون مع كونهم عدول أنّهم رأوهنّ يفعلن ذلك الأمر ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ أي: فاجلدوا الّذين يرمونهنّ بالزنا ﴿ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فنهى سبحانه عن قبول شهادة القاذف على التأبيد وحكم عليهم بالفسق.

ثمّ استثنى عن ذلك فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ القمّيّ عن الصادق عليه السلام: **«القاذف يجلد ثمانين جلدة ولا تقبل له شهادة أبداً إلّا بعد التوبة أو يكذّب نفسه وإن شهد ثلاثة وأبى واحد يجلد الثلاثة ولا يقبل شهادتهم حتّى يقول أربعة: رأينا مثل الميل في المكحلة ومن شهد على نفسه أنّه زنى لم تقبل شهادته حتّى يعيدها أربع مرّات»**.(١)

وفي «الكافي» و«التهذيب» أنّه عليه السلام سئل كيف تعرف توبته فقال: **«يكذّب نفسه على رءوس الخلائق حين يضرب ويستغفر ربّه فإذا فعل ذلك فقد ظهرت توبته»**.(٢) وعنه عليه السلام أنّه سئل عن الرجل يقذف الرجل فجلد حدّاً ثمّ يتوب ولا يعلم منه إلّا خيراً أتجوز شهادته؟ قال: **«نعم فما يقولون عندكم؟»** قيل: يقولون توبته فيما بين اللّه وبينه ولا يقبل شهادته أبداً. فقال: **«بئس ما قالوا: كان أبي يقول: إذا تاب ولم يعلم منه إلّا خيراً جازت شهادته»**.(٣)

وبالجملة منشأ الاختلاف في الاستثناء بأنّ هذا الاستثناء إلى ماذا يرجع قيل: إنّه يرجع إلى الفسق خاصّة دون قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ فيزول عنه اسم الفسق بالتوبة ولا يقبل شهادته إذا تاب بعد إقامة الحدّ عليه عن

١ـ انظر: وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٤٣٣؛ والبحار، ج ٧٦، ص ٣٥.

٢ـ الكافي، ج ٧، ص ٢٤١؛ ومن لايحضره الفقيه، ج ٣، ص ٦٠.

٣ـ الكافي، ج ٧، ص ٣٩٧؛ والتهذيب، ج ٦، ص ٢٤٥.

جماعة كالحسن وقتادة وشريح وإبراهيم وأبو حنيفة وأصحابه.

والقول الآخر أنّ الاستثناء يرجع إلى الأمرين فإذا تاب قبلت شهادته حدّ أولم يحدّ عن جماعة كابن عبّاس والوالبيّ ومجاهد والزهريّ ومسروق وعطا وطاوس وسعيد بن جبير والشعبيّ وهو اختيار الشافعيّ وأصحابه وكذلك قال أبو جعفر وأبو عبد الله عليهما السلام.(۱)

وقال الزجّاج: ليس القاذف بأشدّ جرما من الكافر والكافر إذا أسلم قبلت شهادته فالقاذف أيضاً حقّه إذا تاب أن تقبل شهادته. ويعضد هذا القول أن المتكلّم بالفاحشة لا ينبغي أن يكون أعظم جرما من مرتكبها ولا خلاف في العاهر أنّه إذا تاب قبلت شهادته.(۲)

وإذا كان القاذف عبداً أو أمة فعند فقهاء العامّة أكثرهم الحدّ أربعون وعند أصحابنا أنّ الحدّ ثمانون في الحرّ والعبد سواء. وظاهر الآية يقتضي ذلك وبه قال عمر بن عبد العزيز والقاسم بن عبد الرحمن.

مسألة لو قذفها القاذف مراراً فنظر فإن كان القاذف أراد بالتكرار زنية واحدة بأن قال: فلانة زنت بعمرو، وقاله مراراً لا يجب إلّا حدّ واحد، وإن قذفها بزنيات مختلفة بأن قال: زنت بزيد ثمّ قال: زنت بعمرو فهل يتعدّد الحدّ؟ ففيه عند فقهاء العامّة اختلاف في التعدّد والمرّة.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا

۱ـ مجمع البيان، ج ۷، ص ۲۲۲. والتبيان، ج ۷، ص ٤٠۹.

۲ـ مجمع البيان، ج ۷ ص ۲۲۲.

فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

لمّا تقدّم حكم القذف للأجنبيّات عقّبه بحكم القذف للزوجات.

سبب النزول: عن ابن عبّاس: (لمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ قال عاصم بن عديّ: يا رسول اللّه إن رأى رجل منّا مع امرأته رجلاً فأخبر بما رأى جلد ثمانين وإن التمس أربعة شهداء كان الرجل قد قضى حاجته ثمّ مضى قال ﷺ: **«كذا نزلت الآية يا عاصم»** فخرج سامعاً مطيعاً فلم يصل إلى منزله حتّى استقبله هلال بن أميّة يسترجع فقال: ما وراءك قال: شرّ، وجدت شريك بن سمحاء على بطن امرأتي خولة فرجع إلى النبيّ ﷺ وأخبر النبيّ هلال بالّذي كان فبعث النبيّ إليها فقال: **«ما يقول زوجك»**. فقالت: يا رسول اللّه إنّ شريك كان يأتينا فينزل بنا ويتعلّم الشيء من القرآن فربّما تركه زوجي وخرج فلا أدري أدركته الغيرة أم بخل عليّ بالطعام. فأنزل اللّه هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ....﴾. فقال النبيّ ﷺ: **«ابشر يا هلال فإنّ اللّه قد جعل فرجاً» فقال هلال**: قد كنت أرجو ذاك من اللّه. فقال النبيّ ﷺ: **«أرسلوا إليها فجاءت فلاعن بينهما فلمّا انقضى اللعان فرّق بينهما وقضى أنّ الولد لها ولا يدعى لأب ولا يرمى ولدها»**. ثمّ بعد ذلك قال رسول اللّه ﷺ: **«إن جاءت به كذا وكذا فهو لزوجها وإن جاءت به كذا كذا فهو للّذي قيل فيه»**).[1]

ومعنى الآية: الّذين ينسبون الزنى إلى زوجاتهم ولم يكن لهم شهداء يشهدون له على صحّة قولهم إلّا أنفسهم فشهادة أحدهم الّتي تدرأ حدّ القاذف أربع شهادات باللّه إنّه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنى ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ أي: الشهادة الخامسة: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٢٥؛ وبحار، ج ٢٢، ص٤٦.

فيما رماها به من الزنى أي: إنّ الرجل يقول أربع مرّات مرّة بعد أخرى: اشهد بالله إنّي لمن الصادقين فيما ذكرت عن هذه المرأة من الفجور فإنّ هذا حكم خصّ الله به الأزواج في قذف نسائهم فيقوم الشهادات الأربع مقام الشهود الأربعة في دفع حدّ القذف عنهم ثمّ يقول في المرّة الخامسة لعنة الله عليّ إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا. ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ أي: ويدفع عن المرأة حدّ الزنى وهو الرجم أن تقول المرأة أربع مرّات مرّة بعد أخرى: اشهد بالله إنّه لمن الكاذبين فيما قذفني به من الزنى والخامسة: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾ أي: وتقول في الخامسة: إنّ غضب الله عليّ ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما قذفني به من الزنى ثمّ يفرّق الحاكم بينهما ولا تحلّ له أبداً وكان عليها العدّة من وقت لعانها.

في «الكافي» عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال: **«هو القاذف الّذي يقذف امرأته فإذا قذفها ثمّ أقرّ أنّه كذب عليها جلد الحدّ وردّت إليه امرأته وإن أبى إلّا أن يمضي فليشهد عليها أربعة شهادات بالله إنّه لمن الصادقين والخامسة يلعن فيها نفسه إن كان من الكاذبين وإن أرادت أن تدرأ عن نفسها العذاب والعذاب هو الرجم شهدت أربع شهادات بالله إنّه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين فإن لم تفعل رجمت وإن فعلت درأت عن نفسها الحدّ ثمّ لا تحلّ له إلى يوم القيامة».**(١)

وبالجملة لمّا نزلت آية اللعان بعد غزوة تبوك وجاءه عويمر بن ساعدة وقال: يا رسول الله امرأتي زنى بها شريك بن سحماء كما ذكرنا سابقاً؛ فأحضر النبي صلى الله عليه وآله امرأته وكانت في شرف من قومها ؛ فجاء معها جماعة، فلمّا دخلت المسجد، قال النبي صلى الله عليه وآله لعويمر: **«تقدّم إلى المنبر والتعنا فالتعنا**

١ـ الكافي، ج ٦، ص ١٦٢؛ والاستبصار، ج ٣، ص ٣٧٠.

حسبما شرحناه سابقاً».[١]

ثمّ قال رسول اللّه ﷺ لزوجها «اذهب فلا تحلّ لك أبداً» قال: يا رسول اللّه فمالي الّذي أعطيتها؟ قال ﷺ: «إن كنت كاذباً فهو أبعد لك منه وإن كنت صادقا فهو لها بما استحللت من فرجها» ثمّ قال رسول اللّه ﷺ: «إن جاءت بالولد أحمش الساقين جعد قطط أنفس العينين فهو للأمر السيّئ وإن جاءت به أشهل أصهب فهو لأبيه» يقال: إنّها جاءت به على الأمر السيّئ.

وبالجملة فهي لا تحلّ لزوجها أبداً وإن جاءت بولد لا يرثه أبوه وميراثه لأمّه وإن لم تكن له امّ فميراثه لأخواله.

وعن الصادق عليه السلام في رجل أوقفه الإمام للعان فشهد شهادتين ثمّ نكل وأكذب نفسه قبل أن يفرغ من اللعان قال: «يجلد حدّ القاذف ولا يفرّق بينه وبين امرأته وإذا قذفها غيره أب أو أخ أو ولد أو قريب منه جلد الحدّ أو يقيم البيّنة على ما قال».[٢]

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ جواب لو محذوف وتقديره ولو لم يكن فضل عليكم بسبب النهي عن الزنا والفواحش وإقامة الحدود لتهالك الناس ولفسد النسل وانقطع الأنساب أو المعنى: ولو لا إفضال اللّه وإنعامه عليكم وأن اللّه عوّاد على من يرجع عن المعاصي بالرحمة حكيم فيما فرضه من الحدود لنال الكاذب منهما أي: من المتلاعنين عذاب عظيم ولعاجلكم بالعقوبة ولفضحكم بما تركبون من الفواحش.

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ

١ـ انظر: بحار الأنوار، ج ١٠١، ص ١٧٤؛ وتفسير القمي، ج ٢، ص ٩٨.

٢ـ الكافي، ج ٦، ص ١٦٣؛ والتهذيب، ج ١٠، ص ٧٦.

عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ
إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى
ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ
وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ
عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ
هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾

سبب النزول: في براءة ما قيل في زوجة النبيّ ﷺ، فعند أهل الجماعة أنّها عائشة، وعند الخاصّة أنّها مارية القبطيّة روى الزهريّ عن عروة بن الزبير وسعيد بن المسيّب وعلقمة بن أبي وقّاص وعبيد الله بن عبد الله بن عقبة بن مسعود كلّهم رووا عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه بأيّتهنّ خرج اسمها خرج بها معه قالت: أقرع بيننا في غزوة قبل غزوة بني المصطلق أو غزوة بني المصطلق من بني خزاعة فخرج فيها سهمي وذلك بعد ما أنزل الحجاب فخرجت مع رسول الله حتّى فرغ من غزوة وقفل قالت: ودنونا إلى المدينة فقمت حين أذّنوا بالرحيل فمضيت حتّى جاوزت الجيش فلمّا قضيت شأني وكنّا نخرج ليلاً وذلك قبل أن يتّخذ الكنيف وأمرنا أمر العرب الأوّل في التنزّه، وكنّا نتأذّى بالكنف أن نتّخذها عند بيوتنا أقبلت إلى الرجل فلمست صدري فإذا عقد من جذع قد انقطع فرجعت والتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الّذين كانوا يرحلونني فحملوا هودجي على بعيري الّذي كنت أركب ظنّا منهم أنّي فيه لحداثة سنّي وخفّتي فذهبوا بالبعير فلمّا رجعت لم أجد في المكان أحداً فجلست وقلت لعلّهم يعودون في طلبي فنمت وقد كان صفوان بن المعطّل

يمكث في العسكر يتّبع أمتعة العسكر فيحمله إلى المنزل الآخر لئلّا يذهب منهم شيء فلمّا رآني عرفني وقال: ما خلّفك عن الناس فأخبرته الخبر فنزل وتنحّى حتّى ركبت ثمّ قاد البعير وافتقدني الناس حين نزلوا وماج الناس في ذكري فبينا الناس كذلك إذ هجمت عليهم وخاضوا في حديثي وقدم رسول الله المدينة ولحقني وجع ولم أر منه ما عهدته من اللطف الّذي كنت أعرف منه حين أشتكي إنّما يدخل رسول الله ثمّ يقول: «**كيف تيكم**»، فذاك الّذي يريبني ولم أشعر بعد بما جرى حتّى نقهت فخرجت في بعض الليالى مع أمّ مسيطح لمهمّ لنا ثمّ أقبلت أنا وأمّ مسيطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أمّ مسيطح في مرطها فقالت: تعس مسيطح، فأنكرت ذلك وقلت: أتسبّين رجلاً شهد بدرا؟ فقالت: وما بلغك الخبر؟ فقلت: وما هو؟ فقالت: أشهد أنّك من المؤمنات الغافلاّت ثمّ أخبرتني بقول أهل الإفك ومنهم عبد الله بن أبيّ بن سلول وهو الّذي تولّى كبره ومسيطح بن أثاثه وحسّان بن ثابت وحمنة بنت جحش.

قالت عائشة[1]: فازددت مرضاً على مرضي فرجعت أبكي ثمّ دخل عليّ رسول اللهﷺ وقال: «**كيف تيكم؟**» فقلت: ائذن لي أن آتي أبويّ فأذن لي فجئت أبويّ وقلت لأمّي: يا أمّة ما ذا يتحدّث الناس؟ قالت: يا بنيّة هوني عليك فو الله لقلّما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبّها ولها ضرائر إلّا أكثرن القول عليها ثمّ قالت: ألم تكوني علمت ما قيل حتّى الآن؟ فأقبلت أبكي تلك الليلة ثمّ أصبحت فدخل عليّ أبي وأنا أبكي فقال لأمّي: ما يبكيها؟ لم تكن علمت ما قيل فيها حتّى الآن فأقبل يبكي. ثمّ قال:اسكتي يا بنيّة.

ودعا رسول اللهﷺ عليّاً وأسامة بن زيد واستشارهما في فراق أهله

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ١٧٥؛ وانظر: تفسير جامع البيان، ج١٨، ص١٢١.

فقال أسامة: يا رسول اللّه هم أهلك ولا نعلم إلّا خيراً وقال عليّ: **«لم يضيّق اللّه عليك والنساء سواها كثيرة وإن تسأل الجارية بريرة تصدقك»**. فدعا رسول اللّه ﷺ بريرة وسألها عن أمري قالت بريرة: يا رسول اللّه والّذي بعثك بالحقّ نبيّاً ما رأيت عليها أمراً قطّ أكثر من أنّها جارية حديثة السنّ تنام عن عجين أهلها حتّى تأتي الداجس فتأكله.(١)

قالت: فقام النبيﷺ خطيباً على المنبر فقال: **«يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي** ـ وهو يعني: عبد اللّه بن أبيّ ـ **فو اللّه ما علمت من أهلي إلّا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلّا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلّا معي»** فقام سعد بن معاذ فقال: أعذرك يا رسول اللّه منه إن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج فما أمرتنا فعلناه فقام سعد بن عبادة ـ وهو سيّد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن أخذته الحميّة ـ فقال لسعد بن معاذ: كذبت واللّه، لا تقدر على قتله فقام أسيد بن حضير وهو ابن عمّ سعد بن معاذ وقال: كذبت لعمر اللّه لنقتلنّه وإنّك لمنافق تجادل عن المنافقين فثار الحيّان الأوس والخزرج حتّى همّوا أن يقتتلوا، ورسول اللّه على المنبر فلم يزل يخفضهم حتّى سكنوا.

قالت عائشة: ومكثت يومي ذلك لا ترقأ لي دمع وأبواي يظنّان أنّ البكاء فالق كبدي فبيناهما جالسان عندي وأنا أبكي إذ دخل علينا رسول اللّه فسلّم ثمّ جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل فيّ ما قيل، ولقد لبث شهراً لا يوحي اللّه إليه. ثمّ قال: **«أمّا بعد يا عائشة فإنّه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فيبرّئك اللّه تعالى وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري وتوبي إليه فإنّ العبد إذا تاب تاب اللّه عليه»**. قالت عائشة: فلمّا قضى رسول اللّه مقالته فاض دمعي ثمّ

١ـ راجع: بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٣١١؛ وأيضاً مسند أحمد، ج ٦، ص ١٩٥.

قلت لأبي: أجب عنّي رسول اللّه فقال: واللّه ما أدري ما أقول فقلت لأمّي: أجيبي عنّي رسول اللّه، فقالت: واللّه لا أدري ما أقول، فقلت ـ وأنا جارية حديثة السنّ ما أقرأ القرآن كثيراً ـ إنّي واللّه لقد عرفت أنّكم قد سمعتم بهذا حتّى استقرّ في نفوسكم وصدّقتم به فإن قلت لكم: إنّي بريئة لا تصدّقوني، وإن اعترفت لكم بأمر واللّه يعلم أنّي بريئة. وما كنت أظنّ أن ينزل في شأني وحي يتلى ولكنّي كنت أرجو أن يرى رسول اللّه رؤيا يبرّئني اللّه بها فأنزل اللّه تعالى على نبيّه وأخذه ما كان من برحاء الوحي حتّى أنّه لينحدر عنه مثل الجمان من العرق في اليوم الثاني من ثقل القول الّذي أنزل عليه فلمّا سري عن رسول اللّهﷺ قال: «أبشري يا عائشة أمّا الله فقد برّأك» فقالت لي أمّي: قومي إليه، فقلت: واللّه أقوم إليه، ولا أحمد إلّا اللّه وهو الّذي أنزل براءتي فأنزل اللّه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ قالت: فلمّا نزل براءتي قام رسول اللّهﷺ على المنبر فذكر ذلك وتلا الآية فلمّا نزل ضرب عبد اللّه ابن أبيّ ومسيطحاً وحمنة وحسّان بن ثابت وزيد بن رفاعة الحدّ.

﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ أي: أتى بهذا الإفك جماعة منكم وإنّما سمّى الكذب والبهتان إفكاً لأنّه مقلوب الصدق.

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ خوطب به رسول اللّه وصفوان والمتسببين بهم هذا الإفك والضمير راجع إلى الكذب ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لاكتسابكم به الثواب العظيم وظهور ما نزل من القرآن في براءة ساحتكم وتشديد الوعيد فيمن تكلّم بهذا الأمر والثناء على من ظنّ بكم خيراً.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: لكلّ من هؤلاء العصبة الّذين خاضوا في هذا البهتان من المعصية بقدر ما خاضوا وتكلّموا.

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ أي: معظمه، وقرئ بضمّ الكاف لغة في هذا

المعنى أي: العمدة في هذا الكذب وهو الّذي سبق في هذا الكلام وهو عبد الله بن أبيّ فإنّه بدأبه وأذاعه بين الناس عداوة لرسول الله ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: في الآخرة أو في الدنيا فإنّهم جلدوا وردّت شهادتهم، وتنكير العذاب لعظمه.

هذا إذا كانت الآية نازلة في حقّ عائشة كما رواها العامّة وأمّا الخاصّة فإنّهم رووا أنّها نزلت في مارية القبطيّة، روي عن الباقر عليه السلام قال: **«لمّا هلك إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وآله حزن عليه النبيّ صلى الله عليه وآله حزناً شديداً فقالت له عائشة: ما الّذي يحزنك عليه فما هو إلّا ابن جريح فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام وأمره بقتله فذهب عليّ عليه السلام ومعه السيف وكان جريح القبطيّ في حائط فضرب على باب البستان فأقبل جريح ليفتح الباب فلمّا رأى عليّاً عرف في وجهه الغضب فأدبر راجعاً ولم يفتح باب البستان فوثب عليّ عليه السلام على الحائط ونزل إلى البستان واتبعه وولّى جريح مدبّراً فلما خشي أن يرهقه صعد في نخلة وصعد عليّ عليه السلام في أثره فلمّا دنا منه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته فإذا ليس له ما للرجال ولا له ما للنساء فانصرف عليّ عليه السلام إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال له: يا رسول الله إذا بعثتني في الأمر أكون فيه كالمسمار المحمى في الوبر أمضي على ذلك أم أتثبت؟ قال: لا بل تثبّت قال: والّذي بعثك بالحقّ نبيّاً ماله ما للرجال وما له ما للنساء فقال: الحمد لله الّذي صرف عنّا السوء أهل البيت»**.(١)

وهذه الرواية أوردها القميّ بعبارة أخرى في سورة الحجرات عند قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أي: فتثبّتوا وزاد: فأتي به رسول الله فقال له: **«ما شأنك يا جريح»** فقال: يا رسول الله إنّ القبط يحبّون حشمهم ومن يدخل إلى أهاليهم والقبطيّون لا يأنسون إلّا بالقبطيّين فبعثني أبوها لأدخل عليها وأخدمها وأونسها.

قال الفيض: إن صحّ هذا الخبر فلعلّه صلى الله عليه وآله إنّما بعث عليّاً عليه السلام إلى جريح

١ـ بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ١٥٥؛ ونور الثقلين، ج ٣، ص ٥٨١.

ليظهر الحقّ ويصرف السوء وكان قد علم أنّه لا يقتله ولم يكن يأمر بقتله بمجرّد قول عائشة ويدلّ على هذا ما رواه القميّ في سورة الحجرات عن الصادق عليه السلام أنّه سئل كان رسول الله صلى الله عليه وآله أمر بقتل القبطيّ وقد علم أنها قد كذبت عليه أو لم يعلم وإنّما دفع الله القتل عن القبطيّ بتثبّت عليّ عليه السلام فقال: **«بلى قد كان والله علم ولو كانت عزيمة من رسول الله القتل ما رجع عليّ عليه السلام حتى يقتله ولكن إنّما فعل رسول الله لترجع عن ذنبها فما رجعت ولا اشتدّ عليها قتل رجل مسلم»**.[1]

ولمّا ذكر حال القاذفين والمقذوفين عقّبها بما يليق من الآداب والتربية والزواجر عن مثل هذا الأمر بقوله: ﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: هلّا ومعنى «لولا» إذا يليه الفعل هلّا كقوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ﴾[2] ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾[3] ولكن إذا وليه الاسم فليس كذلك كقوله: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[4] وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾[5] ومعناه: كان الواجب على المؤمنين إذا سمعوا قول القاذف أن يكذّبوه ولا يسرعوا إلى التهمة ويشتغلوا بحسن الظنّ فيمن عرفوا طهارته ولم لم يظنّوا بهم خيراً لأنّهم كأنفسهم والمؤمنون كلّهم كنفس واحدة فيما يجري عليهم من الأمور فإذا جرى على أحدهم محنة فكأنّما جرت على جماعتهم والمؤمن يكون هذا شأنه وقيل: هذا الخطاب لمن أشاعه.

وحاصل المعنى: أنّه هلّا سمعتموه أو أفشيتموه ما ظننتم لما تظنّونه لأنفسكم وذلك لأنّها أمّ المؤمنين ومن خلا بأمّه فإنّه لا يطمع فيها ولا تطمع

١ـ الصافي، ج ٣، ص ٤٢٤؛ تفسير القمي، ج ٢، ص ٣١٩.

٢ـ سورة المنافقون: ١٠.

٣ـ سورة يونس: ٩٨.

٤ـ سورة سبأ: ٣١.

٥ـ سورة النساء: ٨٣؛ وسورة النور: ١٩.

فيه وهلّا قلتم هذا الحديث كذب ظاهر وإفك مبين؟

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أي: هلّا جاءوا على ما قالوه بيّنة وهي أربعة شهداء يشهدون بصدق ما ادّعوه ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي: فحين لم يأتوا بالشهداء ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي: في حكمه هم الكاذبون.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ولو لم يكن فضله عليكم بأن أمهلكم لتتوبوا ولم يعاجلكم بالعقوبة ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لأصابكم في قولكم هذا وخوضكم في هذا الحديث عذاب لا انقطاع له.

ثمّ ذكر الوقت الّذي كان يصيبهم العذاب لو لا الفضل فقال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ ويرويه بعضكم عن بعض وتقبلونه من غير حجّة ويتلقّى بعضكم هذا الإفك عن بعض ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وتلقّي القول معناه: أنّ الرجل كان يلقى الرجل فيقول له: ما وراءك؟ فيحدّثه بحديث الإفك والقذف حتّى شاع واشتهر فلم يبق ناد ولا بيت إلّا وشاع الخبر وذلك من العظائم ثمّ إنّ النّاس يتكلّمون بما لا علم لهم وذلك يدلّ على أنّه لا يجوز الأخبار إلّا مع العلم وأمّا الّذي لا يعلم صدقه فالإخبار عنه كالإخبار عمّا علم كذبه في الحرمة ونظيره في الآية قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[1].

فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾ والقول لا يكون إلّا بالفم؟ فمعناه أنّ الشيء المعلوم يكون علمه في القلب ثمّ يترجم عنه باللسان والإفك ليس إلّا قولاً يجري على اللسان ونبّه سبحانه على أنّ عظم المعصية ليس بظنّ فاعلها بل بوضع الشارع.

١ـ سورة الإسراء: ٣٦.

ثمّ زاد سبحانه في باب الآداب فقال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ أي: هلّا إذ سمعتموه قلتم لا يحلّ لنا أن نخوض في هذا الحديث وما ينبغي لنا أن نتكلّم بهذا سبحانك يا ربّنا هذا الّذي قالوه بهتان وكذب وزور عظيم عقابه. وسبحانك هنا معناه التعجّب كقول الأعشى:

«سبحان من علقمة الفاخر»

أو المعنى ننزّهك يا ربّ من أن نعصيك بهذه المعصية. ثمّ وعظ تعالى شأنه الّذين خاضوا في الإفك فقال:

يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

أي: ينهاكم الله أو يحرّم ﴿ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟﴾ إلى مثل هذا الإفك طول أعماركم إن كنتم مصدّقين بالله ونبيّه وقابلين موعظة الله ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ في الأمر والنهي والأحكام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يقع منكم من الردّ والقبول ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله لا يضع الشيء إلّا في موضعه.

ثمّ هدّد القاذفين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ أي: يفشوا ويظهروا الزنا والقبائح ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بأن ينسبوها إليهم ويقذفوهم بها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بإقامة الحدّ عليهم ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهو عذاب النار ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: والله يعلم ما فيه من سخط الله وما يستحقّ عليه العقوبة وأنتم لا تعلمون.

واعلم أنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ ولو أنّها نزلت في حقّ من قذف عائشة أو مارية وعبد الله بن أبيّ وأصحابه إلّا أنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فوجب إجراؤها على ظاهرها في العموم وممّا يدلّ على عدم تخصيصها بالقاذفين قوله: ﴿فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فإنّه صيغة جمع ولو أراد عائشة وحدها لم يجز ذلك. قال النبيّ ﷺ: **«إنّي لأعرف قوماً يضربون صدورهم ضرباً يسمعه أهل النار وهم الهمّازون الّذين يلتمسون عورات المسلمين ويهتكون ستورهم ويشيعون فيهم من الفواحش ما ليس فيهم»** وعنه ﷺ: **«لا يستر عبد مؤمن عورة عبد مؤمن إلّا ستره الله يوم القيامة»** وعنه ﷺ قال: **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»**.[1] وعن أنس قال: قال النبيّ ﷺ: **«لا يؤمن العبد حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه من الخير»**.[2]

وقالت المعتزلة: قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ....﴾ بالغ الله سبحانه فيها بذمّ من أشاع الفاحشة ومن أحبّ إشاعتها فلو كان تعالى هو الخالق لأفعال العباد لما كان مشيع الفاحشة إلّا هو فكان يجب أن لا يستحقّ الذمّ على إشاعة الفاحشة إلّا هو لأنّه هو الّذي فعل تلك الإشاعة وغيره لم يفعل شيئاً.

وبالجملة ثمّ ذكر سبحانه منّة عليهم فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وجواب «لو لا» محذوف لدلالة الكلام عليه أي: لعاجلكم بالعقوبة أو ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ جوابه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن

١ـ انظر: الكافي، ج ٢، ص ٢٣٥؛ وأحكام القرآن، الجصاص، ج ٢، ص ٢٧٥.

٢ـ منية المريد، ص ١٩٠؛ وانظر: البحار، ج ٦٩، ص ٢٧٥.

يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا
تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ
ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ
أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ
وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

قرئ «خطوات» بضمّ الطاء وسكونها، جمع خطوة وهو من خطا الرجل يخطو خطوا فإذا أردت الواحدة قلت خطوة مفتوحة الأول.

المعنى: ﴿لَا تَتَّبِعُوا۟﴾ آثار ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ولا تسلكوا مسالكه في الإصغاء إلى البهتان والإفك والتلقّي له وإشاعة الفاحشة في الّذين آمنوا والله تعالى وإن خصّ بالذكر المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلّا أنّه نهي لكلّ المكلّفين وممنوعين من ذلك وإنّما خصّهم بالذكر لأنّهم يمتنعون عن مثل هذه المعاصي.

ثمّ بيّن سبب المنع من اتّباعه فقال: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ والزكيّ من بلغ في طاعة الله مبلغ الرضا ومنه يقال: زكا الزرع أي: بلغ فإذا بلغ المؤمن من الصلاح في الدين إلى حال يرضاه الله سمّي زكيًا أي: ولو لا فضل الله عليكم بأن لطف لكم وأمركم بما تصيرون به أزكياء ما صار منكم أحد زكيّاً وما طهر منكم أحد من وسوسة الشيطان وما صلح.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ ويطهّر بلطفه ويعلم أنّه مستحقّ للّطف بفعله يفعل اللّطف به ليزكوا عنده ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إنّه يسمع أصواتهم وأقوالهم ويعلم أفعالهم وأحوالهم.

وفي الآية دلالة على أنّ الله يريد من خلقه خلاف ما يريده الشيطان

لأنّه إذا ذمّ الفحشاء وذمّ الأمر بالفحشاء فمريد الفحشاء أولى بالذمّ تقدّس وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ﴾ ذكر في مادّة يأتل قولين: فبعض جعلوا هذه الكلمة من ائتلى من مادّة الإلية والحلف افتعل وقالوا: إنّ أصله يأتلي ذهبت الياء للجزم وقال بعض: من مادّة «الوت» ولم آل في أمري جهدا أي: ما قصرت ويأل ويأتل واحد معناه وقالوا: إذا كان المراد معنى الحلف فيقتضي المنع في الحلف عن الإعطاء وهم أرادوا المنع من الحلف على ترك الإعطاء فهذا المعنى قد أقام النفي مقام الإيجاب وجعل المنهيّ عنه مأموراً به والحاصل على القول الثاني معناه لا تقصروا في أن تحسنوا إلى هؤلاء المذكورين.

وأجاب الّذين فسّروا بمعنى الحلف أنّ «لا» محذوفة في الآية وأصله أن لا يؤتوا أولي القربى ويقولون: إنّ «لا» تحذف كثيراً في اليمين قال اللّه: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ معنى أن لا تبرّوا وقال امرؤ القيس:

فقلت: يمين اللّه أبرح قاعـداً ولو قطعوا رأسي إليك وأوصالي

أي: لا أبرح وبالجملة إذا جعلت «لا» محذوفة فالمعنيان يقعان متقاربان في المراد من الآية لأنّ المراد في الآية الأمر بإعطاء هؤلاء المذكورين.

سبب النزول: قال «الفيض» نقلا من «الجوامع»: نزلت في جماعة من الصحابة حلفوا أن لا يتصدّقوا على من تكلّم بشيء من الإفك في هذه القضيّة المذكورة أن لا يواسوهم[1] قال المفسّرون من أهل السنّة والجماعة: إنّ الآية نزلت في أبي بكر حيث حلف أن لا ينفق على مسيطح أبداً وهو ابن خالة أبي بكر وقد كان يتيماً في حجره وكان ينفق عليه، فلمّا شاع هذا الإفك وكان

١ـ تفسير الصافي، ج ٣، ص ٤٢٦؛ وانظر: التبيان، ج ٧، ص ٤٢١.

مسيطح من القاذفين ونزلت الآية وتبيّن الأمر قال لهم أبو بكر: قوموا فلستم منّي ولست منكم ولا يدخلنّ عليّ أحد منكم فقال مسيطح: أنشدك الله والإسلام وأنشدك القرابة والرحم أن لا تحوجنا إلى أحد فما كان لنا في أول الأمر من ذنب وإنّما إفك عبد الله بن أبيّ فقال أبو بكر: إن لم تتكلّم فقد ضحكت ولم يقبل عذره وقال: انطلقوا أيّها القوم فإنّ الله لم يجعل لكم فرجاً ولا عذرا فخرجوا لا يدرون أين يذهبون وأين يتوجّهون، فبعث رسول الله يخبره بأنّ الله نهاك أن تحرمهم وقد أمر أهل المال منكم والسعة والغنى أن يعطوا أقاربهم ولا يتركوا جهدا في الإنفاق عليهم والمساكين والمهاجرين في سبيل الله. وقد اجتمع في مسيطح الصفات الثلاث كان قريبا بالنسب لأبي بكر مسكيناً مهاجراً.

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وأمرهم بالعفو والتجاوز عن تقصيرهم والإغماض عمّن أساء إليهم فقال: أما تحبّون أن يغفر الله لكم معاصيكم جزاء على عفوكم وصفحكم عمّن أساء إليكم؟ عنه ﷺ: **«من لم يقبل عذر المتنصّل كاذباً كان أو صادقا فلا يرد على حوضي يوم القيامة»**[1] وعنه ﷺ: **«أفضل أخلاق المسلمين العفو».**[2] قال المأمون: لو علم أهل الجرائم. وعنه ﷺ أيضاً: **«ينادي مناد يوم القيامة ألا من كان له أجر على الله فليقم فلا يقوم إلّا أهل العفو»** ثم ﷺ تلا هذه الآية ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[3] وعنه ﷺ: **«لا يكون العبد ذا فضل حتّى يصل من قطعه ويعفو عمّن ظلمه ويعطي من حرمه».**[4]

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ١٩١.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ المصدر السابق نفسه؛ وانظر: تفسير النسفي، ج ٤، ص ١٠٥.

٤ـ تفسير الرازي، ج٢٣، ص١٩١؛ وج ٩، ص ٨؛ وانظر: كنز العمال، ج ١٥، ص ٨٩٠.

وفي الآية دلالة على أنّ اليمين على الامتناع من الخير غير جايز وإنّما يجوز إذا كانت داعية للخير أو غير داعية للشرّ لا إذا كانت صارفة عنه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ واختلفوا في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾ هل المراد منه كلّ من كان بهذه الصفة أو المراد منه الخصوص؟ أمّا الأصوليّون فقالوا: الصيغة عامّة ولا مانع من إجرائها على ظاهرها فوجب حمله على العموم فيدخل فيه قذفة عائشة وقذفة غيرها. وقال بعض: إنّ المراد جملة أزواج رسول الله ﷺ وإنّهنّ لشرفهنّ خصّصن بأنّ من قذفهنّ فهذا الوعيد لا حق به. واحتجّ القائلون بهذا القول بأمور:

الأوّل: أنّ قاذف سائر المحصنات تقبل توبته لقوله في أوّل السورة: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ قالوا: وأمّا القاذف في هذه الآية فإنّه لا تقبل توبته لأنّه سبحانه قال: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[1] ولم يذكر الاستثناء وأيضاً فهذه صفة المنافقين في قوله: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾[2].

الثاني: أنّ قذف ساير المحصنات لا يكفّر والقاذف في هذه الآية يكفّر لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾[3] وذلك صفة الكفّار والمنافقين لقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾[4].

الثالث: أنّه تعالى قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والعذاب العظيم يكون عذاب الكفر فدلّ على أنّ عقاب هذا القاذف عقاب الكفر وعقاب قذفة سائر

١ـ سورة النور: ٢٣.
٢ـ سورة الأحزاب: ٦١.
٣ـ سورة النور: ٢٤.
٤ـ سورة فصلت: ١٩.

المحصنات لا يكون عقاب الكفر.

وردّ بأنّه لو كان هذا القاذف كافراً لما نزلت الآية في حقّه ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولو ثبت كفر المتولّي كبره وهو عبد الله بن أبيّ فذاك لنفاقه وأمر خارج لا بسببيّة القذف.

والحاصل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ الآية أي: ينسبون الزنا إلى العفائف من النساء الغافلات عن الفواحش المؤمنات بالله ورسوله واليوم الآخر لعنوا وابعدوا من رحمة الله في الدارين وقيل: استحقّوا العذاب في الدّنيا بالجلد وردّ الشّهادة وفي الآخرة بعذاب النار إن لم يتوبوا ولهم مع ذلك عذاب عظيم وهذا الوعيد عامّ لجميع المكلّفين.

ثمّ بيّن الله أنّ ذلك العذاب يكون في يوم ﴿تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وتشهد ألستهم في ذلك اليوم بالقذف وكذلك تشهد أيديهم بما كسبت وأرجلهم.

وفي كيفيّة شهادة الجوارح أقوال: أحدها: وهو الصحيح أنّ الله يمكّنها النطق والكلام من جهتها فتكون ناطقة حقيقة. والثاني: أنّ الله يفعل فيها كلاماً يتضمّن الشهادة فيكون المتكلّم هو الله دون الجوارح وأضيف إليها الكلام على التوسّع لأنّها محلّ الكلام.

والثالث: أنّ الله يجعل فيها علامة تقوم مقام النطق بالشهادة وختم الأفواه لا ينافي هذا الأمر لأنّ مواقف القيامة كثيرة.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أتي ليتمّ الله لهم في ذلك اليوم جزاءهم بالحقّ من غير أن ينقص ويزيد. والدين هاهنا بمعنى الجزاء ويجوز أن يكون جزاء دينهم الحقّ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ويعلمون الله ضرورة وإلجاء أنّه الحقّ لأنّه يقضي بالحقّ

ويعطي بالحقّ ويأخذ بالحقّ المبين الّذي يظهر لهم حقايق الأمور.

﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

المعنى: فيه أقوال: أحدها: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء والطيّبات من النساء للطيّبين من الرجال والطيّبون من الرجال للطيّبات من النساء عن أبي جعفر والصادق عليهما السلام[1] وأبي مسلم والجبّائيّ قالا: هي مثل قوله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ﴾[2] وأنّ أناساً همّوا أن يتزوّجوا منهنّ فنهاهم الله عن ذلك وكره ذلك لهم.

وقيل: الخبيثات يقع على الكلمات الخبيثة كالقذف الواقع من أهل الإفك ويقع على الكلام الّذي هو كالذّم واللعن فالمعنى: أنّ الذمّ واللعن معدّان للخبيثين من الرّجال وللخبيثات من النساء وكذلك القول في الطيّبات من الأقوال للطيّبين من الرّجال والنساء ومتوجّهة إليهم وإليهنّ وأنّهم مبرّءون ممّا يقول الخبيثون من خبيثات الكلمات وأنّها مبرّءات منها كالرسول

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٣٧؛ ونور الثقلين، ج ٣، ص ٥٨٥.

٢ـ سورة النور: ٣.

وأزواجه والعفائف الصالحات.

وقال الفراء: يعني: به زوجة النبي ﷺ وهو بمنزلة قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾[1] أو الأمّ تحجب بالأخوين فجاء على تغليب لفظ الجمع.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: لهؤلاء الطيّبين من الرجال والنساء مغفرة من اللّه وعطيّة كريمة في الجنّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾ أي: حتّى تستأذنوا. والاستيناس طلب الانس بالعلم. قال ابن عبّاس: أخطأ الكاتب فيه وكان يقرء حتّى تستأذنوا وقيل: تستأنسوا بالتنحنح والكلام الّذي يقوم مقام الاستيذان وقد بيّن اللّه تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ﴾ وقيل: حتّى تستعملوا وتتعرّفوا. عن أبي أيّوب قال: قلنا: يا رسول اللّه ما الاستيناس؟ قال: «يتكلّم الرجل بالتسبيحة والتحميدة والتكبيرة ويتنحنح على أهل البيت». وروي أنّ رجلاً قال للنبيّ ﷺ: أفأستأذن على أمّي؟ فقال: «نعم» قال: إنّها ليس لها خادم غيري أفأستأذن عليها كلّما دخلت قال: «أتحبّ أن تراها عريانة؟» قال الرجل: لا، قال: «فاستأذن عليها».[2]

﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ قيل في الآية تقديما وتأخيرا تقديره: حتّى تسلّموا على أهلها وتستأنسوا وتستأذنوا فأن أذن لكم فادخلوا ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ذلك الدخول بالاستيذان خير لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مواعظ اللّه وأوامره ونواهيه وإنّما أمر بعد آية القذف وتفاصيله بهذه الآية لأنّ أهل الإفك غالباً يجدون بهذا السبيل طريقاً إلى البهتان كأنّ ورود الإنسان خلوة من غير استيذان طريق إلى التهمة والوقوع فيها فلذلك أدّب اللّه الخلق بهذه الطريقة

١ـ سورة النساء: ١١.

٢ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٣٧؛ ونور الثقلين، ج ٣، ص ٥٨٥.

حتّى يسلموا من بعد المضارّ المؤدّية إلى التهمة على أنّه إذا حصل الدخول بعد الاستيذان فالإنسان حينئذ مأمون من أن يهجم على ما لا يحلّ له وعن التصرّف في ملك الغير بغير رضاه فيكون كالمغصوب وهو كالغاصب.

قال رسول الله ﷺ: **«الاستيذان ثلاث: بالأولى يستنصتون وبالثانية يستصلحون وبالثالثة يؤذنون أو يردّون»** وقال: **«إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع»**[1] وروي أنّه ﷺ: كان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: **«السلام عليكم»** وذلك لأنّ الدور لم يكن عليها حينئذ ستور ومعلوم أنّ قرع الباب بعنف والصياح بصاحب الدار حرام لأنّه يتضمّن الإيذاء والإيحاش وكفى بقصّة بني أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2].[3]

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ أي: فإن لم تجدوا أحداً يأذن لكم في الدخول فلا تدخلوها لأنّه ربّما كان فيها ما لا يجوز أن تطّلعوا عليه ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي: لا تدخلوا البيوت حتى يأذن لكم أرباب البيوت في الدخول فبيّن الله سبحانه أنّه لا يجوز دخول دار الغير إلّا أن يؤذن له وإن لم يكن صاحبها فيها فلا يجوز أن يتطلّع إلى المنزل ليرى من فيه فيستأذنه إذا كان الباب مغلقاً.

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ وانصرفوا ولا تلحّوا عليهم في الدخول وذلك بأن يأمروكم بالانصراف صريحا أو يوجد منهم ما يدلّ عليه ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: الانصراف أنفع لكم في دينكم ودنياكم وأقرب إلى أن تصيروا أزكياء ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي: عالم بأعمالكم.

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ١٩٧؛ وأحكام القرآن، ج ٣، ص ٤٠١.

٢ـ سورة الحجرات: ٤.

٣ـ كنز العمال، ج ٧، ص ١٥٦؛ وأحكام القرآن، ج ٣، ص ٤٠٢.

ثمّ قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ وليس عليكم بأس وحرج أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة وتدخلونها بغير استيذان. قيل في معنى هذه البيوت أقوال:

أحدها: أنّها الخانات والحمّامات والأرحية، عن الصادق عليه السلام[1] وعن محمّد بن الحنفيّة وجماعة. ويكون معنى ﴿مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ أي: استمتاع لكم. والثاني: أنّها الخرابات المعطّلة. والثالث: الحوانيت والأسواق وبيوت المتجر الّتي فيها أمتعة التجارة. والرابع: أنّها مناخات الناس في أسفارهم والأولى حمله على الجميع. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ يعلم سرّكم وعلنكم ولا يخفى عليه شيء من ذلك من أهل الريبة وغير أهل الريبة.

الحكم الآخر في النظر قوله تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

أي: الحكم في النظر أن يغضّوا ويمنعوا أبصارهم عن النظر إلى ما هو

١ـ مستدرك الوسائل، ج ١٨، ص ١٣٥؛ ومجمع البيان، ج ٧، ص ٢٣٨.

محرّم ويحفظوا فروجهم وعوراتهم من النظر المحرّم ذلك الغضّ والمنع والحفظ أظهر لهم لما فيه من البعيد عن الريبة.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ والمعنى أنّهم ينغضّوا من أبصارهم ولا ينظروا إلى ما حرّم. القمي عن الصادق عليه السلام: «**كلّ آية في القرآن في ذكر الفرج فهي في الزنى إلّا هذه الآية فإنّها من النظر فإنّ المراد به الستر حتّى لا ينظر إليها أحد فلا يحلّ لرجل أن ينظر إلى عورة أخيه وفرجه**».[1]

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أي: كما أنّ الرجال محكومون بهذا الحكم كذلك النساء لا يحلّ للمرأة أن تنظر إلى فرج أختها وفي «الكافي» عنه عليه السلام: في حديث يذكر فيه فرض الإيمان على الجوارح وفرض على البصر أن لا ينظر إلى ما حرّم اللّه وأن يعرض عمّا نهى اللّه عنه مما لا يحلّ له وهو عمله وهو من الإيمان فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾[2] والمرأة لابدّ وأن تحفظ عورتها من أن ينظر إليها والمراد من حفظ الفرج في هذه الآية حفظ النظر.

وعن الباقر عليه السلام قال: «**استقبل شابّ من الأنصار امرأة بالمدينة وكان النساء يتقنّعن خلف آذانهنّ فنظر الشابّ إليها وهي مقبلة فلمّا جازت نظر إليها في زقاق يسمى بزقاق بني فلان فجعل الشابّ ينظر خلفها واعترض وجهه عظم في الحائط أو زجاجة فشقّ وجهه فلمّا مضت المرأة نظر فإذا الدماء تسيل على ثوبه وصدره فقال: واللّه لآتينّ رسول اللّه ولأخبرنّه. قال: فأتاه فلمّا رآه رسول اللّه صلى الله عليه وآله قال له: ما هذا؟ فأخبره فهبط جبرئيل بهذه الآية**».[1] ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي:

١ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ١٠١؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٤٢٩.

٢ـ الكافي، ج ٢، ص ٣٤؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٤٢٩.

١ـ الكافي، ج ٥، ص ٥٢١؛ ووسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٣٨.

ولا يظهرن مواضع الزينة لغير محرم ومن هو في حكمه ولم يرد نفس الزينة.

واعلم أنّ الزينة اسم يقع على محاسن الخلق الّتي خلقها اللّه تعالى وعلى سائر ما يتزيّن به الإنسان من فضل لباس أو حليّ وغير ذلك وأنكر بعضهم وقوع اسم الزينة على الخلقة قالوا: لا يقال في الخلقة أنّها من زينتها وإنّما يقال ذلك فيما تكتسبه من كحل وخضاب وثياب ونحوه وأمّا الّذين قالوا: الزينة عبارة عمّا سوى الخلقة فقد حصروه في أمور ثلاثة: الأصباغ كالكحل والخضاب والوسمة في الحواجب والحنّاء في الكفّين والقدم وثانيها: الحليّ كالخاتم والسوار والدبلج والخلخال والقلادة والإكليل والوشاح والقرط وأشباهه وثالثها: الثياب قال اللّه تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1] وأراد من الزينة الثياب.

ثمّ اختلفوا في المراد من قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وفيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّ الظاهرة الثياب والباطنة القرطان والسواران والخلخال عن ابن مسعود.

وثانيها: أنّ الظاهرة الحليّ والخاتم والخضاب في الكفّ والخدّان عن ابن عبّاس والكحل والسوار والخاتم عن قتادة.

وثالثها: الوجه والكفّان عن الضحّاك وعطا والوجه والبنان عن الحسن. وفي تفسير عليّ بن إبراهيم: الكفّان والأصابع.[2]

وفي «الكافي» عن الصادق في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: «**الزينة الظاهرة الكحل والخاتم**[3] **والملب وهي السوار**» وفي «الجوامع» عنهم الكفّان والأصابع كما ذكرنا قبل هذا.[1]

١ـ سورة الأعراف: ٣١.

٢ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٤١؛ وتفسير جوامع الجامع، ج ٢، ص ٦١٦.

٣ـ الكافي، ج ٥، ص ٥٢١؛ ووسائل الشيعة (الإسلامية)، ج ١٤، ص ١٤٦.

١ـ جوامع الجامع، ج ٢، ص ٦١٦؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٤٣٠.

والقميّ عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال: «هي الثياب والكحل والخاتم وخضاب الكفّ والسوار» وأنّ الزينة ثلاث: زينة للناس وزينة للمحرم وزينة للزوج فأمّا زينة الناس فقد ذكرناها وأمّا زينة المحرم فموضع القلادة فما فوقها والدملج وما دونه والخلخال وما أسفل منه وأمّا زينة الزوج فالجسد كلّه.[1]

وفي «المجمع» عن النبي صلى الله عليه وآله: «للزّوج ما تحت الدرع وللمحرم كالابن والأخ ما فوق الدرع ولغير ذي محرم أربعة أثواب: درع وخمار وجلباب وإزار».[2]

وعنه صلى الله عليه وآله قال: «لا بأس بالنظر إلى رءوس أهل تهامة والأعراب وأهل السواد والعلوج لأنّهم إذا نهوا لا ينتهون» قال صلى الله عليه وآله: «والمجنونة والمغلوب على عقلها ولا بأس بالنظر إلى شعرها وجسدها ما لم يتعمد ذلك»[3] وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا حرمة لنساء أهل الذمّة أن ينظر إلى شعورهنّ وأيديهنّ»[4] وعنه عليه السلام أنه سئل عن الرجل يريد أن يتزوّج المرأة يتأمّلها وينظر إلى خلفها وإلى وجهها قال: «لا بأس»[5] وفي رواية أخرى: «ينظر إلى شعرها ومعاصمها إذا أراد أن يتزوّجها»[6] والمعصم: موضع السوار، وفي رواية: «ينظر إلى شعرها ومحاسنها إذا لم يكن معلنذاً»[7] وفي أخرى: «إنّما يشتريها بأغلى الثمن».[8]

وفي «الخصال» قال النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «يا عليّ أوّل نظرة لك والثانية

١ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ١٠١؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٤٣٠.
٢ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٧١.
٣ـ علل الشرايع، ج ٢، ص ٥٦٥؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٤٦٩؛ ووسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٥٠.
٤ـ الكافي، ج ٥، ص ٥٢٤؛ ووسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٤٩.
٥ـ وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٥٩؛ والصافي، ج ٣، ص ٤٣١.
٦ـ الكافي، ج ٥، ص ٣٦٥؛ ووسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٥٩.
٧ـ الكافي، ج ٥، ص ٣٦٥؛ ووسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٥٩.
٨ـ التهذيب، ج ٧، ص ٤٣٥؛ ووسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٨٨.

عليك لا لك هذا»[١] ما في «المجمع»[٢] و«الصافي»[٣] من كتبنا.

قال الرازيّ في «المفاتيح»: اختلفوا في المراد من قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أمّا الّذين حملوا الزينة على الخلقة، فقال القفّال: معنى الآية: إلّا ما يظهره الإنسان في العادة الجارية وذلك في النساء: الوجه والكفّان وفي الرجل الأطراف واليدين والرجلين، فأمروا بستر ما لا تؤدّي الضرورة إلى كشفه ورخّص لهم في كشف ما اعتيد كشفه وأدّت الضرورة إلى إظهاره إذ كانت شرائع الإسلام حنيفية سهلة سمحة ولمّا كان ظهور الوجه والكفّين كالضروريّ لا جرم قالوا على أنّهما ليسا بعورة.

وأمّا الّذين حملوا الزينة على ما عدا الخلقة قالوا: إنّه سبحانه إنّما ذكر الزينة لأنّه لا خلاف أنّه يحلّ النظر إليها حال ما لم تكن متّصلة بأعضاء المرأة فلمّا حرّم اللّه النظر إليها حال اتّصالها ببدن المرأة كان ذلك مبالغة في حرمة النظر إلى أعضاء المرأة وعلى هذا الوجه يحلّ النظر إلى زينة وجهها من الوشمة والغمرة والخضاب والخواتيم والثياب والسبب في تجوّزها أن تستّرها لها حرج لأنّ المرأة لابدّ لها من مناولة الأشياء بيديها والحاجة إلى كشف وجهها في بعض المقام كالشهادة والمحاكمة والنكاح.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ والخمر المقانع وهو غطاء الرأس من المرأة المنسدل على جيبها امرن بإلقاء المقانع على صدورهنّ تغطية لنحورهنّ وأعناقهنّ وكنّ يلقين مقانعهنّ على ظهورهنّ فتبدو صدورهنّ وكنّي عن الصدر بالجيوب لأنّها ملبوسة عليها وقيل: أمرن بذلك ليسترن

١ـ الخصال، ص ٣٠٦.

٢ـ مجمع البيان، ج ٨، ص ٤٣٣.

٣ـ الصافي، ج ٣، ص ٤٣١.

شعورهنّ وقرطهنّ قال ابن عبّاس: (معناه تغطي المرأة شعرها وصدرها وترائبها وسوالفها وفي لفظ الضرب مبالغة في الإلقاء والباء للإلصاق).

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ يعني: الزينة الباطنة الّتي لا يجوز كشفها في الصلاة وقيل: معناه لا يضعن الجلباب والخمار.

وبالجملة لمّا تكلّم سبحانه في مطلق الزينة شرح في هذه الآية في الزينة الخفيّة الّتي نهاهنّ عن إبدائها للأجانب وبيّن أنّ هذه الزينة الخفيّة يجب إخفاؤها عن الكلّ ثمّ استثنى اثنتي عشرة صورة:

أحدها: «أزواجهن» أي: يبدين مواضع زينتهنّ لأزواجهنّ فقد روي أنّه لعن السلتاء من النساء والمرهاء والسلتاء الّتي لا تخضب لزوجها والمرهاء الّتي لا تكتحل ولعن المسوّفة والمسفّلة والمسوّفة الّتي إذا دعاها زوجها إلى المباشرة قالت: سوف أفعل والمفسلة هي الّتي إذا دعاها قالت أنا حائض وهي غير حائض.

وثانيها: «آباؤهن» وإن علون من جهة الذكران والإناث كآباء الآباء وآباء الأمّهات.

والثالث إلى الثامن: قوله تعالى: ﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ فهؤلاء الّذين محرّم عليهم نكاحهنّ بهم ومحرّم لهنّ بالأسباب والأنساب. ويدخل أجداد البعولة فيه وإن علواً وأحفادهم وإن سفلوا يجوز إبداء الزينة لهم من غير استدعاء لشهوتهم ويجوز لهم تعمّد النظر من غير تلذّذ ولعلّ السبب في إباحة نظر هؤلاء إلى زينة المرأة لأنّهم مخصوصون بالحاجة إلى مداخلتهنّ

ومخالطتهنّ ولقلّة عدم وقوع الفتنة في المحارم.

وتاسعها: قوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني: النساء المؤمنات ولا يحلّ لها أن تتجرّد ليهوديّة أو نصرانيّة أو مجوسيّة إلّا إذا كانت الكافرة أمة لها لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ والمعنى الإماء الكافرات قالوا: ولا يحلّ للعبد أن ينظر إلى شعر مولاته وكتب عمر إلى أبي عبيدة أن يمنع نساء أهل الكتاب من دخول الحمّام مع المؤمنات.

وقيل: معناه يشمل العبيد والإماء وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام[1] وفي «الكافي» عنه عليه السلام: **«لا بأس أن يرى المملوك الشعر والساق»**[2] وفي رواية: **«شعر مولاته وساقها»**[3] وفي أخرى: **«لا بأس أن ينظر إلى شعرها إذا كان مأمونا»**[4] وعنه عليه السلام: **«لا يحلّ للمرأة أن ينظر عبدها إلى شيء من جسدها إلّا إلى شعرها غير معتمد لذلك»**.[5]

ومنشأ الاختلاف أنّ منهم أي: العامّة من أجرى الآية على ظاهرها وزعم أنّه لا بأس عليهنّ في أن يظهرن لعبيدهنّ من زينتهنّ ما يظهرن لذوي محارمهنّ وهو المرويّ عن عائشة وأمّ سلمة واحتجّوا بظاهر الآية وبرواية أنس أنّه صلى الله عليه وآله أتى بعبد قد وهبه لها وعليها ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها وإذا غطّت به رجليها لم يبلغ رأسها فلمّا رأى رسول الله ما بها قال: **«إنّه ليس عليك بأس إنّما هو أبوك وغلامك»**.[1]

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٤٢؛ وتفسير نور الثقلين، ج٣، ص ٥٩٣.

٢ـ الكافي، ج ٥، ص ٥٣١؛ وانظر: وسائل الشيعة الإسلامية، ج ١٤، ص ١٦٥.

٣ـ الكافي، ج٥، ص٥٣١؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٤٦٩.

٤ـ الكافي ج٥، ص٥٣١؛ ووسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٦٤.

٥ـ الكافي، ج٥، ص٥٣١؛ ووسائل الشيعة، ج١٤، ص١٦٤.

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ٢٠٧، وتفسير البيضاوي، ج ٤، ص ١٨٤.

وعن مجاهد كان امّهات المؤمنين لا يحتجبن عن مكاتبهنّ ما بقي عليه درهم وروي أنّ عائشة كانت تتمشّط والعبد ينظر إليها.

وقال ابن مسعود ومجاهد والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيّب: إنّ العبد لا ينظر إلى شعر مولاته وبه قال أبو حنيفة.

فإن قيل: الإماء دخلن في قوله أو نسائهنّ فأيّ فائدة في الإعادة إذا كان المقصود من قوله ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ الإماء؟ لعلّ المراد أنّه لا يظنّ أنّ الإباحة مقصورة على الحرائر من النساء إذ كان ظاهر قوله أو نسائهنّ يقتضي الحرائر دون الإماء كقوله: ﴿شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ على الأحرار.

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ وهذا الحادي عشر من الأقسام أي: أولي الحاجة إلى النساء من الرجال والإربة العقل وجودة الرأي وهم الّذين يتّبعونكم لينالوا من فضل طعامكم ولا حاجة لهم إلى النساء لأنّهم بله لا يعرفون من أمرهنّ شيئاً. القمي: هو الشيخ الفاني الّذي لا حاجة له إلى النساء.[1] وعن الصادق عليه السلام: **«الأحمق المولى عليه الّذي لا يأتي النساء»**[2] وكذلك الشيوخ الّذين غضّ العمر أبصارهم وليس بهم حاجة في مثل هذه الأمور.

ومعلوم أنّ الخصيّ والعنين ومن شاكلهما قد لا يكون له إربة في نفس الجماع ويكون له إربة قويّة فيما عداه من التمتّع وذلك يمنع من أن يكون هو المراد وأمثاله ولا يجوز له ما يجوز للتابعين غير أولي الإربة لأنّهم أولي الإربة فتحمل الآية على من هو عادم وجوه التمتّع إمّا لفقد الشهوة أو لفقد العقل والمعرفة كالمعتوه والأبله والصبيّ والهرم البالي الفاني ومن لا شهوة له ولا يمتنع دخول الكلّ في ذلك وروى هشام بن عروة عن زينب بنت أمّ سلمة

١ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ١٠٢.

٢ـ الكافي، ج ٥، ص ٥٢٣؛ ووسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٤٨.

عن أمّ سلمة أنّ النبيﷺ دخل عليها وعندها مخنّث فأقبل على أخي أمّ سلمة فقال: يا عبد الله إن فتح الله لكم الطائف غدا دلّلتك على بنت غيلان فإنّها تقبل بأربع وتدبر بثمان فقالﷺ: «لا يدخلنّ عليكم هنا». لأنّهﷺ كان يظنّ أنّه من غير أولي الإربة فلمّا عرف أنّه يعرف أحوال النساء وأوصافهنّ علم أنّه من أولي الإربة فحجبه.[1]

والثاني عشر قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ الطفل اسم للواحد ويطلق موضع الجمع لأنّه يفيد الجنس ونظيره قوله: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ المعنى أي: الجماعة من الأطفال الّذين لم يظهروا ولم يطّلعوا ولم يتصوّروا عورات النساء ولم يدروا ما هي من الصغر وقيل: معناه: لم يبلغوا أن يطيقوا إتيان النساء لعدم شهوتهم فإذا بلغوا مبلغ الشهوة فحكمهم حكم الرجال وهذا آخر الصور الّتي استثناها الله تعالى.

﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ قيل: كانت المرأة تضرب برجلها لتسمع قعقعة الخلخال فيها فنهاهنّ عن ذلك أو المعنى أنّ المرأة لا تضرب برجلها إذا مشت ليتبيّن خلخالها. ومعلوم أنّ الرجل الّذي يغلب عليه شهوة النساء إذا سمع صوت الخلخال والزينة يصير ذلك داعية له زائدة في مشاهدتهنّ.

وقد علّل سبحانه بأن قال: ﴿لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ فنبّه به على أنّ الّذي لأجله نهى عنه أن يعلم زينتهنّ من الحليّ وغيره.

ولمّا نهى عن استماع الصوت الدالّ على الزينة فلأن يدلّ على المنع من إظهار الزينة ومن إظهار مواضع الزينة أولى وثانياً إذا كانت المرأة منهيّة أن ترفع صوت خلخالها لوقوع الفتنة فرفع صوتها بالكلام للأجانب نهيه أولى إذ كان صوتها أقرب إلى الفتنة من صوت زينتها ولذلك كرهوا أذان النساء

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ٢٠٨.

لأنّه يحتاج فيه إلى رفع الصوت والمرأة منهيّة عن ذلك وإذا كان المناط والملاك وقوع الفتنة فالنظر إلى وجهها بالشهوة أقرب إلى الفتنة.

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ وقرئ «أيّه المؤمنون» بالضمّ من الهاء ووجهه أنّها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف فلمّا سقطت الألف لالتقاء الساكنين أتبعت حركتها حركة ما قبلها.

وفي التوبة وجهان: أحدهما: أنّ تكاليف الله في كلّ باب لا يقدر العبد الضعيف على مراعاتها وإن ضبط نفسه واجتهد ولا ينفكّ من تقصير يقع منه فلذلك وصّى المؤمنين جميعاً بالتوبة.

والوجه الثاني: قال ابن عبّاس: (معناه: توبوا ممّا كنتم تفعلونه في الجاهليّة لعلّكم تسعدون في الدنيا والآخرة). فإن قيل: قد صحّت التوبة بالإسلام والإسلام يجبّ ما قبله فما معنى هذه التوبة؟ قلنا: قال بعض العلماء: إنّ من أذنب ذنباً ثمّ تاب عنه لزمه كلّما ذكره أن يجدّد عنه التوبة لأنّه يلزمه أن يستمرّ على ندمه إلى أن يلقى ربّه.

الحكم الثامن ما يتعلّق بالنكاح قوله تعالى:

وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٣٢﴾ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

لمّا أمر سبحانه بغضّ الأبصار عمّا لا يحلّ وحفظ الفروج بيّن في هذه الآية طريق الحلّ فقال: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ قال النضر بن شميل: الأيّم في كلام العرب كلّ ذكر لا أنثى معه وكلّ أنثى لا ذكر معها وهو قول ابن عبّاس قال الزمخشريّ: الأيامى واليتامى ـ أصلهما أيائم ويتائم فقلبا ـ جمع أيّم وأيامى مقلوب أيايم، والفعل منه أيّم يؤيّمز قال الشاعر:

فإن تنكحي أنكح وإن تتأيّمي   وإن كنت أفتى منكم أتأيّم

وبالجملة فالمعنى بعد ما زجر سبحانه عن النظر الحرام والسفاح أمر بالتزويج والإنكاح مع أنّه مقصود بالذات من حيث كونه مناطا لبقاء النوع أي: زوّجوا من لا زوج له من أحرار رجالكم ونسائكم وهذا أمر استحباب وندب وقد صحّ عن النبيّ ﷺ أنّه قال: **«من أحبّ فطرتي فليستنّ بسنّتي ومن سنّتي النكاح»**.[1] وقال ﷺ: **«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباه فليتزوّج فإنّه أغضّ للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّ الصوم وجاء أمّتي»**.[2] وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«شراركم عزّابكم»**[3] وقال ﷺ: **«من أدرك له ولد وعنده ما يزوّجه فأحدث فالاثم بينهما»**.[4]

وعن أبي أسامة عن النبيّ ﷺ قال: **«أربع لعنهم الله من فوق عرشه وأمّنت عليه ملائكته: أحدهم الّذي يحصر نفسه فلا يتزوّج ولا يتسرّى لئلّا يولد له والرجل الّذي يتشبه بالنساء وقد خلقه الله ذكرا، والمرأة الّتي تتشبه بالرجال وقد خلقها الله أنثى، ومضلّل الناس يريد الّذي يهزأ بهم مثل أن يقول للمسكين: هلمّ أعطك، فإذا جاء**

١ـ الكافي، ج ٥، ص ٤٩٤ وص ٤٩٦؛ ووسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٧٤.

٢ـ مستدرك الوسائل، ج، ص ٥٠٧ وج ١٤، ص ١٥٣؛ ومكارم الاخلاق، ص ١٩٧.

٣ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٤٥؛ وتفسير الثعلبي، ج ٧، ص ٩١.

٤ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٤٥؛ وتفسير الثعلبي، ج ٧، ص ٩٠.

يقول: ليس معي شيء ومعل أن يقول للمكفوف: اتّق الدابّة وليس بين يديه شيء والرجل يسأل عن دار القوم فيضلّله».[1]

وبالجملة قال الشافعيّة: في النكاح قسمان منهم من تتوق نفسه في النكاح فيستحبّ له أن ينكح إن وجد أهبة النكاح سواء كان مقبلاً على العبادة أو لم يكن كذلك وإن لم يجد أهبة النكاح بكسر شهوته بالصوم للرواية المذكورة في قولهﷺ **«يا معشر الشّباب....»** وأمّا الّذي لا تتوق نفسه إلى النكاح فإن كان ذلك لعلّة به من كبر أو مرض أو عجز يكره له النكاح لأنّه يلزمه ما لا يمكنه القيام بحقّه وإن لم يكن به عجز ولكن لا تتوق نفسه وكان قادراً على القيام بحقّه لم يكره له النكاح لكنّ الأفضل أن يتخلّى للعبادة.

ولكنّ الحنفيّة قالوا: النكاح أفضل من التخلّي للعبادة.

وحجّة الشافعيّ أحدها: قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2] فمدح يحيى بكونه حصوراً والحصور الّذي لا يأتي النساء مع القدرة عليهنّ ولا يقال: هو الّذي لا يأتي النساء مع العجز عنهنّ لأنّ مدح الإنسان بما يكون عيباً غير جائز وإذا ثبت أنّه مدح في حقّ يحيى لزم أن يكون مشروعاً في حقّنا لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[3] ولا يجوز حمل الهدى على الأصول لأنّ التقليد فيها غير جائز فوجب حمله على الفروع على أنّ العبادة والنوافل أشقّ من النكاح لأنّ ميل الطباع إلى النكاح للذّته أكثر من العبادة فتكون العبادة أكثر ثواباً لقولهﷺ: **«أفضل الأعمال أحمزها».**[1] وقولهﷺ

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص٢٤٥؛ وانظر: تفسير الثعلبي، ج ٧، ص ٩١.

٢ـ سورة آل عمران: ٣٩.

٣ـ سورة الأنعام: ٩٠.

١ـ مستدرك سفينة البحار، ج ٧، ص ٤٣٦؛ وتفسير الرازي، ج ٥، ص ١٥٦.

لعائشة: «أجرك على قدر نصبك».[1] ثمّ لو كان الاشتغال بالنكاح أولى من النافلة لكان الاشتغال بالحراثة والزراعة أولى من النافلة بالنسبة إلى النكاح والجامع كون كلّ واحد منهما سبباً لبقاء هذا العالم ومحصّلا لنظامه وكما يقدّم واجب العبادة على واجب النكاح كذلك يقدّم مندوب العبادة على مندوب النكاح والنافلة قطع العلائق الجسمانيّة وإقبال على الله والنكاح اشتغال بتحصيل اللذّات الحسيّة الداعية إلى الدنيا في الأغلب ولذلك قال صلى الله عليه وآله: «حبّب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعلت قرّة عيني في الصلاة».[2] فرجّح صلى الله عليه وآله الصّلاة على النكاح وهذه البيانات حجج من قال: إنّ التخلّي للعبادة المندوبة أفضل من النكاح.

واحتجّ أبو حنيفة برجحان النكاح على العبادة المندوبة وقال: إنّ النكاح يتضمّن صون النفس عن الزنا فيكون ذلك دفعا للضرر عن النفس والنافلة جلب النفع، ودفع الضرر أولى من جلب النفع ثمّ إنّ النكاح يتضمّن العدل والعدل أفضل من العبادة لقوله صلى الله عليه وآله: «العدل عن ساعة خير من عبادة ستّين سنة»، ثمّ إنّ النكاح سنّة مؤكّدة لقوله صلى الله عليه وآله: «النكاح سنّتي فمن رغب عن سنّتي فليس منّي».[3] وقال في الصّلاة: «وإنّها خير موضوع فمن شاء فليستكثر ومن شاء فليستقلل»[4].

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾ أي: زوّجوا المستورين من عبيدكم وولائدكم وظاهر الآية الأمر للسادة بتزويج هذين الفريقين ومعنى الصلاح في الآية الإيمان.

١ـ انظر: المستدرك، ج ١، ص ٤٧١؛ وتفسير الرازي، ج ٢٣، ص ٢١٢.

٢ـ الخصال، ص ١٦٥، وروضة الواعظين، ص ٣٧٣.

٣ـ تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ١٦٤؛ والبحار، ج ١٠٠، ص ٢٢٠.

٤ـ انظر: الغدير، ج ٥، ص ٢٦؛ وتفسير الرازي، ج ٢٣، ص ٢١٣.

ثمّ رجع سبحانه إلى الأحرار فقال: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ لا سعة لهم في التزويج ﴿يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وعدهم أن يوسّع عليهم عند التزويج ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع المقدور عليم بأحوالهم وما يصلحهم وقال أبو عبد الله عليه السلام: «**من ترك التزويج مخافة العيلة فقد أساء الظنّ بربّه لقوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾**».[1]

وإنّما خصّ الصالحين بالذكر ليحصن دينهم ويحفظ عليهم صلاحهم بالتزويج وقيل: المراد بالصالحين المراد الصلاح في النكاح بأنّ مثلاً لا تكون صغيرة لا تتحمّل النكاح وقيل: المراد من قوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ ليس وعداً من الله أن يغنيهم حتماً بل معناه أن لا تنظروا إلى فقر من يخطب إليكم أو فقر من تريدون تزويجها ففي فضل الله ما يغنيهم إذا علم المصلحة والمال غاد ورائح وليس الفقر يكون مانعا لرغبتكم في التزوّج والتزويج ويمكن أن يكون المراد من الغنى العفاف.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ لمّا ذكر سبحانه تزويج الحرائر والإماء ذكر في هذه الآية حال من يعجز عن ذلك فقال: وليستعفف وليجتهد في العفّة ويحمل نفسه على العفّة الّذين لا يجدون ولا يتمكّنون من النكاح أولا يجدون ما ينكح به من المال مثل المهر أي: من لا يتمكّن من ذلك فيطلب التعفّف ولينتظر أن يمكّنه الله.

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ هذا هو الحكم التاسع في الكتابة لمّا أمر الله سبحانه السيّد على تزويج الصالحين من العبيد والإماء مع الرقبة رغّبهم في أن يكاتبوهم إذا طلبوا منهم ليصيروا أحراراً.

ونزلت الآية في غلام لخويطب بن عبد العزّى يقال له صبيح سأل

١ـ الكافي، ج ٥، ص ٣٣٠ و٣٣١؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٣٨٥.

مولاه أن يكاتبه فأبى فنزلت الآية فكاتبه على مائة دينار وهب له منها عشرين ديناراً والمكاتبة أن يكاتب الإنسان عبده على مال ينجّمه عليه ليؤدّيه إليه في هذه النجوم المعلومة يقول المولى مثلاً: كاتبتك على كذا من المال تؤدّيه في حولين أو ثلاث فإذا أدّيت ذلك المعلوم فأنت حرّ ويقول العبد: قبلت.

وبالجملة فهذا الأمر ندب واستحباب وترغيب عند أكثر الفقهاء وقيل: أمر حتم وإيجاب إذا طلبه العبد وعلم فيه خيراً عن عطا وعمرو بن دينار والطبريّ.

﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: صلاحا ورشداً لهذا الأمر وقدرة لا لاكتساب هذا المال للأداء من مال الكتابة وروي أنّ عبداً لسلمان قال له: كاتبني قال: ألك مال؟ قال: لا، قال: تطعمني أوساخ الناس فأبى عليه.

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: حطّوا عنهم من نجوم الكتابة شيئاً وقيل: أي: ردّوا عليهم يا معشر السادة من المال الّذي أخذتم شيئاً وهو استحباب وقيل: هو إيجاب: وقال قوم من المفسّرين: إنّه خطاب للمؤمنين بمعونتهم على تخليص رقابهم من الرقّ. ومن قال: إنّ الخطاب للسادة اختلفوا في قدر ما يجب فقيل: يتقدّر بربع المال وروي ذلك عن عليّ عليه السلام[1] وقيل: ليس تقدير بل يحطّ عنه شيء منه. وقيل: إنّه يعطي سهمه من الصدقات في قوله: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ وقيل: لو لا الكتابة لما جاز له أخذ الصدقات.

وقال أصحابنا: إنّ المكاتبة ضربان مطلق ومشروط فالمشروط أن يقول لعبده في حال الكتابة: متى عجزت عن أداء ثمنك كنت مردودا في الرقّ فإذا كان كذلك جاز له ردّه في الرقّ عند العجز والمطلق ينعتق منه عند العجز بحساب ما أدّى من المال ويبقى مملوكاً بحساب ما بقي عليه ويرث ويورث بحساب ما عتق.

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٤٦؛ ونور الثقلين، ج ٣، ص ٦٠٢.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ الحكم العاشر الإكراه على الزنا نهى سبحانه عن إكراه الإماء على الفجور.

سبب النزول: كان لعبد الله بن أبيّ المنافق ستّ جوار معاذة ومسيكة وأميمة وعميرة وأروى وفتيلة يكرههنّ على البغاء وضرب عليهنّ ضرائب فشكت ثنتان منهنّ إلى رسول الله فنزلت الآية.[1] وقيل: إنّ سبب النزول: جاء عبد الله بن أبيّ إلى رسول الله ومعه جارية من أجمل النساء تسمّى معاذة فقال: يا رسول الله هذه لأيتام فلان أفلا نأمرها بالزنى فيصيبون الأيتام من منافعها فقال: لا، فأعاد الكلام ؛ فنزلت الآية عن ابن عبّاس وقال جابر بن عبد الله: جاءت جارية لبعض الناس وشكت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إنّ سيّدي يكرهني على البغاء، فنزلت الآية.

المعنى: ولا تجبروا ولا تكرهوا إماءكم وولائدكم على الزنى إن أردن تعفّفاً وتزويجاً وإنّما شرط سبحانه إرادة التحصّن لأنّ الإكراه لا يتصوّر ولا يتحقّق إلّا عند إرادة التحصّن فإن لم ترد المرأة التحصّن بغت بالطبع فهذه فائدة الشرط.

﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ من كسبهنّ ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ﴾ على الزنا من ساداتهنّ من غير ميل منهنّ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ للمكرهات لا للمكره لأنّ الوزر على المكره ﴿رَحِيمٌ﴾ بهنّ.

توضيح: العرب يقول للمملوك: فتى وللمملوكة فتاة قال سبحانه: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾[1] والآية وإن كانت نزلت في الإماء إلّا أنّ حال الحرائر كذلك وفي الحديث ليقل «أحدكم: فتاي وفتاتي ولا يقل: عبدي وأمتي».

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ٢٢٠؛ والدر المنثور، ج ٥، ص ٤٦.

١ـ سورة يوسف: ٣٠.

فلو قيل: إنّ ظاهر الآية يقتضي جواز الإكراه على الزنا عند عدم إرادة التحصّن لأنّ المعلّق بكلمة «إن» على شيء عدم عند عدم ذلك الشيء وينتفي بانتفائه فحينئذ ينتفي المنع عند عدم إرادة التحصّن.

فالجواب أنّ هذا الشيء ممتنع في نفسه لأنّه متى لم توجد إرادة التحصّن في حقّها لم يكن كارهة للزّنا وحال كونها غير كارهة للزّنا يمتنع إكراهها على الزنا فامتنع ذلك لامتناعه في نفسه وذاته ثمّ إنّ هنا جواباً آخر وهو أنّ مفهوم هذا الشرط ليس بحجّة لأنّه ثبت بدليل منفصل أنّ الزنى حرام. و«إن» بمعنى «إذا» في الآية لأنّ الّتي وردت الآية فيها كانت كذلك كما ذكرنا في قصّة عبد الله بن أبيّ حين امتنعت الجارية طلباً للعفاف فأكرهها فنزلت الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[1] أي: إذا كنتم في ريب.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ واضحات ظاهرات ومن قرأ بفتح الياء فمعناه مفصّلات بيّنهنّ الله وفصّلهنّ ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ وإخباراً من الّذين مضوا من قبلكم وقصصا منهم حكيناها لكم لتعتبروا بها ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وزجراً ومنعاً لأهل التقوى وخصّهم بالذكر لأنّهم المنتفعون بها.

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي

١ـ سورة البقرة: ٢٣.

﴿بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

ولمّا بيّن في الآيات السابقة بعض الأحكام أورد الكلام في الإلهيّات وذكر مثلين مثلاً للإيمان والمؤمن ومثلاً يذكر في الكافر والكفر.

أمّا المثل الأوّل فهو قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في بيان إطلاق اسم النور على الله باعتبار أنّه هادي ومنوّر الخلق بمصالحهم ومنوّر السماوات والأرض بالشمس والقمر والنجوم أو منوّر السماوات ومزيّنها بالملائكة ومزيّن الأرض ومنوّرها بالأنبياء والعلماء وإنّما عبّر وورد النور في صفة الله لأنّ كلّ نور وإنعام ونفع منه وهذا كما يقال: فلان رحمة وفلان عذاب إذا كثر فعل ذلك منه كما قال أبو طالب عليه السلام في مدح النبي صلى الله عليه وآله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل[1]

واتّفقوا أهل الأدب أنّه لم يعن بقوله و«أبيض» بياض لونه صلى الله عليه وآله وإنّما أراد كثرة إفضاله والاهتداء به ولهذا المعنى سمّاه الله تعالى سراجاً منيراً.

واعلم أنّ لفظ النور في اللغة موضوع لهذه الكيفيّة الفائضة من الشمس والقمر والنار على الأرض والجدران وغيرهما وهذه الكيفيّة يستحيل أن تكون إلهاً لوجوه:

أحدها: لأنّ هذه الكيفيّة إن كانت عبارة عن الجسم كان الدليل الدالّ على حدوث الجسم دالّاً على حدوثها وإن كانت عرضاً فمتى ثبت حدوث

١ـ الكافي، ج ١، ص ٤٤٩؛ ومستدرك الوسائل، ج ١٠، ص ٣٨٨.

الجسم لزم حدوث جميع الأعراض القائمة به والحلول على اللّه محال.

والثاني: أنّا سواء قلنا النور جسم أو عرض حالّ في الجسم وعلى التقديرين منقسم وكلّ منقسم يفتقر في تحقّقه إلى تحقّق أجزائه والمفتقر إلى الغير ممكن لذاته محدث بغيره فلا يكون النور إلهاً.

والثالث: أنّ هذا النور المحسوس لو كان هو اللّه لوجب أن لا يزول هذا النور لامتناع الزوال على اللّه وهذا النور المحسوس يقع بطلوع الشمس والكواكب ومتغيّر.

والرابع: أنّ هذه الأنوار لو كانت أزليّة لكانت إمّا متحرّكة أو ساكنة أمّا الحركة فغير جائزة لأنّ الحركة معناها الانتقال من مكان إلى مكان فحينئذ الحركة مسبوقة بالحصول في المكان الأوّل والأزليّ يمتنع أن يكون مسبوقا بالغير فالحركة الأزليّة محال وأمّا السكون فغير جائز لأنّ السكون لو كان أزليّاً لكان ممتنع الزوال ونحن نرى حسّاً أنّ النور جائز الزوال لأنّا نرى أنّه ينتقل من مكان إلى مكان فدلّ ذلك على حدوث الأنوار والحادث لا يكون إلهاً. وبمجموع هذه الدلائل ثبت بطلان قول المانويّة الّذين يعتقدون أنّ الإله سبحانه هو النور الأعظم.

وأمّا المجسّمة المعترفون بصحّة القرآن فيحتجّ على فساد قولهم بوجهين الأوّل: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1] ولو كان نوراً لبطل ذلك لأنّ الأنوار كلّها متماثلة. الثاني قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[2] وذلك صريح في أنّ ماهيّة النور مجعولة مخلوقة للّه تعالى فيستحيل أن يكون الإله نوراً فلابدّ من التأويل كما بيّنّا من أنّ النور لمّا كان سبباً للهداية والظهور

١ـ سورة الشوري: ١١.

٢ـ سورة الأنعام: ١.

فيصحّ إطلاق اسم النور على الهداية فقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ذو نور السماوات وهو هاديهم فهو لهم كالنور الّذي يهتدى به إلى طرق الخير. قال جرير:

«وأنت لنا نور وغيث وعصمة»

ويمكن أن يكون المراد ناظم السماوات والأرض فإنّه قد يعبّر بالنور عن النظام يقال: ما أرى لهذا الأمر من نور.

وذكرنا وجوهاً أخر في صدر تفسير الآية وأصحّ الأقوال أنّ المراد بالنور في الآية الهداية إلى طريق الحقّ وقوله تعالى في آخر الآية: ﴿يَهۡدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يؤيّد هذا القول.

وصنّف الشيخ الغزاليّ في تفسير هذه الآية كاباً سمّاه بمشكاة الأنوار ويؤول حاصل كلام الغزاليّ بأنّ اللّه هادي وخالق السماوات وحاصل كتابه في تأويل هذه الآية أنّ اللّه نور في الحقيقة بل ليس النور إلّا هو ولكن مراده ليس هذا النور المنبسط من الأشعّة على الأرض حتّى يلزم الحدوث والافتقار والتجسّم كما بيّنّا.

قال: ويحتاج بيانه إلى بيان مقدّمة وهي أنّ للإنسان بصراً وبصيرة فالبصر هو العين الظاهرة المدركة للأضواء والألوان والبصيرة هي القوّة العاقلة وكلّ واحد من الإدراكين يقتضي ظهور المدرك فكلّ واحد من الإدراكين نور إلّا أنّه ورود العيوب والموانع لنور العين أكثر ممّا يرد على نور العقل والبصيرة، وأيضاً إنّ قوّة البصر لا تدرك نفسها ولا تدرك آلاتها وأمّا قوّة العاقلة فإنّها تدرك نفسها وآلاتها من القلب والدماغ وأيضاً الإدراك العينيّ والحسّيّ لا يتّسع لها لأنّ البصر مثلاً إذا توالى عليه ألوان كثيرة عجز عن إدراكها وتمييزها صحيحاً ويدرك لونا عالياً من تلك الألوان وكذلك الإدراك

السمعيّ إذا توالت عليه كلمات كثيرة التبست عليه تلك الكلمات ولم يحصل التميّز وأمّا إدراك النور العقليّ متّسع له فثبت أنّ نور العقل أكمل من نور البصر.

هذا أحد وجوه مزيّة نور العقل على نور البصر ورجحانيّة نور المعقول على نور المحسوس.

الثاني: أنّ نور البصر يدرك الجزئيّات ونور البصيرة يدرك الكلّيّات ومدرك الكلّيّات وهو القلب أقوى وأشرف من مدرك الجزئيّات لأنّ إدراك الكلّيّات يتضمّن إدراك الجزئيّات الواقعة تحته ولا عكس.

الثالث: أنّ الإدراك العينيّ والحسّيّ غير منتج لأنّ من أحسّ بشيء لا يكون ذلك الإحساس سبباً لحصول إحساس آخر بل لو استعمل له الحسّ مرّة أخرى لأحسّ به مرّة أخرى وأمّا الإدراك والنور العقليّ منتج لأمور أخر لأنّا إذا عقلنا أموراً ثمّ ركّبناها في عقولنا توسّلنا بتركيبها إلى اكتساب علوم أخر وهكذا كلّ تعقّل حاصل فإنّه يمكن التوصّل به إلى تحصيل تعقّل آخر إلى ما لا نهاية له.

الرابع: أنّ القوّة الحسيّة إذا أدركت المحسوسات القويّة ففي ذلك الوقت تعجز عن إدراك الضعيفة فإنّ من سمع الصوت الشديد أو أبصر اللون القويّ لا يمكنه أن يسمع الصوت الضعيف أو يرى اللون الخفيف والنور العقليّ لا يشغله معقول عن معقول.

الخامس: أنّ القوّة الباصرة لا تدرك المرئيّ مع القرب القريب ولا مع البعد البعيد والقوّة العقليّة لا تختلف حالها بحسب القرب والبعد فإنّها تترقّى إلى فوق العرش وتتنزّل إلى ما تحت الثرى في أقلّ من لحظة واحدة بل تدرك صفات الله مع كونه سبحانه منزهاً عن القرب والبعد والجهة ومدرك

القوّة العاقلة صفات الله وأفعاله ومدرك القوّة الباصرة هو الألوان والأشكال والجسم والسطح فنسبة شرف القوّة العاقلة إلى شرف القوّة الباصرة كنسبة شرف الوجود والعدم، ثمّ إنّ أوّل حكم القوّة العاقلة وهدايتها ونورها أنّ الوجود والعدم لا يجتمعان ولا يرتفعان وذلك مسبوق لا محالة بتصوّر مسمّى الوجود والعدم فكأنّه بهذين التصوّرين قد أحاط في الجملة بجميع الأمور وأمّا القوّة الباصرة فإنّها تدرك الأضواء والألوان وهما من أخسّ عوارض الأجسام والأجسام أخسّ من الجواهر الروحانيّة.

السادس: أنّ القوّة العاقلة غنيّة في إدراكها العقليّ عن وجود المعقول في الخارج والقوّة الحاسّة محتاجة في إدراكها الحسّيّ إلى وجود المحسوس في الخارج ولا شكّ أنّ الغنيّ أشرف من المحتاج.

السابع: أنّ الإدراك البصريّ لا يتناول إلّا المقابل أو ما هو في حكم المقابل وأمّا القوّة العاقلة فإنّها تدرك ما يقابل وما لا يكون في الجهة والباصرة يعجز عند الحجاب وهي لا يحجبها شيء أصلاً فكانت أشرف.

الثامن: القوّة الباصرة قد تغلّط لأنها أحياناً تدرك المتحرّك ساكناً والساكن متحرّكاً كالجالس في السفينة فإنّه قد يدرك السفينة المتحرّكة ساكنة والشطّ الساكن متحرّكاً ولو لا العقل لما تميّز خطاء البصر عن صوابه فالعقل حاكم والحسّ محكوم فالإدراك العقليّ أشرف من الإدراك الحسّيّ وكلّ واحد من الإدراكين يقتضي الظهور الّذي هو أشرف خواصّ النور فكان الإدراك العقليّ أولى بكونه نوراً من الإدراك البصريّ.

وإذا ثبت هذا فالأنوار العقليّة على قسمين: أحدهما: واجب الحصول عند سلامة الأحوال وهي التعقّلات الفطريّة. والثاني: ما يكون مكتسباً وهي التعقّلات النظريّة وهذه الأنوار الفطريّة إنّما حصلت بعد أن لم تكن فلابدّ لها

من سبب وأمّا التعقّلات النظريّة فقد يعتريها الزيغ والخطل في الأكثر وإذا كان كذلك فلابدّ من هاد ومرشد ولا مرشد فوق كلام الله ولا هادي مثل الأنبياء فكلام الله عند العين العقل بمنزلة نور الشمس عند العين الباصرة لا عند عين العمياء إذ بنور الشمس يتمّ الأبصار فبالحريّ أن يسمّى القرآن نوراً كما يسمّى نور الشمس نوراً فنور القرآن يشبه نور الشمس ونور العقل يشبه نور العين وبهذا البيان يظهر معنى قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾[١] وقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[٢] وإذا كان بيان الرسول أقوى من نور الشمس وجب أن يكون نفسه القدسيّة أعظم في النورانيّة من الشمس وكما أنّ الشمس في عالم الأجسام تفيد النور لغيره ولا تستفيده من غيره فكذا نفس النبيّ ﷺ يفيد الأنوار العقليّة لسائر الأنفس البشريّة ولا تستفيد الأنوار العقليّة من الأنفس البشريّة فلذلك وصف الله الشمس بأنّها سراج حيث قال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[٣] ووصف محمّداً ﷺ بأنّه سراج منير.

إذا عرفت هذا فمن المعلوم عند العقل والنقل أنّ الأنوار الحاصلة في أرواح الأنبياء مقتبسة من المبدء الأوّل والفيض الأقدس الأعلى بتوسّط الملائكة كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[١] وقال: ﴿ قُلْ

١ـ سورة التغابن: ٨.

٢ـ سورة النساء: ١٧٤.

٣ـ سورة الفرقان: ٦١.

٤ـ سورة النحل: ٢.

١ـ سورة الشعراء: ١٩٣ و١٩٤.

نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[١] وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[٢] والوحي إلى النبيّ لا يكون إلّا بواسطة الملائكة والأنوار مختلفة فبعضها مفيدة وبعضها مستفيدة ولو أنّ المفيدة أيضاً مستفيدة من نور الأنوار قال تعالى في وصف جبرئيل: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[٣] وإذا كان هو مطاع الملائكة فالمطيعون لابدّ وأن يكونوا تحت أمره، وقال: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[٤] فللأنوار درجات وترقّيات حتّى تنتهي إلى من خلق وأظهر وجود هذه الأنوار فحينئذ هذه الأنوار الحسّيّة والعقليّة والروحانيّة مثل جبرئيل بأسرها ممكنة لذواتها والممكن لذاته يستحقّ العدم من ذاته والعدم هو الظلمة الحاصلة والوجود هو النور فكلّ ما سوى اللّه مظلم لذاته مستنير بإنارة اللّه وكذا جميع معارفها بعد وجودها حاصل بإيجاد اللّه ووجود اللّه فهو الّذي أظهر الأنوار بالوجود بعد أن كانت في ظلمات العدم وأفاض عليها أنوار المعارف فلا ظهور لشيء من الأشياء إلّا بإظهاره وأعطى النور النور والانكشاف والتجلّي.

فثبت أنّ النور المطلق بحسب الوجود هو اللّه وأنّ إطلاق النور على غيره مجاز إذ كلّ ما سواه فإنّه من حيث هو هو ظلمة محضة لأنّه من حيث إنّه هو عدم محض بل الأنوار إذا نظرنا إليها من حيث هي هي فهي ظلمات لأنّها من حيث هي هي ممكنات والممكن من حيث هو هو معدوم والمعدوم مظلم فالنور إذا نظرنا إليه من حيث هو هو ظلمة ومن حيث إنّ اللّه أفاض عليها نعمة الوجود فبهذا الاعتبار صارت أنواراً. فثبت أنّه سبحانه هو النور

١ـ سورة النحل: ١٠٢.

٢ـ سورة النجم: ٤ ـ ٥.

٣ـ سورة التكوير: ٢١.

٤ـ سورة الصافات: ١٦٤.

وأنّ كلّ ما سواه فليس بنور إلّا على سبيل المجاز.

وهذا الكلام عن الشيخ الغزاليّ يرجع حاصله بعد التحقيق إلى معنى كونه سبحانه هادي أهل السماوات والأرض فلا تفاوت بين ما قاله وبين الّذي قاله المفسّرون في المعنى.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ اعلم أنّه لابدّ في التشبيه من المشبّه والمشبّه به وعلى ما ذكرنا وفصّلنا فالمشبّه في الآية وهو النور هداية اللّه وآياته البيّنات كما هو قول جمهور المتكلّمين والمعنى أنّ هداية اللّه تعالى بلغت في الجلاء والظهور إلى أقصى الغاية بمنزلة المشكاة الّتي تكون فيها زجاجة ومعنى المشكاة قيل: القنديل أو الكوّة في الحائط الّتي جعل فيها زجاجة صافية وفي الزجاجة مصباح يتّقد بزيت بلغ النهاية في الصفاء.

فإن قيل: لم شبّه بذلك وقد علمنا أنّ ضوء الشمس أبلغ وأقوى من ذلك بكثير؟ قلنا: إنّه سبحانه أراد أن يصف الضوء الكامل الّذي يلوح في وسط الظلمة وهدايته فيما بينها تلوح لأنّ الغالب على أوهام الخلق الشبهات الّتي هي كالظلمات وهداية اللّه فيها كالضوء الكامل وهذا المقصود لا يحصل من تشبيه ضوء الشمس لأنّ ضوء الشمس إذا ظهر امتلأ العالم من النور الخالص فهذا المثل أليق بالمقصود. وفي المثل أمور توجب كمال الضوء:

فأوّلها: المصباح وهو الفتيلة والشمعة لأنّ المصباح إذا لم يكن في القنديل تفرّقت أشعّته أمّا إذا وضعت الشمعة في المشكاة اجتمعت أشعّته فكانت أكثر إنارة والّذي يصدّق هذا البيان أنّ المصباح إذا كان في زجاجة صافية فإنّ الأشعّة المنفصلة عن المصباح تنعكس من بعض جوانب الزجاجة إلى البعض لما في الزجاجة من الشفّافيّة والصفاء وبسبب ذلك يزداد الضوء

والنور كما أنّ إذا وقع شعاع الشمس على الزجاجة الصافية تضاعف الضوء.

وثانيها: أنّ ضوء المصباح يختلف بحسب اختلاف ما يتّقد به فإذا كان ذلك الدهن صافيا خالصاً كانت حالته بخلاف ما إذا كان كدرا وليس من ذلك الوقت في الأدهان الّتي توقد ما يظهر فيه من اللون والصفاء مثل الّذي يظهر في الزيت.

وثالثها: أنّ هذا الزيت يختلف بحسب اختلاف شجره فإذا كان غير شرقيّة وغير غربيّة[1].

وفي معنى قوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ ذكروا وجوهاً:

الأوّل: لا يفيء عليها ظلّ شرق ولا ظلّ غرب بل الزيتونة مصاحبة للشمس غير مفارقة لها لا يظلّها جبل ولا شجر ولا كهف فزيتها يكون أصفى حينئذ وحاصل المعنى على هذا التقدير أنّ الزيتونة تكتسب حرارة الشمس من حين طلوع الشمس إلى غروبها حال النهار كالّتي على قلّة من الجبل وصحراء واسعة، وهذا قول ابن عبّاس وسعيد بن جبير وقتادة.

وقيل معناه: لا شرقيّة وحدها ولا غربيّة وحدها أي: لا في مضحى تشرق الشمس عليها دائماً فتحرقها ولا في مقناة تغيب عنها دائماً فتتركها نيّا. وفي الحديث: «**لا خير في مقناه ولا خير فيها في مضحى**». فحينئذ الشجرة الحسنة المثمرة ما كانت تصيبه الشمس والظلّ كلاهما.

وقيل: معناه أنّ الزيتونة ليست من شجرة الدنيا فتكون شرقيّة وغربيّة.

وقيل: أن لا تكون الزيتونة من شجر الشرق ولا من شجر الغرب لأنّ ما اختصّ بإحدى الجهتين كان أقلّ زيتا وأضعف ضوءا ولكنّها من شجر الشام وهي ما بين الشرق والغرب.

١ـ كذا في الأصل.

وبالجملة اللّه ذو نور السماوات والأرض (ومثله: إنّه عمل غير صالح) أي: منوّرها ومثل نوره الّذي هدى به المؤمنين وهو الإيمان ودلائل التوحيد أو مثل نوره الّذي هو القرآن في القلب أو مثل طاعة اللّه في قلب المؤمن كقنديل فيه شمعة.

وفي الآية قلب أي: مثل شمعة في مشكاة وقنديل. ويوضع ذلك السراج والمصباح في زجاجة وسمّي الشمع والفتيلة المشتعلة بالمصباح لأنّ فيه أثر الضوء كالصبح.

﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي: تلك الزجاجة مثل الكوكب العظيم الّذي يشبه الدرّ في صفائه ونوره وإذا جعلته من الدرء وهو الدفع ودمغ الظلمة فمعناه المندفع السريع الوقع في الانفضاض كالزهرة كأنّه تنتشر منه الضوء إذا نظرت إليه.

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: يشتعل ذلك المصباح من دهن شجرة مباركة ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ أراد بالشجرة المباركة شجرة الزيتون لأنّ فيها أنواع البركات لأنّ بزيته يتسرّج وهو أدام ودهان ودباغ ويوقد بحطبه وثفلة ويغسل برماده الأبريسم ودهنها أصفى وأضوء وقيل: لأنها أول شجرة نبتت في الأرض بعد الطوفان ومنبتها منزل الأنبياء لأنّها نبتت في بيت المقدس وبارك فيها سبعون نبيّاً منهم إبراهيم فلذلك سمّيت مباركة. ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ ذكر تفسيرها.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي: من فرط صفائه يقرب أن يشتعل وينير من قبل أن تصيبه النار.

ثمّ هاهنا تحقيق وهو أنّ المحقّقين اختلفوا في المشبّة والمشبّه به كما أشرنا إليه قيل: إنّه مثل ضربه لنبيّه محمّدﷺ فالمشكاة صدره، والزجاجة قلبه، والمصباح النبوّة، لا شرقيّة ولا غربيّة أي: لا يهوديّة ولا نصرانيّة يوقد

من شجرة مباركة أي: شجرة نبوّة إبراهيم الخليل عليه السلام يكاد زيتها يضيء يقرب نور محمّد صلى الله عليه وآله يبيّن للناس ولو لم يتكلّم به كما أنّ ذلك الزيت يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار وهذا البيان عن كعب وجماعة من المفسّرين.

وقيل: إنّ المشكاة إبراهيم عليه السلام والزجاجة إسماعيل عليه السلام والمصباح محمّد صلى الله عليه وآله كما سمّي سراجا.

وقيل: من شجرة مباركة يعني: محمّد من شجرة مباركة إبراهيم لأنّه صلى الله عليه وآله وأكثر الأنبياء من صلب إبراهيم لا شرقيّة ولا غربيّة أي: ملّته حنيفيّة لا نصرانيّة ولا يهوديّة لأنّ النصارى تصلّي إلى المشرق واليهود إلى المغرب يكاد زيت نور محمّد صلى الله عليه وآله ومحاسنه تظهر قبل أن يوحى إليه نور على نور أي: نبيّ من نسل نبيّ.

وقيل: إنّ المشكاة عبد المطّلب والزجاجة والمصباح وهو النبيّ صلى الله عليه وآله لا شرقيّة ولا غربيّة بل مكّيّة لأنّها وسط الدنيا عن الضحّاك.

وروي عن الرضا عليه السلام أنّه قال: **«نحن المشكاة فيها المصباح محمّد صلى الله عليه وآله يهدي الله بولايتنا من قبل ولايتنا وأحب»**.[1]

وفي كتاب «التوحيد» لأبي جعفر بن بابويه بالإسناد عن عيسى بن راشد عن الباقر عليه السلام في قوله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ قال: **«نور العلم في صدر النبيّ صلى الله عليه وآله هو المصباح، في زجاجة الزجاجة صدر عليّ عليه السلام صار علم النبيّ صلى الله عليه وآله إلى صدر عليّ عليه السلام علّم النبيّ صلى الله عليه وآله عليّاً، يوقد من شجرة مباركة نور العلم لا شرقيّة ولا غربيّة لا يهوديّة ولا نصرانيّة يكاد العالم من آل محمّد صلى الله عليه وآله يتكلّم بالعلم قبل أن يسأل، نور على نور إمام مؤيّد بنور العلم والحكمة في أثر إمام من آل محمّد صلى الله عليه وآله وذلك من لدن آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة فهؤلاء الأوصياء الّذين جعلهم الله خلفاء في أرضه لا**

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٥١؛ وبحار الأنوار، ج ٤، ص ٢٣.

تخلو الأرض في كلّ عصر من واحد منهم، قال أبو طالب:

أنــت الأميــر محمّــد قــرم أغــرّ مســوّد
لمسوّدين أطــاهر كرمــوا وطــاب المولــد
أنت السعيد من السعود فكنفتــك الأســعد
من لدن آدم لــم تــزل فينــا وصيّ مرشــد
ولقــد عرفتــك صــادقا والقــول لا يعفنّــد
ما زلت تنطق بالصواب وأنت طفل أمــرد[1]

والحاصل من جملة هذه البيانات أنّ الشجرة المباركة المذكور في الآية هي دوحة التقى والرضوان وعترة الهدى والإيمان شجرة أصلها النبوّة وفرعها الإمامة وأغصانها التنزيل وأوراقها التأويل وخدمها جبريل وميكائيل.

ويمكن أن يؤوّل معنى الآية أنّه مثل ضربه الله للمؤمن والمشكاة نفسه والزجاجة صدره والمصباح الإيمان والقرآن في قلبه يوقد من شجرة مباركة هي الإخلاص لله وحده فهي خضرة ناعمة كشجرة خضرة دائمة كشجرة الزيتونة لا شرقيّة ولا غربيّة لا تضرّه الشمس ولا الفيء وقد احترز من أن يصيبه القتر فهو في بين أربع خلال: إن أعطي شكر، وإن ابتلي صبر، وإن حكم عدل، وإن قال صدق. فالمؤمن في سائر الناس كالرجل يمشي بين قبور الأموات نور على نور كلامه نور وعلمه نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره إلى نور يوم القيامة.

عن أبيّ بن كعب وعن الحسن وابن زيد قالوا: إنّه مثل القرآن في قلب المؤمن فكما أنّ هذا المصباح يستضاء به وهو كما هو لا ينقص فكذلك

١ـ التوحيد، ص ١٥٨؛ ومجمع البيان،ج٧،ص٢٥٢.

القرآن يهتدي به ويعمل به فالمصباح هو القرآن والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة لسانه وفمه والشجرة المباركة شجرة الوحي يكاد زيتها يضيء يكاد حجج القرآن تتّضح وإن لم تقرء وتضيء لمن تفكّر فيها وتدبّرها ولو لم يزل القرآن فإنّ الدلائل على التوحيد يترتّب بعضها على بعض والمؤمن يستفيد منها بمراعاة الترتيب من ضوء نور السراج على ضوء الزيت على ضوء الزجاجة.

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يهدي الله لدينه وإيمانه من يشاء بأن يفعل له لطفاً ويختار عنده الإيمان إذا علم منه القبول واختيار لعبوديّة قيل: معناه: يهدي الله لنبوّته وخلافته من يشاء ويعلم أنّه يصلح لذلك.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تقريباً للأفهام وتسهيلاً للمرام وهو بكلّ شيء عليم كثير العلم فيضع الأشياء مواضعها.

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ هذه المشكاة توقد في بيوت يتلى فيها كتابه أو أسماؤه الحسنى وهي المساجد في قول ابن عبّاس وجماعة ويؤيّده قول النبيّ ﷺ: **«المساجد بيوت الله في الأرض وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض».**[1]

وقيل: إنّها أربع مساجد لم يبنها إلّا نبيّ: الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل ومسجد بيت المقدس بناها داود وسليمان ومسجد المدينة ومسجد قبا بناهما رسول الله. وقيل: هي بيوت الأنبياء وروي ذلك مرفوعاً أنّه سئل النبيّ ﷺ لمّا قرأ الآية: أي: بيوت هذه فقال: **«بيوت الأنبياء»** فقام أبو بكر وقال: يا رسول الله هذا البيت منها لبيت عليّ وفاطمة؟ قال: **«نعم أفاضلها».**[2] ويعضد هذا الحديث قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٥٣؛ ومعجم الكبير، ج ١٠، ص ٢٦٢؛ وبحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٣٢٧.

٢ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٥٣؛ والصراط المستقيم، ج ١، ص ٢٩٣.

﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1] وقوله: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[2] والمراد بالرفع التعظيم والتطهير.

وقيل: المراد برفعها رفع الحوائج فيها إلى اللّه. وقيل: المراد من رفعها بناؤها من قوله ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾[3].

﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ قيل: المراد قراءة القرآن وقيل: إنّه عامّ في كلّ ذكر أولا يتكلّم فيها بما لا ينبغي ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي: يصلّي فيها بالبكرة والعشيّ قال ابن عبّاس: كلّ تسبيح في القرآن صلاة وقيل: الصلوات الخمس ومنهم من حمله على صلاتي الصبح والعصر فكانتا واجبتين في الابتداء ثمّ زيد فيهما أو المراد تنزيه اللّه عمّا لا يليق به ووصفه بالصفات الّتي يستحقّها لذاته وأفعاله الّتي كلّها حكمة وصواب.

ثمّ بيّن سبحانه المسبّح ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ ولا تشغلهم ﴿تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: عن إقامة الصلاة حذف التاء والتاء عوض عن الواو في «إقوام» فلمّا أضافه صار المضاف إليه عوضاً عن الهاء وروي عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه أنّهم قوم إذا حضرت الصلاة تركوا وانطلقوا إلى الصلاة وهم أعظم أجرا ممّن يتّجر وإنّما خصّ الرجال بالذكر لأنّ النساء لسن من أهل التجارة.

﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ يريد الزكاة المفروضة أو إخلاص الطاعة للّه ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ إذ يوم القيامة تتقلّب فيه أحوال القلوب والأبصار تنتقل من حال إلى حال فتلفحها النار ثمّ تنضجها ثمّ تحرقها. وقيل:

١ـ سورة الأحزاب: ٣٣.

٢ـ سورة هود: ٧٣.

٣ـ سورة البقرة: ١٢٧.

تتقلّب فيه القلوب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك وتنقلب الأبصار يمنة ويسرة من أين كتبهم يؤتى وأين يؤخذ بهم أمن قبل اليمين أم من قبل اليسار وقيل: تتقلّب فيه القلوب ببلوغها الحناجر والأبصار بالعمى بعد البصر وقيل: معناه تنتقل القلوب عن الشكّ إلى اليقين فمن كان شاكاً في دنياه أبصر في آخرته ومن كان عالماً ازداد بصيرة وعلماً فهو مثل قوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1].

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يفعلون ذلك طلباً لمرضاة اللّه ولمجازاتهم بأحسن ما عملوا ولتفضّلهم عليهم بالزيادة على ما استحقّوه بأعمالهم من فضله وكرمه. ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ والثواب لا يكون إلّا بحساب والتفضّل يكون بغير حساب.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

لمّا ذكر سبحانه حال المؤمن وإنّه لإيمانه في النور وكالنور ويكون بسببه متمسكاً بالعمل الصالح في الدنيا وفي الآخرة فائزا بالنعيم المقيم أتبع في هذه الآية بأنّ الكافر يكون في الآخرة في أشدّ الخسران وفي الدنيا في أعظم الظلمات فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ التي يعملونها ويعتقدونها أنّها طاعات ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ كشعاع يتخيّل كالماء يجري على الأرض الواسعة

١ـ سورة ق: ٢٢.

المنبسطة يظنّه العطشان ماء ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ يشرب منه رأى أرضا لا ماء فيها و﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ ممّا قدّر كذلك الكافر يحسب ما قدّم من عمله نافعاً له وليس له عليه ثواب والإلّ والسراب واحد وهو ما يتراءى للعين وقت الضحى الأكبر في الفلوات سارب شبيه بالماء الجاري وليس هو بشيء فشبّه سبحانه عمل الكافر في القيامة به كما أنّه ليس بشيء كذلك عمله ليس بشيء.

أمّا قوله: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ أي: وجد عقاب الله الّذي توعّد به الكافر عند ذلك فتغيّر ما كان فيه من ظنّ النفع العظيم إلى تيقّن الضرر العظيم أو وجد زبانية الله عنده يأخذونه فيقبلون به إلى جهنّم فيسقونه الحميم والغسّاق. وهم الّذين قال الله في حقّهم: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾[1] و﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[2].

وقيل: إنّ الآية نزلت في عتبة بن ربيعة بن أميّة كان قد تعبّد ولبس المسوح والتمس الدين في الجاهليّة ثمّ كفر في الإسلام.

أمّا قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب عن حساب فيحاسبهم في حالة واحدة قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«كما يرزقهم في حالة واحدة»**.[3]

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ هذا المثل الثاني شبّه عقائد الكفّار وأعمالهم في الدنيا بالظلمات الواقعة في البحر اللجّيّ وهو البحر البعيد القعر وذو اللجة الّتي هي معظم الماء الغمر يكون قعره مظلما جداً بسبب غمورة الماء. ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ فإذا ترادفت على غمور الماء الأمواج ازدادت الظلمة. ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ فإذا كان فوق الأمواج سحاب بلغت

١ـ سورة الغاشية: ٣.

٢ـ سورة الكهف: ١٠٤.

٣ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٥٦؛ ونور الثقلين، ج ٣، ص ٦١١.

الظلمة النهاية القصوى.

والحاصل أنّ الواقع في قعر هذا البحر اللجّيّ يكون في نهاية شدّة الظلمة فالكافر من جهله وحسرته كمن في هذه الظلمات لأنّه من عمله وقوله واعتقاده متقلّب في ظلمات ثلاث قال أبيّ بن كعب: إنّ الكافر يتقلّب في خمس ظلمات: كلامه ظلمة وعمله ظلمة ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره يوم القيامة إلى ظلمة وهي النار.

﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا﴾ وهذه مبالغة في الظلمة لأنّ العادة في اليد أنّها من أقرب الأعضاء يراها الإنسان ومن أبعد الأعضاء لا يراها الإنسان فذكر سبحانه أنّ الظلمة بحيث إذا أراد الكافر أن يرى يده غير قريبة للرؤية أو لا يراها فهو نفي للرؤية وعن مقاربة الرؤية لأنّ دون هذه الظلمة لا يرى فيها وحكم «كاد» إذا لم يدخل عليها حرف نفي أن يكون نافية وإذا دخل دلّت على أن يكون الأمر دفع بعد بطء أو لا يقع.

﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ والكافر ضدّ المؤمن في قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾ وقوله: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ ومن لم يكن له في الدنيا نور الإيمان بعدم قبوله وسوء اختياره فما له مخلصاً ونوراً في الآخرة ولا يفوز بالسعادات الأبديّة.

أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ
وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ
ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى
ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ
وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾

﴿أَلَمْ﴾ تعلم الخطاب للنبيﷺ والمراد جميع المكلّفين ﴿أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والمراد من التسبيح التنزيه لله عمّا لا يليق به أي: ينزّه ذاته أهل السماوات والأرض بألستهم وقيل: عنى به العقلاء وغير العقلاء وكنّي عن الجميع بلفظة من تغليباً للعقلاء على غيرهم ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ أي: ويسبّح له الطير واقفات في الجوّ مصطفّات الأجنحة في الهواء وتسبيحها ما يرى عليها من آثار الحدوث لأنّ حركاتها وحدوثها دلالات على الخالق القادر المختار موصوفاً بصفات الجلال منزهاً عن النقائص والزوال أو المراد أنّها تنطق بألستها بالتسبيح وينطق وتتكلّم به كما أنّ من العقلاء أيضاً من يسبّح بلسانه كالمؤمن ويسبّح بدلالة وجوده كالكافر ووقوف الطير في الهواء مع هذا الجرم الثقيل لما فيها من القبض والبسط من أعظم الدلائل.

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي: إنّ جميع ذلك قد علم الله تسبيحه وصلاته ودعاءه إلى توحيده وتنزهه وقيل: إنّ الصلاة للإنسان والتسبيح لغيره وقيل: الضمير في «علم» راجعٌ إلى المصلّي والمسبّح أي: كلّ منهم يعلم وقت تسبيحه ودعائه ويؤدّيه إلى وقته والقول الأوّل أقرب لأنّ الأشياء كلّها لا يعلم كيفيّة دلالتها على الله وإنّما يعلم الله تعالى ذلك وروي عن أبي ثابت قال: كنت جالساً عند أبي جعفرؑ فقال لي: **«أتدري ما تقول هذه العصافر عند طلوع الشمس وبعد طلوعها؟»** قلت: لا. قال: **«فإنّهنّ يقدّسن ربّها ويسألنه قوت يومهن»**.[1]

١ـ بحار الأنوار، ج ٦١، ص ١٢؛ وانظر: المناقب، ج ٣، ص ٣١٨.

وبالجملة إنّ جميع الأشياء يسبّح ربّها إمّا بالنطق أو بعضها يسبّح بالدلالة كما أنّا نشاهد بعض الحيوانات ملهمات أموراً في تحصيل رزقهنّ بأعمالهم لطيفة يعجز عنها أكثر العقلاء فإذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يلهمها دعاءه وتسبيحه ومعرفته تأمّل في العنكبوت كيف يأتي بالحبل اللطيفة في اصطياد الذباب، وقد حكي عن الفار أمور عجيبة وكذلك النحل.

وقد نقل عن بعض الصيّادين في كتاب «طبائع الحيوان» أنّ الحبارى تقاتل الأفعى فتنهشه الأفعى فتنهزم من الأفعى إلى بقلة تتناول منها ثمّ تعود وتقتل الأفعى وتأكله وقد نقل شيخ أنّه كان قاعداً في كنّ غار وكانت تلك البقلة قريبة من الغار من مكامن الحبارى فلمّا اشتغل الحبارى بالأفعى قلع الشيخ البقلة فعادت الحبارى إلى منبت البقلة لكي تأكلها وتتداوى بها ففقدته وأخذت تدور حول منبتها دوراناً متتابعاً حتّى خرّت ميّتة فعلم الشيخ أنّها تتعالج بأكلها من اللسعة وتلك البقلة هي الجرجر البرّيّ.

وكذلك القنافذ تحسّ بالعواصف من الشمال والجنوب قبل الهبوب فتغيّر المدخل إلى جحرها وكان بالقسطنطنيّة رجل قد أثرى وتموّل بسبب أنّه كان ينذر بالرياح قبل هبوبها وينتفع من الناس بهذا الإنذار وكان السبب فيه قنفذا في داره يفعل الصنيع المذكور فيستدلّ الرجل به.

وكذلك اللقالق إذا جرحت بعضها بعضاً داوت جراحها بالصعتر الجبليّ وكذلك ابن عرس يستظهر في قتال الحيّة بأكل السداب فإنّ النكهة السدابيّة ممّا تنفر منها الأفاعيّ وتعجز منها وكذلك الغرانيق تصعد في الجوّ جداً عند الطيران فإن حجب بعضها عن بعض ضباب أو سحاب أحدثت عن أجنحتها حفيفاً مسموعاً يلزم به بعضها بعضاً وإذا نامت وانتصرت على جبل فإنّها تضع رؤوسها تحت أجنحتها إلّا القائد فإنّه ينام مكشوف الرأس يسرع إليه

انتباهه فإذا سمع صوتاً صاح. وحال النمل معلوم في الذهاب إلى مواضعها على خطّ مستقيم.

وبالجملة فكلّ ما عداه سبحانه من الفلك والملك شواهد قدرته وألوهيّته وناطق بوحدانيّته وهو سبحانه كما قال سيد الشهداء عليه السلام في دعاء عرفة: «**متى غبت حتى تحتاج إلى شهود**».[1]

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أي: عالم بأفعالهم والفعل يعمّ الجزئيّ والكلّيّ وهذا الكلام ردّ على من يزعم أنّه سبحانه غير عالم بالجزئيّات.

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وكيف لغيره ولا يقدر على خلقها غيره ولا يصحّ إلّا له سبحانه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ المرجع يوم القيامة.

ثمّ قال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ ألم تر أنّه يسوق بأمره السحاب سوقاً رفيقا إلى حيث يريد ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ﴾ ويضمّ بعضه إلى بعض فيجعل القطع المتفرّقة منه قطعة واحدة ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا﴾ متراكما متراكبا بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ وترى المطر يخرج من خلال السحاب ومن مخارج القطر من السحاب، والسحاب واحد في اللفظ ومعناه الجمع والركم جمع الشيء فوق الشيء وخلال جمع خلل مثل جبال جمع جبل أي: يجري المطر من مخارق السحاب وشقوقه وكلّ ذلك من التأليف والتراكم وسوق السحاب وتحمّل السحاب الماء الكثير من عجائب قدرته وخلقه.

وقال أهل الطبائع: إنّ تكوّن السحاب والمطر والثلج والبرد والطلّ والصقيع يكون من تكاثف البخار في الأكثر والأقلّ من تكاثف الهواء فقالوا: البخار الصاعد إن كان قليلاً وكان في الهواء من الحرارة ما يحلّل ذلك البخار

١ـ انظر: بحار الأنوار، ج ٩٥، ص ٢٢٦؛ وموسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، ص ٩٥٩؛ ومستدرك سفينة البحار، ج ٧، ص ٤١.

فتلك الأبخرة تنحلّ وتنقلب هواء وإن كان البخار كثيراً ولم يكن في الهواء من الحرارة ما يحلّل ذلك البخار فتلك الأبخرة المتصاعدة إمّا أن تبلغ في صعودها إلى الطبقة الباردة من الهواء أو لا تبلغ فإن بلغت فإمّا أن يكون البرد هناك قويّاً أو لا يكون فإن لم يكن البرد قويّاً تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد واجتمع وتقاطر فالبخار المجتمع هو السحاب والمتقاطر هو المطر والديمة والوابل إنّما يكون من أمثال هذه الغيوم وإمّا أن يكون البرد شديداً فلا يخلو إمّا أن يصل البرد إلى الأجزاء البخاريّة قبل اجتماعها حبّات كباراً أو بعد صيرورتها كذلك فإن كان وصل البرد قبل اجتماعها نزل ثلجاً وإن كان وصل البرد بعد اجتماعها نزل برداً هذا كلّه إذا بلغت الأبخرة في الصعود إلى الطبقة الباردة.

وأمّا إذا لم تبلغ فهي إمّا أن تكون كثيرة أو تكون قليلة فإن كانت كثيرة فهي قد تنعقد سحاباً ماطراً وقد لا تنعقد أمّا الأوّل وهو الماطر فذاك لأحد أسباب عديدة:

أحدها: إذا منع هبوب الرياح عن تصاعد تلك الأبخرة أو يتّفق أن يكون الرياح متقابلة متصادمة تمنع صعود الأبخرة حينئذ وضاغطة إيّاها إلى الاجتماع بسبب وقوع جبال قدام الريح أو أن يعرض بها شدّة برد الهواء القريب من الأرض كما أنّه يشاهد بعض الأحيان البخار يصعد في بعض الجبال صعوداً يسيراً حتّى كأنّه مكبّ موضوع على وهدة ويكون الناظر إليها فوق تلك الغمامة والّذين يكونون تحت الغمامة يمطرون والّذين فوقها يكونون في الشمس وأمّا إذا كانت الأبخرة القليلة الارتفاع قليلة لطيفة فإذا ضربها برد الليل كثفها وعقدها ماء محسوساً فنزل نزولا متفرّقاً لا يحسّ به إلّا عند الاجتماع إلى مقدار معتدّ به فإن لم يجمد كان طلّا وإن جمد كان صقيعا ونسبة الصقيع إلى الطلّ بسنّة الثلج إلى المطر.

والجواب أنّا لمّا سلّمنا حدوث الأجسام ودلّلنا أنّ إحداثها وإيجادها بحكم القادر المختار لم يمكننا القطع بما ذكروه لاحتمال أنّه سبحانه خلق أجزاء السحاب دفعة لا بالطريق الّذي ذكروه وهب أنّ الأمر كما ذكرتموه ولكنّ الأجسام بالاتّفاق ممكنة في ذواتها فلابدّ لها من مؤثّر ثمّ إنّها متماثلة فاختصاص كلّ واحد منها بصفة معيّنة من الصعود والنزول واللطافة والكثافة والحرارة والبرودة لابدّ لها من جاعل ومخصّص فإذا كان هو سبحانه خالقاً لتلك الطبائع وتلك الطبائع مؤثّرة في هذه الأحوال فخالق السبب خالق المسبّب فكان سبحانه هو الّذي يزجي السحاب لأنّه هو الّذي خلق تلك الطبائع المحرّكة لتلك الأبخرة من باطن الأرض إلى جوّ الهواء فثبت على جميع التقادير أنّ وجه الاستدلال بهذه الأشياء على الخالق القادر ظاهر بيّن.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ أي: وينزّل من جبال في السماء تلك الجبال من البرد خلقها الله تعالى كذلك ثمّ ينزل منها ما شاء وهذا القول عليه أكثر المفسّرين وقيل: إنّ المراد من السماء الغيم المرتفع على رءوس الناس سمّي بذلك لسموّه وارتفاعه وإنّه تعالى أنزل من هذا الغيم الّذي هو سماء البرد وأراد بقوله: ﴿مِن جِبَالٍ﴾ السحاب العظام لأنّها إذا عظمت أشبهت الجبال كما يقال: فلان يملك جبالا من مال أوله بيتان من التبر، ووصفت بذلك توسّعاً.

وقال بعض المفسّرين: إنّما سمّى الله ذلك الغيم جبالا لأنّه سبحانه خلقها من البرد وكلّ جسم شديد متحجّر فهو من الجبال فطبعه وخلقته كذلك ومنه قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1] ومنه فلان مجبول على كذا، أي: مطبوع.

١ـ سورة الشعراء: ١٨٤.

قال أبو عليّ الفارسيّ قوله تعالى: ﴿مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ فمن الأولى لابتداء الغاية لأنّ ابتداء الإنزال من السماء والثانية للتبعيض لأنّ ما ينزله بعض تلك الجبال الّتي في السماء والثالثة للتبيين لأنّ جنس تلك الجبال جنس البرد ويمكن أن يكون البرد يجتمع في السحاب كالجبال ثمّ ينزل منها.

﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ أي: بالبرد ﴿مَن يَشَاءُ﴾ فيهلك زرعه وماله ﴿وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ ويدفع ضرره عمّن يشاء ويعلم المصلحة بدفعه وضرره فيكون إصابته نقمة ودفعه نعمة وفي «الكافي» عن الصادق عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السّلام قال: **«قال رسول الله ﷺ: إنّ الله سبحانه جعل السحاب غرابيل للمطر هي تذيب البرد لكي لا يضرّ شيئاً يصيبه والّذي ترون فيه من البرد والصواعق نقمة من الله تعالى يصيب بها من يشاء من عباده».**[1] وفيه عنه عليه السلام: **«البرد لا يؤكل[2] لأنّ الله يقول: يصيب به من يشاء».**[3]

وفي حديث يذكر فيه الرياح قال: **«وبها يتألّف المفترق وبها يفترق الغمام المطبق حتّى ينبسط في السماء كيف يشاء ويدبّره فيجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله بقدر معلوم لمعاش مفهوم وأرزاق مقسومة وآجال مكتوبة».**[4] وفي «الفقيه» عن الباقر عليه السلام في حديث يذكر فيه أنواع الرياح قال: **«ومنها رياح تحبس السحاب بين السماء والأرض ورياح تعصر السحاب فتمطره بإذن الله ورياح تفرّق السحاب».**[5]

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ أي: يقرب ضوء برق السحاب من أن

١ـ الكافي، ج ٨، ص ٢٤٠؛ وبحار الأنوار، ج ٥٦، ص ٣٨١.

٢ـ الكافي، ج ٦، ص ٣٨٨ ووسائل الشيعة (الإسلامية)، ج ١٧، ص ٢١١.

٣ـ سورة الرعد: ١٣.

٤ـ بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٩١؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٤٤٠. وتفسيرنور الثقلين، ج ٣، ص ٦١٤.

٥ـ من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٥٤٦؛ وبحار الأنوار، ج ٥٧، ص ١٣.

يذهب بالبصر ويخطفه بشدّة لمعانه نوره كما قال: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾(١) وقرئ برقة جمع برقة و«سنا» قرئ ممدوداً ومقصوراً أي: يقرب ضوؤه العالي المرتفع يذهب بالأبصار والتاء زائدة ووجه الاستدلال بقوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ أنّ البرق الّذي يكون صفته ذلك لابدّ وأن يكون ناراً عظيمة خالصة كما أنّه قد شوهد مراراً أنّ البرق تحرق الحديد الصلب والشجرة المثمرة والنار ضدّ الماء فظهوره من البرد حصل ظهور الضدّ من الضدّ ولا يكون ذلك إلّا لقوّة قاهرة من القادر الحكيم.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ويصرفهما في اختلافهما وتعاقبهما وإدخال أحدهما في الآخر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ التقليب ﴿لَعِبْرَةً﴾ ودلالة ﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي: لذوي العقول والبصائر.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ لمّا استدلّ سبحانه على التوحيد من آثار العلويّة استدلّ في هذه الآية من آثار الحيوانيّة فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ﴾ وهاهنا سؤالات: منها أنّه لم قال اللّه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ مع أنّ كثيراً من الحيوانات غير مخلوقة من الماء أمّا الملائكة فهم من أعظم الحيوانات عدداً وهم مخلوقون من نور وأمّا الجنّ فهم مخلوقون من النار وخلق اللّه آدم من تراب وخلق عيسى من الريح لقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾(٢) وأيضاً إنّ كثيراً من الحيوان متولّد لا من النطفة.

وأجابوا بأجوبة والأحسن ما قاله القفّال المروزيّ وهو أنّ قوله ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ صلة ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ وليس هو من صلة «خلق» والمعنى أنّ كلّ دابّة متولّدة من الماء فهي مخلوقة للّه.

١ـ سورة البقرة: ٢٠.

٢ـ سورة الأنبياء: ٩١.

والجواب الثاني: أنّ أصل جميع المخلوقات الماء على ما يروى: أوّل ما خلق اللّه جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ثمّ من ذلك الماء خلق النار ومنها الجنّ والهواء والنور ومنه خلق الملائكة ولمّا كان المقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة وكان الأصل الأوّل هو الماء لا جرم ذكره على المذكور.

والجواب الثالث: أنّ المراد من الدابّة الّتي تدبّ في الأرض ومسكنهم هناك فيخرج عنه الملائكة والجنّ ولمّا كان الغالب جدّاً من هذه الحيوانات كونهم مخلوقين من الماء أمّا لأنّها من النطفة متولّدة وإمّا لأنّها لا تعيش إلّا بالماء لا جرم أطلق لفظ الكلّ تنزيلاً للغالب منزلة الكلّ توسّعاً.

﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحيّة والدود والحوت ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس والدجاج والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام والوحوش والسباع ولم يذكر ما يمشي على أكثر لأنّ العبرة بالأربع. قال الحكماء: كلّ ماله قوائم كثيرة فإنّ اعتماده إذا سعى على أربعة قوائم فقط ولو أنّ له أربعة وأربعون رجلاً كالّذي يسمّى دخّال الاذن وكالعناكب على أنّ الأقلّ النادر ملحق بالعدم فلا يلزم ذكره.

﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ من أصنافها تشترك في أعضاء وتتباين في أعضاء كالإنسان والفرس تشترك الفرس مع الإنسان في اللحم والعصب والعظم مثلاً وتتباين منه في الوضع من الذنب والسلحفاة مثلاً مع العصفور أو الاختلاف في غلبة عنصر على عنصر فبعضها لجيّة وبعضها شطيّة وبعضها طينيّة وبعضها صخريّة وأيضاً منها ما يعتمد في غوصه على رأسه وفي السباحة على رجليه كالضفدع ومنها ما يمشي في قعر الماء كالسرطان.

وأيضاً حيوانات البرّيّة متغايرة أحوالها منها يتنفّس من طريق واحد كالفم والخيشوم ومنها ما لا يتنفّس كذلك بل على نحو آخر من مسامّه كالنحل والزنبور. وأيضاً من الحيوانات يختلف عاداتها فبعضها تتعايش معا كالإنسان وفي الطيور كالكراكي والغربان وبعضها يؤثر التفرّد كالطيور الجارحة والعقاب وأمثالها وبعض الحيوان هو الّذي لا يمكنه أن يعيش بتفرّد وأسباب معيشته تلتئم بالمشاركة المدنيّة كالنحل والنمل والغرانيق.

وكذلك الاختلاف واقع في الحيوان من حيث الأكل فمنهم آكل كلّ لذيذ مثل الإنسان ومنها آكل لحم كالجوارح ومنها لا قط حبّ ومنها آكل عشب ومنها ما يكون غذاؤه زهر كالنحل.

وأيضاً فللحيوانات تقسيم آخر فمنها ما هو انسيّ بالطبع كالإنسان والهرّة والفرس ومنها ما لا يأنس كالنمر والأسد.

وكذلك فبعضها هادئ الطبع قليل الغضب مثل البقرة وبعضها شديد الجهل حادّ الغضب كالخنزير البرّيّ وبعضها حليم خدوع كالبعير وبعضها قويّ مغتال كالذئب وبعضها غضوب سفيه إلّا أنّه ملق متردّد كالكلب وبعضها حسود متباه كالطاووس.

والتقسيم الآخر: أيضاً من الحيوان ما أن تلد انثاه حين ما تلد حيواناً وبعضها ما تناسله حين ما تلد انثاه بيضا والعقول قاصرة عن الإحاطة بها على سبيل الكمال.

فحينئذ وجه الاستدلال بها على الصانع القادر المختار ظاهر لأنّه لو كان الأمر بتركيب الطبائع الأربع فذلك بالنسبة إلى الكلّ على السويّة فاختصاص كلّ واحد من هذه الحيوانات بأعضائها وقواها وكيفيّة أبدانها واختلاف خلقها وخلقها لابدّ وأن يكون بتدبير مدبّر قاهر حكيم إنّ اللّه على هذه الأمور قادر

دون غيره مع اتّفاق أصلها ابتداء أنّ أصلها من الماء.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ ودلالات واضحات ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وهو قابل للإيمان وليس به جحود ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو طريق الجنّة.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

لمّا ذكر دلائل التوحيد أتبعه بذمّ المنافق والّذي يعترف بلسانه ولكن لا يقبل بقلبه.

قال مقاتل نزلت هذه الآية في حقّ بشر المنافق وكان قد خاصم يهوديّاً في أرض وكان اليهوديّ يجرّه إلى رسول الله ليحكم بينهما وجعل بشر يجرّه إلى كعب بن الأشرف ويقول: إنّ محمّداً يحيف علينا.

وقال الضحّاك: نزلت الآية في المغيرة بن وائل كان بينه وبين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أرض فتقاسما فوقع إلى عليّ من الأرض ما لا يصيبه الماء إلّا بمشقّة، فقال المغيرة: بعني أرضك فباعها إيّاه وتقابضا فقيل للمغيرة: أخذت سبخة لا ينالها الماء. فقال لعليّ عليه السلام: اقبض أرضك فإنّما اشتريتها إن رضيتها ولم أرضها فلا ينالها الماء فقال عليّ عليه السلام: «**اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك**». ودعاه أن يخاصمه إلى رسول الله فقال المغيرة: أمّا محمّد فلست آتيه ولا أحاكم إليه فإنّه يبغضني وإنّي أخاف أن يحيف عليّ فنزلت الآية.[1]

المعنى: ويقولون بلسانهم: صدّقنا بتوحيد الله وبإطاعة الرسول ثمّ

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٤، ص ٢٠؛ وتفسير الآلوسي، ج ١٨، ص ١٩٤.

يعرض عن طاعتهما طائفة منهم بعد قولهم: آمنّا وما أولئك الّذين يدّعون الإيمان ثمّ يعرضون عن حكم الله ورسوله بالمؤمنين.

وفي الآية دلالة على أنّ الإيمان ليس بمجرّد القول إذ لو كان كذلك لما سمع النفي بعد الإثبات.

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى﴾ كتاب ﴿ٱللَّهِ﴾ وشريعة نبيّه ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ﴾ أي: إذا عرفوا أنّ الحكم لهم لا عليهم عدلوا عن الإعراض بل سارعوا إلى الحكم وأذعنوا ببذل الرضا. والحاصل أنّه ليس لهم اتّباع الحقّ وإنّما يريدون النفع المعجّل وذلك هو النفاق.

أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ (٥٢)

المعنى: أي: هل ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾ شكّ من نبوّتك ونفاق وهو استفهام يراد به الخبر لأنّه أشدّ في التوبيخ وأثبت للتقرير كما قال جرير:

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾ في عدلك ورأوا منك ما رابهم لأجله أمرك ﴿أَمۡ يَخَافُونَ أَن﴾ يجور ﴿ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ ويميل رسوله في الحكم ويظلمهم لأنّه لا وجه في الامتناع عن المجيء إلّا أحد هذه الأوجه الثلاثة.

فلو قيل: إنّهم لو خافوا أن يحيف الله عليهم فقد ارتابوا في الدين وإذا ارتابوا ففي قلوبهم مرض فالكلّ واحد فأيّ فائدة في التعديد والتقسيم؟

فالجواب أنّ قوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم﴾ إشارة إلى مرض القلب وهو النفاق وقوله: ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ بيان إلى أنّه حدث هذا الشك بعد تقرير الإسلام في القلب وقوله: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إشارة إلى أنّهم بلغوا من حيث الدنيا إلى حيث امتنعوا عن الدين وقبوله بسبب الدنيا فالذمّ يتعلّق بكلّ من هذه الثلاثة وكلّ واحد منها كفر.

فبيّن سبحانه بقوله: ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بطلان ما هم عليه لأنّ الظلم يتناول كلّ معصية وأعظمه الشرك كما قال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] وبما أن نسبوا الحيف والظلم في الحكم إلى الرسول أبطل سبحانه قولهم ونسب الظلم إليهم.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: المؤمن من كان إذا يدعى لحكم الله والرسول يمتثل ويقول: سمعت وأطعت وإن كان ذلك الحكم فيما يكرهه ويضرّه ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وروي عن الباقر عليه السلام: **«انّ المعنيّ بالآية عليّ بن أبي طالب»**.[2]

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمره ونهاه عنه ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ عقابه ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ ويخاف عذابه باجتناب معاصيه وبامتثال أوامره وقرئ و«يتّقه» بسكون القاف وكسر الهاء ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالثواب وقيل: المعنى ويخشى الله في ذنوبه الّتي عملها ويتّقه فيما بعد.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ

١ـ سورة لقمان: ١٣.

٢ـ نور الثقلين، ج ٣، ص ٦١٦؛ وتفسير فرات، ص ٢٨٨؛ ومجمع البيان، ج ٧، ص ٢٦٣.

إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ
دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا
يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ المعنى: لمّا بيّن الله في الآية السابقة كراهة المنافقين عن حكم الرسول أتوا إلى الرسول فقالوا: والله لئن أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا وأجهدوا في اليمين فأمر الله نبيّه بقوله: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ ولو كان يمينهم على حسب الواقع والصدق لم يجز النهي عنه لأنّ من حلف على القيام بالبرّ والواجب لا يجوز أن ينهى عنه ومن نوى الغدر لا الوفاء فقسمه لا يكون إلّا قبيحاً.

﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ إذا كانت مرفوعة فهي خبر لمبتدء محذوف أي: المطلوب طاعة معروفة لا أيمان كاذبة أو مبتدأ خبره محذوف أي: طاعة معروفة أمثل من يمينكم أو التقدير: عليكم بطاعة معروفة وعلى النصب أي: أطيعوا طاعة معروفة صحّته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ﴾ بأعمالكم من طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل.

ثمّ أكّد أمر الطاعة فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما أمركم به ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ فيما آتاكم به واحذروا مخالفته ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أصله تتولّوا عن طاعة الله ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي: على الرسول ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من أداء الرسالة وكلّف ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ من المتابعة ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ أي: الرسول ﴿تَهْتَدُوا۟﴾ إلى الرشد والصلاح والجنّة.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وبيان الشريعة وليس عليه الاهتداء وإنّما ذلك عليكم ونفعه راجع إليكم والمبيّن البيّن الواضح والموضح لما بكم

الحاجة إليه. في «الكافي» عن الصادق عليه السلام في خطبة في وصف النبي صلى الله عليه وآله قال: «وأدّى ما حمّل من أثقال النبوة».[1] وعن الباقر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله يا معاشر قرّاء القرآن اتّقوا الله عزّ وجلّ فيما حمّلكم من كتابه فإنّي مسؤول وإنّكم مسؤولون، إنّي مسؤول عن تبليغ الرسالة وأمّا أنتم فتسألون عمّا حمّلتم من كتاب الله وسنّتي».[2]

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ليجعلنّهم خلفاء بعد نبيّكم صلى الله عليه وآله ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: وصاة الأنبياء ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهو الإسلام ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ من الأعداء ﴿أَمْنًا﴾ منهم ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ ولا يخافون غيري ولا يراءون بعبادتي أحداً والمثل بقوله: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل بني إسرائيل إذ أهلك الله الجبابرة بمصر والشام فأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم.

وعن أبيّ بن كعب قال: لمّا قدم رسول الله وأصحابه المدينة وآواهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة وكان الأنصار لا يبيتون إلّا مع السلاح ولا يصبحون إلّا في السلاح وقالوا: أترون أنّا نعيش حتّى نبيت آمنين مطمئنّين لا نخاف إلّا الله فنزلت هذه الآية.

والمراد بالأرض في قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قيل: إنّه أراد بالأرض أرض مكّة لأنّ المهاجرين كانوا يسألون ذلك وقد فعل الله لهم ومكّنهم من إظهار دينه بعد أن كانوا يخافون من أذى المشركين وفعل بمن كان بعدهم من هذه الأمّة وأبدلهم بالخوف أمناً وبسط لهم في الأرض وأنجز موعدته لهم.

١ـ الكافي، ج ١، ص ٣.

٢ـ الكافي، ج ٢، ص ٦٠٦؛ وبحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٨٣؛ والصافي، ج ١، ص ١٧.

وقيل: معنى الآية في قوله تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ﴾ أي: بعد خوفهم في الدنيا من الله أمنا في الآخرة ويعضده ما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال حاكياً عن الله سبحانه: «إنّي لا أجمع بين خوفين ولا بين أمنين إن خافني في الدنيا أمنته في الآخرة».[1]

تحقيق: وهو أنّ الآية تدلّ على أنّه سبحانه يعلم الأشياء قبل وقوعها خلافاً لهشام بن الحكم فإنّه قال: لا يعلمها قبل وقوعها ووجه الاستدلال به أنّه سبحانه أخبر عن وقوع شيء في المستقبل إخباراً على التفصيل وقد وقع المخبر مطابقاً للخبر ومثل هذا لا يصحّ إلّا مع العلم.

وكذلك تدلّ الآية على أنّه حيّ قادر لأنّه قال: ليستخلفنّهم، إلخ. وقد فعل كلّ ذلك ولو لا القدرة لما صدر هذه الأمور.

وقالت المعتزلة: إنّ الآية تدلّ على أنّ فعل الله معلّل بالغرض لأنّ المعنى في الآية: لكي يعبدونني ويريد من الكلّ العبادة لأنّ من فعل فعلاً لغرض فلابدّ وأن يكون مريداً لذلك الغرض.

وأيضاً دلّت الآية على صحّة نبوّة محمّد ﷺ لأنّه أخبر بالغيب وعن وقوع أمر سيقع وهو دليل صدقه وإعجازه.

فإن قيل: إنّ الآية فيها دلالة على استخلاف الأئمّة الأربعة لأنّه سبحانه قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والمراد من الحاضرين في زمان محمّد وهذا الوعد بعد الرسول لهؤلاء الخلفاء لأنّه لا نبيّ بعده فالمراد بالاستخلاف الإمامة.

فالجواب أنّ الآية لو كانت كما زعموها فيلزم حصول الخلافة لكلّ من آمن وعمل صالحاً لأنّ ظاهر الآية يشمل العموم وغير مخصوص بهؤلاء الأربعة فثبت

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٦٦؛ ونور الثقلين، ج ٣، ص ٦٢٠.

أنّ المراد غير ذلك وليست هذه الآية حجّة على صحة خلافتهم وإنّما صحة خلافة عليّ عليه السلام بآيات عديدة ونصوص من الرسول في مواضع عديدة.

﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: ومن ارتدّ وكفر هذه النعمة وجحدها من بعد ما أنعمنا عليه ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ذكر الفسق بعد الكفر مع أنّ الكفر أعظم من الفسق لأنّ الفسق في كلّ شيء هو الخروج إلى أكثره والمعنى أولئك هم الخارجون إلى أقبح وجوه الكفر.

والمرويّ عن أهل البيت عليهم السّلام أنها في المهديّ من آل محمّد عليهم السلام[1] وروى العيّاشيّ بإسناده عن عليّ بن الحسين عليه السلام أنه قرأ الآية قال: «**هم والله شيعتنا أهل البيت والله يفعل الله ذلك بهم على يد رجل منّا وهو مهديّ هذه الأمّة وهو الّذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتّى يتولّى رجل من عترتي اسمه اسمي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً**». وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.

فعلى هذا يكون المراد بالّذين آمنوا وعملوا الصالحات النبيّ وأهل بيته المخصوصين وتضمّنت الآية البشارة بالتمكّن والاستخلاف لهم وارتفاع الخوف عنهم عند قيام المهديّ ويكون منهم فحينئذ المراد بقوله سبحانه: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هو أن جعل الصالح للخلافة خليفة لا من لا يصلح لها مثل آدم عليه السلام وداود وسليمان ولو لم يكونوا صالحين للخلافة لما سمّاهم خليفة مثل قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2] وقوله: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾[3] وقوله: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٦٧؛ والصافي، ج ٣، ص ٤٤٤.

٢ـ سورة البقرة: ٣٠.

٣ـ سورة ص: ٢٦.

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[1] والمراد بالحكمة النبوّة وعلى هذا إجماع العترة الطاهرة أي: الأئمّة الاثنا عشر حجّة لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض».[2]

وهاهنا تحقيق آخر وهو أنّ التمكين في الأرض على الإطلاق لم يتّفق فيما مضى فهو منتظر لا محالة لأنّ الله لا يخلف وعده. وفي «الإكمال» عن الصادق في قصّة نوح عليه السلام وذكر انتظار المؤمنين من قومه الفرج حتّى أراهم الله الاستخلاف والتمكين قال عليه السلام: «وكذلك القائم عليه السلام فإنّه يمتدّ أيام غيبته ليصرح الحق عن محضه ويصفو الإيمان من الكدر بارتداد كلّ من كانت طينته خبيثة إذا أحسّوا بالاستخلاف والأمر المنتشر في عهد القائم»، قال الراوي: فقلت: يا ابن رسول الله فإنّ هؤلاء يزعمون أنّ هذه الآية نزلت في حقّ من مضى من الخلفاء الأربعة قال: «لا متى كان الّذين الّذي ارتضاه الله ورسوله متمكّناً بانتشار الأمن في الأمّة وذهاب الخوف عن قلوبها وارتفاع الشكّ من صدورها في عهد واحد من هؤلاء حتّى في عهد عليّ عليه السلام وارتداد المسلمين والفتن الّتي كانت تثور في أيّامه والحروب الّتي كانت تنشب بين الكفّار وبينهم».[3] وروى المقداد عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «لا يبقى على الأرض بيت مدر ولا وبر إلّا أدخله الله كلمة الإسلام بعزّ عزيز أو ذلّ ذليل إمّا أن يعزّهم الله فيجعلهم من أهلها وإمّا أن يذلّهم فيدينون بها».[4]

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

١ـ سورة النساء: ٥٤.

٢ـ عيون أخبار الرضا، ج ١، ص ٦٨؛ وج ٢، ص ٢٠٨؛ وكمال الدين، ص ٦٤.

٣ـ كمال الدين، ص ٣٦٥؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٤٤٥؛ وبحار الأنوار، ج ٥١، ص ٢٢٢.

٤ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٤٥؛ والتبيان، ج ٧، ص ٤٥٥؛ والصافي، ج ٢، ص ٢٣٩.

ثمّ أمر سبحانه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة أوامر رسوله لترحموا جزاء على ذلك وتثابوا بالنعم الجزيلة ثمّ قال: يا محمّد وأيّها السامع لا تحسبوا أنّ الّذين كفروا سابقين فائتين في الأرض يقال: طلبته فأعجزني أي: سبقني وما قدرت عليه أي: لا تظنّ أنّ الكافر يفوتني.

ومستقرّهم ﴿وَمَأْوَنٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: بئس المستقرّ وإنّما وصفها بذلك وإن كانت حكمة وصوابا من فعل الله لما ينال الصائر إليها من الشدائد والآلام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

المعنى: لمّا تقدّم أحكام النساء والرجال في الآيات السابقة من السورة استثنى سبحانه أوقاتا من الدخول قبل الاستيذان فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مروا عبيدكم وإماءكم أن يستأذنوا عليكم إذا أرادوا الدخول في خلواتكم عن ابن عبّاس وفي أخبارنا: أراد العبيد خاصّة، عن ابن عمر وهو المرويّ عن الباقر والصادق عليهما السلام[1] وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام: «**هي خاصّة للرجال دون النساء**». قيل: فالنساء يستأذنّ في هذه الثلاثة ساعات؟ قال: «**لا**

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٦٩؛ ووسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٦١.

ولكن يدخلن ويخرجن»[1] وفي رواية أخرى: هم المملوكون من الرجال والنساء والصبيان.[2]

وأمّا أهل الجماعة قال القاضي: قوله: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ وإن كان ظاهره الرجال فالمراد به الرجال والنساء.

قال الرازي[3]: ظاهر قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ يدخل فيه البالغون والصغار وحكي عن ابن عبّاس أنّ المراد الصغار واحتجّوا بأنّ الكبير من المماليك ليس له أن ينظر إلّا إلى ما يجوز للحرّ أن ينظر إليه. قال ابن المسيّب: لا ينبغي للمرأة أن ينظر عبدها إلى قرطها وشعرها وشيء من محاسنها.

وقال آخرون: بل البالغ من المماليك له أن ينظر إلى شعر مالكه وما شاكله قالوا: وظاهر الآية يدلّ على اختصاص عبيد المؤمنين والأطفال من الأحرار بإباحة ما حظره اللّه من قبل على جماعة المؤمنين بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ فإنّه أباح لهم إلّا في الأوقات الثلاثة.

وبالجملة قال بعضهم: نزلت هذه الآية في أسماء بنت أبي مرثد قالت: إنّا لندخل على الرجل والمرأة ولعلّهما يكونان في لحاف واحد وقيل: دخل عليهما غلام لها كبير في وقت كرهت دخوله فيه فأتت رسول اللّه صلّى الله عليه وآله فقالت: إنّ خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في وقت نكرهها فنزلت الآية.[4]

قال ابن عمرو مجاهد: قوله: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ عنى به الذكور دون الإناث لأنّ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ صيغة الذكور وهذا القول مطابق لما ورد عن الصادق والباقر عليهما السلام وهو الصحيح.

١ـ الكافي، ج ٥، ص ٥٣٠.

٢ـ الكافي، ج٥، ص٥٣٠؛ وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٦٠.

٣ـ تفسير الرازي، ج ٢٤، ص ٢٨.

٤ـ تفسير الثعلبي، ج ٧، ص ١١٦؛ وتفسير الرازي، ج ٢٦، ص ٢٩.

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ أي: الّذين لم يبلغوا من أحراركم وأراد الصبيّ الّذي يميّز بين العورة وغيرها فحينئذ قال الجبّائيّ: الاستيذان واجب على كلّ بالغ وكلّ حالة وعلى الأطفال في هذه الأوقات الثلاثة بظاهر الآية ثلاث مرّات في ثلاث أوقات من ساعات الليل والنهار.

ثمّ فسّرها سبحانه بقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ وذلك أنّ الإنسان ربّما يبيت عرياناً أو على حال لا يحبّ أن يراه غيره في تلك الحالة والوقت الثاني: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾ يريد عند إلقائها للقائلة والوقت الثالث: ﴿وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ الآخرة حين يأوي الرجل إلى امرأته ويخلو بها وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام قال: «منكم» أي: من أنفسكم قال: «عليكم الاستيذان من قد بلغ في هذه الساعات الثلاثة».[1] لأنّها أوقات التجرّد عن الثياب وأوقات الخلوة والالتحاف وطرح الثياب.

﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ﴾ المعنى هنّ أي: الأوقات ثلاث عورات جمع عورة والقاعدة أنّ ما كان على فعلة من الأسماء تحريك العين في الجمع إلّا أنّ العرب كرهوا تحريك العين فيما كان عينه واوا أو ياء لما كان يلزم من الانقلاب إلى الألف ولذلك أسكنوا.

وإنّما سمّيت هذه الأوقات عورات لأنّ الإنسان في هذه الأوقات الثلاثة غالبا يضع ثيابه وجلبابه فتبدو عورته قال البعض: كان أناس من الصحابة يعجبهم أن يواقعوا نساءهم في هذه الأوقات ليغتسلوا[2] ثمّ يخرجون إلى الصلاة فأمرهم اللّه أن يأمروا غلمانهم والمملوكين أن يستأذنوا في هذه الساعات المخصوصة.

١ـ الكافي، ج ٥، ص، ٥٣٠.

٢ـ وعليه فلا وجه للوقت الثالث فإنه بعد صلاة العشاء.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: المؤمنين الأحرار ﴿وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: الخدم والغلمان ﴿جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: حرج في أن لا يستأذنوا في غير هذه الأوقات الثلاثة ثمّ بيّن العلّة بقوله تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ أي: هم خدمكم فلا يجدون بدّاً من دخولهم عليكم في غير هذه الأوقات ويتعذّر عليهم الاستيذان في كلّ وقت لأنّهم أهل الخدمة ليلاً ونهاراً ولابدّ من طواف المماليك على الموالي.

﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فيطوف بعضكم وهم المماليك على بعض وهم الموالي والطوّاف الّذي يكثر الدخول والخروج والتردّد ورفع بعضكم على الابتداء أي: بعضكم طائف على بعض وإنّما حذف لأنّ طوّافون يدلّ عليه وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام[1]: **«ويدخل مملوككم وغلمانكم من بعد هذه الأوقات الثلاثة بغير إذن إن شاء».**

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: مثل ما بيّن لكم ما تعبّدكم به أيضاً يبيّن الله في هذه الآيات الأحكام والله عليم بمصالحكم حكيم فيما يفعله.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ المعنى أنّ الأحرار ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ في جميع الأوقات إذا كبروا وبلغوا حدّ الاحتلام ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأحرار الرجال الكبار الّذين أمروا بالاستيذان على كلّ حال في الدخول عليكم وحاصل المعنى أنّ البالغ يستأذن في كلّ الأحوال والأوقات وأمّا الطفل والعبد يستأذنان في الأوقات الثلاثة قال سعيد بن المسيّب: ليستأذن الرجل على أمّه فإنّما نزلت هذه الآية في ذلك ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ مرّ تفسيره.

١ـ الكافي، ج ٥، ص ٥٣٠.

وحاصل الحكم أنّه أوجب على من بلغ الحلم الجري على سنّة من قبلهم من المستأذنين في سائر الأوقات وألحقهم بمن دخل تحت قوله: لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتّى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

قال ابن السكّيت: امرأة قاعد إذا قعدت عن الحيض وقال المفسّرون: القواعد هنّ اللواتي قعدن عن الحيض والولد من الكبر ولا مطمع لهنّ في الأزواج والأولى أن لا يعتبر قعودهنّ عن الحيض لأنّ ذلك ينقطع والرغبة فيهنّ باقية فالمراد قعودهنّ عن حال الزوج.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ وبأس ﴿أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ يعني: الجلباب فوق الخمار والرداء وقيل: ما فوق الخمار من المقانع وغيرها لا أن يكشفن عورتهنّ بل أبيح لهنّ العقود بين يدي الأجانب في ثيابهنّ من ثياب الأبدان الملاصقه ولا بأس بكشف وجهها ويدها لا كلّ الثياب ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ أي: غير قاصدات بوضع ثيابهنّ إظهار زينتهنّ والتبرّج كشف المرأة للرجل بإظهار محاسنها فإظهار الزينة في القواعد وغيرهنّ مخطور وأمّا الشابّات فإنّهنّ يمنعن من وضع الجلباب والخمار ويؤمرن بلبس أكثف الجلابيب لئلّا تريهنّ وتصفهنّ ثيابهنّ وقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال: **«للزوج ما تحت الدرع وللابن والأخ ما فوق الدرع ولغير ذي محرم أربعة أثواب درع وخمار وجلباب وإزار والخمار المقنعة»**.[1] ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ أي: واستعفاف القواعد

١ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٧١؛ والصافي، ج ٣، ص ٤٣٠.

وهو أن يطلبن العفّة بلبس الجلابيب ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّاتكم.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

الحرج الضيق مشتقّ من الحرجة وهي الشجر الملتفّ بعضه ببعض لضيق المسالك لمّا تقدّم ذكر الاستيذان عقّبه سبحانه بذكر دفع الحرج عن المؤمنين في الانبساط بالأكل والشرب فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ واختلف في تأويله على وجوه:

أحدها: أنّ المعنى ليس عليكم في مؤاكلتهم حرج لأنّهم كانوا يتحرّجون من ذلك ويقولون: إنّ الأعمى لا يرى فنأكل حينئذ الطعام دونه عن ابن عبّاس: (وهو مكفوف البصر والأعرج لا يتمكّن من الجلوس والمريض يضعف عن الأكل) فعلى هذا «على» في الآية بمعنى «في».

وثانيها: أنّ المسلمين كانوا إذا غزوا خلّفوا زمناهم في منازلهم وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا ممّا في بيوتنا فكان أولئك يتحرجون من ذلك ويقولون: لا ندخلها وهم غيّب فنفى الله

الحرج عن الزمنى في أكلهم من بيت أقاربهم أو من بيت من تدفع إليهم المفتاح إذا خرج للغزو وعن سعيد بن المسيّب والزهريّ.

وثالثها: أن المعنى ليس على الأعمى والأعرج والمريض ضيق ولا إثم في ترك الجهاد والتخلّف عنه ويكون قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كلاماً مستأنفاً فأوّل الكلام في الجهاد وآخره في رخصة الأكل عن ابن زيد والحسن والجبّائيّ.

ورابعها: أنّ العميان والعرجان والمرضى تركوا مؤاكلة الأصحّاء أمّا الأعمى كان يقول: إنّي لا أرى شيئاً فربّما آخذ الأجود وأترك الأرده وأمّا الأعرج والمريض فخافا أن يفسدا الطعام على الأصحّاء لأجل أنّ الأصحّاء يتكرّهون منهم فلذلك تركوا المؤاكلة مع الأصحّاء فنفى اللّه الحرج عنهم ورخّصهم.

وخامسها: أنّ الزمنى والعميان والمرضى رخّص اللّه لهم في الأكل من بيوت سمّاهم في الآية وذلك أنّ قوماً من أصحاب رسول اللّه كانوا إذا لم يكن عندهم ما يطعمونهم ذهبوا بهم إلى بيوت آبائهم وأمّهاتهم وقراباتهم فكان أهل الزمانة يتحرّجون من أكل ذلك الطعام لأنّه كان يطعمهم غير مالكه وكان المؤمنون يذهبون بالعميان والضعفاء إلى بيوت أزواجهم وأولادهم وقراباتهم وأصدقائهم فيطعمونهم منها فلمّا نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ﴾[1] فعند ذلك امتنع الناس وامتنعوا أن يأكلوا من طعام أحد فنزلت الآية قال بعض المفسّرين: مثل قتادة كانت الأنصار في أنفسها قذارة وكانت لا تأكل من هذه البيوت إذا استغنوا ويتحرّجون من أكله فأنزل اللّه هذه الرخصة.

١ـ سورة النساء: ٢٩.

﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ قيل: يعني: من البيوت الّتي فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل فيها بيوت الأولاد لأنّ بيت الولد كبيته لقوله ﷺ: **«أنت ومالك لأبيك».**(١) وقوله ﷺ: **«إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه وإنّ ولده من كسبه».**(٢) وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام أنّه سئل: ما يحلّ للرجل من مال ولده قال: **«قوت بغير سرف إذا اضطرّ إليه».** قيل: فقوله ﷺ للرجل الّذي قدّم أباه: **«أنت ومالك لأبيك»** فقال عليه السلام: **«إنّما جاء بأبيه إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله هذا أبي وقد ظلمني ميراثي من أمّي فأخبره الأب أنّه قد أنفقه عليه وعلى نفسه فقال ﷺ: أنت ومالك لأبيك ولم يكن عند الرجل شيء».** أو كان رسول الله ﷺ يحبس الأب للابن.(٣)

وبالجملة ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: وليس عليكم حرج أن تأكلوا من بيوتكم ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ في «الكافي» عن الصادق عليه السلام في قوله: ﴿مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ قال: **«الرجل له وكيل يقوم في ماله فيأكل بغير إذنه».**(٤)

وعن أحدهما عليهما السلام: **«ليس عليك جناح فيما أطعمت أو أكلت ممّا ملكت مفاتحه ما لم تفسده».**(٥)

والحاصل أنّ هذه الرخصة في أكل مال القرابات وهم لا يعلمون

١ـ الكافي، ج ٥، ص ١٣٥؛ وعلل الشرايع، ج ٢، ص ٥٢٤.

٢ـ عوالي اللئالي، ج ٢، ص ١١٣؛ ومجمع البيان، ج ٧، ص ٢٧٣.

٣ـ الكافي، ج ٥، ص ١٣٦؛ والاستبصار، ج ٣، ص ٤٩.

٤ـ الكافي، ج ٦، ص ٢٧٧؛ والمحاسن، ج ٢، ص ٤١٦.

٥ـ الكافي، ج٦، ص٢٧٧؛ والتهذيب، ج ٩، ص ٩٥؛ ووسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٤٣٥.

كالرخصة لمن دخل حائطاً وهو جائع أن يصيب من ثمره أو مرّ في سفره بغنم وهو عطشان أن يشرب من رسله بوسعة منه على عباده ولطفاً لهم ورغبة بهم عن دناءة الأخلاق.

وقال الجبّائيّ: إنّ الآية منسوخة بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾[١] وبقول النبيّ صلى الله عليه وآله: **«لا يحلّ مال امرء مسلم إلّا بطيبة نفسه».**[٢] ولكنّ المرويّ عن أئمّة الهدى عليهم السّلام أنّهم قالوا: **«لا بأس بالأكل لهؤلاء من بيوت ذكر الله بغير إذنهم قدر حاجتهم من غير سرف».**[٣]

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ مرّ تفسيره حيث قال: وكيل الرجل في أموره وقيل: معناه ليس حرج في الأكل من بيوت عبيدكم ومماليككم وإنّ السيّد يملك منزل عبده والمفاتح هنا الخزائن لقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾[٤].

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ رفع الحرج عن الأكل في بيت صديقه بغير إذنه إذا كان عالماً بأنّه يطيب نفسه بذلك لا أن يعلم كراهته ويأكل والصديق هو الّذي صدقك عن مودّته ولفظ الصديق يقع على الواحد والجمع قال جرير:

دعون الهوى ثمّ ارتمين قلوبنا ... بأسهم أعداء وهنّ صديق

وقال أبو عبد الله عليه السلام: **«هو والله الرجل يأتي بيت صديقه فيأكل طعامه بغير إذنه».**[٥] وروي أنّ صديقاً للربيع بن خيثم دخل منزله وأكل من طعامه فلمّا عاد الربيع إلى المنزل أخبرته جاريته بذلك فقال الربيع: إن كنت صادقة فأنت

١ــ سورة الأحزاب: ٥٣.

٢ــ انظر: من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٩٣؛ ووسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٣.

٣ــ التبيان، ج ٧، ص ٤٦٣؛ ومجمع البيان، ج ٧، ص ٢٧٣.

٤ــ سورة الأنعام: ٥٩.

٥ــ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٧٤. زبدة البيان، ص ٣٧٠.

حرة.[١] وعن ابن عبّاس: (الصديق أكثر برّاً من الوالدين لأنّ أهل جهنّم لمّا استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمّهات بل بالأصدقاء فقالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾)[٢].

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ القمّيّ عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال: «**وذلك أنّ أهل المدينة قبل أن يسلموا كانوا يعتزلون الأعمى والأعرج والمريض وكانوا لا يأكلون معهم وعزلوا لهم طعاماً على ناحية كانوا يرون في مؤاكلتهم جناح وكان الأعمى والأعرج والمريض يقولون: لعلّنا نؤذيهم إذا أكلنا فاعتزلوا مؤاكلتهم فلمّا قدم المدينة النبيّ صلى الله عليه وآله سألوه عن ذلك فأنزل الله هذه الآية:** ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ ».[٣]

وقيل: نزلت الآية في حيّ من كنانة، كان الرجل منهم لا يأكل وحده يمكث يومه فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً وربّما كانت معه الإبل الجفل فلا يشرب من ألبانها حتّى يجد من يشاربه فأعلم اللّه سبحانه أنّ الرجل إذا أكل وحده لا حرج عليه وهذا قول ابن عبّاس وقيل: كانت الأنصار إذا نزل بواحد منهم ضيف لم يأكل إلّا وضيفه معه فرخّص اللّه لهم أن يأكلوا كيف شاءوا مجتمعين أو متفرّقين.

وأشتاتاً جمع شتّ وشتّى جمع شتيت وشتّان تثنية شتّ وقيل: الشتّ مصدر بمعنى التفرّق ثمّ يوصف به ويجمع.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ المعنى أنّه تعالى جعل أنفس المسلمين كالنفس الواحدة على مثال قوله ولا تقتلوا أنفسكم قال ابن عبّاس:

١ـ المصدر السابق نفسه.

٢ـ سورة الشعراء: ١٠١.

٣ـ تفسير القمّي، ج ٢، ص ١٠٨؛ والتبيان، ج ٧، ص ٤٦٢.

(فإن لم يكن أحد فعلى نفسه فليقل: السلام علينا من قبل ربّنا وإذا دخل المسجد فليقل: السلام على رسول اللّه وعلينا من ربّنا وإن كان في البيت أهل الذمّة فليقل: السلام على من اتّبع الهدى).

﴿تَحِيَّةً﴾ نصب على المصدر تقديره: حيّوا تحيّة ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: الأمر بهذه التحيّة شرعه اللّه ومن أمر اللّه قال ابن عبّاس: من قال السلام عليكم معناه اسم اللّه عليكم. قوله: ﴿مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ أي: إنّ السلام مبارك ثابت لما فيه من الأجر والثواب فإنّهم كانوا يقولون: عم صباحاً فبيّن اللّه أنّ السلام دعاء بالسلامة من آفات الدنيا والآخرة.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: كما بيّن لكم الأحكام يفصّل ويشرح لكم الأدلّة على جميع ما يأمركم به لتعقلوا معالم دينكم.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

القمي: نزلت في قوم كانوا إذا جمعهم النبيّ ﷺ لأمر من الأمور في بعث

يبعثه أو في حرب قد حضرت يتفرّقون بغير إذنه فنهاهم اللّه عن ذلك.[1]

وحاصل المعنى: أنّ اللّه لما بيّن في الآيات السابقة كيفيّة المعاشرة والمؤاكلة من المؤمنين شرح في هذه الآية حكم المعاشرة مع النبيّ ﷺ فقال: «**ليس المؤمنون على الحقيقة إلّا الّذين صدقوا بتوحيد الله وعدله وأقرّوا بصدق رسوله**». ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي: إذا كانوا مع الرسول على أمر يقتضي الإجماع عليه والتعاون فيه من حضور حرب أو أمر مهمّ أو صلاة جمعة وعيد وخطبة وما أشبه ذلك ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ ولم ينصرفوا عن الرسول ﴿حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ إلّا بعد الإذن منه في الانصراف.

قال الكلبيّ في سبب النزول: كانﷺ يعرض في خطبته بالمنافقين ويعيبهم فينظر المنافقون يميناً وشمالاً فإذا لم يرهم أحد انسلّوا وخرجوا ولم يصلّوا وإن أبصرهم أحد ثبتوا وصلّوا خوفاً فنزلت الآية فكان بعد نزول هذه الآية لا يخرج المؤمن لحاجته حتّى يستأذن النبيّﷺ وكان المنافقون يخرجون من غير إذن.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ يا محمّد ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وهم المصدّقون على الحقيقة دون الّذين ينصرفون بغير إذن ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي: متى استأذنك المؤمنون لبعض مهمّاتهم وحاجاتهم ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ خيّر سبحانه نبيّه بين الإذن وبين أن لا يأذن وهكذا حكم من قام مقامه من الأئمة ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾ أي: اطلب المغفرة بهم من اللّه والستر على تمسّكهم بآداب اللّه في الاستيذان في مقابلة أن لم يذهبوا من غير إذنك ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ساتر للمؤمنين ذنوبهم رحيم بهم ومنعم عليهم. ثمّ أمر سبحانه جميع المكلّفين فقال: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ

١ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ١١٠؛ وبحار الأنوار، ج ١٧، ص ٢٦؛ وتفسير الصافي، ج ٣، ص ٤٥٠.

ﭐلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ اختلف في تأويله على وجوه:

أحدها: أنّه علّمهم تفخيم النبيّ في المخاطبة وأعلمهم فضله فيه على سائر البريّة أي: لا تقولوا عند دعائه: يا محمّد أو يا ابن عبد اللّه كما يدعو بعضكم بعضاً ولكن قولوا: يا رسول اللّه يا نبيّ اللّه في خفض صوت ولين وتواضع عن ابن عبّاس وجماعة.

وثانيها: أنّه نهى عن التعرّض لدعاء رسوله عليهم فالمعنى: احذروا دعاءه عليكم إذا أسخطتموه فإنّ دعاءه يجاب بغير شكّ، وليس كدعاء غيره عن ابن عبّاس في رواية أخرى.

وثالثها: أنّ المعنى ليس الّذي يأمركم به الرسول ويدعوكم إليه كما يدعو بعضكم بعضاً لأنّ في القعود عن أمره قعود عن أمر اللّه.

وفي «المناقب» عن الصادق عليه السلام: **«قالت فاطمة عليها السلام: لمّا نزلت هذه الآية هبت[1] رسول الله أن أقول له: يا أبه فكنت أقول: يا رسول الله فأعرض عنّي مرّة أو ثنتين أو ثلاثة ثمّ أقبل عليّ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: يا فاطمة إنها لم تنزل فيك ولا في أهلك ولا في نسلك أنت منّي وأنا منك إنّما نزلت في أهل الجفاء والغلظ من قريش أصحاب البذخ والكبر، قولي: يا أبة فإنّها أحيا للقلب وأرضى للربّ».**[2]

﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ﴾ و«قد» في هذه الآية للتحقيق كما أنّ ربّ يجيء للتكثير والفعل أتى بلفظ المضارع لأنّه حكاية عن الحال الآتية والحال الحاضر مع أنّ القياس أن يكون الفعل ماضيا قال ابن عبّاس: اللواذ هو أن يلوذ بغيره فيهرب وذلك أنّ المنافقين كان يثقل عليهم خطبته فيلوذون ببعض أصحابه فيخرجون من المسجد استتاراً من غير

١ـ مِنْ هاب يهاب.

٢ـ المناقب، ج ٣، ص ١٠٢؛ وبحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٣٣.

استيذان وقيل: كان المنافقون يتسلّلون في الجهاد رجوعاً عنه فقال سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ حذّرهم الله عن مخالفتهم للرسول أو عن أمر الله ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ عقوبة في الدنيا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والآية صريحة على أنّ مخالفة الرسول حرام وغير جائز.

ثمّ نبّه سبحانه بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ له التصرّف في جميع ذلك وليس لأحد مخالفة أمره لأنّه لا يجوز للعبد مخالفة أمر مالكه ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ و«قد» هاهنا للتحقيق بمعنى ربّما وإنّما أتى بلفظ المستقبل لبيان إحاطة علمه سبحانه بما يتجدّد من أعمالهم وما عملوا من الإيمان والنفاق ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ كثير العلم يجازي كلّا على عمله.

تمّت السورة بحمد الله هنا ينتهي الجزء السابع من الكتاب، وقد حوى سور مريم، طه، الأنبياء، الحجّ، المؤمنون والنور، ونسأل المولى أن يديم التوفيق إلى ختام الأجزاء.

فهرس الأحاديث

(أ)

ابشروا فإنّ معكم خليقتين يأجوج ومأجوج ما كان في شيء إلّا كثّرتاه ٢٦٣
ابق على نفسك فإنّ لها حقاً عليك ٨٨
أتدري ما تقول هذه العصافر عند طلوع الشمس وبعد طلوعها ٤٥٣
اتّقوا الزنى فإنّ فيه ستّ خصال ٣٩١
الاتكاء في المسجد رهبانيّة العرب المؤمن مجلسه مسجده وصومعته بيته ٥٦
اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ٦٠
أجرك على قدر نصبك ٤٣١
الأحمق المولّى عليه الّذي لا يأتي النساء ٤٢٦
ادرءوا الحدود بالشبهات ٣٩٦
إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقرّبني إلى الله فلا بارك الله لي في طلوع شمسه ١٥٦
إذا اجتمع أمران فأحبّهما إلى الله أيسرهما ٣٢٩
إذا أحسن العبد الوضوء وصلّى الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها وسجودها ٣٤٣
إذا أذّنت فلا تخفينّ صوتك فإنّ الله يأجرك مدّ صوتك ٥٢
إذا أراد الله أن يبعث الخلق أمطر السماء على الأرض أربعين صباحاً ٢٦٩
إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع ٤١٨
إذا دخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النار النار قيل ٤١
إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا له ٣٧٨
إذا قام القائم سار إلى الكوفة فهدم فيها أربعة مساجد ٣٠٤

إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتّى تبكوا ٦٠
إذا كان يوم القيامة جمع الله الناس في صعيد واحد ١٥١
إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ أيّها الناس أنا جعلت لكم نسبا ٩٥
أربع لعنهم الله من فوق عرشه و أمّنت عليه ملائكته ٤٢٩
إصلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة و الصوم ٨٠
اطلبوا اسم الله الأعظم في هذه السور الثلاث ١٥٤
أعظم الناس بلاءً الأنبياء ثمّ الأولياء ثمّ الأمثل فالأمثل ٢٣١
أعظم النّاس خيانة من لم يتمّ صلاته ٣٤١
أفضل أخلاق المسلمين العفو ٤١٣
أفضل الأعمال أحمزها ٤٣٠
أفضل الذكر لا إله إلّا الله و أفضل الدعاء أستغفر الله ٩٢
أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أوصي إليك و أن أدفع إليك كتبي و سلاحي ٧٩
إنّ إسماعيل بن إبراهيم مات قبل أبيه ٥٠
إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه و إنّ ولده من كسبه ٤٧٧
إنّ الله أحلّ لكم الفروج على ثلاثة معان ٣٤١
إنّ الله أنزل من الجنّة خمسة أنهار ٣٤٨
إنّ الله تعالى خلق ملكاً من الملائكة قبل أن خلق السماوات و الأرض و هو يقول ٩٢
إنّ الله تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة ٢٨٧
إنّ الله خلق آدم على صورته ٣٥٢
إنّ الله سبحانه جعل السحاب غرابيل للمطر هي تذيب البرد لكي لا يضرّ شيئاً يصيبه ٤٥٨
إنّ الله طيّب لا يقبل إلّا طيّباً ٣٦١
أنّ الله عزّ و جلّ ابتلى أيّوب بلا ذنب فصبر حتّى عيّر و ٢٣٠
أنّ الله قرأ طه و يس قبل أن يخلق آدم عليه السلام بألفي عام ٨٥
إنّ الله لا يقبل إلّا الحسن فكيف يقبل ما استخفّ به ٥٤

إنّ الله يبتلي المؤمن بكلّ بليّة ويميته بكلّ ميتة ٢٣٠
إنّ الله يبعث شيعتنا يوم القيامة على ما فيهم من الذنوب أو غيره مبيضّة وجوههم ٢٥١
أنّ الملائكة يبشّر في القبر من كان من أهل الثواب بالجنّة حتّى يرى مكانه في الجنّة ويعلمه ٦٨
أنّ أهل الشرك لا ينصب لهم الموازين ولا ينشر لهم الدواوين ٢٠٥
إنّ أيوب مع جميع ما ابتلي به لم ينتن له رائحة ولا قبحت له صورة ٢٣٠
إنّ أيوب عليه السلام ابتلي سبع سنين بغير ذنب ٢٣٠
إنّ جبرئيل لما نزل ليذهب بموسى إلى الطور أبصره السامريّ من بين النّاس ١٤٥
أنّ داود عليه السلام خرج يقرء الزبور، وكان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر إلّا جاوبت ٢٢١
أنّ داود عليه السلام صلّى ركعتين فسبّح في سجوده فلم يبق شجر ولا مدر إلّا سبّحوا معه ٢٢٢
إنّ عمود الدين الصلاة وهي أوّل ما ينظر فيه من عمل ٥٤
إنّ في القرآن آية كان عليّ بن أبي طالب يعرف قاتله بها ٣٠٧
إنّ قول لا إله إلّا الله والله أكبر وسبحان يحطّ الخطايا حطّاً ٧٢
إنّ لله تعالى تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنّة ٩٥
إنّ معاوية أوّل من علّق على بابه مصراعين بمكّة فمنع حاجّ بيت الله ٢٨٣
أنا الكافي الهادي الوليّ العالم الصادق الوعد ٦
أنا أوّل من يجثو للخصومة بين يدي الله ٢٧٨
انتظار الصلاة بعد الصلاة كنز من كنوز الجنّة ٥٤
إنّكم لا تكونون صالحين حتّى تعرفوا ولا تعرفون حتّى تصدّقوا ١٣٢
إنّما الخشوع لمن تمسكن وتواضع ٢٣٥
إنّما أنا رحمة مهداة ٢٥٧
إنّما بعثت رحمة ولم أبعث عذاباً ٢٥٦
إنّما شفاعتي لأهل الكبائر فأمّا المحسنون منهم فما عليهم من سبيل ١٩٠
إنّه ما من نبيّ تمنّى مفارقة ما يقاسيه من نفاق قومه وعقوقهم ٣١٣
إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض ٤٦٩

إنّي لا أجمع بين خوفين ولا بين أمنين إن خافني في الدنيا أمنته في الآخرة ٤٦٧

إنّي لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنّة ٢٦٣

إنّي لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنّة ٢٦٣

إنّي لم أومر بالقتال ٢٩٧

أوحى الله إلى إبراهيم أنّك خليلي فحسّن خلقك ٤٦

أوحى الله إلى داود عليه السلام أن اتّخذ وصيّاً من أهلك ٢٢٠

(ب)

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به عليّ بن أبي طالب ٧٩

بعثت أنا والساعة كهاتين ١٧٢

بعثت رحمة للعالمين ٨٨

بقي أيّوب في البلاء ثماني عشر سنة ٢٣٢

بنا عرف الله ولولانا ما عرف الله ١٢٣

(ت)

تعاهدوا نعالكم عند أبواب مساجدكم ٥٦

(ث)

ثلاث مواطن تذهل فيها كلّ نفس ٣٨٠

ثلاثة على كثبان من مسك لا يحزنهم الفزع الأكبر ولا يكترثون للحساب ٢٥١

(ح)

حبّب إليّ من دنياكم ثلاث ٤٣١

حصّنوا أموالكم وفروجكم بتلاوة سورة النور ٣٨٧

حضر الإنسان الموت جمع كلّ شيء كان يمنعه من حقّه بين يديه فيقول عنده ٢٧٧

(خ)

خير الدعاء الخفيّ وخير الرزق ما يكفي ٨

(س)

السرّ ما أخفيته في نفسك وأخفى ما خطر ببالك ثمّ نسيته ٨٩

(ش)

شراركم عزّابكم ٤٢٩

(ص)

صلاة فريضة خير من عشرين حجّة ٥٢

(ع)

عدلت شهادة الزور بالشرك بالله ٢٩١
عقوبة المعصية ثلاثة ١٦١

(ف)

فريضة على كلّ مسلم أن يقول قبل طلوع الشمس وقبل غروبها عشر مرّات ١٦٤

(ق)

القاذف يجلد ثمانين جلدة ولا تقبل له شهادة أبداً إلّا بعد التوبة ٣٩٧
القرآن نزل بحزن فاقرؤوه بحزن ٦٠

(ك)

كفّن رسول الله ﷺ في ثوبين سحوليّين ١٧٧
كلّ حسب ونسب منقطع يوم القيامة إلّا حسبي ونسبي ٣٨٠
كلّهم كانوا في الضلالة الّذين لا يؤمنون بولاية عليّ ٧٢

(ل)

لا تتّخذوا الدنيا ربّاً فتتّخذكم عبيداً ١٦٦
لا تدعوا قراءة سورة طه فإنّ الله يحبّها و يحبّ من قرأها ١٧٠
لا تدعوا قراءة طه فإنّ الله تعالى يحبّها و من قرأها ٨٥
لا تقبل الصلاة إلّا بأداء الزكاة ٣٢٠
لا يحلّ للمرأة أن ينظر عبدها إلى شيء من جسدها إلّا إلى شعرها غير متعمّد لذلك ٤٢٥
لا يحلّ مال امرء مسلم إلّا بطيبة نفسه ٤٧٨
لا يرجم الرجل ولا المرأة حتّى يشهد عليهما أربعة شهداء على الجماع ٣٨٩
لا يستر عبد مؤمن عورة عبد مؤمن إلّا ستره الله يوم القيامة ٤١٠
لا يقرأ أهل الجنّة من القرآن إلّا يس وطه ٨٥
لا يكون العبد ذا فضل حتّى يصل من قطعه و يعفو عمّن ظلمه و يعطي من حرمه ٤١٣
لا يلج النار من بكى من خشية الله ٦٠
لا يؤمن العبد حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه من الخير ٤١٠
لقد قام رسول الله عشر سنين على أطراف أصابعه حتّى تورّمت قدماه ٨٧
للحاجّ الراكب بكلّ خطوة يخطوها راحلته سبعون حسنة ٢٨٧
للزوج ما تحت الدرع وللابن والأخ ما فوق الدرع ٤٧٤
للزوج ما تحت الدرع وللمحرم كالابن والأخ ما فوق الدرع ٤٢٢
لم يستشف النفساء بمثل الرطب ٢٦
ليس المؤمنون على الحقيقة إلّا الّذين صدقوا بتوحيد الله وعدله وأقرّوا بصدق رسوله ٤٨١
ليس للعبد من صلاته إلّا ما عقل .... ٣٣٥، ٣٣٨

(م)

ما أوذي نبيّ مثل ما أوذيت ٣٠٠
ما من أحد يرتكب كبيرة من المعاصي وهو يعلم أن سيعاقب عليها ١٩٠
ما من صلاة يحضر وقتها إلّا نادى ملك بين يدي الله ٥٤

ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلّا استجيب له ٢٤٢
ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلّا ساءه ذلك وندم عليه ١٩٠
ما منكم من أحد إلّا له منزلان ٣٤٢
المساجد بيوت الله في الأرض وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض ٤٤٨
المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ٤١٠
المشتاق لا يشتهي طعاماً ولا يلتذّ شراباً ولا يستطيب رقاداً ١٣٤
من أحبّ فطرتي فليستنّ بسنّتي ومن سنّتي النكاح ٤٢٩
من أدمن قراءة سورة مريم لم يمت في الدنيا حتّى يصيب منها ما يغنيه في نفسه ٥
من أسرج في مسجد من مساجد الله سراجاً لم يزل الملائكة ٥٦
من أصبح وهمّه غير الله فليس من الله في شيء ١٤١
من ترك التزويج مخافة العيلة فقد أساء الظنّ بربّه ٤٣٢
من جاءته رخصة فرغب عنها كلّف يوم القيامة أن يحمل تنّين حتّى يقضي بين الناس ٣٢٨
من جلس ما بين أذان المغرب والإقامة كان كالمتشحّط بدمه في سبيل الله ٥٣
من سرّته حسنة وساءته سيّئة فهو مؤمن ١٩٠
من سمع النداء فلم يجبه من غير علّة فلا صلاة له ٥٥
من قام في السوق فقال ٩٢
من قبل الله منه صلاة واحدة لم يعذّبه ومن قبل منه حسنة لم يعذّبه ٥٤
من قرأ سورة الحج أعطي من الأجر كحجّة حجّها ٢٦١
من قرأ سورة المؤمنين بشّرته الملائكة يوم القيامة بالروح والريحان ٣٣٣
من قرأ سورة المؤمنين ختم الله له بالسعاده ٣٣٣
من قرأ سورة النور أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كلّ مؤمن ومؤمنة ٣٨٧
من كان القرآن حديثه والمسجد بيته بنى الله له بنياناً في الجنّة ٥٦
من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلّا بعداً ٣٣٥
من لم يحسن وصيّته عند الموت كان نقصاناً في مروته ٧٨

من لم يقبل عذر المتنصّل كاذباً كان أو صادقا فلا يرد على حوضي يوم القيامة ٤١٣
من مشى إلى مسجد لم يضع رجلاً على رطب ولا يابس إلّا سبّحت له الأرض ٥٦
من وقّر بنخامته المسجد لقى الله يوم القيامة ضاحكاً ٥٦
المؤذّن يغفر له مدّ صوته ٥١

(ن)

نحن المشكاة فيها المصباح محمّد ﷺ ٤٤٦
نحن أهل الذكر ونحن المسئولون ١٧٥
نحن أهل الذكر ١٧٥
نحن وبنو أميّة نحن قلنا صدق الله ورسوله وقالت بنو أميّة كذب الله ورسوله ٢٧٨
النكاح سنّتي فمن رغب عن سنّتي فليس منّي ٤٣١
نور العلم في صدر النبيّ ﷺ هو المصباح ٤٤٦

(و)

والّذي نفسي بيده إنّه ليسلّط عليه في قبره تسعة وتسعون تنّينا ١٦١
والله الله في النساء وما ملكت أيمانكم ولا تخافنّ في الله لومة لائم ٨٠
والله الله في بيت الله فلا يخلونّ منكم ما بقيتم ٨٠
والله ما أخاف عليكم إلّا البرزخ وأمّا إذا صار الأمر إلينا فنحن أولى بكم ٢٧٨
وعليكم يا بنيّ بالتواصل والتباذل والتبارر وإيّاكم والنفاق والتدابر والتقاطع والتفرّق ٨١
ولا تتركنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولّي الله الأمر شراركم وتدعون فلا يستجاب لكم ٨٠
ويدخل من أمّتي سبعون ألفاً الجنّة بغير حساب ٢٦٣

(ي)

يا بني عبد مناف من ولّى منكم من أمور الناس شيئاً فلا يمنعنّ عن أحد أطاف بهذا البيت ٢٨٢
يا عليّ أنت وشيعتك على الحوض تسقون من أحببتم ٢٥١
يا معاشر قرّاء القرآن اتّقوا الله عزّ وجلّ فيما حمّلكم من كتابه ٤٦٦

يتكلّم الرجل بالتسبيحة والتحميدة والتكبيرة ويتنحنح على أهل البيت ٤١٧
يحتج على الله يوم القيامة ثلاثة ١٦٩
يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرّة من الإيمان .... ١٢٥،٩١
ينادي مناد يوم القيامة ألا من كان له أجر على الله فليقم فلا يقوم إلّا أهل العفو ٤١٣
ينادي مناد يوم القيامة يسمع الخلائق ١٦٦

المصادر

١ـ القرآن الكريم، كتاب الله تبارك وتعالى الحي القيوم.

٢ـ الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين عليه السلام (السجاد) (ت ٩٤ هـ ق)

٣ـ الاحتجاج، الطبرسي أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب (ت ٥٨٨ هـ ق).

٤ـ أحكام القرآن، الجصاص، أبي بكر أحمد بن علي الرازي.

٥ـ الاختصاص، الشيخ المفيد، أبو عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣ هـ ق).

٦ـ أسباب النزول، الواحدي، أبوالحسن علي بن أحمد بن محمّد النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ ق).

٧ـ الإستبصار فيما اختلف من الأخبار، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).

٨ـ الإستبصار في نسب الصحابة الأنصار، عبدالله بن أحمد بن موفق الدين ابن قدامة (ت: ٦٢٠ هـ ق).

٩ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، إبن الأثير الجزري، عزالدين علي بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن عبدالكريم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ ق).

١٠ـ إعانه الطالبين علي حل الفاظ فتح المعين، بكري المكي ابن السيد محمد شطا عمر الله الدمياطي.

١١ـ الألفية والنفلية، الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي.

١٢ـ الأمالي الشيخ الطوسي، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).

١٣ـ الأمثال في القرآن الكريم، ابن قيم الجوزية.

١٤ـ بحار الأنوار، المجلسي، محمّد باقر محمّد تقي (ت ١١١٠ هـ ق).

١٥ـ البداية والنهاية، ابن كثير، ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ ق).

١٦ـ بصائر الدرجات في فضائل آل محمد عليهم السلام، الصفار، محمد بن حسن (ت ٢٩٠ هـ ق).
١٧ـ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ ق).
١٨ـ تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ ق).
١٩ـ تاريخ (الرسل والأمم والملوك)، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ ق).
٢٠ـ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي (ت ٥٧١ هـ ق).
٢١ـ التبيان في تفسير القرآن، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).
٢٢ـ تحرير الأحكام الشرعية على مذهب الامامية، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـ ق).
٢٣ـ التحصين في صفات العارفين، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق).
٢٤ـ تحف العقول، ابن شعبة، أبو محمّد الحسن بن علي بن الحسين الحرّاني الحلبي (ت ٣٨١ هـ ق).
٢٥ـ تحفة الأحوذي (شرح جامع الترمذي)، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري الهندي.
٢٦ـ تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـ ق).
٢٧ـ تذكرة الموضوعات، أبو الفضل محمد بن طاهر بن أحمد المقدسي.
٢٨ـ تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، محمد بن محمد العمادي أبو السعود.
٢٩ـ تفسير البغوي (معالم التنزيل فى تفسير القرآن)، حسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦ هـ ق).
٣٠ـ تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي (ت ٦٩١ هـ ق).
٣١ـ تفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن)، ابو اسحاق احمد بن ابراهيم الثعلبى النيشابوري (ت ٤٣٧ هـ ق).
٣٢ـ تفسير الجلالين، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي.
٣٣ـ تفسير روح المعانى، ابو الفضل، شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ ق).
٣٤ـ تفسير الرازي (روض الجنان وروح الجنان فى تفسيرالقرآن)، ابوالفتوح حسين بن على الرازي.

٣٥ـ تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، نصر بن محمد بن احمد السمرقندي.
٣٦ـ التفسير الصافي، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).
٣٧ـ تفسير العياشي، ابن عياش، أبو النصر محمّد بن المسعود بن محمّد التميمي الكوفي السلمي السمرقندي (من أعلام القرن الثالث الهجري).
٣٨ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ ق).
٣٩ـ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، القرطبي، أبو عبدالله محمّد أحمد الأنصاري (ت ٦٧١ هـ ق).
٤٠ـ تفسير القمي، القمي، أبو الحسن علي بن ابراهيم بن هاشم (ت ٣٠٧ هـ ق).
٤١ـ تفسير الكشاف (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)، ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨ هـ ق).
٤٢ـ التفسير المنسوب الي الإمام العسكري عليه السلام.
٤٣ـ تفسير جوامع الجامع، فضل بن حسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ ق).
٤٤ـ تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، محمد بن محمد رضا القمي المشهدي.
٤٥ـ تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (ت ١١١٢ هـ ق).
٤٦ـ تنبيه الخواطر ونزهة النواظر المعروف بمجموعة ورام، ورام بن أبي فراس (ت ٦٠٥ هـ ق).
٤٧ـ تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبيين، شرف الاسلام بن سعيد المحسن بن كرامة (ت ٤٩٤ هـ ق).
٤٨ـ تنزية الأنبياء، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).
٤٩ـ تهذيب الأحكام، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـق).
٥٠ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ابو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ ق)
٥١ـ ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق)
٥٢ـ جامع أحاديث الشيعة، السيد حسين البروجردي، (ت ١٣٨٠ هـ ق)
٥٣ـ جامع الأخبار، محمد بن محمد الشعيري (من اعلام القرن السادس الهجري).

٥٤ـ جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ ق).
٥٥ـ جامع السعادات، العلامة النراقي، محمد مهدي بن أبي ذر (ت ١٢٠٩ هـ ق).
٥٦ـ جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري الدوسي (ت ٣٢١ هـ ق).
٥٧ـ الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، محمد بن حسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).
٥٨ـ جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، محمد حسن بن باقر النجفي (ت ١٢٦٦ هـ ق).
٥٩ـ الحبل المتين في أحكام الدين، الشيخ البهائي، الشيخ محمد بن حسين العاملي (ت ١٠٣٠ هـ ق).
٦٠ـ الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، الشيخ يوسف البحراني (ت ١١٨٦ هـ ق).
٦١ـ حلية الأبرار في أحوال محمّد وآله الأطهار عليهم السلام، السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧ هـ ق).
٦٢ـ الخصال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
٦٣ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ ق).
٦٤ـ الدعوات (سلوة الحزين)، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ ق).
٦٥ـ رسائل المرتضى، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).
٦٦ـ روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، محمد بن احمد الفتال النيسابوري (ت ٥٠٨ هـ ق).
٦٧ـ زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ ق).
٦٨ـ زبدة البيان في أحكام القرآن، المقدس الأردبيلي، احمد بن محمد (ت ٩٩٣ هـ ق).
٦٩ـ سعد السعود، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
٧٠ـ سنن ابن ماجة، ابن ماجة، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ ق).
٧١ـ سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشير بن سداد الأزدي (ت ٢٧٥ هـ ق).
٧٢ـ السنن الكبرى، البيهقي، أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨ هـ ق).

٧٣ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمّد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ ق).

٧٤ـ السيرة الحلبية (انسان العيون في سيرة الأمين والمأمون)، الحلبي، علي بن إبراهيم الحلبي الشافعي.

٧٥ـ شجرة طوبى، محمد مهدي الحائري.

٧٦ـ شرح احقاق الحق، السيد شهاب الدين المرعشي النجفي (ت ١٤١١ هـ ق).

٧٧ـ شرح أصول الكافي، المولى محمد صالح المازندراني (ت ١٠٨١ هـ ق).

٧٨ـ شرح الأزهار (المنتزع المختار من الغيث المدرار)، أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠ هـ ق).

٧٩ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، عبدالحميد بن هبة الله بن محمّد بن الحسين المدائني المعتزلي (ت ٦٥٥ هـ ق).

٨٠ـ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، الحاكم الحسكاني، عبيدالله بن عبدالله بن أحمد الحذاء الحنفي النيسابوري (من أعلام القرن الخامس الهجري) (المتوفى بعد سنة ٤٧٠ هـ ق).

٨١ـ صحيح البخاري، البخاري، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن مغيرة بن بودزيه الجعفي (ت ٢٥٦ هـ ق).

٨٢ـ صحيح مسلم، القشيري النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ ق).

٨٣ـ الطبقات الكبرى، ابن سعد الواقدي، محمّد بن سعد بن منيع الزهري الكاتب (ت ٢٣٠ هـ ق).

٨٤ـ عدة الداعي ونجاح الساعي، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق)

٨٥ـ علل الشرايع، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٨٦ـ عوالي اللآلي العزيزيّة، ابن أبي جمهور، محمّد بن علي بن ابراهيم الاحسائي (من أعلام القرن التاسع الهجري).

٨٧ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٨٨ـ عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي (من اعلام القرن السادس الهجري).

٨٩ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، العسقلاني، أحمدبن علي بن حجر (ت ٨٥٢ هـ ق).

٩٠ـ الفتوحات المكية، محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي (ت ١٢٤٠ هـ ق).

٩١ـ فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).

٩٢ـ الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة(عليهم السلام)، ابن الصباغ، علي بن محمّد بن أحمد المالكي المكّي (ت ٨٥٥ هـ ق).

٩٣ـ فقه القرآن، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ ق).

٩٤ـ فلاح السائل ونجاح المسائل، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).

٩٥ـ فيض القدير (شرح الجامع الصغير)، المناوي، أبو زكريّا يحيى بن محمّد عبدالرؤوف (ت ١٠٣١ هـ ق).

٩٦ـ قواعد المرام في علم الكلام، ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت ٦٩٩ هـ ق).

٩٧ـ الكافي، الكليني أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن اسحاق الرازي (ت ٣٢٨ هـ ق).

٩٨ـ كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس، العجلوني، اسماعيل بن محمد (ت ١١١٩ هـ ق).

٩٩ـ كشف الغطاء عن مبهمات شريعة الغراء، كاشف الغطاء، جعفر بن خضر (ت ١٢٢٧ هـ ق).

١٠٠ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين (ت ٩٧٥ هـ ق).

١٠١ـ كنز الفوائد، محمد بن علي الكراجكي (ت ٤٤٩ هـ ق).

١٠٢ـ كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق، عبدالرؤف بن تاج العارفين المناوي الحدادي (ت ١٠٣١ هـ ق).

١٠٣ـ لسان العرب، ابو الفضل محمد بن مكرم، ابن منظور الافريقي المصري (ت ٧١١ هـ ق).

١٠٤ـ لسان الميزان، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢ هـ ق).

١٠٥ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل (ت ٥٤٨ هـ ق).

١٠٦ـ المجموع في شرح المهذب، يحيي بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ ق).
١٠٧ـ المحاسن، ابو جعفر احمد بن محمد بن خالد البرقي، (ت ٢٨٠ هـ ق).
١٠٨ـ المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).
١٠٩ـ المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت ٦٠٦ هـ ق).
١١٠ـ المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦ هـ ق).
١١١ـ مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠ هـ ق).
١١٢ـ مصباح المتهجد، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٣ـ المصنف في الأحاديث والآثار، ابن ابي شيبة، أبوبكر عبدالله بن محمّد بن ابراهيم بن عثمان العنبسي الكوفي (ت ٢٣٥ هـ ق).
١١٤ـ مكارم الأخلاق، ابو نصر رضي الدين حسن بن فضل الطبرسي (من اعلام القرن السادس الهجري).
١١٥ـ الملاحم والفتن، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٦ـ من لايحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
١١٧ـ مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ابو جعفر رشيد الدين محمّد بن علي السروي المازندراني (ت ٥٨٨ هـ ق).
١١٨ـ الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ ق).
١١٩ـ النصائح الكافية، السيد محمد بن عقيل بن عبد الله بن عمر بن يحيى العلوي (ت ١٣٥٠ هـ ق).
١٢٠ـ وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).

المحتويات

سورة مريم.. ٥

سورة طه ٨٥

سورة الأنبياء.. ١٧١

سورة الحج ٢٦١

سورة المؤمنون ٣٣٣

سورة النور... ٣٨٧

فهرس الأحاديث... ٤٨٥

المصادر ٤٩٥

المحتويات.. ٥٠٣